

موسوعة
بطل العلقم

العباس الأكبر ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام
إن لعلي العباس درجة يفبطه بها جميع الشهداء
إوتاهم زينة القابريه عليه السلام

تأليف

سماعة آية الله المحقق الكبير
الشيخ عبد الواحد المظفر (قدس سره)

الجزء الثاني

مؤسسة الأعلمي للطبوعات
بيروت - لبنان

مؤسسة الشيخ المظفر الثقافية
العراق - النجف الأشرف

موسوعة

بطلان العالم العلقبي

العباس الأكبر ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

إن لعلي العباس درجة يفبطه بها جميع الشهداء

الإمام زين العابدين عليه السلام

يتضمن هذا الجزء ولادة العباس الأكبر، وكناه، وألقابه
القديمة والحديثة - العامية - وصفاته الخلقية والخلقية،
وما يناسب ذلك من مكارم العرب، وهذا السفر فلسفي
علمي من ناحية، وتاريخي أدبي من ناحية أخرى.

تأليف،

سماحة آية الله المحقق الكبير

الشيخ عبد الواحد المظفر (قدس سره)

الجزء الثاني

مؤسسة الأعلمي للطبوعات
بيروت - لبنان

مؤسسة الشيخ المظفر الثقافية
العراق - النجف الأشرف

المكتبة الألكترونية الشاملة
لرفع ونشر الكتب pdf
(الأدارة: يوسف الرميض)

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

جميع حقوق الطبع محفوظة لمؤسسة المظفر الثقافية في النجف الأشرف ويحظر طبع
أو نسخ أو إعادة صف حروف هذا الكتاب إلا بإذن وموافقة خطية مسبقة من
الناشر.

عنوان الناشر: العراق - النجف الأشرف - مؤسسة الشيخ المظفر الثقافية
ثريا (٠٠٨٨٢١٦٢١٦٦٨٤٨) / نقال (٠٧٨٠١٢٨٦٢٩٨) (٠٧٨٠١١٢٠٣٩٩)
(٠٧٨٠٨٩٣٨١٦٢) (٠٧٧٠٦٨٢٢١٢٥)

الموقع على الانترنت:

E-mail: Al-Mudhafar@hotmail.com



طبع على مطابع

Published by Aalami Est.

Beirut Airport Road

Tel:01/450426 Fax:01/450427

P.O.Box.7120

E-mail: alaaalami@yahoo.com

http://www.alaalami.com

مؤسسة الاعلمي للمطبوعات

بيروت - طريق المطار - قرب ستر زعرور

هاتف: ٠١ / ٤٥٠٤٢٦ - فاكس: ٠١ / ٤٥٠٤٢٧

صندوق بريد: ٧١٢٠

الجزء الثاني

يتضمن هذا الجزء ولادة العباس الأكبر، وكناه،
والقابه القديمة والحديثة - العامية - وصفاته
الخلقية والخلقية، وما يناسب ذلك من مكارم
العرب. وهذا السفر فلسفي علمي من ناحية،
وتاريخي أدبي من ناحية أخرى.

فعلى ضفاف العلقمي بكربلاء	بطل العروبة بدر هاشم قد هوى
وأبو الأئمة قام يعدو نحوه	بالسيف صلناً عندما سقط اللوى
وسقى المهند من نجيع رقابهم	ودم البغاة لسيفه الصادي روى
إن عاد محني الأضالع باكباً	نحو المخيم وهو منهّد القوى
لا غرو إذ مفقوده أسمى فتى	فقد الكرام يثير عاصفة الجوى
والقبة الزرقاء تجري أدمعاً	حمرأ ولكن فيه تُحسد نينوى

المؤلف

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على محمد وآله الغر الميامين

إن الذات القائمة بصفاتها، الرائقة شمائلها ومزايا ذات العباس الأكبر ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليهما السلام». ليعيا البليغ الحاذق عن تحديد أخلاقها وصفاتها؛ لأن الصفات التي ضمنها هيكله القدسي واحتوى عليها قلبه المصفى عن عامة النقائص لأنها قد اقتطعت من هيكل العصمة الأقدس، وقال الإمام الأزهري الذي صفاه الله في قالب الأنوار القدسية وبوتقة الأسرار العلوية، والغصن لا شك يستمد من الدوحة، والفرع يتفیی بظل الجرثومة.

فعلي وصي الرسول الأعظم وسيد أوصياء الأنبياء أدهش العقلاء في صفاته ومزاياه، وحير الباب المفكرين في حالاته فتهاهت فيه طوائف، وضلت عنه آخرون، وأعتدل فيه فريق بين الإفراط والتفريط وهما النصب والمغالاة؛ فالمعتدلون المقتصدون في نعت حقيقته وتوصيف ذاته وتحديد شخصيته بما لها من مزايا الكمالات ليقفون موقف القصور والعجز، فلذا يقول فيلسوف الفقهاء فيه: ماذا أقول بمن حطت له قدم في موضع وضع الرحمن يمناه إن قلت ذا بشر فالعقل بمنعي وأختشي الله من قولي هو الله ويقول فقيه الفلاسفة فيه:

تحير بمعناك عشر العقول ولولا ابن عمك كنت الرسول
ولولاك لا زوج يغشى البتول ولولا الغلو لكنت أقول
جميع صفات المهيمن لك

وأبو الفضل العباس الأكبر وراث تلك الشمائل العلوية، وحائز جلّ تلك الصفات الحيدرية؛ فالبطولة والفصاحة والعلم والسخاء والنجدة والمهابة والصلاح والتقوى والزهد والبصيرة وقوة الايمان والجمال والصحابة والقوة والذكاء وما سيمر عليك من نعوت فائقة لخلقه وخلقه.

فلذلك أفردنا مجلداً خصصناه للبحث عن تلك المزايا اللامعة والصفات الرائعة بحثاً دقيقاً ونقدم أمام كل موضوع منه ما للعرب من الأخلاق الجميلة فإن العرب هم أهل المكارم دون سائر الشعوب خصيصة أختصهم الله بها من بين الأمم فإن الحمية والغيرة والمروءة والسخاء والحياء والانفة وأمثال ذلك لا تجدها إلا في العرب وقد صرح بذلك الخفاجي في (سر الفصاحة) وجميل مدور في (حضارة الإسلام في دار السلام) فإذا قست أخلاق العرب الحميدة إلى أخلاق أبي الفضل العباس ظهرت لك فضيلة بطل العلقمي على من سواه من عرب الجاهلية والإسلام.

وعرفت أيضاً ما لهذه المزايا عند العرب من المكانة المكيمة والمحل السامي إذ الأخلاق كلها سواء كانت من الغرايز أو المواهب أو من المكتسبات بالمساعي هي نوعان: نوع يعد من الفضائل عند جميع البشر كالعلم والشجاعة والذكاء وأمثالها، نوع يعد من فضيلة عند جميع البشر كالعلم والشجاعة والذكاء وأمثالها، ونوع هو فضيلة عند العرب خاصة وقد زهد فيه عامة الشعوب كالجود والإباء والحياء والغيرة على الحريم وما شالكها.

والعرب وإن كانوا فطريين في العصر الجاهلي ولكنهم مدنيون في العصر الإسلامي وقد أدركوا بالغريزة الفطرية الأولى في دور الهمجية وبالتعليم الإسلامي ما هو نبيل من الأخلاق عند العقل السليم وعوفوا ما هو شريف في نفسه بالإدراك الجبلي والشعور الفطري وقد ضربوا الأمثال بأفذاذ من رجالهم شهروا ببعض هذه الخصال فجعلوا (حاتماً) الطائي مثلاً للسخاء، و(ملاعب الاسنة) العامري مثلاً للفروسية، و(الأحنف) التميمي مثلاً للعفو مما سيمر عليك من أمثالهم فما ظنك بمن جمع هذه المزايا كلها واحتوى على التراث العربي أجمع، فكيف لا تجعله مثلاً للكمالات إذا الفرد الواحد كان مثلاً للخصلة الواحدة.

للمؤلف:

لقد جمع العباس كل فضيلة تزان بها عرب المقاول والعجم
وآل علي المرتضى خيرة الورى لهم حكمة التبليغ للحق والحكم
سما بمعاليه أبو الفضل واعتلا ألا كل من يحوي صفات العلي يسمو
له الجود والإقدام والحلم والتقى وقد زانه الإيمان والحكم والعلم
قد كنا خصصنا الجزء الأول لنسب العباس «عليه السلام» ولما طال الكتاب

آخرنا تراجم إخوته غير الحسن والحسين «عليهما السلام» إلى الجزء الثالث^(١) ونحن نذكر الكنى والألقاب والشمائل تفصيلاً راجين من الله تعالى المعونة والتوفيق، آمين.

المؤلف

عبد الواحد ابن الشيخ أحمد آل المظفر النجفي

(١) نقلنا إخوة العباس الأكبر «عليه السلام» إلى آخر الجزء الأول من هذا الكتاب - كما عرفت - حيث موضع تسلسلهم من البحث - الناشر - .

ولادة العباس الأكبر

«عليه السلام»

ومقدار سنه

اختلف المؤرخون في مقدار سنه :

قال السيد الداودي في عمدة الطالب: قتل العباس «عليه السلام» وله ٣٤ سنة، إنتهى. هذا القول هو المشهور وهو الأصوب إن شاء الله فتكون ولادته «عليه السلام» سنة ٢٦ من الهجرة فيكون سنة عند وفات أبيه أمير المؤمنين «عليه السلام» دون البلوغ؛ لأن البلوغ الشرعي عند الشيعة خمسة عشر عاماً وعند أهل السنة سبعة عشر أو ثمانية عشر، ولأجل هذا قال ابن الأثير المؤرخ الشافعي في أسد الغابة في مقتل أمير المؤمنين «عليه السلام» في ذكر ما صنعه الحسن والحسين «عليهما السلام» بعدو الله ابن ملجم حيث أحرقوه بالنار وهذا نصه^(١): فأحرقوه بالنار والعباس بن علي «عليهما السلام» يومئذ صغير فلم يستأن به بلوغه، انتهى.

ومثله نقل سبط ابن الجوزي الحنفي في التذكرة^(٢) عن ابن سعد في كتاب الطبقات، وبعارض هذا القول قول من قال إن العباس «عليه السلام» روى عن أبيه وإنه شهد صفين محارباً كما نص عليه الخوارزمي في المناقب والقائني في الكبريت الأحمر، وسيجيء ذكر ذلك، وقول الطبري أن أم البنين والدة العباس «عليه السلام» أول من تزوجها أمير المؤمنين بعد وفاة الزهراء «عليها السلام» كما أنه أكبر أولاد أم البنين، وعليه فيكون والده محمد بن الحنفية.

والجواب عن هذه الأمور كلها سهل: أما تحمل الرواية فإن ذكاء العلوي وفطنته قد أهله للحفظ والضبط والإتقان فيتحمل الرواية وإن كان دون البلوغ، وكذلك أمر الحرب فإن المراهق منهم يكافئ البالغين ويتفوق عليهم، وإن أمير المؤمنين يحضر المراهقين من أولاده الحرب وربما حارب المراهق كما ثبت أن محمد بن سعيد بن قيس الهمداني شهد صفين مراهقاً مع أبيه وقاتل يوم الماء وقاتل رجالاً واستنقذ بعض أصحابهم وملاً قربة ولما سمع أبوه عنفه ومنعه بعد ذلك أن

(١) الكامل في التاريخ ٣٥ / ٤.

(٢) تذكرة الخواص: ص ١٠٣.

يشهد حرباً^(١) والعباس الأكبر أشجع من محمد بن سعيد بلا كلام.

وأما الولادة فيجوز أن تتأخر ولا ملازمة بين تزويج المرأة وولادتها فإن البكر كثيراً ما يتأخر حملها فتحصل أن المعتمد عندي ما قاله صاحب العمدة^(٢).

وأما اليوم الذي ولد فيه فلم أجد فيه نصاً وإنما ينقل الفاضل المعاصر الشيخ جعفر النقدي في كتابه (زينب الكبرى) عن الفاضل المعاصر الشيخ محمد علي الأردبادي أنه رأى في كتاب فارسي يسمى (أنيس الشيعة) لمؤلفه السيد محمد عبد الحسين ابن السيد محمد عبد الهادي الهندي من معاصري الشاه فتح علي وأهدى له الكتاب سنة ١٣٤٤هـ يذكر أن ولادة العباس الأكبر «عليه السلام» في يوم الجمعة رابع شهر شعبان سنة ٢٦ إلخ^(٣)، وهذا القول إن لم يكن من الخلط بولادة الحسين «عليه السلام» في الثالث من شعبان نهار الجمعة وإن ناقله الاصل أي الهندي أخذه عن مصدر وثيق فذاك وإلا فالتوقف عندي له وجه لأن معاصر الشاه فتح علي من المتأخرين وهذه الأمور إنما نقلد فيها القدماء ونحفظ لفضيلة الاستاذ الاستربادي فضيلة الارشاد إلى المصدر وإن كان متأخراً.

نشأة العباس الأكبر وتربيته:

لا شك إنه «عليه السلام» تربى في أحضان الإمامة ونشأ في حجور العصمة، وشبّ مرتضعاً درّ البنوة وشارباً لبان الوحي الإلهي، ونشأ في مدينة النبي طيبة مدينة الوحي عاصمة النبوة لا خلاف في ذلك، إنما هاجر مع أبيه «عليه السلام» إلى العراق مدة خلافته ثم رجع مع أخويه الإمامين «عليهما السلام» وأقام في خدمتها حتى خرج مع أخيه الحسين «عليه السلام» إلى العراق فاستشهد ب كربلاء.

صفات العباس النفسية وهي الأخلاق:

فالعباس الأكبر بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» جامعة الفضائل وكلية الكمالات بما أن نفسه الهاشمية منطبعة بمكارم الأخلاق والشيم بحسب فطرتها وأصل خلقتها ولا يشركهم - يعني بني هاشم - في هذه الفضيلة أحد من الناس وقد أوضح لنا هذه الحقيقة سيدنا وإمامنا السجاد زين العابدين بن الحسين «عليهما السلام» بقوله بخطبته المشهورة في مجلس اللعين يزيد بن معاوية: «أيها الناس! أعطينا ستاً وفضلنا بسبع... إلخ»، والدلالة عليه أيضاً وجدانية وشاهدها معها إذا

(١) راجع كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم.

(٢) أي أنه عليه السلام ولد سنة ٢٦ من الهجرة - الناشر -.

(٣) زينب الكبرى: ص ٢٩.

لا يوجد في الهاشميين بخيل ولا جبان ولا عي وإن وجد فالعلة من جهة الأمهات، وقد قال معاوية بن أبي سفيان الخصم الألد لبني هاشم (إذا لم يكن الهاشمي جواداً لم يشبه أصله) وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام»: (نحن أفصح وأسمح وأحمى لما وراء ظهورنا من بني أمية).

فالعباس الشهيد «عليه السلام» من لباب بني هشام وصميم عبد مناف وقد زاده فضلاً على فضله صحبتة لأهل الفضائل وخدمته لسادات أرباب المكارم، فقد قضى حياته وأفنى عمره في صحبة أكرم الخلق بعد النبي ﷺ شمائلًا وشيمًا، وأفضلهم أخلاقًا ومزايا، وأكملهم طباعاً وسجايا، وتزداد المرأة بالجلاء صفاء، والسيف بالصقالة رونقاً؛ فأمرير المؤمنين وهو والده الأكرم وأبوه سيد أرباب الفضائل، والحسن والحسين «عليهما السلام» أخواه خير الإخوة وأفضل الأشقاء، وقد شهد لهما رسول الله ﷺ في تشبههما به وهو ﷺ على خلقٍ عظيم فأكتسب العباس بصحبته زيادة على ما في جبلته وفطرته من سجايا الخير وشيم الصلاح ما امتاز به على عامة أرباب الأخلاق الحميدة والصفات الكريمة.

وفي العباس من كرم السجايا كثير ليس يحصر في مقال وفاء نجدة زهد وعلم وإيثار وصدق في المقال عفاف ظاهر حلم وجود وبأس صادق عند النزال

لقد كان من عطف المولى سبحانه وتعالى على وليه المقدس سلالة الخلافة الكبرى سيد الأوصياء أن جمع فيه صفات الجلالة من بأس وشجاعة وإباء ونجدة وخلال الجمال من سؤدد وكرم ودماثة في الخلق وعطف على الضعيف كل ذلك مع البهجة في المنظر ووضاءة في المحيّا من ثغر باسم ووجه طلق تتموج عليه أمواه الحسن ويطفح عليه رواء الجمال، وعلى أسرة جبهته أنوار الإيمان كما كانت تعبق من اعرافه فوائح المجد متأرجة من طيب العنصر، ولما تطابق فيه الجمالان الصوري والمعنوي قيل له (قمر بني هاشم) حيث كان يشو بجماله كل جميل، ويبذ بطلاوة منظره كل أحد حتى كأنه الفذ في عالم البهاء، والوحيد في دنياه كالقمر الفائق بنوره أشعة النجوم، وهذا هو حديث الرواة: «كان العباس وسيماً جميلاً يركب الفرس المطهّم ورجلاه يخطّان في الأرض ويقال له قمر بني هاشم».

كنى العباس بن علي «عليهما السلام»

للعباس أربع كنى أثنتان عرف بهما قديماً وأثنتان عرف بهما حديثاً عرفته بهما العوام؛ فالقديمتان هما أبو القاسم وأبو الفضل كني بابنيه القاسم والفضل، وهذه الأخيرة هي المشهورة حتى لا يكاد يعرف غيرها، فقليل: إنه كني بولده الفضل، وقيل: إن كل من تسمى بعباس من بني هاشم كني بـ(أبي الفضل) كالعباس بن عبد المطلب، والعباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وغيرهما، وهذا القول مقبول لكني أرى أن هذه الكنية له «عليه السلام» قد اشتقت من فضائله فإنه «عليه السلام» قد توسم فيه سمات الفضل منذ الصغر وزمن الطفولية فلقبوه به، وإليه يشير بعض من رثاه بقوله:

أبا الفضل يامن أسس الفضل والأبا أبي الفضل إلا أن تكون له أبا
فالمتموسمون لما توسموا في جبينه المشرق سمات الفضل، وظهرت لهم في ملامحه الفضائل على حد ما قيل:

إن الهلال إذا رأيت نموّه أيقنت أن سيصير بدرًا كاملاً
فكنوه أبا الفضل عند ظهور تلك الإمارات والدلائل، وقد قيل:
قلم العلا قد خط فوق جبينه أثر النجابة ساطع البرهان
دلنا على ذلك ما رواه ابن الحاج المالكي في كتاب المدخل^(١) عن أبي داود في سننه عن شريح بن هاني عن أبيه أنه لما وفد على النبي ﷺ في قومه سمعهم يكتنون بـ(أبي الحكم) فدعاه رسول الله ﷺ فقال: إن الله هو الحكم وإليه الحكم فلم تكني أبا الحكم؟ فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين بحكمي، فقال له رسول الله ﷺ: ما أحسن هذا، الخ؛ فالعباس «عليه السلام» أبو الفضل والفضائل.

أما الكنيتان العاميتان:

فأبو فاضل وابن البدويّة؛ فأبو فاضل هو أبو الفضل سواء، وابن البدوية نظراً إلى أن أمّ العباس «عليه السلام» كانت من العرب التي تقطن البادية أنفةً من ذلّ الامصار وفرارا من هوان الحضارة الذي تاباه نفوس العرب الأقحاح.
وأما كنيته عندهم بـ(أبي فرجة) فليس بكنية - كما عرفت - بل هي لقب بصورة

الكنية حيث لم تكن للعباس بنت تسمى فرجة وإنما لقبوه بهذا لأنه كان كثيراً ما يفرّج عنهم الكربات إذا توسلوا به إلى الله تعالى وأقسموا عليه بحقه وهذه عندهم من الأمور القطعية وقد جرّبناها بأنفسنا.

للمؤلف:

كم فرّج الله عنا كل معضلة	كرامة منه للعباس شبل علي
ورحمة الله خضتنا بفضلهم	عند الصعاب وعمّت فيه كل ولي

ألقاب العباس الأكبر

«عليه السلام»

ألقاب العباس الأكبر «عليه السلام» (سقاء عطاشى كربلاء)

وألقب يعرفه النحويون بأنه ما أشعر برفعة المسمى أو ضعته، يعنون أنه أكسبه شهرة في المدح أو الذم، ومثال المشعر بالمدح كجذل الطعان وصياد الفوارس، ومثال المشعر بالذم كالأعشى والأعمش، وهذا في العرب كثير، أما أهل البيت فليس لهم لقب ذم أصلاً إنما ألقابهم للمدح خاصة لأنه لا عيب فيهم في خلق ولا خلق، وقد قال الشاعر:

حبتي علياً ولكن وصفه حسن وفعله المرتضى يحلو به الشغف
فتى من الشرف الأعلا له نسب وهل لغير علي يحصل الشرف؟

ألقاب أبي الفضل العباس «عليه السلام»:

نوعان: قديمة ومستحدثة استحدثها العوام واشتقوها من صفاته وفضائله.
فالألقاب القديمة كثيرة منها ما هو مشهور عند علماء التاريخ والسير ومنها دون ذلك في الشهرة، وتذكر آخر المباحث إن شاء الله.

فأما المشهورة عند النسابين والمؤرخين فهي (السقاء) أو (ساقى عطاشى كربلاء) ويسمى لذلك (أبا قرية)؛ قاله أبو الفرج في المقاتل، والدياربكري في تاريخ الخميس وغيرها، و(قمر العشيرة) أو قمر بني هاشم، و(بطل العلقمي) أو بطل المسناة، و(حامل اللواء) أو حامل لواء الحسين «عليه السلام»، و(كبش الكتيبة) و(العميد) أو عميد عسكر الحسين «عليه السلام»، و(حامي الطعينة) أو حامي طعينة كربلاء، وكل هذه الألقاب مشهورة وهو معروف بها، وهي مشتقة من أفعاله الكريمة وصفاته الفائقة.

وحيث أن لكل واحدة من هذه الألقاب اعتبار عظيم عند العرب قدمناها لنذكر مالها من الميزة والاعتبار، فإذا أستوفينا شواهدنا وأكملنا شرحها تفصيلاً ذكرنا بقية الألقاب التي دونها في الشهرة كالطيّار وما شاكله من الألقاب العامة، ونسأل الله التوفيق لما يحب والتسديد لما نقول، والمعونة فيما نملي في فضل أهل بيت نبيه ﷺ.

إعلم أن جميع هذه الألقاب ممدوحة عند الجاهليين والإسلاميين من العرب، بل هي من مفاخرهم والمتصف بها محبوب لديهم أتم المحبة ينظرون إليه بعين التبجيل والاحترام، ويرون مقامه في المفاخر العربية أسمى مقام.

السقاء، أو سقاء عطاشى كربلاء؛

هذا لقب نبيل اختص به أبو الفضل العباس بن علي «عليهما السلام» حتى بلغ من شهرته أنه إذا أُطلق أنصرف إلى العباس الأكبر «عليه السلام» وإن شاركه فيه أبوه «عليه السلام» وأسلافه الكرام كما ستعرف ذلك.

والسقاية هي إرواء العطاشى من البشر في حالتى السلم والحرب، واشرفها سقاية الحرب وهي فضيلة من فضائل الإنسانية وأحد مكارم العرب ومفاخرها العظيمة، وإنها من المآثر الشريفة ولا يفضلها إلا الإسلام وقد قال الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾^(١) الآية الشريفة، فدلّت هذه الآية على كونها من أعظم المفاخر والإيمان بالله أفضل منها، وسبب نزولها على ما ذكر علماء الفريقين السنة والشيعة. وهذا نص فخر الدين الطريحي رحمه الله في مجمع البحرين أن سبب نزولها أنه أجمع علي «عليه السلام» وعمه العباس بن عبد المطلب «رضي الله عنه» وشيبة بن عثمان العبدي، فقال العباس: أنا أفضل لأن سقاية الحاج بيدي، وقال شيبة: أنا أفضل لأن حجابة البيت بيدي، فقال علي «عليه السلام» أنا أفضل لأنني آمنت قبلكما ثم هاجرت إلى رسول الله ﷺ؛ فنزلت الآية، انتهى. والآية لا تنفي فضيلة السقاية وإنما تثبتها وتثبت أن الإيمان أفضل منها - ولا شك - فإنه أفضل الفضائل ولولاه ما عظم بلاد الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي.

السقاية قسمان؛

سقاية في السلم وسقاية في الحرب.

والسقاية السلمية نوعان: واجبة وجائزة؛ فالواجبة ما كانت لإحياء النفوس المشرفة على الهلاك من النفوس البشرية المحترمة، والجائزة نوعان: راجحة وهي ما كان القصد فيها إسداء المعروف إلى بني الإنسان بداع التقرب إلى الله تعالى في فعل الخير، ومرجوحة وهي ما كان القصد بها طلب الدنيا من نيل مال أو حصول سمعة. ومن القسم الأول سقاية العباس الأكبر «عليه السلام» لعطاشى كربلاء، وسقاية أبيه

أمير المؤمنين «عليه السلام» لعطاشى الصحابة يوم بدر كما يأتي تفصيل ذلك، ومن القسم الثاني سقاية أسلاف العباس «عليه السلام» حسبما يظهره ذلك الشرح الآتي .
ثم إن السقاية بأنواعها لا تقع إلا بفعل الرجل بنفسه مباشرة بيد أو قول؛ أما المباشرة اليدوية فهي أن يستقي بنفسه ويحمل الماء، أو يحمي أصحابه من الأعداء فيستقون، وأما القولية فهي أن يطلب فيعطى، أو يدعو فيجاب، ويفرق بينهما فيقال في اليدوية السقاية، وفي القولية أستسقاء لأنه يدعو ويستمطر فتمطر بدعاءه، أو يدعو فينبع الماء من حجر ومن تحت أخمصه أو خف ناقتة كرامة له كما كان ذلك من فحص النبي إسماعيل «عليه السلام» برجله فنبعت زمزم وانبعث ناقة عبد المطلب ونبع الماء من تحت خُفِّها وجرى من ذلك لبنينا محمد ﷺ والكثير، وجميع هذه الأنواع من السقاية تختص ببني هاشم دون سائر العرب وقريش، وبعضها تراث أبيهم إسماعيل وجدهم قصي حازوه دون القبائل والبقية خصوصاً خصهم الله تعالى بها .

فالسقاية؛

على جهة السماح في بذل الأموال الطائلة على إرواء الظمأ كرمًا وجوداً فقصة تسلسلها في بني هاشم معروفة فإنها من مؤسسات قصي بن كلاب ثم ورثها ابنه عبد مناف بن قصي، ثم ابنه هاشم بن عبد مناف، ولما مات هاشم كان ابنه عبد المطلب صغيراً عند أخواله فقام بها عمه المطلب ابن عبد مناف حتى كبر فسلمها إليه وظهرت لعبد المطلب سقاية أعظم منها خصوصية خصه الله بها فأظهر له زمزم، وهذه الكرامة لا يدعيها مدّع غير بني هاشم إلى يوم القيامة، ولما توفي عبد المطلب قام بها ابنه أبو طالب وبعده صارت للعباس بن عبد المطلب وزعم بعضهم أن أبا طالب سلمها لأخيه العباس كرامة أكرمه بها ثم ملكها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة، وهنا اختلف المؤرخون ف قيل: إن رسول الله ﷺ ردها إلى عمه العباس . وهو الصحيح . وقيل: تداولها الخلفاء بعده حتى رجعت إلى بني العباس في خلافتهم وهذا قول غير سديد لما علم أن رسول الله ﷺ أقر كل مأثرة عربية لا تنافي للإسلام في صاحبها وقال: نحن أولى بالوفاء، فأعاد مفتاح الكعبة إلى بني شيبه وأعاد السقاية إلى العباس، وكذلك من المعلوم أن رسول الله ﷺ لا يدفع مكربة لبني هاشم لغيرهم .

أما الاستسقاء في الجذب؛

إذا أخلفت السحب وظنت السماء بالمطر وفات الأرض طيب القطر، وهذا نوع شريف ومأثرة كريمة تظهر بها كرامة المستقي وفضيلة الطالب له حيث أن الله

تعالى يغيث العالم بدعوته ويحيي ميت البلاد ببركته وهو قد خص بني هاشم دون قريش وسائر العرب، فقد استسقت العرب بعبد المطلب وأبي طالب في عصر الجاهلية وبرسول الله ﷺ في مقامات عديدة في الإسلام ولولا أنها من خصوصيات بني هاشم ما استسقى عمر بن الخطاب وهو الخليفة في وقته بالعباس بن عبد المطلب، واستسقى الصحابة بالحسن والحسين «عليهما السلام»، واستسقاءات مولانا أمير المؤمنين «عليه السلام» معلومة.

والنوع الآخر من السقاية السلمية؛

هو ظهور الماء على طريق المعجزة والكرامة وذاك مما لا يستريب فيه أحد أنه من خصائص بني هاشم؛ فقد نبع الماء من خُفّ ناقة عبد المطلب مرتين، ونبت عين ماء لرسول الله ﷺ شرب منها عمه أبو طالب لما عطش بسوق ذي المجاز، ونبت العين من تحت الصخرة لأمير المؤمنين «عليه السلام» في مسيره إلى صفين وغير ذلك مما رواه ثقات العلماء.

أما السقاية الحربية؛

فهي أيضاً من خصائص بني هاشم ومفاخرهم فأصبحت فضيلة لآل عبد المطلب ومكرمة لهم دون الناس أجمعين؛ فقد سقى أمير المؤمنين «عليه السلام» جيش رسول الله ﷺ يوم بدر ويوم الحديبية وقد خاف المسلمون من الدنو إلى القليبين، وما ذكره بعض المؤرخين أن رجلاً من أسلم نزل القلب في الحديبية - فلو صح - فلا ينافي كون الساقى أمير المؤمنين «عليه السلام» وهذا هو الممتاح بحمايته له، وسقاهم رسول الله ﷺ في تبوك من وشل نزر ثماد وقد أشرفوا على الهلكة وببركته عاد بحرراً لا ينزف ماؤه كما عاد ماء بئر بضاعة الوشل بحرراً لما بصق فيه، وسقى الحسين «عليه السلام» جيش أهل العراق بصفين وقد ملك عليهم معاوية وأهل الشام شريعة الفرات، وسقى أبو الفضل العباس بن أمير المؤمنين «عليهم السلام» جيش الحسين «عليه السلام» وقد ملك عليهم عمر بن سعد شرائع الفرات يوم كربلاء، وما اجملناه هنا يقتضي تفصيلاً وإيراد الشواهد التاريخية.

سقاية الحاج وتشريعها؛

شرع هذه السقاية قصي بن كلاب لما ملك مكة ونفى عنها خزاعة وكنانة. قال البرهان الحلبي في سيرته^(١): كان قصي أول رجل من بني كنانة أصاب

ملكا ولما حضر الحج قال لقريش: قد حضر الحج وقد سمعت العرب بما صنعتكم وهم لكم معظمون، ولا أعلم مكرمة عند العرب أعظم من الطعام فليخرج كل رجل من ماله خرجاً؛ ففعلوا فجمع من ذلك شيئاً كثيراً، فلما جاء أوائل الحج نحر على كل طريق من طرق مكة جزوراً، ونحر بمكة وجعل الشريد واللحم، وسقى الماء على الزبيب، وسقى اللبن، وهو أول من أوقد النار بمزدلفة ليراها الناس من عرفة ليلة النفر، انتهى. ومثله ذكر ابن واضح في تاريخه^(١).

وفي سيرة ابن هشام^(٢): قال ابن إسحاق: إن قصياً فرض على قريش فقال لهم حين أمرهم: يامعشر قريش! إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيف الله وزوار بيته وهم أحق ضيف بالكرامة؛ فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم؛ ففعلوا.

انتقال السقاية إلى عبد مناف؛

وهنا يختلف المؤرخون في سبب انتقالها: فإن إسحاق ومن وافقه يذكر أن عبد مناف أخذها قهراً من أخيه عبد الدار وكان عبد مناف قد شرف في عهد أبيه قصي وقصر عنه عبد الدار وكان أكبر ولد قصي وأحبهم إليه فأراد أن يلحقه بعبد مناف فأعطاه الندوة واللواء والحجابه والسقاية والرفادة فثار عليه إخوته بعد موت أبيهم فأخذوا منه بعضها، وهنا أنقسمت قريش بقسمين: فعرف حلفاء بني عبد مناف بالمطبيين ما عرف عرف حلفاء بني عبد الدار بلعقة الدم في قصة منعنا طولها من إيرادها فأطلبها من سيرة ابن هشام^(٣)، ويذهب فريق من المؤرخين أن عبد مناف حازها في حياة أبيه^(٤).

انتقال السقاية من عبد مناف إلى ابنه هاشم وحفيده عبد المطلب؛

في السيرة الهشامية^(٥): قال ابن إسحاق: فولى الرفادة والسقاية هاشم بن عبد مناف وذلك أن عبد شمس كان رجلاً سفاراً قلماً يقيم بمكة وكان مقللاً ذو ولد، وكان هاشم مسيراً وكان فيما يزعمون إذا حضر الحج قام في قريش فقال: يامعشر قريش! إنكم جيران الله وأهل بيته وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله وحجاج بيته وهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه فأجمعوا لهم مالاً تصنعون لهم به طعاماً أيامهم هذه التي لا بد لهم من الإقامة لها، والله لو كان

(٢) سيرة ابن هشام ١/١٢٢.
(٤) راجع: سيرة الحلبي وغيره.

(١) تاريخ اليعقوبي ١/١٩٧.

(٣) سيرة ابن هشام ١/١٢١.

(٥) سيرة ابن هشام ١/١٢٧.

مالي يتسع لذلك ما كلفتموه، فيخرجون لذلك خرجاً من أموالهم كل امرئ بقدر ما عنده فيصنع للحجاج به طعاماً حتى يصدروا منها .

[وقال:]^(١) قال ابن إسحاق: ثم هلك هاشم بن عبد مناف بغزة من أرض الشام تاجراً فولي السقاية والرفادة بعده المطلب بن عبد مناف وكان أصغر من عبد شمس وهاشم وكان ذا شرف في قومه وفضل، وكانت قريش تسميه الفيض لسماحته وفضله، وذكر^(٢) أن بعض العرب رثاه حين توفي بقوله:

قد ظمأ الحجيح بعد المطلب بعد الجفان والشراب المنشعب

قال ابن إسحاق: ثم ولي عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمه المطلب فأقامها للناس .

وذكر الجاحظ في رسائله وعنه ابن أبي الحديد بلفظة^(٣): إن أبا عثمان الجاحظ قال: إن أشرف خصال قريش في الجاهلية اللواء والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابه، وهذه الخصال مقسومة بين بني هاشم وبني عبد الدار دون بني عبد شمس .

وقال: إن معظم ذلك صار شرفه في الإسلام إلى بني هاشم لأن النبي ﷺ لما ملك مكة صار مفتاح الكعبة بيده فدفعه إلى عثمان ابن طلحة فالشرف راجع إلى من ملك المفتاح لا إلى من دفع إليه، وكذلك دفع ﷺ اللواء إلى مصعب بن عمير فالذي دفع إليه اللواء وأخذه مصعب من يديه أحق بشرفه وأولى بمجده، وشرفه راجع إلى رهطه من بني هاشم .

قال: وكان محمد بن عيسى المخزومي أميراً على اليمن فهجاه ابن أبي مدلج فقال:

قل لابن عيسى المستغيث	من السهولة بالوعوره
النطاق السعوراء في	جل الامور بلا بصيره
ولد المغيرة تسعة	كانو صناديد العشيره
وأبوك عاشرهم كما	نبتت مع النخل الشعيره
إن النبوة والخلافة	والسقاية والمشوره
في غيركم فأكفف إليك	يداً مجذمة قصيره

(٢) سيرة ابن هشام ١/١٣٥ .

(١) سيرة ابن هشام ١/١٢٨ .

(٣) شرح نهج البلاغة ٣/٤٥٣ .

قال: فانبرى له رجل من ولد كريز بن حبيب بن عبد شمس كان مع محمد بن عيسى باليمن يهجو عنه ابن مدلج في كلمة له طويلة يقول فيها:

لا لواء يعد يا بن كريز لا ولا رفد بيته ذي السناء
لا حجاب وليس فيكم سوى الكبر وبغض النبي والشهداء
بين حاك مخلج وطريد وقتيل يلعنه أهل السماء
ولهم زمزم وجبرائيل ومجد السقاية الغراء

قال أبو عثمان: فالشهداء علي وحمزة وجعفر، والحاكي والمخلج هو الحكم ابن أبي العاص كان يحكي مشية رسول الله ﷺ فألفت يوماً فرآه عليه فلم يزل مخلج المشية عقوبة من الله، والطريد اثنان: الحكم بن أبي العاص ومعاوية بن المغيرة وهما جدّا عبد الملك بن مروان من قبل أبيه وأمه، وكان النبي ﷺ طرد معاوية بن المغيرة هذا وأجله ثلاثاً فحيره الله ولم يزل يتردد في ضلاله حتى بعث في اثره علياً وعماراً فقتلاه، انتهى^(١).

قال مفتي الشافعية زيني دحلان في سيرته بعد ذكر التشاجر بين بني عبد مناف وبني عبد الدار ولفظه^(٢): أما الرفادة وهي إطعام الحاج أيام الموسم حتى يتفرقوا فإن قريشاً كانت زمن قصي تخرج من اموالها في كل موسم فتدفعه إلى قصي فيصنع به طعاماً للحاج يأكله من لم يكن معه سعة ولا زاد، ثم قام بذلك بعد قصي ابنه عبد مناف ثم ابنه هاشم ثم ابنه عبد المطلب ثم ابنه أبو طالب ثم أخوه العباس، وأستمر ذلك إلى زمنه ﷺ وزمن الخلفاء من بعده إلى أن انقرضت الخلافة من بغداد ومصر.

وأما السقاية فقام بها أيضاً عبد مناف ثم ابنه هاشم ثم ابنه المطلب ثم لما كبر عبد المطلب فوض عمه المطلب السقاية إليه، ولما مات المطلب وثب أخوه نوفل ابن عبد مناف على ابن أخيه عبد المطلب وذكر قصة تركناها لطولها وهي مذكورة في كتابنا الميزان الراجح^(٣) في ترجمة عبد المطلب.

قال^(٤): ثم قام بها أبو طالب ثم انتقلت إلى أخيه العباس وذكر سبباً هو إملاق أبي طالب وهو سبب واهي لم تنتقل السقاية للعباس إلا بعد موت أبي

(١) أنظرهما في رسائل الجاحظ: ص ٦٧.

(٢) سيرة زيني دحلان هامش السيرة الحلبية ١٨/١.

(٣) الميزان الراجح في علم الرجال - مخطوط - للمؤلف - الناشر -.

(٤) سيرة زيني دحلان هامش السيرة الحلبية ١٩/١.

طالب ولا يسعنا نقل النصوص خوف التطويل .

أما السقاية القولية:

وهي الاستسقاء بالدعاء فقد جعله الله تعالى من خصوصيات بني هاشم كرامة أكرمهم بها، وأول من أستسقت به العرب عند الجذب منهم فسقاها الله به كرامة لرسول الله ﷺ عبد المطلب بن هاشم، ذكر الديار بكرى في تاريخ الخميس^(١) والحلبى في إنسان العيون^(٢) والسيرة الدحلانية على هامشها^(٣) عن رقيقة بنت أبي صيفي ابن هاشم بن عبد مناف وهي زوجة عبد المطلب - ولفظ الأخير - قيل: أدركت الإسلام ولها صحبة، قالت: تتابعت على قريش سنون ذهبت بالأموال فأشفين على الأنفس، فسمعت قائلاً يقول في المنام: يامعشر قريش! إن هذا النبي المبعوث فيكم هذا أوان خروجه وإنه يأتيكم الحياء والخصب فأنظروا رجلاً من أوسطكم - أي أشرفكم - نسباً طوالاً عظاماً أبيض، مقرون الحاجبين، أهدب الأشفار، أسيل الخدين، رقيق العرنين فليخرج هو وجميع ولده وليخرج منكم من كل بطن رجل فيتطهروا ويتطيبوا ثم أستلموا الركن ثم ارقوا إلى رأس أبي قبيس ثم يتقدم هذا الرجل يستسقي لكم وأنتم تؤمنون فإنكم تسقون .

فأصبحت وقصت رؤياها عليهم، فنظروا فوجدوا هذه الصفة صفة عبد المطلب، فأجتمعوا عليه وأخرجوا من كل بطن رجلاً وفعلوا ما أمرتهم به ثم علوا على أبي قبيس ومعهم النبي ﷺ - وهو غلام - فتقدم عبد المطلب وقال: اللهم إن هؤلاء عبيدك وإماؤك وقد نزل بنا ما ترى وتتابعنا علينا هذه السنون فذهبت بالظلف والخف والحافر فأشفت على الأنفس فأذهب عنا الجذب وآتنا بالحياء والخصب، فما برحوا حتى سالت الأودية، قالت: وسمعت شيخان قريش وهم يقولون لعبد المطلب: هنيئاً لك يا أبا البطحاء .

وفي هذه القصة تقول رقيقة:

بشيرة الحمد أسقى الله بلدتنا	وقد عدنا الحيا والجود والمطر
فجاء بالماء جوداً نوءه سبل	دان فعاشت به الأنعام والشجر
متاً من الله بالميمون طائره	وخير من بشرت حقاً به مضر
مبارك الاسم يستقى الغمام به	ما في الأنام له عدل ولا خطر

(١) تاريخ الخميس ١/ ٢٧٠ .

(٢) السيرة الحلبي ١/ ٣٣ .

(٣) سيرة زيني دحلان هامش السيرة الحلبي ١/ ٧٣ .

ولما سقوا لم يصل المطر إلى بلاد قيس ومضر فأجتمع عظماءهم وقالوا: قد أصبحنا في جهد وجذب وقد سقى الله الناس بعبد المطلب فأقصدوه لعله يسأل الله فيكم، فقدموا مكة ودخلوا على عبد المطلب فحيوه بالسلام، فقال لهم: أفلحت الوجوه، فقام خطيبهم فقال: قد اصابتنا سنون مجدبة وقد بأن لنا اثرك وصح عندنا خبرك فأشفع لنا عند من شفّعك وأجرى الغمام لك.

فقال عبد المطلب: سمعاً وطاعة، موعدكم غداً عرفات، ثم أصبح غادياً إليها وخرج معه الناس وأولاده ومعه رسول الله ﷺ - وهو صغير - فنصب لعبد المطلب كرسي فجلس عليه وأخذ رسول الله ﷺ فوضعه في حجره ثم قام عبد المطلب ورفع يده وقال: اللهم رب البرق الخاطف والرعد القاصف، رب الأرباب وملين الصعاب هذه قيس ومضر من خير البشر وقد تشعثت رؤوسها وحدثت ظهورها تشكو إليك شدة الهزال وذهاب النفوس والأموال، اللهم فأتح لهم سحاباً خواراً وسماً خواراً لتضحك أرضهم ويزول ضرهم؛ فما أستم كلامه حتى أنشأت سحابة وكفاء لها دويّ وقصدت نحو بلادهم، فقال عبد المطلب: يا معشر قيس ومضر! أنصرفوا فقد سقيتم، فرجعوا وقد سقوا.

الاستسقاء بأبي طالب (عليه السلام)

كل ذلك ببركة النبي ﷺ ويمينه، ذكر من قدمنا ذكرهم جميعاً ولفظ الحلبي: واستسقى أبو طالب برسول الله ﷺ قال جلهمه بن عرفة: قدمت مكة وقريش في قحط فقائل منهم يقول: اعتمدوا اللات والعزى، وآخر يقول: اعتمدوا مناة الثلاثة، فقال شيخ وسيم حسن الوجه جيد الرأي: أنى تؤفكون وفيكم باقية إبراهيم وسلالة إسماعيل، فقالوا: كأنك تعني أبا طالب، فقال: إيها، فقاموا بأجمعهم وقمت معهم فدقنا عليه بابه فخرج إلينا رجل حسن الوجه عليه إزار قد أتشح به، فثاروا إليه - أي قاموا - إليه فقالوا: يا أبا طالب! قحط الوادي وأجذب العيال فهلم فاستسقي لنا، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجنة تجلت عنها سحابة قتماً، وحوله أغليمة فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ بأصبعه وبصبصت الأغليمة حوله وما في السماء قزعة من سحاب فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا وأغدودق وأنفجر له الوادي وأخصب النادي والبادي، وفي ذلك يقول أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

إنتهى، والأغليمة المشار إليهم مع رسول الله ﷺ الذي عبر عنه بالغلام إنما هم ولد أبي طالب علي وجعفر وإخوتهما.

الاستسقاء برسول الله ﷺ:

فكثير جداً وخذ هذه القصة تيمناً، ذكر الماوردي الشافعي في أعلام النبوة^(١) عن أنس بن مالك قال: أتى أعرابي^(٢) إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! أتيناك ومالنا بغير يئط ولا صبي يصطبح، ثم أنشد:

أتيتك والعذراء يدمى لبانها وقد شغلت أم الصبي عن الطفل
وألقي بكنيته الصبي استكانة من الجوع ضعفاً ما يمر وما يحلي
ولا شيء مما يأكل الناس عندنا سوى الحنظل العامي والعلهز الفسل
وليس لنا إلا إليك فرارنا وأين فرار الناس إلا إلى الرسل

فقام رسول الله ﷺ يجر رداءه حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (اللهم أسقنا غيثاً مغيثاً سحاً مطبقاً غير راثث تنبت به الزرع وتملاً به الضرع وتحيي به الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون)، فما استتم الدعاء حتى التفت السماء بأروقتها فجاء أهل البطانة يضحجون يا رسول الله الغرق، فقال: حوالينا لا علينا، فانجاب السحاب عن المدينة كالأكاليل، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه وقال: لله در أبي طالب لو كان حياً لقرت عيناه، من الذي ينشدنا شعره؟ فقال علي بن أبي طالب «عليه السلام»: يا رسول الله! كأنك أردت قوله:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
تطوف به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل
كذبتهم وبيت الله نبزى محمداً ولما نقاتل دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن ابناؤنا والحلائل
وقام رجل من كنانة وأنشد:

لك الحمد والحمد ممن شكر سقينا بوجه النبي المطر
دعى الله خالقه دعوة وأشخص معها إليه البصر
فلم يك إلا كألقي الردا وأسرع حتى رأينا الدرر
دقاق العزالي جم البعاق أغاث به الله علياً مضر

(١) أعلام النبوة: ص ٧٧.

(٢) يذكر غير الماوردي إنه لبيد الشاعر.

وكان كما قاله عمه أبو طالب أبيض ذو غرر به الله يسقي صور الغمام وهذا العيان لذاك الخبر فقال رسول الله ﷺ: إن يك شاعر محسن فقد أحسن، انتهى.

الاستسقاء بعلي والحسين «عليهم السلام»

الاستسقاء بأمر المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام»:

كثير أيام خلافته، ويكفيك أدعيته في الاستسقاء التي رواها الصدوق «رحمه الله» في الفقيه^(١) والرضي الموسوي «رحمه الله» في نهج البلاغة ولولا طولها لأوردتها فإنها آية من آيات البلاغة ومعجزة من معجزات الإبانة والإفصاح.

الاستسقاء بالحسن والحسين «عليهما السلام»:

روى الصدوق (رحمه الله) في الفقيه^(٢) قال: جاء قوم من أهل الكوفة إلى أمير المؤمنين «عليه السلام» فقالوا: يا أمير المؤمنين! أدع لنا بدعوات في الاستسقاء، فدعا علي «عليه السلام» بالحسن والحسين «عليهما السلام» فقال: يا حسن! أدع، فقال الحسن «عليه السلام»: (اللهم هب لنا السحاب بفتح الأبواب بماء عباب ورباب بأنصباب وأنسكاب وأسقنا مطبقة مغدقة مونقة أفتح أغلاقها وسهل إطلاقها وعجل سياقها بالأندية في الأروية بصوب الماء يا وهاب أسقنا مطراً قطراً مطلاً طبقاً مطبقاً عاماً معماً رشاً مرشاً واسعاً كافياً عاجلاً طيباً مباركاً سلاطح بلاطح يناطح الأباطح مغدوقاً مطبقاً آمين).

ثم قال للحسين «عليه السلام»: أدع، فقال الحسين «عليه السلام»: (اللهم معطي الخيرات من مظانها ومنزل الرحمات من معادننا ومجري البركات على أهلها منك الغيث وأنت الغياث المستغاث ونحن الخاطئون وأهل الذنوب وأنت الغفار لا إله إلا أنت أرسل السماء علينا ديمة مدرارا وأسقنا الغيث واكفاً مغزاراً غيثاً مغيثاً واسعاً مسبغاً طلاً مريئاً مريعاً غدقاً مغدقاً عباباً مجلجلاً واضحاً ضحضاحاً بساساً مسبلاً عاماً ودقاً مطفاحاً ندفع الودق بالودق دفاعاً، ونطلع القطر منه غير خلب البرق ولا مكذب الرعد تنعش به الضعيف من عبادك وتحيي به الميت من بلادك منه علينا منك آمين رب العالمين) فما أتم كلامه حتى صب الله الماء صباً، انتهى.

زاد ملا عبد الله في (مقتل العوالم)^(١): فأقبل أعرابي من نواحي الكوفة فقال: تركت الأودية والآكام يموج بعضها في بعض، إنتهى ولكنه ذكرها للحسين «عليه السلام» خاصة.

الاستسقاء بالعباس بن عبد المطلب

من أراد أن يعرف فضيلة الشخص فيلنظر إلى أثره فإن الإمام الذي يستسقي به الناس ويستغيث فيه رعيته أولى بمنصب الإمامة ممن يستسقي برعيته ويستغيث بهم، لا أحسب صاحب الانصاف لا يميز هذا وقد عرفت أن علياً وأبنيه «عليهم السلام» أستغاث بهم الناس فأغيثوا وأستسقوا بهم فسقوا، وهذا عمر بن الخطاب وهو الخليفة والإمام تفرع الناس إليه وتستغيث به فيفزع إلى رجل قد شمله يمنهم وبركتهم مستغيثاً به وهو العباس عم النبي ﷺ وهذه القصة مشهورة نقلها عامة المحدثين من أهل السنة وذكرها الحافظ الهيثمي الشافعي في الصواعق المحرقة والمحب الطبري الشافعي في ذخائر العقبى والماوردي الشافعي في أعلام النبوة وهذا نصه^(٢): ومن أعلام ﷺ ما أظهره الله من كرامته في عمه العباس حين استسقى به عمر متوسلاً إليه بعمه فخرج يستسقي به وقد أجذب الناس فقال: اللهم إني أتقرب إليك بعم نبيك وبقيه آبائه وكبير رجاله فأحفظ اللهم نبيك في عمه فقد دلونا به إليك مستشفعين به إليك مستغفرين.

فقال العباس وعيناه تنضحان: (اللهم أنت الراعي لا تهمل الضالة فقد ضرع الصغير ورق الكبير وأرتفعت الشكوى وأنت تعلم السر وأخفى، اللهم فأغثهم بغياثك من قبل أن يقنطوا فيهلكوا فإنه لا يئأس من روحك إلا القوم الكافرون)، فنشأت السحاب وهطلت السماء فطفق الناس بالعباس يمسحون أركانهم ويقولون هنيئاً لك ساقى الحرمين، وقال حسان بن ثابت:

سأل الخليفة إذ تتابع جدبنا فسقى الغمام بغرة العباس
عم النبي وصنو والده الذي ورث النبي بذاك دون الناس
أحيا به الله البلاد فأصبحت مخضرة الأجناد بعد اليأس

وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب يفخر بذلك:

بعمتي سقى الله الحجاز وأهله عشية يستسقى بشيبتة عمر

(١) مقتل عوالم العلوم: ص ١٥.

(٢) أعلام النبوة: ص ٧٨.

توسل بالعباس في الجذب راغباً فما كر حق جاء بالديمة المطر
 إنتهى، وهي واردة من طرقنا أيضاً وإن أردتها فأطلبها من (من لا يحضره
 الفقيه) للصدوق القمي^(١) وهذا الاستسقاء إنما كان بأمر المؤمنين علي بن أبي
 طالب «عليه السلام» وأولاده حقيقة بالعباس صورة ففي بعض طرق الحديث الذي
 رواه الحافظ ابن عساكر الشافعي في تاريخ الشام^(٢) وهو نص لمن ترك نص لمن
 ترك المجازفة وجانب المكابرة ولفظه عن جابر: إن السنة أصابت أهل المدينة سنة
 الرمادة استسقوا ثلاث مرات فلم يسقوا، فقال عمر: لأستسقين غداً بمن يسقينا الله
 به فأخذ الناس يقولون: بعلي بحسن بحسين، فأرسل إلى بني هاشم أن تطهروا
 وألبسوا من صالح ثيابكم وخرج إلى العباس فدق عليه الباب فلما أجمع بنوا
 هاشم عنده طيبهم ثم خرج العباس وعلي «عليهما السلام» أمامه والحسن «عليه
 السلام» عن يمينه والحسين «عليه السلام» عن يساره وبنو هاشم خلف ظهره، فقال
 لعمر: لا تخلط بنا غيرنا ثم أتى المصلى فوقف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:
 (اللهم إنك خلقتنا ولم تؤامرنا وعلمت ما نحن عاملون فلم يمنعك علمك فينا عن
 رزقنا اللهم فكما تفضلت علينا في أوله فتفضل علينا في آخره)، فما برحنا حتى
 سحت السماء علينا سحاً، فما وصلنا إلى منازلنا إلا خوضاً، فقال العباس: أنا
 ابن المسقي - كررها خمس مرات^(٣) - .

ف قيل لموسى بن جعفر «عليه السلام» كيف ذاك؟ قال: استسقى فسقي عام
 الرمادة، واستسقى عبد المطلب فسقي زمزم فنافسته قريش فقالوا أئذن لنا فيها فأبى
 فحكاهم إلى راهب إيلياء فلما كان في الطريق قال للقرشيين: أسقونا؟ فأبوا فركب
 راحلته فلما نهضت انبعثت من تحت خفها عين فشرب وسقاهم فقالوا: إن الذي
 أسقاك في الفلاة هو الذي أسقاك زمزم فأرجع فلا خصومة لنا معك .

وكان له أرض بالطائف فغلبه عليها بنو ذباب وبنو كلاب ثم غلبهم عليها
 فحاكموه إلى سطيح الكاهن فلما كان بالطريق استسقى بني كلاب وبني ذباب فلم
 يسقوه وقالوا: موتوا عطشاً فركب راحلته وخرج فأنبعثت له عين ماء فرجع إليه
 أصحابه فشربوا وشرب معهم بنو كلاب وبنو ذباب بعدما أراقوا ماءهم الذي معهم

(١) من لا يحضره الفقيه: ص ١٠٧. (٢) تاريخ دمشق ٣٤٧/٧.

(٣) سقى عبد المطلب خمسا هي: زمزم، والعين في مخاصمة قريش له في زمزم، والعين في
 مخاصمة حرب بن أمية له، واستسقى لقريش، واستسقى لقيس فهذه خمس مرات فصلها
 التاريخ. (المؤلف).

ثم رحلوا إلى سطيح فقالت بنو ذباب: ما ندري أصادق فيما يقضي بيننا، فخبأ رجل منهم ساق جرادة فلما قدموا عليه قال الرجل: إني خبأت لك خبيئاً فما هو؟ قال: ظهره كالفقار طار فاستطار وساق كالمنشار، ألقى ما في يدك فألقى ساق جرادة وخبأ رجل منهم ثمرة وقال: خبأت لك خبيئة، فقال: طال فبسق وأينع فاطعم ألقى الثمرة، وخبأ له آخر رأس جرادة خرزها في مزادة فعلقها في عنق كلب يقال له يسار فقال: خبأت لك فما هو؟ قال: رأس جرادة خرزت في مزادة في عنق كلبك يسار ثم اختصموا إليه فقضي لعبد المطلب بالمال فغرموا لعبد المطلب مائة ناقة وغرموا لسطيح مائة ناقة فقدم عبد المطلب فاستعار قدوراً فنحر وأطعم الناس حوله ثم أرسل إلى جبال مكة فنحر فأكلته السباع والطير والناس، والخامسة أسقى الله إسماعيل زمزم ألخ، وذكر أشعاراً قلت في مدح العباس.

ومن تدبر القضايا وتبحر فيها علم أن الاستسقاء كان بعلي وابنيه الحسن والحسين «عليهم السلام» ولكن السياسة العمرية أبت إلا عجرفية وأنحرافاً فناطت الأمر بالعباس تعمية وتمويهاً بأنه هو الذي استقى فسقي، ورمز هذه السياسة إلى صرف الناس عمن له حق الخلافة وأهلية الإمامة والزعامة دون العباس الذي أجمعوا إنه لا حق له لأنه من مسلمة الفتح بزعمهم فأخرجوه من السقيفة والشورى معاً لذلك، ولكن العباس العم المبارك كان يعرف إشارات السياسة ويترجم رموزها لذلك صرح الخليفة بأن لا يخلط بهم غيرهم.

وهل تعرف فائدة هذا الشرط وما الغرض منه؟ أما الفائدة فلأجل أن لا يتوهم المتوهم الساذج أن هذه الكرامة ظهرت لأجل الخليفة عمر أو لأجل أعيان الصحابة الموجودين فإذا أنفرد الهاشميون زال هذا الوهم وتبين الحق المحض، وأما الغرض فهو رمز خفي يشير فيه إلى أن من منه الاجابة وقد توسل ثلاثاً أن يسلم الإمرة لمن سأل مرة فاستجيب له لكرامته عند الله وعناية الله به، هذه حسرة في نفس العباس بثها وزفرة أخرجها الأسف على ما فاتهم من إدارك المنصب الإلهي الذي كان لهم وكانت هذه الحسرة تخالج نفس العباس بن عبد المطلب منذ قال لعلي «عليه السلام»: يا ابن أخي دعني أبايعك فيقال عم رسول الله بايع ابن أخيه فلا يختلف عليك اثنان وتجد ضمير العباس بن عبد المطلب يتوقد حماساً ويسطر على طرس الفكر ما رمزه إذا دهى الإسلام بالدواهي وأصيب بالفوادم النكراء دعى لتفريجها علي فعباس فحسن فحسين، وإذا كانت إمرة وأمر نهى وقسمة أموال وأمثالها دعي لها رجال سواهم ولسان حاله ينشد متمثلاً:

وإذا تكون كريبهة أدعى لها وإذا يحاس الحيس يدعى جندب
ومن أنواع السقاية السليمة تفجر الماء من الأرض الصماء على جهة المعجزة
والكرامة؛

وهذا النوع خاص ببني هاشم فقد فجر الله لعبد المطلب عيناً بعد أن أخرج
له زمزم ونازعتة قريش وحاكموه إلى كاهنة بني سعد بن هذيم وكانت بمشارف
الشام وفجر له عيناً أخرى حين نازعه حرب بن أمية وبنو كلاب على ماله الذي
بالطائف المعروف بذى الهدم واكتفينا بالإشارة إلى القصتين بما قدمنا في استسقاء
عمر بالعباس مراعاة للاختصار وأوردناهما تفصيلاً في كتابنا (الميزان الراجح) في
ترجمة عبد المطلب وأطلب قصة المنازعة على زمزم من السيرة الهاشمية^(١) وقصة
المنازعة على ذى الهدم من مجمع الامثال للميداني في شرح قولهم: الأده فلاده.

نبوع العين لرسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز؛

ذكر البرهان الحلبي في سيرته^(٢) عن أبي طالب بن عبد المطلب قال: كنت
بذي المجاز وهو موضع على فرسخ من عرفة وكان سوقاً للجاهلية مع ابن أخي -
يعني النبي ﷺ - فأدركني العطش فشكوت إليه فقلت له: يا ابن أخي! قد عطشت
وما قلت له ذلك وأنا أرى عنده شيئاً إلا الجزع أي لم يحملني على ذلك إلا
الجزع وعدم الصبر. قال: فثنى وركه ونزل عن دابته ثم قال: يا عم! عطشت؟
قلت: نعم، فأهوى بعقبه إلى الأرض - وفي رواية إلى صخرة - فركضها برجله
وقال شيئاً فإذا أنا بالماء لم أرى مثله، فقال: أشرف فشربت حتى رويت، فقال:
أرويت؟ قلت: نعم، فركضها ثانية فعادت كما كانت، انتهى.

نبوع العين لأمير المؤمنين «عليه السلام» في مسيره إلى صفين

رواها جماعة من المحدثين منهم من الشيعة نصر بن مزاحم في كتاب
صفين، وأبن شهر آشوب في المناقب، والصدوق في الأمالي، والمفيد في
الارشاد، والمجلسي في البحار، ومن السنة ابن أبي الحديد المعتزلي الحنفي في
شرح النهج، والخطيب البغدادي الشافعي في تاريخ بغداد وغيرهما.

قال المجلسي في بحاره^(٣): قال في المناقب: ذكر أهل السير عن حبيب بن
الجهم وأبي سعيد التيمي، والنطنزي في الخصائص، والاعثم في الفتوح،

(٢) السيرة الحلبي ٣٩/١.

(١) سيرة ابن هشام ١٣٤/١.

(٣) بحار الانوار ٦٥٧/٩.

والطبري في كتاب الولاية بإسناد له عن محمد بن القاسم، وأبو عبد الله البرقي عن شيوخه عن جماعة من أصحاب علي «عليه السلام» أنه نزل أمير المؤمنين «عليه السلام» بالعسكر عند وقعة صفين عند قرية صندودا فقال مالك الأشر: تنزل على غير ماء، فقال يا مالك! إن الله سيسقينا في هذا المكان فأحتفر أنت وأصحابك، فأحتفروا فإذا هم بصخرة سوداء عظيمة فيها حلقة لجين فعجزوا عن قلعها وهم مائة رجل، فرفع أمير المؤمنين «عليه السلام» يده إلى السماء وهو يقول كلمات رموز قال في آخرها: آمين رب موسى وهارون، ثم أجتذبتها فرماها عن العين أربعين ذراعاً فظهر ماء أعذب من الشهد وأبرد من الثلج وأصفى من الياقوت فشربنا وسقينا، ثم رد الصخرة وأمرنا أن نحثوا عليها التراب وسرنا غير بعيد فقال: من فيكم يعرف موضع العين؟ قلنا: كلنا، فرجعنا فخفي مكانها علينا فإذا راهب مقبل من صومعة، فلما بصر به أمير المؤمنين «عليه السلام» قال: شمعون؟ قال: نعم هذا أسم سمّني به أمي ما أطلع عليه إلا الله وأنت، قال: وما تشاء يا شمعون؟ قال: هذه العين، قال: هذه عين ناحرما وهي من الجنة شرب منها ثلاثمائة وثلاثة عشر وصياً وأنا آخر الوصيين شربت منها. قال: هكذا وجدت في جميع كتب الانجيل وهذا الدير بني على هذه الصخرة ومخرج الماء من تحتها ولم يدركه عالم قبلي غيري وقد رزقنيه الله، ثم أسلم ثم رحل أمير المؤمنين «عليه السلام» والراهب معه حتى نزل صفين، فلما التقى الصفان كان أول من أصابته الشهادة، فنزل أمير المؤمنين «عليه السلام» وعيناه تهملان وهو يقول: المرأ مع من أحب، الراهب معنا يوم القيامة، ألخ.

وفي حديث نصر بن مزاحم العطار في كتاب صفين^(١): قال أبو سعيد التيمي المعروف بعقيصا قال: كنا مع علي «عليه السلام» في مسيره إلى الشام حتى إذا كنا بظهر الكوفة من جانب هذا السواد عطش الناس وأحتاجوا إلى الماء، فأنطلق بنا علي «عليه السلام» حتى أتى بنا على صخرة ضررس من الأرض كأنها ربضة عنز فأمرنا فأقتلعناها فخرج لنا ماء فشرب الناس منه وأرتووا ثم أمرنا فأكفأناها عليه. قال: وسار الناس حتى إذا مضينا قليلاً قال علي «عليه السلام»: منكم أحد يعلم مكان هذا الماء الذي شربتم منه؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فأنطلقوا إليه، فأنطلق منا رجال ركباناً ومشاة فأتصصنا الطريق حتى انتهينا إلى المكان الذي نرى أنه فيه، قال: فطلبناها فلم نقدر على شيء حتى إذا عيل علينا أنطلقنا إلى دير

قريب منا فسألناه عن الماء الذي هو عندهم قالوا: ما قربنا ماء، قلنا: بلى إنا شربنا منه، قال: أنتم شربتم منه؟ قلنا: نعم، قال: ما بني هذا الدير إلا لذلك الماء، وما أستخرجه إلا نبي أو وصي نبي، انتهى.

وما تحدث به الخطيب البغدادي الشافعي في تأريخ بغداد^(١) عن أبي سعيد عقيصا قريب من حديث نصر إلا أنه قال: أرتفع من الأنبار وصرح بقول الراهب أنه لا يخرج إلا نبي أو وصي نبي وقال لفظ حديث الأعمش والآخر بمعناه، ورواه محمد بن فضيل عن الأعمش هكذا وإيراد الألفاظ تطويل.

نبوع العين للحسين «عليه السلام» يوم كربلاء

ذكر عبد الخالق اليزدي في مصائب المعصومين في حديث عاشوراء ما لفظه^(٢): فلما أشد بهم العطش أخذ الحسين «عليه السلام» فأسأ وجاء إلى وراء خيمة النساء فخطى في الأرض تسعة عشر خطوة نحو القبلة ثم حفر هناك فنبعت له عين من الماء العذب فشرب الحسين «عليه السلام» وشرب الناس بأجمعهم وملأوا أسقيتهم ثم غارت العين فلم ير لها أثر، وبلغ ابن زياد لعنه الله فأرسل إلى عمر بن سعد لعنه الله: بلغني أن الحسين يحفر الآبار ويصيب الماء ويشرب هو وأصحابه؛ فأنظر إذا ورد عليك كتابي فأمنعهم من حفر الآبار ما أستطعت وضيق عليهم ولا تدعهم يذوقوا الماء وأفعل بهم كما فعلوا بعثمان فعندها ضيق عمر بن سعد عليهم غاية التضييق إلخ.

كلمة المؤلف حول هذه العجرفية النكراء:

لم يزل عبيد الله بن زياد ينحوا مناحي معاوية بن أبي سفيان في العجرفية ويحذو حذوه في الميل عن خطة العدل وجادة الانصاف فهو يسير على خطته التي اختطها ويسايره في طريقه المهلك جنباً لجنب.

كان معاوية في إمساكه شريعة الفرات وبمنعه الماء عن أهل العراق جيش أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» يوم صفين يهتف معلناً: أقتلوهم عطشاً كما قتلوا عثمان، يستغوي بذلك جيش الطعام المحتشد حوله من غوغاء أهل الشام ويستغوي سقاط العرب وإجلاف الأمة الذين جمعوا من النذالة والشقاوة لؤم العنصر ودناءة الأعراق وقبح العقيدة مع الجهل الفاضح والغباوة المفرطة قد طرقتهم الأخبار الصادقة والأنباء المصرحة لهم بغير تعمية ولا تغليط أن علياً «عليه

السلام» في حصار عثمان قد التزم خطة الحياد التام بعد أن ردّ عليه عثمان نصائحه وإرشاداته في إظهار الإنصاف للأمة ونشر العدل في أهل الإسلام والرفق بأصحاب محمد ﷺ فرفض عثمان تلك النصائح رفضاً باتاً ورد هاتيك الإرشادات رداً علنياً غير مكاتم ولا مسر مؤثراً هوى مروان الأحمق، شارياً رضا الوزغ المائق الطريد اللعين بسخط الله، وأختار شغب الأمة الصالحة بسياسة مروان الملعونة حتى أن زوجته نائلة عنفته وقالت: أغضبت الشيخ الناصح علي ابن أبي طالب فهو غير عائد إليك ولن يدعك مروان حتى يوردك الحتف أو ما هذا معناه فزجرها فالتأت عليه الأمور وارتبكت الأحوال وأختل النظام السياسي وزل عن محوره فانثالت عليه جيوش المسلمين الذي أستنهضتهم صرخة الصحابة وضجيج أمهات المؤمنين سيّما أم المؤمنين عائشة وصاحبتهما حفصة إذ نادتا أن ثوب النبي لم يبلى وعثمان قد أبلى سنته، وعائشة هي التي سمّته نعثلاً، وطلحة والزبير المعدودين في العشرة ومن الحواري القائلين هلموا إلينا فإن الجهاد عندنا بالمدينة.

فتداعى المسلمون إجابة لهن ولهم على حربه من أقطار الأرض حتى حصروه في داره، هذا وأمير المؤمنين «عليه السلام» يدافع عنه دفاعاً سياسياً نظراً لما يجيء به المستقبل وتولده العاقبة من انتشار الفتن في الإسلام وحقاً كان ذلك فإن عثمان كما قيل الفتنة الكبرى فدافع عنه أمير المؤمنين «عليه السلام» لذلك دفاعاً سهلاً مع التزامه الخطة الحيادية وإحكامه القواعد السلمية وتركه الدخول في مهرجانات الحرب التي لم تضطره إليها الظروف الحرجة التي حدثت به فهو «عليه السلام» لم يزل يواصل عثمان بإرسال قرب الماء إليه مع أولاده وخدمه حين صدت أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان ومنعت وأريق الماء الذي كانت تحمله إلى عثمان في حصاره فلم يشرب عثمان الماء مدة الحصار إلا من ناحية أمير المؤمنين «عليه السلام» لأن المتجاسر على منع غيره لا يتجاسر على منعه فحتى ذبح عثمان ريان الكبد من فضل أمير المؤمنين «عليه السلام».

ثم تقابل أدعياء بني أمية الشجرة الملعونة في القرآن تلك الفعلة الكريمة واليد البيضاء بالجحود والكفران فتضحى ولده الحسين «عليه السلام» يوم الطف عطشاناً زاعمين إنهم يريدون الاقتصاص منه لعثمان تلك بهرجة المموهين وهم سفالة الأسفلين وحثالة الأرذلين لا لعمر الله ليسوا من أهل القصاص ولا أرباب القصاص ولا من الذين يهمهم أمر عثمان وليس يساوي دم عثمان عند معاوية قلامة، ولا يوازن ذرة من قمامة لولا أنه نصبه شرك الاحتيال لاحتبال الخلافة وانتشال صولجان الحكم واغتصاب تاج المملكة الإسلامية.

كيف وقد تربص معاوية بعثمان ولج في تخذيل الناس عن نصرته واقعدهم عن المسير إليه فقد نهض يزيد القسري مهتماً بنصرته عازماً على المسير إلى المدينة لاستنقاذه فثبطه معاوية واقعه مموها عليه بالتسويق والمواعيد الكاذبة حتى قتل عثمان ولو سار لأدركه حياً، وهذا أمر نصت عليه الأسفار التاريخية المعتمدة وخلدته الصحف الأثرية المعتمدة.

فأستبان أن غرض معاوية التوصل إلى نيل السلطان وأختطاف الإمرة بواسطته لذلك لم يجد بداً من نسبة قتله إلى أمير المؤمنين «عليه السلام» وما خبأته نفس معاوية الشرهة قد اخرجته فلتات لسانه، أليس هو القائل لأُم المؤمنين عائشة: ليتك قتلت يوم الجمل؟ قالت: مالك تتمنى موتي؟ قال: إنك تموتين بأجلك وتدخلين الجنة بمشيئة الله ونجعلك من أكبر التشيع على علي بن أبي طالب! وهذا خبث عظيم وشرارة جبارة وإذا كان هذا رأيه في أُم المؤمنين تصريحاً فهو رأيه في عثمان تلويحاً، ولو كان من أهل المودة لعثمان لجعل لولده نصيباً من السلطان أو عظمهم وأكرمهم.

أليس هو الذي عزل مروان عن المدينة لأنه لم يضرب عمرو بن عثمان لما أستعدت عليه زوجته رملة بنت معاوية أنه لم يواقعها؟.

أليس معاوية الذي أجاب سعيد بن عثمان جواباً غليظاً لما قال له: إنك نلت الملك بأبي عثمان؟ كل هذه الأمور قد أوقفنا عليها التاريخ فأبي قصاص لبني أمية عند بني هاشم إن قتل المسلمون عثمان عطشاً والصحابة ملئ المدينة فلو كان هذا عندهم حراماً أو أنه يجب ما تركوا القيام به وإنما كان الفضل لأُمير المؤمنين «عليه السلام» فيها على عثمان خاصة وعلى بني أمية عامة، ودعوى المدعين أن الصحابة عجزوا عن مقاومة الجيش الغازي لعثمان فمكابرة وتمويه، الجيش الغازي على أكثر الأقوال ألف وخمسمائة وقيل ألف وقيل ثمانمائة، والصحابة وأبناءؤهم ألوف وقد قاوموا وهم ثمانمائة جيش قريش وهم ثلاثة آلاف، وجيش الأحزاب يوم الخندق وهو عشرة آلاف فكيف يعجزون عن جيش أقل من عددهم وقد غزاهم في دارهم؟ ولا يقاس بهذا جيش الحرّة فإنه كثير وأدخل بخيانة فأستدبرهم فهلكوا بهذا السبب؛ فافهم وخذ النصيحة تنجيك من الهلكة.

نبوع العين لعبد الله بن جعفر

وقد شمله يمن النبي وعلي والحسن والحسين «عليهم السلام». قال الحافظ

ابن عساكر الدمشقي الشافعي في تأريخه^(١). كان عبد الله بن جعفر أسلف الزبير ألف ألف درهم، فلما توفي الزبير قال ابنه عبد الله لابن جعفر: إني أجد في ديوان أبي أن له عليك ألف ألف درهم، قال: هو صادق فأقبضها إذا شئت، ثم لقيه بعد فقال: يا أبا جعفر! إنما وهمت المال لك عليه، قال: فهو له، قال: لأريد ذلك، قال: فأختر إن شئت فهو له وإن كرهت ذلك فلك فيه نظرة ما شئت فإن لم ترد ذلك فبعني من ماله ماشئت، فقال: أبيعك ولكن أقوم، فقوم الأموال ثم أتاه فقال: أحب أن لا يحضرني وأياك أحد، فقال عبد الله: يحضرنا الحسن والحسين «عليهما السلام» فيشهدان لك، فقال: ما أحب أن يحضرنا أحد، قال: أنطلق، فمضى معه فأعطاه خراباً وسباحاً لا عمارة له وقومه عليه حتى إذا فرغ قال عبد الله لغلامه: ألق لي في هذا الموضع مصلى، فألقى له في أغلظ موضع من تلك المواضع مصلى، فصلى ركعتين وسجد فأطال السجود يدعو، فلما قضى ما أراد من الدعاء قال لغلامه: أحفر في موضع سجودي فحفر فإذا عين قد أنبسطها الله فقال له ابن الزبير: اقلني، فقال: أما دعائي وإجابة الله إياي فلا أقيلك، فصار ما أخذ منه أعمر مما في يد ابن الزبير، انتهى.

من أنواع السقاية السلمية

سقاية الاضياف والمجتازين، وقد دلت على هذا النوع أحاديث كثيرة نذكر بعضها تيمناً، وهذا النوع لا يخص بني هاشم بل يعم جميع المسلمين، ولفضيلته جعل المسلمون السقايات المسماة بـ (السبيل) في الطرق والجواد التي هي مظنة العطش، فقد ذكر الدربندي في أسرار الشهادة^(٢) عن الصادق «عليه السلام»: من سقى الماء في موضع يوجد فيه الماء كان كمن أعتق رقبة، ومن سقى الماء في موضع لا يوجد فيه الماء كان كمن أحيى نفساً، ومن أحيى نفساً فكأنما أحيى الناس جميعاً.

وعن النبي ﷺ قال: إن الله يحب إبراد الكبد الحرء، ومن سقى كبداً من بهيمة أو غيرها أظله الله يوم لا ظل إلا ظله، إنتهى في أحاديث كثيرة متقاربة المعنى، وهي وغيرها نص في فضل من سقى الماء في السلم آمناً على نفسه من القتل، واثقاً بسلامته من التلف، فكيف لو قارن سقي الماء مظنة تلف النفس والإشراف على العطب، وهذه الفضيلة أمتاز بها مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي

(٢) أسرار الشهادة: ص ٧٣.

(١) تاريخ مدينة دمشق ٧/ ٣٣٢.

طالب وولده العباس الأكبر («عليهما السلام») والشبل من ذاك الأسد .
 وأنا أقول بلا تجاسر على مولانا أمير المؤمنين «عليه السلام»: إن موقف
 العباس «عليه السلام» أفضع هولاً وإن كان كلا الموقفين رهيب حيث أن أمير
 المؤمنين «عليه السلام» سقى الصحابة في بدر والحديبية وليس فكره متعلقاً بشيء
 سوى عطش رجال كبار يصبرون على مكابدة الظمأ وستطيعون معاناة شدة العطش
 وأما حراجة الموقف من حيث قوة العدو وشدة شوكته فلا يرهبه أمير المؤمنين
 «عليه السلام» لأنه لا يخاف الأعداء قلوأ أو كثروأ، وكيف وهو القائل لأهل
 الكوفة، أخرجوا معي ثم فروا عني فإني والله لا أبالي أوقعت على الموت أو وقع
 الموت عليّ، ولألف ضربة بسيف في سبيل الله أهون عليّ من موة على فراش،
 وهو القائل يوم البصرة وقد طلب شراباً فأتوه بعسل فذاقه فقال: هذا عسل طائفي،
 فقال له ابن أخيه جعفر: عجباً منك ياعم في مثل هذا الموقف تعرف الطائفي من
 غيره، فقال: والله يا ابن أخي ما ملأ صدر عمك من جمعهم هذا شيء .

وإن أبا الفضل العباس بن علي «عليه السلام» سقى العطاشي بكربلأ وكان
 قصد المسناة دع عنك ما عليها من العسكر العظيم فإنه ابن أبيه لا يرهب الجموع
 المتكدسة أمامه قلت أم كثرت وليس فكره متعلقاً بعطش الكبار فقط بل قصد
 المشرعة بعد أن سمع صراخ الأطفال وضجيج النساء: وأعطشاه، فهزته الحمية
 الشماء وأنهضته الهمة العالية حين سمع لهنّ، رنة عظيمة لشدة الظمأ والصبية
 يتصارخون فمنهم من قصد مخيم الأنصار يطلب منه الماء، ومنهم من تعلق بأذيال
 الحوراء زينب وإنها «عليها السلام» - كما في بعض المقاتل - رجّت لبعض
 مضارب الأنصار تطلب فيه ماء لبعض الصبية الرضع وخلفها لمة كبيرة من الصبيان
 كلهم ينادون واعطشاه، فأبت مروّة العباس «عليه السلام» وشيمته أن يغضي على
 تلك الحالة المزعجة وارتاع لها وارتاح لورد المنية قبل ورد المباح المحرم عليهم
 وصمم بعزمه الثابت على قصد المشرعة وإن أقامت عليها سدّاً منيعاً أسلحة
 الأعداء فاعتقل القناة عاقداً بها العلم حاملاً للقربة منتضياً مرهفه فما عاد إلا بالماء
 على رغم الأعداء .

السقاية الحربية

لا خفاء إنها أجل السقايات وإن كانت السقاية على نحو المعجزة عظيمة في
 بابها ولكن هذه تمتاز على الجميع لما فيها من المخاطرة بالنفس وتعرضها للتلف

ولا يتجاسر عليها إلا من تمت شجاعته وكملت مروته وحميته وهذه أختص بها أمير المؤمنين «عليه السلام» وأنجاله دون سائر الصحابة وسائر العرب .

روى ابن شهر آشوب في كتاب المناقب^(١) قال: في كتاب فضائل الصحابة عن أحمد وخصائص العلوية عن النطنزي قال الحارث: لما كانت ليلة بدر قال النبي ﷺ: من يستقي لنا فأحجم الناس فقام علي «عليه السلام» فأختزن قربة ثم أتى بئراً بعيدة القعر مظلمة فأنحدر فيها فأوحى الله إلى جبرئيل وميكائيل وإسرافيل تأهبوا لنصر محمد وحزبه فهبطوا من السماء لهم لغط يذعر منه من سمعه فلما حاذوا البئر سلموا عليه من عند آخرهم إكراماً وتبجيلاً .

محمد بن ثابت بإسناده إلى ابن مسعود، والفلكي المفسر بإسناده إلى محمد ابن الحنفية قال: بعث رسول الله ﷺ علياً «عليه السلام» في غزوة بدر أن يأتيه بالماء حين سكنت أصحابه عن إirاده فلما أتى القلب وملاً القربة فجاءت ريح فأهرقته وهكذا في الثانية والثالثة، فلما كان في الرابعة ملأها فأتى به النبي ﷺ فأخبره بخبره فقال رسول الله ﷺ: أما الريح الأولى فجبرئيل في ألف من الملائكة سلموا عليك، والريح الثانية ميكائيل في ألف من الملائكة سلموا عليك، والريح الثالثة إسرافيل في ألف من الملائكة سلموا عليك .

وقد رواه عبد الرحمن بن صالح بإسناده عن الليث فكان يقول: كان لعلي «عليه السلام» في ليلة واحدة ثلاثة آلاف منقبة وثلاثة مناقب ثم يروي هذا الخبر ثم ذكر أبيات السيد الحميري وهي قوله (رحمه الله):

أقسم بالله وآله	والمرء عما قال مسئول
إن علي بن أبي طالب	على التقى والبر مجبول
وإنه كان الإمام الذي	له على الأمة تفضيل
يقول بالحق ويعني به	ولا تلهيه الأباطيل
كان إذا الحرب مرتها القنا	وأحجمت عنها البهاليل
يمشي إلى الروع وفي كفه	أبيض ماضي الحد مصقول
مشي العفرني بين أشباله	أصحره للقنص الغيل
ذاك الذي سلم في ليلة	عليه ميكال وجبريل
جبريل في ألف وميكال في	ألف ويتلوهم سرافيل

في يوم بدر بذكاء كلهم كأنهم طير أبابيل

سقاية علي «عليه السلام» للصحابة يوم الحديبية

روى الشيخ المفيد (رحمه الله) في الإرشاد بإسناده إلى عبد الله بن سالم قال: لما خرج رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية نزل الجحفة فلم يجد بها ماء فبعث سعد بن مالك - يعني ابن أبي وقاص - بالروايا حتى إذا كان غير بعيد رجع سعد بالروايا وقال: يا رسول الله! ما أستطيع أن أمضي وقد وقفت قدماي رعباً من القوم، فقال له النبي ﷺ: أجلس، ثم بعث رجلاً آخر فخرج بالروايا حتى إذا كان بالمكان الذي إنتهى إليه الأول رجع فقال له رسول الله ﷺ: لم رجعت؟ فقال: يا رسول الله! الذي بعثك بالحق نبياً ما أستطعت أن أمض رعباً، فدعا رسول الله ﷺ أمير المؤمنين «عليه السلام» فأرسله بالروايا وخرج السقاة وهم لا يشكون في رجوعه لما رأوا من رجوع من تقدمه، فخرج «عليه السلام» بالروايا حتى ورد الحرار فاستقى ثم أقبل بها إلى النبي ﷺ فلما دخل كبر النبي ﷺ ودعا له بخير، إنتهى.

سقاية الحسين «عليه السلام» لأهل العراق

قد تكررت سقاية الحسين «عليه السلام» لأهل العراق سقاهاهم ثلاث مرات بدعائه وسيفه ووعائه: أما سقايته لهم بدعائه فقد تقدمت: وأما سقايته لهم بسيفه فقد روى بعض علماءنا أن معاوية لما ملك الشريعة على أهل العراق يوم صفين بعث أمير المؤمنين «عليه السلام» في الخيل الحسين بن علي «عليهما السلام» ومالك بن الحارث الأشتر فأزالا أهل الشام عنها وملكها فوردها أهل العراق وصارت في أيديهم حتى انقضت الحرب.

وأما سقايته لهم بإناءه ووعائه فذاك لما لقيه الحر بن يزيد الرياحي وقد أثر العطش فيه وفي جنده.

روى أبو جعفر الطبري في التاريخ^(١) عن عبد الله بن سليم والمذري بن المشمعل الاسديين، ورواها الشيخ المفيد وغيره عنهما قالوا: أقبل الحسين «عليه السلام» حتى نزل شراف فلما كان وقت السحر أمر فتيانه فاستقوا من الماء فأكثروا ثم ساق القصة في مسيره ولقاء الحر وقال: فقال الحسين «عليه السلام»: أسقوا

القوم واروهم من الماء ورشفوا الخيل ترشيفاً، فقام فتياناه وسقوا القوم من الماء حتى أرووهم من الماء وأقبلوا يملأون القصاع والطساس والانوار من الماء ثم يدونونها من الفرس فإذا عبّ فيها ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً عزلت عنه وسقوا آخر حتى سقوا الخيل كلها.

قال هشام: حدثني لقيط عن علي بن الطعان المحاربي قال: كنت مع الحر بن يزيد فجئت في آخر من جاء من أصحابه فلما رأى الحسين ما بي وبفرسي من العطش قال: أنخ الراوية، والراوية عندنا السقاء، ثم قال: يا ابن أخي! أنخ الجمل فأنخته فقال: أشرب، فجعلت كلما شربت سال الماء من السقاء فقال: أخنث السقاء أي أعطفه، قال: فجعلت لا أدري كيف افعل، قال: فقام الحسين فخنثته فشربت وسقيت فرسي الخ.

هذه هي الهمم العالية وهذه شيم الأحرار الراقية، هذه شمائل السادات العظماء أحيا سلام الله عليه تلك النفوس الشريرة والارواح الخبيثة أنفس الطغاة الطغام التي هي بالهوان أولى منها بالكرامة، وبالإتلاف أحرى منها بالسلامة لأن هذه العصاة الفاجرة والفئة الجائرة أقبلت مصرة على محق الحق وعازمة على جذّ أصول العدل ومصممة على أستئصال جرثومة الوحي وقطع شجرة النبوة الباسقة فروعاً وأغصاناً وجادة كل الجدّ جاهدة على إطفاء نور الله المضيء في بلاده.

وقد سنحت الفرصة بقطع دابر هذه العصاة المتمردة وأمكنت الحازم الأريب من استئصالها وأبادتها فيستريح العالم الإسلامي من جورها وعدوانها ولكن أبت نفسه الحرة وأعراقه الكريمة وشيمه النفاحة بالفواضل عن ارتكاب الفعل التي لا تلائم طباع الأحرار ولا تتفق مع شيم الأذكياء وإن عدها المحاربون حزماً ويقظة وأخذوها فرصة سانحة وأعتبرها الساسة فتحاً معجلاً.

فإنه «عليه السلام» وكل ذي حفيظة شماء وأنف وشمم يراها ويعدها دناءة وخسة ويعتدها وصمة لا تناسب مجده التليد، ولا تلائم شرفه العتيد فأمر بإروائهم حيث أشرفوا على التلف وأشفوا على الهلاك، ولو صادفت هذه الفعل الكريمة نفوس عرب اقحاح وأماجد أحرار ولو كانت منه إلى رجال شرف ومفخرة لكانت منة من أعظم المنن ونعمة من أكبر النعم طوقهم بها كريم وأسدى لهم يداً بيضاء يجب شكرها على أعقاب الأعقاب ونسل النسل، ولكن بالأسف صادفت تلك المنة العظيمة واليد البيضاء نفوس أهل الكوفة الخسيسة ذات الأكباد الغليظة والطباع الجافية الجلفية والاعراق الدنيئة فأصبح الشكر الواجب عليها كفراناً

وجحوداً، لم يمض على هذه القصة أكثر من عشرة أيام حتى قابله أولئك الأوغاد الطغام بأشد ما يكون من القسوة، وأظهروا من الغلظة والجفاء والوقاحة القحة والصلف والفظاظة ما لم يقع له نظير، وحصروه في فلاة جرداء مقفرة ومفازة بعيدة عن الريف، ومنعوه ورد المباح المشترك بين سائر الحيوان، ويقول قائلهم بلا أكثرات ولا مبالاة ولا حياء ولا أمتعاض مما يأنف منه الاحرار، ولا يجسر على التلطف بما دونه العربي الكريم: يا حسين! أنظر إلى ماء الفرات كأنه بطون الحيات والله لا تذوق منه قطرة واحدة إلخ.

مع علمهم أنه ابن رسول الله ﷺ وريحانته وابن سيد الأوصياء وابن سيدة النساء، وهو وأخوه سيد شباب أهل الجنة وإنه إمام حق مفترض الطاعة نصاً صريحاً لقول رسول الله ﷺ فيه وفي أخيه الحسين «عليه السلام»: «ولداي هذان إمامان قاما أو قعدا»، فلم يرعوا تلك الحرمة ولم يفوا بتلك المنة، ولم يجازوا بتلك اليد ولا بأبعاضها فقد حملته الرقة وأخذته الرأفة حتى بدوا بهم التي تحملهم إلى حربه فأمر بترشيفها وإروائها فمارق أولئك الأجلاف ولا على طفله الرضيع فيرسلوا إليه جرعة من الماء قبل أن يرسلوا السهم الشرير إلى نحره الشريف وقد أحسن من قال:

أرى الإحسان عند الحر ديناً وعند النذل منقصة وذماً
كماء المزن في الأصداف در وفي بطن الافاعي صار سما

مقدرة الحسين «عليه السلام» وعظمته

وانظر إلى هذه المقدرة العظيمة مقدرة الحسين «عليه السلام» على إرواء ألف فارس وألف فرس وكل فرس لا ترويه قرية لأنها تشرب أربعاً وخمساً، وهذه المقدرة تدل على أن سلطنة الحسين «عليه السلام» عظيمة، وأن استعداده الملوكي أكبر استعداد لم يستعد ملك كان في العالم قبله لأننا لم نسمع أن ملكاً من الملوك المعاصرين له أو السابقين لعصره أروى بالفاضل عن كفاية جيشه هذا المقدار، ومن أروى بفاضل ماءه هذا العدد فهو عظيم جداً لا شك أن مع الحسين «عليه السلام» من العائلة والاتباع والخدم والاكرياء ومن صحبه في الطريق من أهل الامصار قاصداً إلى وطنه ما لا يقل عن الالفين، وكم تعد لهم من الدواب التي تحملهم وتحمل أزوادهم وأثقالهم وتحمل الماء الذي هذا مقداره حتى يكفي الفاضل منه ألف فارس وألف فرس، فإذا قست ذلك إلى هذا العدد ثبت أن ليس

في مقدرة ملك من ملوك الدنيا قبل عصر الحسين «عليه السلام» وبعده إلى زمن ظهور الآلات البخاريّة والمضخات والانابيب فقد ورد في سير كثير من الملوك أنه متى اجتاز بمنزل لا ماء فيه أثر بجنده العطش وإن الحسين «عليه السلام» بنفس الماء الذي سقى به هؤلاء الأجلاف يكفي الجيش الضخم في أي منزل على غير ماء.

للمؤلف:

سبط النبي علا كل الملوك عُلا وفاقهم باقتدار غير محدود
بفاضل الماء روى ألف راحلة وألف شخص لهيف القلب مجهود
هم أهل بيت لهم في كل معضلة فضل على الناس لا يحصى بتحديد
إن تذكر الرشيد فالإرشاد شيمتهم أو تذكر الجود كأنوا الأس للجود
لكن من عجب الأيام إن حكمت آل الطليق بآل المصطفى الصيد
تلك السكارى نشاوي في أسرتها وآل خير الورى صرعى على البید

سقاية أبي الفضل العباس «عليه السلام» لعطاشى كربلاء

قد تكررت منه السقاية وليست سقاية واحدة كما توهمه بعض أهل المقاتل بل هي ثلاث مرات جلب فيها الماء لعطاشى عيال أخيه الحسين «عليه السلام» حسبما أستفدنا ذلك من الأخبار الواردة في قصة المقتل الشريف.

السقاية يوم كربلاء ثلاثة:

اثنان علويان العباس الأكبر وعلي بن الحسين الأكبر، وواحد همداني هو برير ابن خضير.

أما علي بن الحسين «عليه السلام» فذكر قصة سقايته فخر الدين الطريحي في المنتخب^(١) فراجعها، ورواها الصدوق القمي (رحمه الله) في الأمالي وأنه بعثه في ثلاثين فارساً وعشرين راجلاً راجعها في قصة المقتل من الأمالي، ورواها الدربندي في أسرار الشهادة^(٢).

وأما سقاية برير فرواها صاحب اسرار الشهادة وتبعه صاحب معالي السبطين وتركنا ذكر القصتين حذر التطويل وفوت الغرض المقصود.

(١) المنتخب ٥٥/٢ طبع الحجري النجف. المطبعة المرتضوية.

(٢) أسرار الشهادة: ص ٢٦٢.

أما سقاية العباس «عليه السلام»:

فقد تكررت منه مراراً منها ليلة العاشر نفذ بأمر أخيه الحسين «عليه السلام» لطلب الماء، ومنها يوم العاشر قبل مقتله سمع صراخ العائلة وضجة الصبية من الظماً فاستأذن سيده الحسين «عليه السلام» فأذن له، ومنها يوم العاشر أيضاً ولكن ساعة مقتله، وقد قال له الحسين «عليه السلام»: أحمل معك القربة، وفي هذه النوبة تمكن من الوصول إلى المشرعة وملاً القربة لكنه لم يتمكن من إيصال الماء إلى العائلة لأن حرس الماء قد تداعوا عليه من كل صوب واحاطوا به من كل وجه فقطعوا عليه خط الرجعة وعلموا أن سلامة القربة تحته على اختراق تلك الصفوف وأن الجموع مهما تراكت وتكاثفت عليه سيشققها نافذاً إلى الحسين «عليه السلام» وإنه يصل إلى مقصده لا محالة فرأوا من المستحيل صده عن مقصده إلا بإراقة ماء القربة فإن إراقة ماءها يوجب ضعف عزيمته ويوهن عزمه وينهك قوى نهضته فتعمدوا القربة وجعلوها هدفاً ورشقوه رشقاً متواصلاً فأصابها بعض السهام المسددة نحوها فشققها وأريق الماء فكانت هي السبب لأن يقف هدفاً للسهام وغرضاً للأسنة والظباة وآثر حينئذ المنية على مواجهة العائلة اللهيبة التي ترقب طلوعه عليها بالمنعش والمنقذ من لهفة الصدا ورأى أن مودة الحر الكريم أيسر من إيراد حجج الاعتذار، وهذه القصة الأخيرة نوردها مفصلة في حديث شهادته في الجزء الثالث (من هذا الكتاب) (١) ..

السقاية الأولى:

ذكر عامة أرباب المقاتل أن أهل الكوفة منعوا الحسين «عليه السلام» من الوصول إلى الشريعة ثلاثة أيام لذلك أورد أبو مخنف في مقتل الصغير وسبط ابن الجوزي في التذكرة شهادة العباس يوم السابع من المحرم ولكن المروي عن السيدة سكينة بنت الحسين «عليهما السلام» أنها قالت: عز ماؤنا يوم التاسع وهو الأوفق الا صوب لأن استعداد الحسين «عليه السلام» بالماء حسبما سمعت يكفي لسد حاجاتهم ثلاثة أيام فتشتد حاجتهم له ليلة العاشر.

وفي كلام أبي حنيفة الدينوري في الأخبار الطوال: إن بقايا ماء بقيت عندهم ليوم العاشر ذكر ذلك في مقتل الحسين «عليه السلام» (٢) ونصه: وبقي ملياً جالساً ولو شأوا أن يقتلوه قتلوه غير أن كل قبيلة كانت تتكل على غيرها وتكره الإقدام

(١) ما بين قوسين من الناشر.

(٢) الأخبار الطوال: ص ٢٥٥.

على قتله، وعطش الحسين «عليه السلام» فدعى بقدر من ماء فلما وضعه في فيه رماه الحصين بن نمير بسهم فأدخله في فمه وحال بينه وبين شرب الماء فوق القدر من يده، ولما رأى القوم قد أحجموا عنه قام يتمشى على المسناة نحو الفرات فحالوا بينه وبين الماء فأصرف إلى موضعه الذي كان فيه إلخ.

وهذا القول في غاية الشذوذ والغرابة لا اتفاق المؤرخين أنه «عليه السلام» قدم طفله الرضيع إلى الأعداء طالباً له منهم الماء لشدة ظمأ الطفل وإنه قد أشرف على الموت من العطش فلو كان في خيامه قدر ماء أثر به الطفل وما أحتاج إلى طلب من أجلاف أنزال.

قال سبط ابن الجوزي في التذكرة^(١): لما رحل الحسين «عليه السلام» من القادسية وقف يختار مكاناً ينزل فيه وإذا سواد الخيل أقبل كالليل كأن راياتهم أجنحة النور وأستهم اليعاسيب فنزلوا مقابلهم ومنعواهم الماء ثلاثة أيام.

ثم قال بعد أسطر: ولما أشد العطش بالحسين «عليه السلام» وأصحابه بعث بالعباس بن علي أخيه إلى المشارع في ثلاثين فارساً وعشرين راجلاً فاقتلوا عليه ولم يمكنهم من الوصول إليه، انتهى، وفيه شذوذ أيضاً من جهة اتفاق المؤرخين أنه «عليه السلام» وصل إلى الماء وأوصله إلى الحسين «عليه السلام» صرح بذلك الطبري وغيره.

وهذا السيد الداودي قد سقط سقطة فاضحة حيث قال في عمدة الطالب^(٢): يكنى أبا الفضل ويلقب السقا لأنه استسقى الماء لأخيه الحسين «عليه السلام» يوم الطف وقتل دون أن يبلغه إياه إلخ، وفي هذا الكلام غلط واشتباه؛ أما الغلط فلأنه زعم أنه سمي سقا لسقايته له مرة واحدة ثم نفاها وكيف يسمى إنسان بما لمن يفعل وإنما عزم على الفعل وهذا غلط لا يسمى الرسول رسولاً حتى ينفذ بالرسالة ولا الضارب ضارباً حتى يقع منه الضرب.

أما الاشتباه فلظنه أنه «عليه السلام» ما استسقى إلا عند قرب مقتله وهذا اشتباه قطعاً لأنه استسقى قبل مقتله اتفاقاً وإن اختلفوا في هذه السقاية هل كانت ليلة العاشر أم نهار العاشر فذهب إلى كل فريق ويلزمنا هنا بيان أمر يدل على فائدة الإمعان في التاريخ ليتبحر الذكي فيستخرج منها المعاني الصحيحة المخبأة في عناوين الآثار فنقول: إن في قول القائلين في سقاية العباس الأكبر «عليه السلام»

(١) تذكرة الخواص: ص ١٤١.

(٢) عمدة الطالب: ص ٣٢٣.

التي صحبه فيها نافع بن هلال البجلي كانت ليلاً وإن أبا الفرج ومن وافقه فقد وهموا في ذلك فجعلوها نهراً يدلنا على ذلك أجمع الأقوال على أن أهل الكوفة قد عاجلوا الحسين «عليه السلام» بالقتال عند أول ظهور نور الفجر حتى أنه «عليه السلام» غلس في الصلاة بأصحابه لأن أهل الغدر ينتظرون بهم أنقضاء الأجل في المواعدة الموقته وهي سواد الليلة العاشرة فالتحمت الحرب مع تألق ضوء الصبح وأشتبك القتال والأصحاب في مراكزهم، ويدلنا اتفاق المؤرخين أن الحسين «عليه السلام» أفرد خيمة يغتسل فيها هو وأصحابه لأجل أن يحيوا ليلتهم بالعبادة وأزدحم أصحابه على بابها ينتظرون خروجه ليصلوا ويغتسلوا وهم يتسابقون على التبرك بالفاضل منه، وصريح عامة الأقوال وقع الاغتسال تلك الليلة مع الاتفاق أن الماء عز عندهم يوم التاسع حتى لم يبق ما يكفي للشرب فلولا الإتيان بالماء ليلاً لما وقع الاغتسال، وأتفق المؤرخون أيضاً أنه لم تسنح فرصة في نهار العاشر لأي عمل كان لاشتغال الأنصار بالحملات والمحاماة والمدافعة عن حشاشة الإمام «عليه السلام» فألهتهم تلك الحالة عن كل شيء لأن حفظه «عليه السلام» أهم الواجبات.

والعباس «عليه السلام» واقف في مركز القلب لا يتحلحل ولن يزل عن موقفه تجاه الحسين «عليه السلام» بيده اللواء يخفق إذا ما دام العلم ثابتاً في مركزه فقلوب المجاهدين طامنة وادعه فلو زال لاختل النظام العسكري واختلف الترتيب وضعف عزم صاحب العزم، أليست تقرأ في سيرة إبراهيم أحمر العينين بن عبد الله المحض: لما التحمت الحرب بينه وبين قائد جيش المنصور الدوانيقي عيسى بن موسى الهاشمي العباسي فإن جيش العباسي أنهزم وأتبعه جيش العلوي فعرضت له مخاضة في الطريق فأنحرف معها حامل لواء إبراهيم فلما رأى عسكره أنحرافه تنادوا الهزيمة فأنهزموا وعطف الجيش العباسي وقتل إبراهيم جاءه سهم غرب غائر فقتله.

فالحسين «عليه السلام» محافظ تمام المحافظة على هذا النظام العسكري لأنه «عليه السلام» له المهارة بالفنون العسكرية والخبرة التامة بأساليب الكفاح وأنواع الحرب فكلما قدم العباس «عليه السلام» للتضحية أمامه أن يقتل دونه يقول له: أنت حامل لوائي ورئيس عسكري فمتى سنحت فرصة تمكن فيها من إرسال العباس «عليه السلام» مع خمسين من أصحابه يخلو بمراكزهم الحربية ويدعو خطوط الدفاع شاغرة امام الجيش المحقق بهم حتى يقصدوا الشريعة ما كان في ذاك الوقت بل كان ليلاً وقد صرحوا جميعاً عند ذكر مصارع أعيان الشهداء أمثال

مسلم بن عوسجة وحبیب والحر ومن أشبههم أن الحسين «عليه السلام» يمشي إليهم مع بعض أصحابه أو يأمر البعض بحملهم إلى فسطاط القتلى المضروب في المعركة ولم يأمر العباس «عليه السلام» بمغادرة مركزه حتى عند مصرع أعز فقيده عليه ولده علي الأكبر «عليه السلام» قال لفتيانہ: إحملوا أخاكم، والعباس «عليه السلام» واقف باللواء كل ذلك محافظة على بقاء نظام عسكره مادام اللواء في مقره ثابتاً في مركزه.

فإذن كانت السقاية ليلاً وهي التي شهدها نافع بن هلال وهذه هي السقاية الأولى وبما قررناه تبين لك أن أبا الفرج قد وهم في ذكره لها نهائياً، فلما لم يبق من الأنصار سوى نفرين أو ثلاثة لم تكن حينئذ فائدة كبيرة في اللواء فسمع العباس «عليه السلام» صرخة العائلة وضجة الاطفال فلم يستطع الصبر فأستأذن الحسين «عليه السلام» فأذن له في قصدة المشرعة فقصدها وحده واللواء على كتفه والسيف وصلت بيده حتى أقتحم الفرات وملاً القربة وأقبل بها ركضاً إلى العيال فناولهم إياها فكانت هذه هي السقاية الثانية.

ثم وقف في مركزه حتى إذا لم يبق غيره وغير الحسين «عليه السلام» تقدم أمامه يحمل اللواء والسقاء في كتفه وأقحم فرسه في الفرات وهذه هي السقاية الثالثة وفيها أغترف غرفة من الماء وأدناها من فمه ثم رماها حين ذكر عطش الحسين «عليه السلام» وعياله - كما يأتي شرحه في فصل الإيثار - وهذه المرة لم يتمكن من إيصال الماء إلى خيم الحسين «عليه السلام» لأن بعض السهام شك القربة ففراها وأراق ماءها.

وإليك نصوص أهل التاريخ فالقائلون أن سقايته كانت ليلاً كثيرون أوردوها في حوادث الليلة العاشرة منهم العلامة المجلسي في البحار^(١)، والفاضل الدربندي في الاسرار^(٢) وملاً عبد الله في مقتل العوالم^(٣) وعبد الخالق اليزدي في مصائب المعصومين^(٤) ومشاهير المؤرخين كأبن الأثير وابن كثير والطبري، وهذا نص الطبري^(٥) بعد أن ذكر أن الحسين «عليه السلام» منع من الماء ثلاثة أيام قال: فلما أشد العطش بالحسين «عليه السلام» وأصحابه دعا العباس بن علي بن أبي طالب أخاه فبعثه في ثلاثين فارساً وعشرين راجلاً وبعث معهم عشرين قربة فجاؤوا

(١) بحار الانوار ١٠/ ١٩١.

(٢) عوالم العلوم: ص ٧٦.

(٣) تاريخ الطبري ٦/ ٢٣٤.

(٤) أسرار الشهادة: ص ٢٤١.

(٥) مصائب المعصومين: ص ٢٣٤.

حتى دنو من الماء ليلاً وأستقدم امامهم باللواء نافع بن هلال الجملي، فقال عمرو بن الحجاج الزبيدي: من الرجل؟ - وفي كلام غيره: من القوم؟ - فقال نافع: ابن عمك - أو ابن عم لك - قال: وما جاء بك؟ قال: جئنا لنشرب من هذا الماء الذي حلأتمونا عنه، قال: فأشرب هنيئاً، قال: لا والله لا أشرب منه قطرة وحسين عطشان ومن ترى من أصحابه، فطلعوا عليه فقال: لا سبيل إلى سقي هؤلاء فإنما وضعنا بهذا المكان لمنعهم الماء، فلما دنا منه أصحابه قال لرجاله: أملأوا قربكم، فشد الرجال فملأوا قربهم وثار إليهم عمرو بن الحجاج وأصحابه فحمل عليهم العباس بن علي «عليه السلام» ونافع بن هلال فكفوهم ثم انصرفوا إلى رحالهم فقالوا: أمضوا ووقفوا دونهم فعطف عليهم عمرو بن الحجاج وأصحابه واطردوا قليلاً ثم إن رجلاً من صداء طعن من أصحاب عمرو بن الحجاج طعنه نافع بن هلال فظن أنها ليست بشيء ثم إنها أنتقضت بعد ذلك فمات منها وجاء أصحاب الحسين «عليه السلام» فأدخلوها عليه، انتهى، هكذا رواها أبو الفرج في المقاتل^(١) نهار العاشر وهو وهم كما عرفت، وعدو الله عمرو بن الحجاج قتله الله بالعطش أيام المختار، ذكر قصة هلاكه بالعطش صاحب الأخبار الطوال^(٢) فأطلبها.

السقاية الثانية لأبي الفضل «عليه السلام»:

ذكر الفاضل الدربندي في الاسرار^(٣) من قصة مطولة منها أن العباس «عليه السلام» سمع الحسين «عليه السلام» ينادي: أما من ذاب يذب عن حرم رسول الله؟ خرج إليه وقبل ما بين عينيه وودعه وسار حتى أتى الشريعة وإذا دونها عشرة آلاف فارس مدرعة فلم يهولوه فصاحت به الرجال من كل جانب: من أنت؟ فقال: أنا العباس بن علي ثم نادى: يا بني فلان أنا ابن أختكم الكلابية وأنا عطشان وأهل بيت محمد ﷺ يذادون عن الماء وهو مباح للكلاب والخنازير فسار العباس «عليه السلام» ونزل في الفرات حتى ملأ القربة ولما رآهم العباس «عليه السلام» تسارعوا إليه وهو مكب على الماء حط القربة على عاقته واستقبل القوم يضربهم بسيفه وهو يقول:

أنا الذي أعرف عند الزمجره بابن علي المسمى حيدر

أن اثبتوا اليوم لنا يا كفره

(٢) الأخبار الطوال: ص ٣٩٨.

(١) مقاتل الطالبين: ص ٤٧.

(٣) أسرار الشهادة: ص ٣١٩.

ثم حمل عليهم وهو يقتل فيهم حتى قتل من أبطالهم مائة ثم أنشأ يقول:
 لله عين رأت ما قد احاط بنا من اللئام وأولاد الدعيات
 يا حبذا عصابة جادت بأنفسها حتى تحل بأرض الغاضريات
 الموت تحت ذباب السيف مكرمة إن كان من بعده سكن لجنات
 ثم حمل على القوم وجندل الأبطال حتى قرب من أخيه الحسين «عليه
 السلام»، ثم ساق القصة المطولة وقال: ودخل العباس «عليه السلام» إلى خيمة
 الحرم بالسقاء الذي معه فتواسوا به الأطفال ولم يرووا ألخ.
 السقاية الثالثة تأتي في الإيثار وفي شهادته فإن ذاك موضعها.

للمؤلف:

يسقى البسيط دماً في حد صارمه
 ويستقي للعطاشى وهو ذو ظمأ
 ولفحة من هجير القيظ كافحها
 أم الشريعة يعدو بالسقاء وقد
 غداة أعلن داعي الكفر مبتهاجاً
 انظر حسين إلى ماء الفرات جرى
 فلن تذوق قطرة منه ولا جرعاً
 فهزت البطل العباس شيمته
 نادى أخاه سليل الوحي في أدب
 دعني أجالدهم أشفي غليل حشى
 فإن لي ثار في قبائلهم
 يا سيدي كيف صبري والجميع غدوا
 وصرخة النسوة الثكلى تحركني
 وهد ركن اصطباري الباقيات ظما
 وإنما ضجة الباكين من عطش
 وكم رضيع يقاسي الموت من ظمأ
 دعني أموت ولم اسمع مروعة
 إن فاتها الري من هطالة المزن
 أضمره لا هب الهيجاء والجنن
 والشمس تقدح ناراً في الحصا السخن
 غصت بجمع من الفجار ذي إحن
 بكثرة الحشد في سر وفي علن
 عذب الرواء برود الطعم كاللبن
 حتى تموت لهيف القلب ذا حزن
 إلى القراع كهز الريح للغصن
 أنت الصبور وصبري بالهموم فني
 ذابت حريقاً على ذي الحقد والإحن
 دماء قومي وإخواني وذو شجني
 مثل الأضاحي بلا غسل ولا كفن
 على القراع لأهل الغي والفتن
 من نسل خير الورى الهادي أبي حسن
 تهز أرسخ طود شامخ القنن
 جفت ثداً أمه عن درة اللبن
 من العقائل تشكو شدة المحن

قال الحسين له حامي على حرم مصونة بحجاب الوحي من زمن
وضحي نفسك يا حر الفعال وموت الكرام لأجل الدين والوطن
فكل ذي شيمة شماء مبتهج بالموت دون هوان العرض والسنن
أرسل إلي نائب سوق الشيوخ المرحوم الشيخ محمد حسن نجل العلامة
الشيخ باقر حيدر من تخميس له لبيتي أبي الحب الخطيب الكربلائي:
يا من فدى النفس من أجلي على عجل هيجت ما بأخيك اليوم من علل
أخي أبا الفضل يا ذخري ويا أملي أبوك كان لجدي مثل كونك لي
بنفسه نفس من أخاه يفديها
جدي بوالدك الرحمن آزره على العدى وبه للدين أظهره
فكان ناصر دين الله مفخره أبوك ساقى الورى في الحشر كوثره
وأنت أطفالنا بالطف ساقياها

ألقاب العباس «عليه السلام»

من ألقاب العباس «عليه السلام» «كبش الكتيبة»

ومن ألقاب العباس بن أمير المؤمنين «عليه السلام» (كبش الكتيبة أو كبش كتيبة الحسين) «عليه السلام».

وتفسير الكتيبة يأتي في أنظمة الجيوش في الجزء الثالث أما الكبش فالعرب تطلقه على مقدم العسكر أميراً كان أو ملكاً وعلى الشجاع الذي لا يقاوم بأساً ونجدة.

قال الفيروزآبادي في القاموس: الكبش الحمل إذا إنتهى وإذا خرجت رباعيته جمعه أكبش وكباش وأكباش وسيد القوم وقائدهم ألخ.

وليس هو حقيقة بل هو مجاز لأن الكبش حقيقة وفي أصل الوضع يرأس القطيع من الأغنام والظباء ويحميها بنطاحه ولما كان قائد الجيش ورئيس القوم والبطل الحربي يرأس الجيش ويحميه بيده وتدبيره قيل له كبش وله جرأة على النطاح وإقدام كما شهد الوجدان بذلك فإن الكبش إذا ناطح كبشاً لم ينصرف عنه حتى يحجز بينهما أو يقتل أحدهما الآخر، وكما أطلق الكبش على الشجاع مجازاً أطلق على المبتدع إذا كان متبوعاً على جهة الاستعارة حيث أن قطع الأغنام يتبع الكبش في المرعى كذلك بهائم العوام يتبعون الظال المبتدع في ضللاته وبدعته.

فقد قال رسول الله ﷺ في رجل من قريش يلحد بمكة: كبش أسمه عبد الله عليه نصف عذاب أهل النار متفق عليه عند الشيعة والسنة وقد ذكرنا من رواه من حفاظ أهل السنة في كتابنا (الميزان الراجح) في ترجمته ولا يطلق الكبش في الحرب عند العرب، إلا على من تكاملت فيه سمات البطولة وجمعت فيه صفات الرجولية ولقب بهذا اللقب قبل أبي الفضل العباس بن علي «عليهما السلام» رجلاً من أعظم رجال العرب وأشهرها أحدهما بطل المشركين بلا نزاع طلحة بن أبي طلحة القرشي من آل عبد الدار فكان يلقب كبش الكتيبة قتله أمير المؤمنين

«عليه السلام» يوم أُحد فُسّر بقتله رسول الله ﷺ وبقتله فلت شوكة المشركين وكسر حدهم، والثاني بطل المسلمين غير مدافع وهو مالك بن الحارث الأشتر النخعي صاحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» بطل العرب المشهور كان يلقب كبش العراق.

ويطلق لفظ الكبش على كل بطل ويقال للأبطال كباش وشبهوا أعتراك الأبطال بالنطاح وأما إطلاقه على الملوك الظلمة فقد ورد في كلام مولانا أمير المؤمنين «عليه السلام» بقوله في عبد الملك بن مروان: أبو الأكبش الأربعة.

قتل أمير المؤمنين «عليه السلام» لكبش الكتيبة

ذكر قصته عامة أهل السير منهم ابن أبي الحديد المعتزلي الحنفي والحلي الشافعي ومفتي الشافعية زيني دحلان وغيرهم، ولفظ الحلبي في سيرته^(١) في غزوة أُحد قال: خرج رجل من المشركين بين الصفيين وهو طلحة بن أبي طلحة، وأبو طلحة والده أسمه عبد العزى ابن عثمان بن عبد الدار وكان بيده لواء المشركين لأن بني عبد الدار كانوا أصحاب لواء المشركين لأن اللواء كان لجدهم عبد الدار، وطلب طلحة المبارزة مراراً فلم يخرج إليه أحد، فقال: يا أصحاب محمد! زعمتم إن قتلكم إلى الجنة وإن قتلنا إلى النار - وفي رواية: زعمتم يا أصحاب محمد أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة - فهل أحد منكم يعجلني بسيفه إلى النار أو أعجله بسيفي إلى الجنة؟! كذبتهم واللات والعزى لو تعلمون ذلك حقاً لخرج إليّ بعضكم.

فخرج إليه علي بن أبي طالب «عليه السلام» فاختلفا ضربتين فقتله علي «عليه السلام»، وفي رواية: التقيا فبدره علي «عليه السلام» فصرعه أي قطع رجله وقع على الأرض فبدت عورته، فقال: يا ابن عميج أنشدك الله والرحم فرجع عنه ولم يجهز عليه، فقال له بعض أصحابه: أفلا أجهزت عليه، فقال: إنه استقبلني بعورته وعطفتني عليه الرحم وعرفت أن الله قد قتله، وفي رواية: إن رسول الله قال له: ما منعك أن تجهز عليه؟ فقال: ناشدني الله والرحم، فقال: أقتله فقتله.

ووقع لسيدنا علي «عليه السلام» مثل ذلك يوم صفين مرتين: الأولى حمل على بسر بن أرطاة فلما رأى أنه مقتول كشف عورته فأنصرف عنه، والثانية حمل على عمرو بن العاص فلما رأى أنه مقتول كشف عورته فأنصرف عنه علي «عليه السلام».

ثم قال آخر الصفحة: ولما صرع صاحب لواء المشركين الذي هو طلحة بن أبي طلحة أستبشر النبي ﷺ وأصحابه أي لأنه كبش الكتيبة أي الجيش أي حاميتهم الذي رأى النبي ﷺ فيم رؤياه المتقدمة أنه مردفاً كبشاً وقال: أولت ذلك أني أقتل كبش الكتيبة، انتهى.

وفي رواية ابن إسحاق: إن الذي قتله أمير المؤمنين «عليه السلام» هو أبو سعد بن أبي طلحة وهو صاحب لواء المشركين وخرج إليه أمير المؤمنين «عليه السلام» وهو يقول: أنا أبو القصيم، ويقال أبو القصيم^(١) ولعل أبو سعد كنية لكبش الكتيبة.

قال ابن أبي الحديد في الشرح^(٢): فلما قتل طلحة سرّ رسول الله ﷺ وكبر تكبيراً عظيماً وكبر المسلمون إلخ.

والطبري أجمل القصة ولكنه ذكر بعد قتله لعبدتهم صواب آخر أصحاب اللواء وقد قطعت يده على اللواء فأحتضنه وبرك عليه ب صدره وعنقه حتى قُتل عليه.

قال^(٣): لما قتل علي بن أبي طالب «عليه السلام»: أصحاب الألوية أبصر رسول الله ﷺ جماعة من مشركين قريش فقال لعلي «عليه السلام»: إحمل عليهم فحمل عليهم ففرق جمعهم وقتل عمرو بن عبد الله الجمحي، قال: ثم أبصر رسول الله ﷺ جماعة أخرى من مشركين قريش فقال لعلي «عليه السلام»: إحمل عليهم فحمل عليهم ففرق جمعهم وقتل شيبه بن مالك أحد بني عامر بن لؤي، فقال جبرئيل «عليه السلام»: يا رسول الله! إن هذه لهي المواسات، فقال رسول الله: إنه مني وأنا منه، فقال جبرئيل «عليه السلام»: وأنا منكما، قال: فسمعوا صوتاً:

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي

إلخ. وقوله: (أنا أبو القصم) في رواية ابن إسحاق، وفي رواية غيره إن كبش الكتيبة قال: قد علمت إنه لا يتجرأ عليّ غيرك يا أبا القصم وتفسيره على ما ذكروا أن قريشاً لما أمتنع عليهم رسول الله ﷺ بعمه أبي طالب فلم يصلوا إليه بالأذى أغروا به صبيانهم فإذا خرج آذوه وعبثوا به فشكى ذلك إلى عمه أبي طالب «رضوان الله عليه» فقال: يا ابن أخي! إذا خرجت فخذ معك أخاك علياً، فخرج رسول الله ﷺ وعلي معه وهو غلام فلما عبث الصبيان برسول الله ﷺ شد عليهم

(١) أنظر: سيرة ابن هشام ٣٥٩/٢. (٢) شرح نهج البلاغة ٣٦٦/٢.

(٣) تاريخ الطبري ١٧/٣.

علي «عليه السلام» فكان إذا قبض على أذن أحدهم قصمها أي قطعها أو على أنفه قصمه فذهبوا يتصارخون إلى أهلهم هذا يقول: قصم أذني عليّ وهذا يقول قصم أنفي عليّ، وفي نسخة: صلمها فلقب لذلك بالقصيم وبالصيلم، وقيل له أبو القصم.

كُشف عمرو بن العاص وبسر بن أرطاة لعورتيهما

قد أجمل الحلبي الشافعي قصتهما وقد استدفع ربح أمير المؤمنين «عليه السلام» الذي يرشح بالمنون ويقطر بالمنية ثلاثة من أبطال قريش: أحدهما العبدري كبش الكتيبة يوم أحد كما عرفته، والثاني عمرو بن العاص السهمي، والثالث بسر بن أرطاة العامري كلاهما يوم صفين وقد اروثتهما تلك الطعنة المباركة خزيًا وجللتهما عارًا إلى الابد فضربت بذلك الامثال، فقال أبو فراس الحمداني:

فلا خير في دفع الردى بمذلة كما ردها يوماً بسوءته عمرو
وقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط وقد حثهم معاوية على لقاء أمير المؤمنين «عليه السلام»:

يقول لنا معاوية بن هند	أما فيكم لو اترككم طلبوب
يشد على أبي حسن عليّ	بأسمر لا تهجنه الكعوب
فيهتك مجمع اللبابة منه	ونقع الخيل مطرد يثوب
فقلت له أتلعب يا بن هند	كأنك بيننا رجل غريب
أتأمرنا بحياة بطن واد	إذا نهشت فليس لها طبيب
وما ضبع يدب ببطن واد	أُتيح له به أسد مهيب
بأضعف حيلة منا إذا ما	لقيناه وذا منا عجيب
دعا للقاء في الهيجاء لاق	فأخطأ نفسه الأجل القريب
سوى عمرو وقته خصيتاه	نجى ولقلبه منها وجيب
كأن القوم لما عاينوه	خلال النقع ليس لهم قلوب
لعمر أبي معاوية بن حرب	وما ظن تلقحه الغيوب
لقد ناداه في الهيجا عليّ	فأسمعه ولكن لا يجيب

وقال مالك الأشر:

أكل يوم رجل شيخ شاغره وعورته وسط العجاج ظاهره
تبرزها طعنة كف واطره عمرو وبسر رميا بالفاقره
وقال النضر بن الحارث الجشمي:
أفي كل يوم فارس تندبونه له عورة وسط العجاجة باديه
يكف بها عنه علي سنانه ويضحك منها في الخلاء معاوية
بدت امس من عمرو فقنع رأسه وعورة بسر نحوها حذو حاذيه
فقلوا لعمرو وأبن أرطاة أبصرا سبيلكما لا تلقيا الليث ثانيه
ولا تحمدا إلا الحيا وخصاكما هما كانتا والله للنفس واقيه
ولولاهما لم تنجوا من سنانه وتلك بما فيها عن العود ناهيه
متى تلقيا الخيل المشيخة صبحه وفيها علي فاتركا الخيل ناحيه
وكونا بعيداً حيث لا يبلغ القنا بخمس الوغى إن التجارب كافيه
وإن كان منه بعد في النفس حاجة فعودا إلى ما شئتما هي ماهيه
واطلب القصتين تفصيلاً من كتاب صفين لنصر بن مزاحم^(١).

تلقيب الأشر بكبش العراق

ذاك أمر مشهور أكثر شعراء صفين من ذكره، فقال شاعر أهل الشام مستغنياً حين عضتهم سيوف أهل العراق لائذاً بأحكام المواعدة بين علي «عليه السلام» ومعاوية:

رؤوس العراق أجيبو النداء وقد أودت الحرب بالعالمين
فلسنا ولستم من المشركين ولا المجمعين على الردة
ولكن أناس لقوا مثلهم لنا عدة ولهم عدة
فقاتل كل على وجهه يقحمه الجد والنجدة
فإن تقبلوها ففيها البقاء وأمن الفريقين والبلدة

(١) وقعة صفين: ص ٢٤٥ و ٢٢٣.

وإن تدفعوها ففيها الفناء وكل بلاء إلى مدة
وحتى متى مخض هذا السقاء ولا بد أن تخرج الزبدة
ثلاثة رهط هم أهلها وإن يسكتوا تخمد الوقدة
سعيد بن قيس وكبش العراق وذاك المسود من كندة

قال نصر بن مزاحم^(١): فحمد هؤلاء النفر المسمون في الصلح؛ فأما
المسود من كندة فهو الأشعث فإنه لم يرض بالسكوت بل كان من أعظم الناس
قولاً في إطفاء الحرب، وأما كبش العراق وهو الأشتر فلم يكن يرى إلا الحرب
ولكنه سكت على مضض، وأما سعيد بن قيس فتارة هكذا، وتارة هكذا، وقال:
وذكر نصر قصة الأشتر مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فأطلبها، وفي هذه
القصة وهزيمة عبد الرحمن يقول النجاشي من أبيات:

دعونا لها الكبش كبش العراق وقد خالط العسكر العسكر

وصف البطل بالكباش على جهة الحموم

شاع ذاك عند العرب ونظموه في اشعارهم واستيفاء الشواهد تطويل فخذ
بعض الاشعار فمنه ماعن الدميري في حياة الحيوان وهو من شعر صفيين:
الليل داج والكباش تنتطح نطاح أسد ما أراها تصططح
فمن يقاتل في وغاها ما نجى ومن نجى بنفسه فقد ربح
ومنه قول عمرو العكي بصفيين يدعو النجاشي الحارثي شاعر أهل العراق إلى
المبارزة:

أبرز إلى ذا الكباش يا نجاشي اسمي عمرو وأبو خراش
فاجابه النجاشي بشعر منه:
إرود قليلاً فأنا النجاشي

إلى إن قال فيه:

أنصر خير راكب وماشي أعني علياً بين الرياشي
من خير خلق الله في نشناش مبرء من نزق الطياشي
بيت قريش لا من الحواشي ليث عرين للكباش غاشي
يقتل كبش القوم بالهراش

ومنه قول عمرو بن العاص وكان أشار على معاوية أن لا يمنع علياً وأهل
العراق الماء بصفيين وقال له: إن علياً لا يعطش وهو من قد عرفت ومعه فرسان
العرب ويده أعنة الخيل، فخالفه معاوية وأخذ برأي ابن أبي سرح وابن أبي معيط
وغيرهما من الحمقاء، فلما ضربهم أهل العراق تلك الضربة القاسية وصدموهم
تلك الصدمة الموجهة فأكتسحوهم من الشريعة وأقصوهم عنها أميالاً وملكوها عنوة
وقسراً شمت عمرو بن العاص بمعاوية ومشيريه فقال مخاطباً لهم:

أمرتك أمراً فسخفته وخالفني ابن أبي سرحه
فأغمضت في الرأي إغماضة ولم ترى في الحرب كالفسحة
فكيف رأيت كباش العراق ألم ينطحوا جمعنا نطحة

أظن لها اليوم ما بعدها وميعاد ما بيننا صبحه
 فإن ينطحونا غداً مثلها نكن كالزبيري أو طلحة
 وإن أخروها لما بعدها فقد قدموا الخبط والنفحة
 وقد شرب القوم ماء الفرات وقلدك الأشر الفضحه
 وقال عمرو بن العاص أيضاً لمعاوية وقد أشار عليه أن يبارز أمير المؤمنين
 «عليه السلام» فاستغشه معاوية وقال: إنما أردت قتلى بمارزة ابن أبي طالب
 لتملك الشام، وقال شعراً يوبّخ فيه عمراً فأجابه بقوله:
 معاوية إن نكلت عن البراز لك الويلة فأنظر في المخازي
 فما ذنبي إذا نادى علي وكبش القوم يدعى للبراز
 الخ، ومنه قول عمرو يوم أحد وذكره ابن إسحاق في سيرته:
 ففداء لهم أُمي غداة الروع إذ يمشون قطوا
 سيراً إلى كبش الكتيبة إذ جلته الشمس جلوا
 الخ، وهذا كثير من أشعار العرب وإن شئت الزيادة فراجع المعاجم
 التاريخية العربية.

لقب العباس بكبش كتيبة الحسين «عليهما السلام»

اختصاص أبي الفضل بكبش كتيبة الحسين «عليهما السلام»:

هذا لقب يختص به أبو الفضل العباس الأكبر بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» دون سائر شهداء كربلاء وقد أختصه بهذا اللقب أخوه الحسين «عليه السلام» وجعله من ألقابه المميزة له وذلك حين اتاه يطلب منه الرخصة للهجوم على جيوش أهل الكوفة المحيطة به وقد أكثر الشعراء في تأبينه من ذكر هذا اللقب، فقال بعضهم بلسان حال سيد الشهداء الحسين «عليه السلام»:
 عباس كبش كتيبتني وكنانتني وسريّ قومي بل أعز حصوني
 وقال الأزرعي (رحمه الله):

اليوم بان عن الكتائب كبشها اليوم فل عن البنود نظامها
 قال الفاضل الدربندي في (أسرار الشهادة)^(١) وعنه الكربلائي في معالي
 السبطين^(٢) في شهادة العباس «عليه السلام» إن الحسين «عليه السلام» أنحنى عليه

ليحمله ففتح العباس عينيه فرأى أخاه الحسين «عليه السلام» يريد أن يحمله فقال: أين تريد يا أخي؟ فقال: إلى الخيمة، فقال: يا أخي بحق جدك رسول الله ﷺ عليك أن لا تحملني دعني في مكاني هذا، فقال: لماذا؟ فقال: إني مستح من ابنتك سكيمة وقد وعدتها بالماء ولم آتها به، والثاني إني كبش كتيبتك وإذا رأي أصحابك مقتولاً فربما يقل عزمهم، فقال له الحسين «عليه السلام»: جُزيت عن أخيك خيراً حيث نصرته حياً وميتاً، إنتهى.

ويعلق الكربلائي على إشكال عرض له ويجعله دليلاً على شهادة العباس أولاً وإنه أول قتيل ثم أيد نظريته هذه بكلام المقتل المنسوب لأبي مخنف وأوقفنا هذه النظرية على عامية الكربلائي وأرتنا بساطته:

أولاً: إلغاء ما حققه العلماء وورد في الزيارة أن أول الشهداء من العلويين علي ابن الحسين «عليهما السلام» فلا يصح إلغاء هذا المحقق لحكاية واهية في مقتل لم يثبت أنه لأبي مخنف.

وثانياً: لا يلزم من قوله قلّ عزم أصحابك أن يكون أول قتيل وأن أصحابه لم يقتلوا قبله، هذا جهل فاضح بل المراد لو صح ما في المقتل أن أصحابه المراد بهم الباقيين بعد مقتله «عليه السلام» فقد بقي من أصحاب الحسين «عليه السلام» بعد شهادة العباس جماعة وبعضهم جرحى فالإمام زين العابدين وعقبة بن سمعان مولى الرباب وبعض الموالى كانوا أحياء، والضحاك المشرقي الذي نجى بعد شهادة العباس «عليه السلام» وعنه وعن عقبة بن سمعان تروى أخبار الطف ونجى زياد الأقطع والد الفراء بعد أن قطعت يده بالطف، والموقع الأسدي أسر ونفاه ابن زياد إلى الزارة، والحسن المثنى عالج أخواله جراحاته فبرأ منها، وسويد بن أبي المطاع قتل بعد شهادة الحسين «عليه السلام» سمعهم وهو جريح يقولون: قتل الحسين، فأخرج سكيناً فقاتل بها فقتل، وسوار بن المنعم النهمي الهمداني أسر جريحاً ومات لسته أشهر وغير هؤلاء وهم الذين يقل عزمهم عند مشاهدة العباس «عليه السلام» قتيلاً وكذلك كان الأمر فقد هرب الضحاك واستسلم عقبة وأسر الباقيون بعد قتل الحسين «عليه السلام» وكانوا بوجوده واثقين بسلامة الحسين «عليه السلام» وبسلامة الحسين «عليه السلام» سلامتهم مضمونة، فإذا قتل العباس تيقنوا قتل الحسين «عليه السلام» فقل عزمهم، وهذا من التدبير وهو يدل على مهارة العباس «عليه السلام» بالفنون الحربية وخبرته بها.

من ألقاب العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» «حامي الظعن او حامي ظعينة كربلاء»

هذا لقب مشهور شائع إطلاقه على أبي الفضل العباس بن أمير المؤمنين «عليه السلام» ومن نعوته السائرة، فقد قال السيد جعفر الحلي في تأييده: حامي الظعينة أين منه ربيعة أم أين من عُلّيا أبيه مكرم وقلت فيه:

حامي ظعينة كربلاء بصارم صاды الحديد رواه قحف الرأس وكأنهم خصوه بهذا اللقب للفرق بينه وبين أخيه سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي «عليهما السلام» الملقب بحامي الإسلام وحامي الشرع المقدس، ورتبة العباس «عليه السلام» دون رتبة الحسين «عليه السلام» وحماية الظعينة أدنى من حماية الشريعة الغراء رتبة بكل معنى، ومن جهة ثانية إن الإمام الحسين «عليه السلام» هو الأمير والسيد والقائد ولا يباشر كل المهمات بنفسه وإنه لا بد للرئيس من معتمد يقوم مقامه وينوب عنه في المهمات وكان من أهل الكفاءة وله الأهلية في القيام بواجبه ليحصل الاعتماد عليه في ما رشح له وحيث لم يكن عند سبط النبي ﷺ أهم من القيام بحياطة العائلة المخدرة وحمايتها في تلك الفياقي الموحشة والمفاوز المقفرة وكان من أوثق القادمين معه في نفسه أخوه العباس الأكبر وأبنة علي الأكبر لما فيهما من الكفاءة لكل مهم يناط بهما فوظفهما لهذه المهمة فكانا يقومان بترحيل العائلة وإنزالها ويتوليان حراستها مع فتان العلويين، وأكثرهما قياماً بهذا الواجب وأشدّهما مباشرة لهذه الوظيفة أبو الفضل العباس.

ولما قتل علي الأكبر «عليه السلام» قبل عمه العباس «عليه السلام» قام أبو الفضل «عليه السلام» بالمحاربة عن المخيم وصد هجمات العدو عنه لأن أجلاف الأعداء يتقصّدون إيصال الرعب لتلك العقائل المخدرة حيث أنهم متيقنون أن في إرعاها كسراً لقلب الحسين «عليه السلام» لما عرفوه من شدة غيرته على حرمة فكانت كتائب الإرهاب الكوفية تقصد إخافة النسوة بكل جهودها ولكن موقف الحسين «عليه السلام» في جبهة القتال اليمنى والعباس «عليه السلام» في الجهة اليسرى يصدان هجمات الإرهاب العدائية عن المخيم ويحرسان المذايع من النسوة الخفرة وهن ما دمن ينظرن الاخوين الكريمين يتعاضدان في الحملة ويتناصران في الجولة في غاية الوثوق بالسلامة من تعديات المعتدين عليهن

والشرع المقدس يؤكد حفظ الحرم وصيانة العرض أشد تأكيد، ففي الاحاديث التي يعول عليها أن من قُتل دون ماله وعرضه فهو شهيد تأكيد أو فله أجر شهيد.

نعم وهي شيمة الأحرار وسجية أرباب الغيرة والحمية فإنهم يتهاكون على حفظ مخدراتهم وحراسة مصوناتهم ويتفانون على أقل خدشة تصيب الواحدة منهم وقد ضحى كثير منهم نفوسهم دون أعراضهم ونشبت بسبب ذلك حروب ووقعت وقائع ذات أهوال، وقد أجلى رسول الله ﷺ يهود بني قينقاع لهذا السبب، وكانت بعض وقائع الفجار المشهورة في الجاهلية لهذا السبب، وقد دافع رجال العرب بحسب المجهود ذيادةً عن الحرم وكافحوا بما استطاعوه، وإليك بعض ما سطره التاريخ وفي طليعته أجلاء النبي ﷺ ليهود قينقاع، فقد ذكر أهل السير ولفظ السيرة الهاشمية^(١):

قال ابن هشام: ذكر عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخزومة عن أبي عون قال: كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع فجلست إلى صائغ بها فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت أنكشفت سواتها فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهودياً، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فأستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.

قال ابن إسحاق: عن عمر بن قتادة: فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه فقال إليه عبد الله ابن أبي سلول حين مكث الله منهم فقال: يا محمد! أحسن في موالي فأعرض عنه وكانوا حلفاء الخزرج فأبطأ رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! أحسن في موالي، فأعرض عنه فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: أرسلني وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظلاً، قال: ويحك أرسلني، قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمئة حاسر وثلاث مائة دارع قد منعوا مني الأحمر والأسود تحصدتهم في غداة واحدة إني والله أمرء أخشى الدوائر، قال: فقال رسول الله ﷺ: هم لك، الخ. وفي هذه القصة نزلت سورة الحشر وتركنا صفة إجلاءهم حذر التطويل.

وقال ابن عبد ربه في العقد الفريد^(٢): كان الفجار الثاني بين قريش وهوازن وكان الذي هاجه أن فتية من قريش قعدوا إلى امرأة من بني عامر بن صعصعة

وضيئة وحسنة بسوق عكاظ وقالوا: بل طاف بها شباب من بني كنانة وعليها برقع وهي في درع فضل فأعجبهم ما رأوا من هيئتها فسألوها أن تسفر عن وجهها فأبت عليهم، فأتى أحدهم من خلفها فشد ذيلها بشوكة إلى ظهرها وهي لا تدري فلما قامت تقلص الدرع فنادت المرأة: يا آل عامر، فتحاور الناس وكان بينهم قتال ودماء يسيرة، فحملها حرب بن أمية وأصلح بينهم، انتهى.

وفي هاتين القصتين رد على من زعم أن العرب القدماء كانت عاداتهم السفور.

قال في العقد أيضاً^(١): غزى الحوفزان بن شريك وهو الحارث بن شريك فأغار على من بالقاعة من بني سعد بن زيد مناة فأخذ نعماً كثيراً وسبياً فيهن الزرقاء من بني ربيع بن الحارث فأعجب بها وأعجبت به وكانت خرقاء، فأتى الصريخ بني منقر بن سعد فركب قيس بن عاصم في أثر القوم حتى أدركهم بالأشمسين فألح قيس على الحوفزان وقد حمل الزرقاء وكان الحوفزان قد خرج في طليعة فلقية قيس بن عاصم فسأله من هو؟ فقال: لا تكاتم اليوم أنا الحوفزان، فمن أنت؟ قال: أنا أبو علي، ومضى ورجع الحوفزان إلى أصحابه فقال: لقيت رجلاً أزرق كأن لحيته ضريبة صوف، فقال: أنا أبو علي، فقالت عجوز في السبي: بأبي أبو علي من لنا بأبي علي؟ فقال لها: ومن أبو علي؟ قالت: قيس بن عاصم، فقال لأصحابه النجاء وأردف الزرقاء خلفه وهو على فرسه الزبد وعقد شعرها إلى صدره ونجى بها.

وكانت فرس قيس إذا أوعثت تضرب ويمطر عليها الزبد فإذا أجدّ لحقته بحيث يكلم الحوفزان فقال له قيس: يا أبا حمار! أنا خير لك من الفلاة والعطش، فقال له الحوفزان: ما شاء الزبد، فلما رأى قيس أن فرسه لا يلحقه نادى الزرقاء ميلي به ياجعار، فلم سمعه الحوفزان دفعها بمرفقه وجزّ قرونها بسيفه فألقاها عن عجز فرسه وخاف قيس أن لا يلحقه فنجله بالرمح في خزانة وركه فلم يقصده وعرج منها ورد قيس الزرقاء إلى بني ربيع، فقال سويد بن عياض المنقري:

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة تمج عبيطاً من دم الجوف أشكلا

انتهى، وذكر هذه القصة الشريف الرضي الموسوي (رحمه الله) بقوله:

ولما ألح الحوفزان من الردا حده المحادي رمح قيس بن عاصم

وإنما لقب الحوفزان لأجل هذه الطعنة لأن قيس حفزه بالرمح وكان يسمى الحارث بن شريك وهو جد معن بن زائدة الجواد المشهور، وقيس رد السبي كله إلا هذه الحمقاء وأنف أن تسبي من عشيرته امرأة ولو كانت مجنونة.

قال الميداني في مجمع الأمثال^(١) كان رهيم بن حزن الهلالي أنتقل بأهله وماله من بلده يريد بلداً آخر فأعرضه قوم من بني تغلب فعرفوه وهو لا يعرفهم، فقالوا: خلي ما معك وأنجو، فقال: دونكم المال ولا تعرضوا للحر، فقال بعضهم: إن أردت أن تفعل فائق رمحك، فقال: وإن معي لرمحاً، فجعل يقتلهم واحداً واحداً وهو يرتجز ويقول:

ردوا على أقربها الأقاصيا إن لها بالمشرفي هاديا
ذكرتني الطعن وكنت ناسيا

إنتهى، ذهل هذا العربي القح عن سلاحه لشدة غيظه على حرمة وهكذا كانت نفوس العرب الأحرار وقد أشتهرت قصة المعتصم الخليفة العباسي لما غزى الروم وفتح عمورية من أجل امرأة هاشمية سبيت في بلادهم ونادت: وامعتصماه! ومختصر القصة عن الفخر الطقطقي في الآداب السلطانية^(٢) فأطلبها.

من اشتهر بلقب حامي الظعن من العرب

لم يشتهر بهذا اللقب قبل أبي الفضل العباس بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليهما السلام» إلا رجل واحد من العرب وهو ربيعة بن مكدم الكناني أحد بني فراس بن غنم عرف بحامي الظعن حياً وميتاً وضربه الشعراء مثلاً.

أخبار ربيعة بن مكدم في حماية الظعن:

قال في العقد الفريد^(٣): أبو حاتم عن أبي عبيدة: خرج دريد بن الصمة في فوارس من بني جشم حتى إذا كانوا في واد لبني كنانة يقال له الأخرم وهم يريدون الغارة على بني كنانة إذ رفع له رجل في ناحية الوادي معه ظعينة فلما نظر إليه قال لفارس من أصحابه صاح به خل عن الظعينة وأنجوا بنفسك، فأنتهى إليه الفارس وصاح به وألح عليه فألقى زمام الناقة وقال للظعينة:

سيرى على رسلك سير الآمن سير رداح ذات جاش طامن
إن التاني دون قرني شائني أبلي بلائي فأخبري وعائني

(٢) الآداب السلطانية: ص ٢٠٩.

(١) مجمع الأمثال ١/ ١٨٨.

(٣) العقد الفريد ٣/ ٣٣١.

ثم حمل عليه فصرعه وأخذ فرسه وأعطاهما للظعينة فبعث دريد فارساً آخر لينظر ما صنع صاحبه فأنتهى إليه ورأى ما صنع صاح به فتصامم عنه كأنه لم يسمع فظن أنه لم يسمع فغشيه فألقى زمام الراحلة إلى الضعينة ثم خرج وهو يقول:
 خل سبيل الحرة المنيعه إنك لاق دونها ربيعه
 في كفه خطية منيعه أو لا فخذها طعنة سريعة
 والظعن مني في الوغى شريعه

ثم حمل عليه فلما أبطأ دريد بعث فارساً لينظر ما صنعا، فلما إنتهى إليهما وجدتهما صريعين ونظر إليه يجر رمحه، فقال للظعينة: اقصدي قصد البيوت، ثم أقبل عليه وقال:

ماذا تريد من شئيم عباس أما ترى الفارس بعد الفارس
 أرداهما عامل رمح يابس

ثم حمل عليه فصرعه وأنكسر رمحه وارتاب دريد وظن أنهم قد أخذوا الظعينة وقتلوا الرجل فلاحق دريد ربيعة وقد دنى من الحي ووجد أصحابه قد قتلوا، فقال: أيها الفارس! إن مثلك لا يقتل ولا أرى معك رمحك والخيل نائرة بأصحابها فدونك هذا الرمح فإني منصرف عنك إلى أصحابي ومثبطهم عنك، فأنصرف إلى أصحابه فقال: إن فارس الظعينة قد حماها وقتل أصحابكم وأنتزع رمحي فلا مطمح لكم فيه، فأنصرف القوم فقال دريد في ذلك:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله حامي الظعينة فارساً لم يقتل
 أردى فوارس لم يكونوا نهزة ثم أستمرك أنه لم يفعل
 فتهللت تبدو أسره وجهه مثل الحسام جلته كف الصيقل
 يزجي ظعينته ويسحب رمحه متوجهاً يمناه نحو المنزل
 وترى الفوارس من مهابة رمحه مثل البغاث خشين وقع الأجدل

وفي مجمع الأمثال^(١) ذكر أبو عبيدة أن نبیشه بن حبيب السلمي خرج غازياً فلقى ظعنًا من كنانة بالكديد فأراد أن يحتويها فمانعه ربيعة بن مكدم في فوارس وكان غلاماً له ذوابة فشد نبیشه فطعنه في عضده فأتى ربيعة أمه وقال:
 شدي عليّ العصب أم سيار فقد رزئت فارساً كالدينار

فقلت أمه :

إننا بني ربيعة بن مالك نرزء في خيارنا كذلك
ما بين مقتول وبين هالك

ثم عصبتة وأستسقاها ماء فقالت : إذهب فقاتل القوم فإن الماء لا يفوتك ،
فرجع وكر على القوم فكشفهم ورجع إلى الظعن وقال : إني مائت وسأحميكن ميتاً
كما حميتكن حياً بأن أقف بفرسي على العقبة واتكئ على رمحي فإذا فاضت نفسي
كان الرمح عمادي فالنجاء النجاء فإني أرد بذلك وجوه القوم ساعة من النهار
فقطعن العقبة ووقف هو بإزاء القوم على فرسه متكأ على رمحه ونزفه الدم ففاظ
والقوم بإزاءه يحجمون على الأقدام عليه فلما طال وقوفه في مكانه ورأوه لا يزول
عنه رموا فرسه فقمص وخر ربيعة لوجهه فطلبوا الظعن فلم يلحقوهن ، ثم إن -
حفص بن الأحنف - الكنانى مر بجيفة ربيعة فعرفها فأهال عليها أحجاراً من
الحرّة ، قال أبو عبيدة : قال أبو عمرو بن العلاء : ما نعلم قتيلاً حمى ظعائن غير
ربيعة بن مكرم ، إنتهى .

وكان عمرو بن العلاء يشير إلى عصر الجاهلية وكان عصر الإسلام أمر وراء
ذلك وإلا فالحسين بن علي «عليهما السلام» قد حمى رحله ميتاً كما حماه حياً فإنه
لما أغمي عليه ثلاث ساعات من النهار وقف القوم وهابوا الدنو منه وأختلفوا فمن
قائل قد مات ، وآخر يقول عملها مكيدة ، فقال الشمر لعنه الله : أقصدوا قصد
الخيم فإن كان حياً هزته الغيرة الهاشمية ، فقصدوا المخيم فتصارخت النسوة فأفاق
«عليه السلام» فأراد النهوض فسقط فنادى بصوت ضعيف : يا شيعة آل أبي سفيان !
امنعوا مردتكم وعتاتكم عن التعرض لحرمي ما دمت حياً فإن لم يكن لكم دين
وكنتم لا تخافون المعاد فراجعوا أحسابكم وأنسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون ،
فقالوا : وما ذاك يا بن فاطمة ؟ قال : فأقول أنا الذي أقاتلكم وتقاتلونى والنساء
ليس لهن ذنب فعطفوا عليه وكان من أمره ما سطر التاريخ وإليه أشار الشاعر :

قال اقصدوني بنفسى واتركوا حرمي قد حان حينى وقد لاحت لوائحه

ومثل هذا لم يسمع به في جميع العالم قديماً وحديثاً أن صريعاً أغمي عليه
ثلاث ساعات ويحيط به أكثر من عشرين ألف بطل من مقدمي الأبطال الذين
خاضوا غمرات الحروب وما رسوا المعارك الهائلة فلم يجسر أحد منهم على الدنو
منه ليعرف أحيّ هو أو ميت وقد اجاد السيد حيدر الحلي بقوله في رثائه :

فما أجلت الحرب عن مثله صريعاً يجبن شجعانها

وقد روى هذا الحديث الفاضل الدربندي في أسرارهِ^(١) عن أبي مخنف وهو مذكور في المقتل المنسوب لأبي مخنف كذلك.

حماية العباس «عليه السلام» للظعائن

قد عرفت أن حماية العباس «عليه السلام» للظعائن كانت من حين سار الحسين «عليه السلام» من المدينة إلى أن نزل الغاضرية وكذلك العشرة أيام التي أقامها الحسين «عليه السلام» حتى أستشهد وكان العباس بن أمير المؤمنين «عليه السلام» أمير الحرس الحسيني الذي يقوم بحراسة المخيم وقد أكثر الشعراء من ذكر ذلك وهو منظوم باللسانين العربي وأعلامي ومعروف في المراثي الحسينية واشتهر على ألسنة الذاكرين أن زينب الحوراء لما مروا بالسبايا على جثث القتلى خاطبت العباس «عليه السلام» بما يتضمن العتاب له على ترك حمايتها في مثل هذه الحالة التي صارت إليها وأوقعها الزمان فيها بعد فقد الحماة.

ويذكر الذاكرون أيضاً أنه لما أقبل أهل الكوفة إليهن بالنياق ليركبن عليها جعلت النساء تركب بعضها بعضاً حتى بقيت زينب وحدها حولت وجهها إلى نحو العلقمي ونادت: أخي أبا الفضل أنت الذي أركبتني يوم خروجنا من المدينة فمن يركبني الآن يا ابن والدي، ولم يفسح لي المجال في تتبع هذه المقالة واستخراجها من مظانها وأعول فيها على مصادرها فإن كانت رواية فالعهدية على الراوي وإن كانت حكاية حال واستخراج من فحوى القصة فنعم الاستنباط إذ المعلوم إن شباب العلويين ويرأسهم أبو الفضل هم الذين ركبوا العقائل الحسينية حين خرجوا من المدينة فوجب أن يتولى ركوبهن للمسير عن وادي كربلاء لولا حيلولة المنية دون ذلك.

للمؤلف:

أبا الفضل يا بن علي الفخار	وصنو النبي وحامي الذمار
حميت ظعائن آل الرسول	بتلك الفيافي وتلك القفار
فما راعها رائع مزعج	ويمناك تحمل ذات الفقار
إلى أن نزلتم بوادي الطفوف	وقد كنت كالحصن والمستجار
وبعد افتقارك سار النساء	بذل السبباء وذل الإسار

فلو كنت حياً ترى زينباً تصوب المدامع صوب القطار
وتلك العقائل بعد الحجاب سلبن الملاحف حتى الإزار
ولم يترك القوم من سائر لتلك المصونات حتى الخمار
تسترن قد قيل بالراحتين عن الناظرين بضوء النهار
فقم يا كمي إلى ظعنكم فقد سار يطوي وهاد القفار

ومن ألقاب العباس «عليه السلام» «حامل اللواء»

قد شاع هذا اللقب بين الناس فتعرفه المسلمون القدماء بحامل لواء الحسين «عليه السلام» وتسميه عوام العرب اليوم بالبيرغجي وهذه نسبة تركية وتطلق عليه الفرس لفظ «علمدار حسين» وقد كان هذا اللقب وهو حمل اللواء أشهر ألقاب العباس الأكبر «عليه السلام» وأسيرها ذكراً لأن ذلك قد صدر من أخيه الإمام الحسين «عليه السلام» فعلاً وقولاً؛ أما الفعل فقد تكرر منه «عليه السلام» مراراً منها لما أراد الحملة قال: أنت حامل لوائي، ومنها لما وقف عليه صريعاً وسنورد جميع ذلك في فصل مقتله «عليه السلام» وقد أكثر الشعراء من مدحه بحمل اللواء كقول بعضهم عاقداً قول الحسين «عليه السلام»:

لمن اللواء أعطي ومن هو جامع شملي وفي ظنك الزحام يقيني
في أشعار كثيرة يأتي بعضها في تأبينه «عليه السلام».

حمل اللواء عند الأمم:

حمل اللواء مكرمة عظيمة عند جميع الأمم والشعوب في سائر الأزمنة والعصور سوى هذه الازمنة التي نحن فيها وإن أجمعوا على إنه شعار الدولة فإن لحامل اللواء عند الأمم قاطبة في جميع الأزمان إلا ما استثنيناه مرتبة راقية ومكانة مكيمة ومحل سامي لا من حيث شجاعة حامل اللواء فقط بل من حيث أنه نظام العسكر فمتى كان العلم ثابتاً فالجيش منتظم وشمله ملتئم، وإذا سقط اللواء تبدد العسكر.

وعادة العرب ذات التفاخر بمآثرها ومجدها أن تجتمع تحت ألويتها وراياتها وتثبت في المراكز التي تثبت فيها الرايات فلا تزول والألوية ثابتة، ولما استحرّ القتل في القيسية يوم مرج راهط وكاد أن يستأصلهم الفناء تحت راياتهم نظر إلى ذلك رجل من بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة فصاح: واقوماه!

ثم عمد إلى تلك الرايات فقطعها بسيفه فكان إذا ضرب الراية وسقطت تفرق أهلها حتى أتى على جميعها فنجت من القيسية شردمة قليلة وقتل من أشرافهم ممن يأخذ شرف العطاء خمسمائة أو أكثر.

ولما أنهزم أهل العراق يوم صفين ثبتت همدان تحت راياتها وقتل منهم تحت راية من راياتهم مائة وخمسون رجلاً فيهم أحد عشر رئيساً؛ فاللواء نظام الجيش.

تحقيق معنى اللواء والفرق بينه وبين الراية؛

في تحقيق معنى اللواء والراية وأيهما أكبر وأعظم اضطربت كلمات أهل اللغة فمن قائل أن الراية دون اللواء واللواء أكبر منها، ويقال له العلم والبند وتسميه العوام البيرغ، ويعرف عند الأتراك بالتوغ والسنجق، والراية على اسمها الأول ويزعم بعض اللغويين أن الراية أعظم من اللواء ولا يصح لأن العرف يرى أن الراية دون اللواء والاصل عدم النقل.

أول من عقد لواءاً في العالم

أخذ الرايات قديم جداً وأختلف الناس في أول من عقد لواء ف قيل شيث ابن آدم «عليه السلام» وقيل إبراهيم الخليل «عليه السلام»، وقيل كابي الحداد من أصبهان في زمن الضحاك الأزدهاق بيوراسف الجبار أو هو النمروذ عند المؤرخين.

قال ابن شهر آشوب (رحمه الله) في كتاب المناقب^(١): محمد الكسائي في المبتدأ: إن أول حرب كانت بين بني آدم بين شيث وقابيل وذلك أن الله تعالى أهدى إليه حلة بيضاء ودفع له الملائكة راية بيضاء فسلسلت الملائكة قابيل وحملته إلى عين الشمس فمات بها وصارت ذريته عبيداً لشيث، وفي الخبر: إن أول من أخذ الرايات إبراهيم الخليل «عليه السلام»، إنتهى.

وروى الحر العاملي (رحمه الله) في كتاب وسائل الشيعة^(٢) عن الصادق «عليه السلام» قال: أول من قاتل إبراهيم «عليه السلام» حين أسرت الروم لوطاً فنفر إبراهيم «عليه السلام» حتى أستنقذه من أيديهم، ثم قال بعد أحاديث: وأول من عقد الرايات إبراهيم الخليل «عليه السلام» عليها «لا إله إلا الله».

(١) المناقب لابن شهر آشوب ١/ ١٥٩. (٢) وسائل الشيعة ٢/ ٤٣٦ طبع عين الدولة.

وقال الحلبي الشافعي في سيرته^(١): وأول من عقد الألوية إبراهيم «عليه السلام»: إن قوماً أغاروا على لوط «عليه السلام» فعقد لواء وسار إليهم بعبيده ومواليه.

وقال ياقوت الحموي في معجم البلدان^(٢) ذكر أن الفرس لا يحمل لواءها إلا رجل من أهل أصبهان ولذلك سبب خفي على كثير من أهل هذا الشأن وهو أن الضحاك المسمى بالازدهاق ويعرف بيوراسب وذي الحيتين لما كثر جوره على أهل مملكته من توظيفه عليهم كل يوم رجلين يذبحان وتطعم أدمغتهما للحيتين اللتين كانتا نبتتا في كتيفيه فيماتزعم الفرس فأنتهى بالنوبة إلى رجل حداد من أهل أصبهان يقال له كابي، فلما علم أنه لا بد من ذبحه أخذ الجلد التي يجعلها على ركبتيه يتقي بها النار عن نفسه وثيابه وقت شغله ثم إنه رفعها على عصا وجعلها مثل البيرغ ودى الناس إلى قتال الضحاك وإخراج أفريدون جد بني ساسان من مكمته وإظهار أمره، فأجابه الناس إلى ما دعاهم إليه من قتل الضحاك حتى قتله وأزال ملكه وملك أفريدون، وذلك في قصة طويلة ذات تهاويل وخرافات فتركوا بذلك اللواء إذ أنتصروا به وجعلوا حمل اللواء إلى أهل أصبهان من يومئذ، إلخ.

وقال الخفاجي في شفاء الغليل^(٣): الدرّفش بكسر أوله وفتح ثانيه وسكون الفاء أسم راية أفريدون ويقال له درفش كاوه، وكاوه أسم حداد من أصبهان كان الضحاك قتل ابناً له لعلته فأخذ الجلد التي يتقي بها ساقيه من شرر النار ونصبها على عود وجعلها راية فاجتمع إليه من قتل الضحاك أقاربهم وأنتزعوا الملك منه وأعطوه لأفريدون فتيمن بتلك الجلد ورصعها بلأحجار الثمينة، والدرفش بلغة الفرس الراية وكانت لم تزل منصوبة على رأسه يقال لها التاج، قال بديع الزمان الهمذاني:

أفريدون ذو التاج أم الإسكندر الثاني

إنتهى، وأخطأ الخفاجي لم يعني البديع تلك الجلد النخرة إنما عنى تاج الملك والإكليل السلطاني الذي يوضع على مفارق الملوك، وقصة كابي ذكرها الطبري، وذكر أن أول من عقد اللواء رجل من بابل خرج على الضحاك الجائر وأن منزله قرية برس بالعراق، وانظر القصتين في تاريخ الأمم والملوك^(٤)، وهذه الأقوال الأربعة يمكن التأليف بينها وجمعها بأن يقال: إن أول من عقد راية شيث

(١) السيرة الحلبيّة ١٣٤/٢.

(٢) معجم البلدان ١/٢٧٠.

(٣) شفاء الغليل: ص ٩١.

(٤) تاريخ الأمم والملوك ١/٩٩.

حارب بها الثائرين، وأول من عقد راية غازياً بها إبراهيم «عليه السلام» وأول من عقد راية ثائراً على ملك هو البابلي ومنتصراً لنفسه هو الأصبهاني.

مساهمة الشعوب في عقد الألوية:

سار عقد اللواء في الأمم قاطبة وأعتنت به الشعوب القديمة أشد الاعتناء وعقدته القبائل كما عقدته الملوك، فالأعلام الملوكية مختلفة ألوانها ومميزاتها كجعل صليب أو تاج أو هلال أو شمس أو كوكب أو حيوان وألوانها حمر وبيض وصفر ومخططة وهكذا رايات القبائل وإن خلت من الرسم لها لون خاص يعرفه أفراد العشيرة فيجتمعون إليها كحمراء وبيضاء وسوداء أو ملونة.

قال الجاحظ في البيان والتبيين^(١): إنا نجد رؤساء جميع أهل الملل وأرباب النحل قد اتخذوا في الحروب الرايات والأعلام وإنما ذلك كل خرق سود وحمرة وصفر وبيض، وجعلوا اللواء علامة للعقد والعلم في الحرب مرجعاً لصاحب الجولة، وقد علموا أنها وإن كانت خرقاً على عصي إن ذلك أهيب في القلوب وأهول في الصدور وأعظم في العيون.

الألوية عند قدماء البابليين

قال المسعودي في مروج الذهب^(٢) في أخبار قدماء ملوك بابل ما لفظه: هم الذين طبعوا السيوف واتخذوا عدة الحرب وغير ذلك من الحيل والمكائد ونصبوا قوانين الحرب بالقلب والميمنة والأجنحة، وجعلوا ذلك مثلاً لأعضاء جسد الإنسان، ورتبوا لكل جزء نوعاً من الألوية لا يوازيها غيره فجعلوا أعلام القلب في صورة الفيل وما عظم من أنواع الحيوان، وجعلوا أعلام الميمنة والميسرة على صورة السباع حسب عظمها واختلافها في أنواعها، وجعلوا في الأجنة صورة ما لطف من السباع كالنمر والذئب، وجعلوا صور أعلام الكيمياء على صور الحيات والعقبان وما خفي فعله من هوام الأرض، وجعلوا ألوان كل نوع منها من السواد والبياض والصفرة والخضرة ولون السماء، وقد ذكر قوم أن الألوان ثمانية على حسب الموضع المستحق لها.

ثم قال^(٣): وزعموا أن قضية القياس توجب أن تكون سائر أعلام الحرب حمراء إذا كانت أليق وأشكل بلون الدم وأكثر ملائمة إذ كان لونها واحداً، إنتهى.

(٢) مروج الذهب ١/ ١٣٥.

(١) البيان والتبيين ٣/ ٨٠.

(٣) مروج الذهب ١/ ١٣٩.

أما متنبى الغرب الحسن بن هاني الاندلسي (رحمه الله) فضل أن تكون راية الحرب بيضاء وتكتسي لون الحمرة بالدماء عند الطعن فذاك حيث يقول في ممدوحه:

فكأنما وجناتهم حمرة رايات يحيى بالدم المسفوك
فذكر أن أحمرار راياته لم يكن ذاتياً بل هو عرضي من صبغ الدماء في الحرب.

الألوية عند الملوك الإسلاميين في القرون الوسطى

قال ابن خلدون في مقدمة التاريخ^(١): وأما تكثير الرايات وتلوينها وإطالتها فالقصد به التهويل وربما تحدث في النفوس من التهويل زيادة في الإقدام وأحوال النفوس وتلوناتها غريبة، والله الخلاق العليم.

ثم قال: فأما الرايات فإنها شعار الحروب من عهد الخليفة ولم تزل الأمم تعقدها في مواطن الحروب والغزوات، ولعهد النبي ﷺ ومن بعده من الخلفاء، ثم ذكر كلاماً مطولاً وقال: ما كان العامل صاحب الثغر أو قائد الجيش يعقد له الخليفة من العباسيين والعبديين لواءه ويخرج إلى بعثه أو عمله من دار الخليفة أو داره في موكب من أصحاب الرايات والآلات فلا يميز بين موكب العامل والخلفية إلا بكثرة الأولية وقتلتها أو بما اختص به الخليفة من الألوان لرايته كالسوداء في رايات بني العباس فإن راياتهم كانت سوداء حزناً على شهدائهم من بني هاشم ونعياً على بني أمية في قتلهم ولذلك سمو بالسودة.

ولما افترق أمر الهاشميين وخرج الطالبيون على العباسيين في كل جهة ومصر ذهبوا إلى مخالفتهم في ذلك فأتخذوا الرايات بيضاً فسموا المبيضة لذلك سائر أيام العبديين ومن خرج من الطالبين في ذلك العهد بالمشرق كالداعي بطبرستان وداعي صعده ولما نزع المأمون عن لبس السواد وشعاره في دولته عدل إلى لون الخضرة.

وأما الاستكثار منها فلا يتناهى وقد كانت آلة العبديين لما خرج العزيز لما فتح الشام خمسمائة من البنود وخمسمائة من الابواق.

وأما ملوك البربر من صنهاجة وغيرها فلم يختصوا بلون واحد بل وشوها

(١) مقدمة تاريخ ابن خلدون: ص ٢١٦.

بالذهب واتخذوها من الحرير الخالص ملونة وأستمروا على الأذن فيها لعمالهم حتى جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زناته قصرُوا الآلة من الطبول والبُود على السلطان وحضروها على من سواه من عماله وجعلوا لها موكباً خاصاً يتبع أثر السلطان في مسيره سموه الساقة وهم بين المكث والمقل؛ فمنهم من يقتصر على سبع من العدد تبركاً بالسبعة كما هو في دولة الموحدين وبني الأحمر بالأندلس، ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين كما هو عند زناته، وقد بلغت في أيام أبي الحسن فيما أدركناه مائة من الطبول ومائة من البُود ملونة بالحرير، منسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير، ويأذنون للولاة والعمال والقواد في اتخاذ راية واحدة صغيرة من الكتان بيضاء وطبل صغير أيام الحرب لا يتجاوزون ذلك.

وأما دولة الترك يعني العثمانيين لهذا الحد بالمشرق فيتخذون أولاً راية واحدة عظيمة وفي رأسها خصلة كبيرة من الشعر يسمونها الشالاش والختر وهي شعار السلطان عندهم، ثم تعددت الرايات عندهم ويسمونها السناجق واحدة سنجق وهي الراية بلسانهم، إلخ.

وقال الوزير الصدر الأعظم أحمد جودة باشا في تاريخه^(١) ولفظه: وذكر واصف أفندي في تاريخه مقالة على سبيل الاستطراد بين فيها ما كان للاولية والتوغات من الاعتبار والمنزلة أحيبنا إيرادها هنا ملخصة، قال فيها: إن السر في إحداث التوغ والسنجق واللواء هو أنه إذا اجتمع قوم تحت لواء واحد يحصل بينهم الاتحاد بمعنى أن هذا اللواء يكون علامة على اجتماع كلمتهم ودلالة على اتحاد قلوبهم فيكونون كالجسد الواحد ويألف بعضهم بعضاً أشد من أئتلاف ذوي الارحام وإذا كانوا في معركة القتال لا يأسون من الظفر ما دام لواؤهم منشوراً بل تقوى همتهم ويشتد عزمهم فإذا سقط لواؤهم أخذوا من جانب الوهم موضوعاً للخوف والرغبة فينهزم بعضهم أو يتبدد البعض الآخر بخلاف ما إذا كان علمهم مرفوعاً خافقاً مزدهياً تبتهج به نفوسهم وتأخذهم نشوة الفرح والبسالة وتسلط على أعدائهم هزة الرعب فتأخذ بمجامع قلوبهم، وكما أن الموسيقى العسكرية تنعش ارواحهم وتحثهم على الإقدام والشجاعة كذلك مناظر الألوية وتموجها فإنها تحدث فيهم دواعي الغيرة وتجلب لأعدائهم الدهشة والفتور.

كان لجميع الأمم السالفة والدول الماضية آلات موسيقى متنوعة وألوية وأعلام عديدة ولم يكن في زمن الرسالة موسيقى بل أعلام فقط فإن في السنة

الأولى من الهجرة أرسل رسول الله ﷺ سرية قدرها عشرين نفساً من المهاجرين برئاسة عمه حمزة بن عبد المطلب («رضوان الله عليه») ليتعرضوا قافلة لقريش كانت قادمة من الشام معها ثلاثمائة مقاتل تحت رئاسة أبي جهل، فعقد بيده المباركة علماً أبيض وسلمه لأبي مرثد («رضي الله عنه») وهذا أول لواء عقد في الإسلام وأول سرية ألف من المسلمين لطلب المغانم، ثم كان أبو مرثد أول من حمل لواء للمسلمين وكان هذا اللواء المبارك يعقد في كل غزوة وسرية إلى حين غزوة خيبر وكان يطلق على الكتيبة اسم سرية حتى يبلغ عددها أربعة آلاف فإذا كان فيها حضرة سلطان الأنبياء عليه أفضل التحيات سميت غزوة.

واللواء هو العلم الذي ينصب في محل إقامة أمير الجيش علامة له وقد عقد لواء آخر أسود في واقعة خيبر وسمي راية وعلماء اللغة يقولون: اللواء والراية بمعنى واحد، وأما في اصطلاح عصرنا هذا أعني عند العثمانيين فإنه يقال للواء بيرغ وللراية سنجق، وقد تعددت الألوية والرايات في زمن الخلفاء، أما العباسيون فكانت ألويتهم سوداء وكان لباسهم أسود فسموهم المسودة دلالة على حزنهم ومساءتهم لشهداء كربلاء، وألوية العلويين الذين خرجوا على العباسيين بيضاً فسموهم المبيضة^(١) وكانت الألوية أيام المأمون خضراً وكان اللباس الخضرة أيضاً وذلك أن المأمون غير اللباس الأسود بالأخضر ثم رجع إلى الأسود.

وأما عدد الألوية والرايات عند باقي الدول فكانت عند البعض كثيراً وعند البعض الآخر قليلاً، فكان في صفوف دولة بني الأحمر بالأندلس ما يزيد على مائة لواء كلها مزخرفة بالذهب مزينة بالأشكال والصور الغريبة، وأما ألوية ملوك القدماء في الممالك الشرقية وبلاد دشت وترك وملوك الصين والهند فكانت عظيمة عليها علامات ملونة ومنسوجة من أذنان الحيوان شبيهة بالشعور المرسلات وكانت تحمل امام الجيش وتسمى حاليش، وكان هذا بعينه عند آل جنكيز وآل هلاكو وقد استعملته الدولة الأيوبية والملوك السلجوقيون لكنهم جعلوا على رأسه صورة زورق مذهبة وعقدوا الشعر المحلول المار ذكره ظفائر فأزدان بذلك وهذا كان يسمى توغ عند الدولة العلية في القديم.

وكانت تستعمل راية أخرى في الدولة الشرقية السالف ذكرها تنشر على رأس الملك وتسمى عصابة وسطفة وسنجق فلا يستعملها غير السلطان، وفي دولة

(١) أهمل هذا المؤرخ ألوية الأمويين الذين خرجوا على العباسيين فإنها كانت حمراً وسموهم المحمرة لذلك.

الخلفاء وضعوا على رأس الألوية والسناجق علماً في صورة الهلال من النحاس المطلي وعلامة أخرى شبيهة بدائرة الشمس مدورة مشقوقة الوسط، ولما تغلب بعض الأمراء والسلاطين على الخلفاء وتحكموا أستنكفوا من استعمال تلك الألوية ووضعوا على ألويتهم وسناجقهم كرة مذهب تشبه فلكة المغزل وأقاموا على الألوية الكبيرة صفائح مذهب منقوشة بالأشعار وزينوها بألوان سود وهذه الألوية والرايات ذات الهلال الأسود والاخضر التي كانت في القديم مخصوصة بالخلفاء قد انتقلت إلى مشايخ الصوفية وإلى الجوامع والتكيات وكانت تنشر امام جناز الأكاير وترفع في أيام عاشوراء أو ما مائلها من الأيام المشهورة، ولا غرو فإن هذه عادة الدنيا في أهلها فإنه متى انقضت أيام دولة أو إمارة منها أهملت رسومها وآثارها وما كان دليلاً على شهرتها وطرحت في زوايا النسيان.

وكانت الدولة العلية يعني العثمانية تستعمل لواءاً مخصوصاً للوزراء أسمه بورك ببرغي عوضاً عن اللوا الأبيض وأستعملت أيضاً سنجقاً كبيراً بدلاً من العصابة أو المشطقة وجعلت الشعر الذي يعقد على الألوية ويعرف بأسم توغ في غاية الأهمية فخصت كل أمير من الأمراء بواحد منه وخصت أمير الأمراء بأثنين، والوزراء بثلاث، وحضرة السلطان بتسعة.

اعلم أن التوغ ما زال معروفاً عند الدولة إلى زمن غير بعيد كما ذكره واصف أفندي ولكن لما رتب النظام الجديد غيرت هذه الأصول بالكلية وألغي إعطاء التوغ إلى الباشوات بالمرة، إنتهى.

أعلام الدولة الحديثة وراياتها:

حيث أن الراية شعار الدولة والإشارة إلى تابعيها والعلامة الصحيحة لها لذلك كثرة الرايات والأعلام فلا تخلو بناية حكومية ولا دائرة من الدوائر ولا طائرة ولا بارجة ولا باخرة من راية دولتها وسواء في ذلك الحرب والسلم، وأما العلامة المميزة لتلك الراية فقد أشترك العامة في معرفتها كالهلال للدولة العثمانية والصليب الأحمر لروسيا، والأسد للأيرانية، وأمثالها اضربنا عن ذكرها للاختصار، وأما ألوانها لمختلفة فمنها الحمراء والزرقاء والسوداء وسائر الألوان المحضة والمتزجة كذات اللونين والأربعة ولكن هناك رايات جعلت علامات يشار بها إلى أمور خاصة كالحمراء للخطر، والخصراء للسلامة، والبيضاء للأمان والتسليم وأمثال ذلك مما لا يهم إيراده.

ألوية القبائل العربية وراياتها

اللواء عند العرب لزعيم القبيلة ولقائد الجيش وأمير العسكر يحمله أمامه من قبيلته أو من جنده أشهرهم ذكراً وأعظمهم بطولة واشدهم بأساً وشجاعة وأكثرهم نجدةً وبسالةً، وربما حمله الزعيم بنفسه، وحامل اللواء سواء كان هو الزعيم أو غيره ليحافظ على اللواء أشد من محافظته على نفسه، فلو طعن أو ضرب لم يكثرث بنفسه ما دام متمكناً من إمساك اللواء ولو قطعت أعضاؤه وأبينت مفاصله فلا يعبأ بسقوط أي عضو منه مالم يسقط اللواء منه لأن حفظ نظام الجيش منوط به فإنه متى سقط اللواء تضعضع العسكر، وربما فروا وتبددوا لذلك.

لذلك لما قطعت يدا جعفر بن أبي طالب وهو الطيار شقيق أمير المؤمنين «عليه السلام» يوم مؤتة ضم الباقي من يديه القطيعتين على اللواء لئلا يسقط فيتضعضع جيش المسلمين، فضرب على رأسه فوق ميثاً فأخذ اللواء زيد بن حارثة الكلبي مولى رسول الله ﷺ الأمير الثاني لهذا الجيش لأن رسول الله ﷺ جعل الأمراء في هذه السرية ثلاثة: الأمير الأول جعفر بن أبي طالب، والأمير الثاني زيد بن حارثة الكلبي مولاه، الأمير الثالث عبد الله بن رواحة الأنصاري شاعره، استشهد هؤلاء الأمراء الثلاثة وأخذ اللواء خالد بن الوليد وكان في البعث ففر بالمسلمين لقوة شوكة العدو فغيرهم المسلمون بالفرار والحقيقة ليس هو بفرار ولكنه حزم القائد واحتذى حذو الطيار ابن أخيه أبو الفضل العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» كما سنذكر.

وقد كان لواء المشركين من قريش يوم أحد في بني عبد الدار فقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» حملة اللواء التسعة وقيل أحد عشر فلما قتلوا جميعاً أخذه عيدهم صواب فشد عليه أمير المؤمنين «عليه السلام» فقطع يده اليمنى فأخذ اللواء باليسرى ورفع له قريش فضربه أمير المؤمنين علي اليسرى فأحتضن اللواء بباقي يديه وبرك عليه وقال: هل أعذرت يا آل عبد الدار في لواءكم؟ فضربه أمير المؤمنين «عليه السلام» فقتله فأخذت اللواء امرأة منهم حارثة فرفعته لقريش فلاذوا به، هكذا كانت محافظة العرب على الألوية.

لما كانت حرب صفين دفع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» لواءه الأعظم إلى هشام بن عتبة بن أبي وقاص الزهري المرقال وخاض به الأهوال العظيمة وسقى أهل الشام الكأس المصبرة، وفي آخر أيام الحرب شد على كتيبة

من تنوخ فقتل منها تسعة عشر بطلاً فطعنه رجل منهم فشق بطنه وسالت أمعاؤه فأمسكها بيده ووقف في مكانه ورفع لواءه، فلما رأى أمير المؤمنين «عليه السلام» لواءه قد وقف ولم يتقدم أرسله إليه: ياهاشم! شد باللواء، فقال للرسول: إقرأ أمير المؤمنين عني السلام وأخبره بما ترى ورفع يده عن بطنه فسقطت أمعاؤه وسقط ميتاً وأخذ اللواء أبنة عبد الله بن هاشم، فهذا هو الثبات المدهش، هذا الكرم والوفاء، هذا هو الحفاظ المحمود، هذه الرجولية والبطولية، هذه الشجاعة العجيبة والبسالة المستغربة، هذا هو الإخلاص والتفادي عن وصمة العار ووسم الذل، هذا هو البلاء العظيم، فلتكن هكذا حملة الأعلام وحماة الألوية وإلا فلا.

حامية اللواء الأعظم:

لا بد لقائد القوات المقدم وزعيم الجيش وعميد العسكر أن ينتخب من أبطال الجيش المجربين وفرسانه المعروفين بالنجدة والبسالة، والمشهود لهم بالشجاعة والفروسية فيؤلف منهم كتيبة تكون حامية اللواء الأعظم وردءاً لصاحب العلم الأكبر، وقد كانت في صفين كتيبتيان: أحدهما لأهل الشام تسمى الخضرية لأن علامتها الخضرة، وثانيهما لأهل العراق تسمى رجراجة لأرتجاجها بالسلاح، وكل واحد من الكتيبتيين مؤلفة من عدد كبير من الأبطال المشتهرين بالفروسية، قيل إن كل واحدة منهما عشرة آلاف دراع أعدتا لحماية اللواء والمكافحة عن العلم الأعظم.

فيجب على زعيم كل جيش وقائد كل عسكر أن يتخير نخبة أبطاله وينتخب كل جريء مجرب يؤلف منهم حامية للعلم وحرساً للواء يرصده ويراقبه ليزب عنه من قصده من الأعداء، فإن العدو يعلم أنه متى سقط اللواء أختل نظام الجيش وتبدد جمعه وذهب جنده شتاتاً فلذلك تقصد حامية الأعداء مركز صاحب اللواء فإذا كان لذلك اللواء حامية كافحت عنه وصدت هجمات عدوها فحافظ حامل لواءها على مركزه مستقراً ثابتاً، وإذا لم تكن له حامية فربما فر وربما قتل فأختل النظام، وإذا كانت الحامية يأخذه بعضهم إن قتل أو فر وأكثر ما تكون حامية اللواء عند العرب من شجعان قوم حامله لأن اللواء مجد وفخار ومكرمة لحامله وقومه أوثق الناس في نفسه على المحافظة عليه لأن مجده لهم وكرامة فيهم، ولو سقنا الحكايات طال بنا المقام وحسبك ما قاله آل عبد الدار يوم أحد لأبي سفيان لما طلب منهم اللواء فشتموه وقالوا: ندفع مكرمتنا لغيرنا، راجع قصة أحد في التاريخ.

واللواء يرفع أمام الجيش فلا يتقدم الجيش في الزحف حتى يتقدم اللواء، وكذلك راية القبيلة فإنهم يطوفون بها ويقفون عندها فإذا وقفت وقفوا وإذا سارت ساروا تبعاً لها وهذا يشبه راية الأنداز التي أستخدمها الدول المتمدون اليوم وتتمايز القبائل والعشائر براياتها ويتفانون حولها إذا ثبتت في مركزها، وفي قصة القيسية يوم المرج وهمدان يوم صفين ما يكفيك شاهداً فحامل اللواء هو بمنزلة القطب للرحى وكانوا يعقدون الألوية والرايات بالرماح ولذلك يقول مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» يوم البصرة لولده محمد بن الحنفية («رضوان الله عليه»):

إطعن بها طعن أبيك محمد لا خير في الحرب إذا لم توقد
بالمشرفي والقنا المسدد

كانوا يختارون الرمح اللين ذا الاهتزاز والتأود، ذكر أهل السير أن أمير المؤمنين علياً «عليه السلام» لما دفع لواءه الأعظم للمرقال يوم صفين دعى برمحه ليشده به فأتى برمحه فهزه فأنكسر، فأتى بآخر فوجده جاسياً فألقاه، فأتى بثالث فوجده ليناً فعقد فيه لواءه.

تسلسل اللواء في بني هاشم

قد عرفت أن أول من عقد لواءاً شيث بن آدم «عليه السلام» ثم أنتقل إلى إبراهيم الخليل فورثه أبوه إسماعيل لأنه أكبر ولده، ثم ابنه نابت بن إسماعيل، وبقي في أعقابه هكذا عند أجداد رسول الله ﷺ حتى إنتهى إلى قصي بن كلاب فجعله قصي لأبوه عبد الدار، ولما وقع التنافس بين ولد قصي وثاروا للحرب أعان عبد مناف قبائل من قريش فعقد عبد مناف له ولحفلاء المطيبين راية لأن اللواء عند أخيه عبد الدار ولما اصطلحوا بقيت الراية عند عبد مناف فورثها ابنه هاشم ثم ابنه عبد المطلب ثم أبو طالب بن عبد المطلب فصارت إلى رسول الله ﷺ فدفعها إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» وبقي اللواء في بني عبد الدار حتى كان يوم بدر وحاربوا رسول الله ﷺ فأخذ اللواء منهم فلما هزمهم دفع اللواء إلى مصعب ابن عمير لأنه من بني عبد الدار وكان معه، وقيل: دفعه إليه يوم أحد لما عرف أن قريشاً دفعوا لواءهم إلى آل عبد الدار، قال: نحن احق منهم بالوفاء فدفعه إلى مصعب بن عمير («رضي الله عنه») فلما أستشهد بأحد دفع اللواء إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» فأجتمع اللواء والراية في بني هاشم وكانا معاً عند أمير المؤمنين «عليه السلام».

قال محمد بن علي بن شهر آشوب (رحمه الله) في المناقب^(١): قال أهل السير: إنه كانت راية قريش ولواءها جميعاً بيد قصي بن كلاب ثم لم تزل الراية في بني عبد المطلب فلما بعث النبي ﷺ أقرها في بني هاشم ودفعها إلى علي «عليه السلام» في أول غزوة غزاها حملت فيها راية وهي غزوة ودان فلم تزل معه وكان اللواء يومئذ مع عبد الدار فأعطاه النبي ﷺ مصعب بن عمير فاستشهد يوم أحد فأخذه النبي ﷺ ودفعه إلى علي «عليه السلام» فجمع له الراية واللواء يومئذ وهما أبيضان.

ذكره الطبري في تأريخه والقشيري في تفسيره «تنبيه الذاكرين» عن زيد بن علي عن آبائه قال: كسرت زند علي «عليه السلام» يوم أحد وفي يده لواء رسول الله ﷺ فسقط اللواء من يده فتحاماه المسلمون أن يأخذه فقال رسول الله ﷺ فضعوه في يده الشمال فإنه صاحب لوائي في الدنيا والآخرة.

المواعظ والزواجر عن العسكري أن مالك بن دينار سأل سعيد بن جبير عن ذلك فنظر إليّ وقال: كأنك رخي البال، فغضبت وشكوت ذلك إلى القراء فقالوا: سألته وهو خائف من الحجاج وقد لاذ بالبيت فاسأله الآن، فسألته فقال: كان حاملها وكان حاملها علي «عليه السلام» سمعته من ابن عباس إلخ.

اللواء مكرمة القبيلة

لا يخفى على كل نيقذ بصير وماهر خبير أن كل غزوة غزاها رسول الله ﷺ بنفسه فأمر المؤمنين «عليه السلام» معه إلا في غزوة تبوك فإنه خلفه بالمدينة ولا ننظر إلى قول الحلبي الشافعي وغيره من المعاندين حيث قالوا في غزوة بواط حمل لواء النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص إذ المعلوم لكل من لاحظ أطوار العرب وعرف عاداتها ودرس شؤونها علم أن حامل اللواء لا بد أن يكون من رهط الزعيم لأن مكرمتهم لا يدفعونها لغيرهم ولذلك لما طلب أبو سفيان بن حرب الأموي يوم أحد اللواء من آل عبد الدار امتنعوا وأغلظ له أبو سعد في ذلك وغاضهم قوله فحموا وتفانوا على اللواء.

وفعل أمير المؤمنين علي «عليه السلام» يوم صفين كان مقابلة لمعاوية بن أبي سفيان حيث دفع لواءه الاعظم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ليقوي عزم قريش بما يحبوهم به من الكرامة ويخذلهم عن أمير المؤمنين «عليه السلام» فدفع

لواءه لهاشم المرقال لهذا الغرض بعينه فالعادة الجارية امتناع العرب من تسليم لواءها لغيرها فكيف يدفع رسول الله ﷺ وهو سيد بني هاشم لواءهم وهو مكرمة ومفخرة إلى سعد بن أبي وقاص مع وجود حمزة وعلي «عليهما السلام» وهما اشجع العرب فمن سعد بن أبي وقاص الهباب الذي تعاضدت التواريخ السنية كتاريخ الطبري والبلاذري وابن الأثير وغيرهم بذكر رعبه وخوره في حرب القادسية وهو أمير للمسلمين فيها من قبل الخليفة عمر بن الخطاب فأحتجر في القصر أحتجار الضب في الوجار مع النساء والصبيان يزعم أن خراجاً - دنبلأ - خرج به فولى خالد بن عرفطة على الجيش وقد ذمه المسلمون وعيروه بالجبن فأكثروا، قال بعضهم يخاطب الخليفة:

تذكر هداك الله وقع سيوفنا بباب قديس والمكر صرير
أنخت بباب القادسية ناقتي وسعد بن وقاص علي أمير
وقال آخر:

نقاتل حتى أنزل الله نصره وسعد بباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ونسوة سعد ليس فيهم أيم
وقال جرير بن عبد الله البجلي أحد الصحابة وقواد الجيش العظماء:

انا جرير كنييتي أبو عمرو قد نصر الله وسعد في القصر
ونظرت زوجة سعد وهي معه في القصر وكانت قبله تحت المثنى بن حارثة
الشياني إلى جلاد المسلمين مع الفرس فقالت: هيجاء ولا مثنى لها، فلطمها سعد
فقال له: أغيرة وجنباً!.

هذه بعض الحكايات التاريخية عنه وقد انهزم يوم أحد وحنين فيمن انهزم من المسلمين وهذه الأمور معروفة عند أهل التاريخ، ولا تخفى على النبي ﷺ حالة أصحابه فكيف يدفع لواءه لمن هو مظنة عدم الثبات في وقت هو بأقصى ما يكون من الحراجة لقلّة من معه مع تكالب العرب عليه وإجلابهم على حربيه ويدع من هو يقيني الثبات قطعي النكاية وهو منه، يا عجباً لا يعتمد في تبليغ براءة إلا عليه ويعزل الخليفة الأول ويقول: لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني كيف لا يقول لا يحمل لوائي إلا أنا أو رجل مني؟! إن هذه مباهتة غير خافية على ذوي اللب والبصيرة.

لواء علي «عليه السلام» يوم صفين

ولا يقاس هذا بما صنع أمير المؤمنين علي «عليه السلام» يوم صفين كما ذكرنا حيث أنه أخرج اللواء من بني هاشم ودفعه إلى هاشم المرقال قد ذكرنا إن أراد أولاً مقابلة معاوية حيث أخرج لواء بني أمية منهم ودفعه إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي ليريه أن في أصحابه من هو أعظم من عبد الرحمن وغيره وأصبر على الجلاء وأعرف بفنون الحرب وهو المرقال لأن معاوية يزعم أن قريشاً كلها معه وليس مع علي «عليه السلام» إلا من لا غناء به ولا كفاءة معه فكذبه أمير المؤمنين «عليه السلام» بدفع لواءه إلى هاشم الذي عرفه معاوية وأهل الشام في حروب الروم أيام الخلفاء وكانت الجنود الشامية تبغض ملاقاته لما عرفوا من شجاعته وتجربته حين شهد معهم فتوح الشام والعراق وظهر له أثر عظيم وغناء مقدر في تلك المغازي خاصة اليرموك والقادسية وجلولاء ونهاوند وأمثالها وتلك المواقف أودعت في قلوب أهل الشام له روعة وزرعت في نفس أميرهم معاوية هلعاً وجبناً ورهبة أن يكون حامل لواء جيش علي «عليه السلام» هو المرقال، ولا شك معاوية وأهل الشام حيث يكون القائد الأعظم علي بن أبي طالب وأمر التنظيمات والخطط العسكرية هو الأشتر وأمير الحامية هو قيس بن سعد، وأمير الدعاية عمار بن ياسر، وأمير الزهاد والمتقشفين عبد الله بن بديل فهو الفناء لأهل الشام فأين مقام هذا من مقام سعد ابن أبي وقاص الذي لم يمارس حرباً قبلها.

وقد صرحت فلتات لسان معاوية عما في قلبه من كراهيته أن يحمل المرقال لواء أمير المؤمنين «عليه السلام» لخبرته بالحرب ومهارته بفنونه وإنه من أنجد الرجال شجاعة وبأساً وأشهرهم ذكراً في الجرأة والإقدام، وأشدّهم ثباتاً في مقام تزل فيه الأقدام، نظر إليه يوماً من أيام صفين وهو يزحف باللواء زحفاً وكان يعرف بالمرقال لإرقاله في الحرب: إني أرى لصاحب الراية السوداء عملاً لأن دام عليه لتفنين العرب اليوم.

وقال يوم آخر: إن اللواء مع المرقال ولئن زحف به اليوم إنه اليوم الأطول لأهل الشام.

ونظر إليه يوم آخر مقبلاً فقال: من هذا؟ فقليل: هاشم، فقال: أعور بني زهرة قاتله الله، إلى غير ذلك مما ظهر في فلتات لسانه الدالة على رعبه وخوفه منه

فلذلك ود أن يحمله كل أحد غير هاشم، وأحب أمير المؤمنين «عليه السلام» إرغابه وإرغامه بما يكره.

وهناك سبب ثالث غير السببين اللذين ذكرنا وهو أن في الجيشين المتقابلين بصفين جيش أهل العراق البالغ تسعين ألفاً وجيش أهل الشام البالغ مقداره مرتين وقد ضم كل واحد منهما تحت جناحيه وطوى في طيات قلبه أبطال العرب الذين يكسر المائة منهم ألفاً من الفرس والرومان، ويقوم الفرد منهم مقام العشرة إلى المائة من الأمم فيحتاج أن يكون حامل لواءهم مجرباً محنكاً ماهراً بأساليب الحرب قد مارسها واختبرها مراراً وليس في بني هاشم بصفين من دخل حرباً قبل حرب البصرة أحد سوى ابن عباس وقد شغله بإمرة الميسرة.

وهناك سبب رابع هو أن همة معاوية وأهتمامه القضاء على أهل البيت الهاشمي بكل ما يتمكن منه وجلّ سعيه في أن لا يبق لبني هاشم نافخ ضربة وحامل اللواء معرض للتلف ولتكالب معاوية على استئصال الهاشميين كان أمير المؤمنين «عليه السلام» لا يأذن للحسن والحسين «عليهما السلام» ولا ليغيرهما من بني هاشم أيام صفين إلا قليلاً في وقائع خاصة أذن فيها لولده محمد بن الحنفية ولابن أخيه عبد الله بن جعفر وقد أخبر «عليه السلام» عن قصد معاوية في إبادة أهل هذا البيت في نهيه للعباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وجميع هذه الأسباب منتفية عن سعد بن أبي وقاص فأعقل أيها الحر المتفكر.

ألوية النبي ﷺ

ويذكر الحلبي الشافعي في غزوة العشيرة أن لواء النبي ﷺ حمله حمزة بن عبد المطلب وفي غزوة سفوان وهي بدر الأولى حمل لواءه علي بن أبي طالب «عليه السلام» وقال في غزوة بدر الثانية وهي بدر الكبرى: دفع النبي ﷺ اللواء وكان أبيض إلى مصعب بن عمير وكان أمامه رايتان سوداوتان أحدهما مع علي بن أبي طالب «عليه السلام» يقال لها العقاب والأخرى مع بعض الأنصار.

وعن ابن عباس: إن رسول الله ﷺ أعطى علياً «عليه السلام» الراية يوم بدر وهو ابن ٢٠ سنة.

وفي الامتناع: إنه ﷺ عقد الألوية وهي ثلاث لواء يحمله مصعب بن عمير ورايتان سوداوتان أحدهما مع علي بن أبي طالب «عليه السلام» والأخرى مع بعض الأنصار، أما لواء قريش فكان بيد إبليس لعنه الله في صورة سراقه بن جشم المدلجي.

قال: وفي غزوة الكدر وهي غزوة بني سليم حمل لواء رسول الله ﷺ وكان أبيض علي بن أبي طالب وهذه الغزوة بعد بدر بسبع ليال وفي سنتها تزوج علي بفاطمة «عليهما السلام».

وفي غزوة بني قينقاع كان لواء النبي ﷺ بيد عمه حمزة بن عبد المطلب وكان أبيض، وفي غزوة قرقرة الكدر حمل لواءه علي بن أبي طالب «عليه السلام».

وفي غزوة أحد عقد ثلاثة ألوية: لواء للأوس ولواء للخزرج ولواء للمهاجرين؛ فلواء الأوس بيد أسيد بن خضير، ولواء الخزرج بيد سعد بن عباد وقيل بيد الحباب بن المنذر، ولواء المهاجرين بيد علي بن أبي طالب، وقيل: بيد مصعب ابن عمير لأنه كان ﷺ سأل من كان يحمل لواء المشركين، فقيل: طلحة بن أبي طلحة من بني عبد الدار وهم أصحاب اللواء في الجاهلية فأخذه ﷺ من علي ودفعه إلى مصعب بن عمير وهو من بني عبد الدار، هذا كلامه ولا ينافي لأن مصعب بن عمير قتل في هذه الواقعة فرجع اللواء إلى أمير المؤمنين «عليه السلام» فأجتمعت الراية واللواء في بني هاشم.

وذكر قتل أصحاب اللواء من المشركين^(١) وهم طلحة كبش الكتيبة ثم عثمان ابن أبي طلحة أخو كبش الكتيبة وأخوهما أبو سعيد ثم مسافع بن طلحة ثم الحارث بن طلحة ثم كلاب بن طلحة ثم الجلاس بن طلحة ثم حمل اللواء أرطاة ابن شرحبيل بن عبد مناف بن هاشم بن عبد الدار فقتله أيضاً علي ابن أبي طالب ثم شريح بن فارظ فقتل ثم أبو زيد بن عمرو بن عبد مناف بن هاشم بن عبد الدار فقتل، فحمله ولده شرحبيل فقتله قزمان، ثم حمله صواب غلامهم وكان عبداً حبشياً فقطعت يده فبرك عليه فأخذه لصدره حتى قتل عليه، وكان أبو سفيان قال لأصحاب اللواء لواء المشركين من بني عبد الدار يحرضهم على القتال: يا بني عبد الدار! إنكم تركتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم فإما أن تكفونا لواءنا وإما تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه، فهموا به وتوعدوه وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع وذاك الذي أراد أبو سفيان إلخ.

قال: وفي غزوة حمراء الأسد دعا بلوائه وهو معقود فدفعه لعلي بن أبي طالب، وفي غزوة بني النضير حمل رايته علي بن أبي طالب، وفي غزوة بدر الموعد وهي بدر الثالثة حمل لواء رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، وفي غزوة

المريسيع دفع لواء المهاجرين إلى عمار بن ياسر ولواء الأنصار إلى سعد بن عباد الخ.

ومن هنا يستبين لك شطط هذا المتعصب وزيفه عن جادة الصواب، ومن عادة المصنف المنصف أن يتحرى السلوك على نهج الحق، وعمار بن ياسر وإن كان أهلاً لحمل اللواء أمام رسول الله ﷺ لكنه لا يتقدم على أمير المؤمنين «عليه السلام» ورسول الله ﷺ لا يقدمه ولا أحداً من الناس على علي «عليه السلام» ولا يخالف العادة المألوفة وهو القائل: نحن أولى بالوفاء، وقد أقر في الفتح المآثر القرشية في أهلها فرد مفتاح الكعبة إلى شعبة العبدي وقد عزل الخليفة الأول عن براءة كما علمت.

ومن جهة ثانية كيف يحمل سعد بن عباد راية الأنصار والأوس تأنف أن تمشي تحت راية خزرجي فلا يحدث رسول الله ﷺ في نفوس أصحابه ما ينفرهم ويكسر همتهم مع إمكان إرضاءهم بالمباح السائغ شرعاً إن لم يكن راجحاً في دين الإسلام بأن يدفع لكل قبيلة منهم راية يحملها رجل منهم كما صنع ذلك يوم الفتح ويوم أحد وغيرهما، وقد ذكر الحلبي نفسه تمايزهم حتى في الشعار فتفطن لهذه الدسائس التي يدسها ولا تعتقد غير ما نقول وهو الحق.

إن حامل لواء المهاجرين أمام رسول الله ﷺ في كل غزوة عدا تبوك هو أبو الحسن علي «عليه السلام» وراية الخزرج مع آل عباد بن دليم من بني ساعدة، وراية الأوس في بني عبد الأشهل ولكل قبيلة راية يحملها زعيمهم، هذا نظام النبي ﷺ فأعرفه وتيقنه ونعود إلى كلامه.

قال: وفي يوم الخندق وهو يوم الأحزاب أعطى لواء المهاجرين لزيد بن حارثة ولواء الأنصار لسعد بن عباد الخ، هذا كسابقه فالتفت، قال: ولواء قريش بيد عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدي وفي كل من أسد وغطفان وسليم وأشجع لواء.

وفي غزوة بني قريظة قدم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب «عليه السلام» برايته إلى بني قريظة، وفي رواية: دفع إليه لوائه وكان اللواء على حاله لم يحل مرجعه من الخندق، فلما دنا علي ومعه نفر من المهاجرين والأنصار غرز اللواء عند أصل الحصن.

قال: وفي غزوة خيبر بعث رسول الله ﷺ إلى علي وكان أرمم شديد الرمد وكان قد تخلف بالمدينة ثم لحق بالنبي ﷺ فقبل له إنه يشتكي عينيه، فقال ﷺ

من يأتيني به، فذهب إليه سلمة بن الأكوع وأخذ بيده حتى أتى به النبي ﷺ وقد عصب عينيه، فعقد له رسول الله ﷺ اللواء لواءه الأبيض وكانت راية رسول الله ﷺ تدعى: العقاب.

قال الدمياطي: كانت للنبي ﷺ راية سوداء مربعة من نمرة مخملة يقال لها العقاب، وكانت له راية صفراء ولواء أبيض دفعه إلى علي بن أبي طالب. وفيه أن ذلك اللواء يقال له العقاب، وذكر أن اللواء الأبيض مكتوب فيه «لا اله إلا الله محمد رسول الله» إلخ.

وأحسب أن هذه الراية السوداء هي التي حملها الرجلان يوم خيبر ورجعا منهزمين فغضب النبي ﷺ وقال: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كراة غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه، فبات المسلمون يدوكون ليروا من الذي يعطيه إياها، فدعا بأمير المؤمنين «عليه السلام» فأعطاه إياها فمضى بها حتى ركزها في أصل أمتع حصونهم وقتل بطلهم مرحباً وأقتلع باب حصنهم العظيم وفتح الحصن وقد تداول الشعراء هذه القصة فذكرها ابن أبي الحديد والأزري وغيرهما.

ثم ذكر بعث مؤتة والأمراء الثلاثة، وقال في فتح مكة: وفي قديد عقد ﷺ ألوية القبائل وذكر أنه عقد لأبي رويحة لواء وذكر أن سعد بن عبادة كانت معه راية رسول الله ﷺ على الأنصار فلما مر بأبي سفيان وهو بمضيق الوادي قال سعد: يا أبا سفيان! اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحزمة، اليوم أذل الله قريشاً وذكر أن رسول الله ﷺ بعث علياً «عليه السلام» إلى سعد فأنزع اللواء منه ودفعه إلى ابنه قيس بن سعد وقيل: بقي في يد علي «عليه السلام» هذا قول الحلبي.

وتوضيح ما أجمله أن لواء النبي ﷺ الأعظم بيد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ولواء الأنصار يحمله سعد بن عبادة وإنما أمر رسول الله ﷺ علياً «عليه السلام» بأخذ اللواء من سعد لأمر:

أولاً: خاف أن تكون لقريش صولة إذا خافوا الفناء.

ثانياً: رفع ما يتوهم أن النبي ﷺ قد أباح حرمة الحرم.

ثالثاً: دفع ما يظنه بعض العرب أن النبي ﷺ ينطوي على حقد وبغض لقريش لأنهم طردوه وحاربوه.

رابعاً: رفع ما يتوهم أن قريشاً ذلت بهذا الفتح وإنما هو في الحقيقة إعزاز لهم بظهور الإسلام وانتشاره بينهم وإن كرهوه.

خامساً: رفع ما يتوهم أنها غزوة قساوة تستباح بها الاموال وتهتك الاعراض وإنما هي في الحقيقة غزوة رحمة لقريش وغيرهم تحققن بها الدماء وتحفظ الأموال وتصان الأعراض ويسود الأمن في مكة المشرفة وضواحيها.

وإنما عزل رسول الله ﷺ سعداً بأمير المؤمنين «عليه السلام» دون غيره من الصحابة لعلمه أن سعداً لا يجترأ عليه أحد من العرب كائناً من كان وما طلق سعد امرأة في جاهلية ولا إسلام وقدر أن يتزوجها أحد حتى صار مثلاً مطلقة سعد، فسعد لا تجاسر عليه أحد من الناس فينتزع اللواء منه وسعد لا يدفعه لأحد ولو رامه إنسان منه لحطم أنفه بالسيف فهو لا يذعن لغير رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين «عليه السلام» فإن سعداً كان مهيباً مرهوباً منيع الجانب حمي الأنف ذا أنفة وأبهة وتبازخ وعظمة، فيه نخوة وكبرياء، ذاهب في الشرف كل مذهب، فكانت سياسة رسول الله ﷺ أحسن سياسة وفراسته ابدع فراسة لم يرسل لأخذ اللواء من سعد أحداً غير ابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» لعلمه أن سعداً يخضع له وينقاد لأمره فأخذ اللواء منه ودفعه لابنه قيساً فهذه هي السياسة الوحيدة والرأي الثاقب.

قال الحلبي في ألوية النبي ﷺ يوم حنين ونصه: فوضع النبي الألوية والرايات في المهاجرين والأنصار؛ فلواء المهاجرين أعطاه علياً «عليه السلام»، وأعطى لسعد بن أبي وقاص راية، وعمر بن الخطاب راية، ولواء الخزرج أعطاه الحباب ابن المنذر، ولواء الأوس أعطاه أسيد بن خضير إلخ.

وليتهم اخبرونا عن هذه الألوية والرايات أين طرحوها؟ وفي أي بادية ألقوها لما انهزموا؟ حيث صرح القرآن بهزيمتهم واتفق المؤرخون أنه لم يثبت مع النبي غير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأخيه عقيل وعمه العباس وعبد الله والفضل ولد العباس وولد أبي لهب عتيبة ومعتب وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب ورجل من الأنصار وهو أيمن ابن أم أيمن وأستشهد (رحمه الله) وليس في هؤلاء أحد من أرباب الرايات والألوية غير أمير المؤمنين «عليه السلام» ولا تحسب أن منهزماً يتمكن من حفظ رايته لأنه يخاف أنها ترى فتدل عليه لأنه يحسب العرفج أمامه رجالاً ويظن الشجر فرساناً وأبطالاً تطارده، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثَرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذِرِينَ﴾^(١).

للمؤلف:

أيا حاملي الرايات أين رميتموا برايات خير الأنبياء من الرعب
وأسلمتموا الهادي بأوطاس للعدا وتسعاً أطفأوا فيه من خيرة الصحب
يجالد عنه المرتضى بعد فركم هوازن والخيل المغيرة في الشعب
وعباس عم المصطفى قام صارخاً بكم أيها الفرار عن خطة الحرب

ألوية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» في حروبه

لم نذكر ألوية القبائل مع النبي ﷺ وراياتها وأمرأ السرايا والبعوث فإن ذلك شرح مطول ويناسب أن نذكر ألوية القبائل وراياتها مع أمير المؤمنين «عليه السلام» فإن قبيلة واحدة مع أمير المؤمنين «عليه السلام» كانت وحدها ميسرة جيشه يوم صفين وهي ربيعة فهي تفوق عدداً على أكبر جيش مع رسول الله ﷺ، ومن وجهة ثانية تقسيم القبائل أسباعاً وأخماساً في جند العراق ما جعل لذلك أهمية تاريخية يجب الوقوف عليها.

حرب الجمل بالبصرة:

خرج «عليه السلام» من المدينة بفيلق مؤلف من المهاجرين والأنصار وأنضم إليه في الطريق الحليفان طي وأسد، ثم نهض لنصرته أهل الكوفة وأنضاف إليه ربيعة البصرة وبعض قبائلها، وعند خروجه من الحجاز كان لواؤه الأعظم وهو لواء رسول الله ﷺ بيد ولذه محمد الأكبر بن الحنفية، ولواء المهاجرين بيد عمار بن ياسر، ولواء الخزرج بيد أبي قتادة الأنصاري، ولواء الأوس بيد أبي الهيثم بن التيهان وهو ذو السيفين أحد نقباء النبي ﷺ.

وحيث كان جيشه «عليه السلام» مؤلفاً من ثلاثة فرق عسكرية: ١. فرقة عسكر الحجاز، ٢. فرقة عسكر الكوفة، ٣. فرقة عسكر البصرة، وكل فرقة منها مؤلفة من افواج، ولكل فوج منها لواء، وهذا ما ذكره المؤرخون.

قال المسعودي في مروج الذهب عن المنذر بن الجارود قال: لما قدم علي «عليه السلام» البصرة دخل مما يلي الطف^(١) فأتى الزاوية فخرجت لأنظر فورد موكب نحو ألف فارس يقدمهم فارس على فرس أشهب، عليه قلنسوة وثياب بيض، متقلد سيفاً، معه راية، وإذا تيجان القوم الأغلب عليها البيض والصفرة

(١) طف البصرة تسميه العوام اليوم الجفّة.

مدججين في الحديد والصلاح، فقلت: من هذا؟ فقليل: أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ وهؤلاء الأنصار وغيرهم.

ثم تلاهم فارس آخر عليه عمامة صفراء وثياب بيض، متقلد سيفاً، متنكب قوساً، معه راية، على فرس أشقر نحو ألف فارس، فقلت: من هذا؟ فقليل: خزيمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين.

ثم مر بنا فارس آخر على فرس كميت، معتم بعمامة صفراء تحتها قلنسوة بيضاء وعليه قباء أبيض مصقول، متقلد سيفاً، متنكب قوساً في نحو ألف فارس من الناس معه راية، فقلت: من هذا؟ فقليل: أبو قتادة بن ربعي الأنصاري.

ثم مر بنا فارس آخر على فرس أشهب، عليه ثياب وعمامة سوداء وقد سد لها بين يديه ومن خلفه شديد الأدمة، عليه سكينه ووقار، رافع صوته بقراءة القرآن، متقلد سيفاً، متنكب قوساً، معه راية في نحو ألف فارس من الناس مختلفي التيجان، حوله مشيخة وكهول وشبان، كأن قد أوقفوا للحساب، أثر السجود قد أثر في جباههم، فقلت: من هذا؟ فقليل: عمار بن ياسر في عدة من الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبناءهم.

ثم مر بنا فارس آخر على فرس أشقر، عليه ثياب بيض وقلنسوة بيضاء وعمامة صفراء، متنكب قوساً، متقلد سيفاً، تخط رجلاه الأرض، معه راية في ألف فارس، الغالب على تيجانهم الصفرة والبياض، معه راية صفراء، فقلت: من هذا؟ فقليل: قيس بن سعد بن عباد في الأنصار وأبناءهم وغيرهم من قحطان.

ثم مر بنا فارس آخر على فرس أشهل، ما رأينا أحسن منه، عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سد لها بين يديه بلواء، قلت من هذا؟ قيل عبد الله بن العباس في عدة من أصحاب رسول الله ﷺ.

ثم تلاه موكب آخر فيه فارس أشبه الناس بالأولين، قلت: من هذا؟ قيل: قثم بن العباس أو سعيد بن العاص.

ثم أقبلت المواكب والرايات يقدم بعضها بعضاً وأشتبكت الرماح، ثم ورد موكب فيه خلق من الناس «عليهم السلام» ح والحديد مختلفوا الرايات، في أوله راية كبيرة يقدمهم رجل كأنما كسر وجبر - قال ابن عائشة: وهذه صفة رجل شديد الساعدين نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى فوق كذلك تخبر العرب في وصفها إذا أخبرت عن الرجل إنه كسر وجبر - كأنما على رؤوسهم الطير، وعن ميسرتهم شاب حسن الوجه، فقلت: من هذا؟ قيل: علي ابن أبي طالب، وهذان الحسن

والحسين عن يمينه وعن شماله ، وهذا محمد بن الحنفية معه الراية العظمى ، وهذا الذي خلفه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وهؤلاء ولد عقيل وغيرهم من فتيان بني هاشم ، وهؤلاء المشائخ أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فساورا حتى نزل الموضع المعروف بالزاوية إلخ .

وفيها ما ينبغي أن يلاحظ مثل ذكر سعيد بن العاص وقيس بن سعد ؛ أما سعيد فالظاهر أن في ذلك سقطاً وهو عبد الله بن سعيد بن العاص ، وأما قيس بن سعد فأشتباه من الناسخ والظاهر عبادة بن الصامت فظنه الناسخ عبادة والد سعد فضم إليه ما بقي من الأسماء وإن جحد بعض مؤرخي السنة حضوره الحرب وزعم أنه أعتزل الفريقين بالشام ولكن هؤلاء قوم يجحدون الشمس وينكرون السماء .

الفرقة الثانية من جيش أمير المؤمنين «عليه السلام» في حرب البصرة الفيلق الكوفي وقد كتبنا في كتابنا سفير الحسين مسلم بن عقيل ما أوجب علينا حذف ما هنا مراعاة للاختصار .

الفرقة الثالثة من جيش أمير المؤمنين «عليه السلام» الفيلق البصري وجل هذا الفيلق من ربيعة ، وخذ ملخص ما ذكره المؤرخان الشهيران الطبري وأبن الأثير في تأريخيهما ، قالوا : راية عبد القيس من ربيعة كانت مع حكيم بن جبلة فقتل يوم الجمل الأصغر شهيداً وذلك قبل قدوم أمير المؤمنين «عليه السلام» فصارت بعده إلى منقذ ابن النعمان العبدي فأستشهد مع أمير المؤمنين «عليه السلام» يوم الجمل الأكبر فصارت إلى ولده اللعين مرة بن منقذ فشهد بها الجمل وصفين والنهروان مع أمير المؤمنين «عليه السلام» ثم شهد كربلاء مع عمر بن سعد فقتل علي بن الحسين الأكبر ، وقيل : صارت بعد مقتل حكيم بن جبلة إلى بني صوحان وهو ضعيف لأن بني صوحان من ربيعة الكوفة ، وراية بكر بن وائل كانت مع عبد الرحمن بن طود البكري فأستشهد ، وقيل : وكانت راية عبد القيس البصرة مع عمرو بن مرحوم العبدي وهو قريب ، وقيل : كانت راية بكر بن وائل لشقيق بن ثور السدوسي يحملها رשרاشة مولاه وهو قريب أيضاً وشهد شقيق بها الجمل وصفين ؛ هكذا ذكر الطبري .

ألوية أمير المؤمنين «عليه السلام» وراياته في صفين

إن في هذه الحرب الطاحنة تألف لأمر المؤمنين «عليه السلام» جيش عرمرم تحت قيادة قواد خبراء وأمرأة أمراء مهرة بفتون الحرب ، وكانت زيادة الجيش فيها على جيش البصرة بمقدار الضعفين فإن أهل البصرة من حاربه فيها تبصر ومن خذله

أستبصر فأنضموا إليه يوم صفين وأهل الكوفة نهضوا معه جميعاً المتدين ديانة والمنافق حمية إلا جماعة من المستريبيين وبعض أهل التقشف الصوري والإيمان المستودع شكوا في القتال فبعث منهم بعضاً إلى الثغور بقيادة الربيع بن خيثم أحد الزهاد الثمانية المشهورين فكان هذا أول لواء عقده أمير المؤمنين «عليه السلام» بالكوفة وهذا أول بعث بعثه ثم عقد أولية القبائل لحرب صفين، فعقد لعدي بن حاتم الطائي على طي وتجمعهم الدعوة مع مذحج، وتختلف الرايتان: راية مذحج مع زياد بن النضر الحارثي، وراية طي مع عدي بن حاتم.

رايات أخماس أهل البصرة بصفين؛

راية بكر بن وائل مع خالد بن المعمر السدوسي، وراية عبد القيس مع عمرو ابن مرحوم العبدي، وقال بعضهم: عمرو بن مرحوم قتل مع علي «عليه السلام» يوم الجمل والصحيح أنه أستشهد قبل النهروان بيسير قتلته الخوارج، وإن راية بكر بن وائل كانت لشقيق بن ثور السدوسي، وراية الأزد مع صبرة بن شيمان الحداني، وراية بني تميم وضبة والرباب مع الأحنف بن قيس السعدي، وراية أهل العالية مع شريك بن الأعور الحارثي.

رايات أسباع أهل الكوفة بصفين؛

راية قيس وعبد القيس مع سعد بن مسعود الثقفي عم المختار ابن أبي عبيدة. راية تميم وضبة والرباب مع معقل بن قيس الرياحي وتضاف إليه قريش وكنانة وأسد.

راية الأزد وبجيلة وخثعم والأنصار وخزاعة مع مخنف بن سليم الأزدي.

راية كندة وحضر موت وقضاعة مع حجر بن عدي الكندي حجر الخير.

راية مذحج والأشعرين مع زياد بن النضر الحارثي.

راية همدان وحمير مع سعيد بن قيس الهمداني.

راية طي مع عدي بن حاتم الطائي.

واللواء الأعظم لواء العسكر كله مع هاشم بن عتبة الزهري وهو المرقال، وعسكر المدينة على ترتيبه الذي ذكرنا في الجمل غير أن لواء الخزرج صار إلى قيس بن سعد بن عبادة لأنه حضر صفين.

رايات القبائل والبطون؛

راية بكر بن وائل بسبب التشاجر بين خالد بن المعمر وشقيق بن ثور

السدوسيين جعلها باتفاق منهما لحضين بن المنذر بن وعلة الرقاشي، وكانت راية كندة وربيعة الكوفة للاشعث بن قيس الكندي فأخذها منه أمير المؤمنين «عليه السلام» وجعلها لحسان بن محدوج الذهلي من ربيعة وبقيت مع الأشعث راية كندة يحملها معاوية بن الحارث الكندي وله أثر بين يوم صفين، وراية النخع مع الأشتر أو راية مذحج كلها معه يحملها حيان بن هوذة النخعي ثم الصهباني، وراية بني الحارث بن كعب من مذحج يحملها شريك بن الاعور الحارثي، وقيل: لم يشهد صفين لأنه بقي في وكالة ولاية البصرة بدلاً عن ابن عباس، وراية سعد العشيرة من مذحج يحملها الحارث بن جهمان الجعفي، وراية أرحب من همدان يحملها يزيد بن قيس الأرحبي صاحب يوم الجرة، وراية شبام من همدان يحملها كريب بن شريح الشبامي فاستشهد بصفين هو وإخوة له خمسة قتلوا جميعاً على الراية ثم أخذها سفيان بن يزيد فاستشهد هو وأخوان له على الراية ثم أخذها عميرة بن بشر فاستشهد هو وأخوه الحارث بن بشر ثم أخذها أبو القلوص الشبامي فبقيت في يده إلى أن تحاجز الناس.

وراية خزاعة يحملها سليمان بن صرد الخزاعي، وراية بني عبس كانت مع فائد بن بكير العبسي فاستشهد فأخذها ابنه حسان بن فائد، وشهد حسان هذا حرب الحسين «عليه السلام» مع عمر بن سعد وقتله المختار يوم السبخة فيمن قتل من أشرف أهل الكوفة، وراية بني عامر بن صعصعة يحملها عبد الله بن الطفيل البكائي وكان له صوت وغناء عن أهل العراق ومن الأمراء وأهل الأيام بصفين، وراية خثعم يحملها أبو كعب فاستشهد فأخذها ابنه كعب بن أبي كعب وفقت عينه على اللواء ثم كان مع عمر بن سعد في حرب الحسين «عليه السلام» قتله المختار يوم السبخة فيمن قتل من أشرف الكوفة.

وراية بجيلة يحملها قيس بن المكشوح الأحمسي حليف مراد قاتل الأسود العنسي أحد أبطال العرب المشهورين استشهد (رحمه الله) عند سرادق معاوية وأستشهد معه من أشرف أحمر جماعة تكفل التاريخ بضبط أسماءهم، وراية بني نهد يحملها مسروق بن الهيثم فاستشهد (رحمه الله) وأستشهد حولها جماعة منهم، وراية بني أسد بن خزيمة يحملها قبيصة بن جابر الأسدي الصحابي أحد الأبطال ومن أهل الغناء والأيام المشهورة بصفين، وراية كنانة مع أبي الطفيل عامر بن واثلة الكناني الصحابي أحد الأبطال والشعراء وأهل الغناء والأيام بصفين وله شهرة في طلب الثار، وراية بني حنظلة من تميم مع عمير بن عطار بن حاجب بن

زرارة الدارمي، وكان شريفاً ثم أخذها ابنه محمد بن عمير وشهد محمد هذا حرب الحسين «عليه السلام» مع عمر بن سعد وقتله المختار يوم السبخة مع أشراف أهل الكوفة.

وراية بني سعد من تميم مع جارية بن قدامة السعدي أحد القواد المشهورين وهو الذي طرد بسر بن أرطأة عن اليمن، وراية بني عمرو بن تميم مع شيث بن ربعي ثم شهد حرب الحسين «عليه السلام» مع عمر بن سعد ونجى من سيف المختار يوم السبخة وقتل ابنه، وشيث هذا كان مؤذن سجاح التي ادعت النبوة يتناوب مع مؤذنها الآخر المعروف بابن النواحة، وفي بني تميم رايات أخرى: راية مع أعين بن ضبيعة المجاشعي من خواص أمير المؤمنين «عليه السلام» وأُستشهد في وقعة ابن الحضرمي بالبصرة وأعين هذا عاقر الجمل على قول مشهور، وراية مع الأصبع بن نباتة المجاشعي وكان من خواص أمير المؤمنين «عليه السلام» ومن أمراء شرطته وكان بمرتبة معاون، وراية مع حارثة بن بدر الغداني وكان شريفاً من الفصحاء يعاب بمعاقرة الخمر وصحبة زيادة بن سمية^(١)، وفي ربيعة رايات غير من ذكرنا.

رايات مع صعصعة بن صوحان صاحب أمير المؤمنين «عليه السلام» أحد الفصحاء والخطباء والفقهاء المشهورين، وراية مع زياد بن خصفة التيمي أحد خواص أمير المؤمنين «عليه السلام» ومن أهل الأيام والغناء ومن أمراءه وقواده وكان من أمراء التوابين وأُستشهد مع سليمان بن صرد بعين الوردية، وراية مع نعيم بن هبيرة الشيباني أخي مصقلة ولنعيم بلاء عظيم في طلب الثار مع المختار وكان شريفاً ومن الأبطال ومن خواص أمير المؤمنين «عليه السلام» ولا حاجة بذكر الباقي.

ألوان رايات صفين؛

قال نصر بن مزاحم: كانت رايات أهل صفين سوداً وحمراً ودكناً وبيضاً ومعصفرة وصفراً وموردة والألوية مضروبة دكن وسود إلخ.

حرب النهروان؛

الرايات فيها هي بعينها تلك الرايات سوى أن أمير المؤمنين «عليه السلام» عقد لأبي أيوب الأنصاري راية أمان من التجأ إليها من الخوارج فهو آمن.

(١) ويذكر بعض المحققين أن حارثة بن بدر صاحب زياد المعافر للخمر غير حارثة بن بدر المذكور هنا ولعله كان مصيباً في هذه التفرقة.

رايات الحسن والحسين «عليهما السلام»

رايات الحسن السبط سبط رسول الله ﷺ :

راياته هي رايات أبيه في حروبه لأن العشائر التي نهضت معه هي التي حاربت مع أبيه ولكنه بعث أمامه بعثاً جعل أمراءه ثلاثة مرتبين :
القائد الأول : وهو أمير الأمراء ابن عمه عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب .

القائد الثاني : قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري النائب عن القائد الأول .
القائد الثالث : سعيد بن قيس الهمداني وهو نائب أمير القوة وقائدها ، ولكل واحد من هؤلاء الأمراء لواء دال على مرتبته ولواء الحسن «عليه السلام» الأعظم مع أخيه محمد بن الحنفية .

ألوية الحسين «عليه السلام» وراياته في حربه :

كانت له «عليه السلام» بالعراق حربان : حرب شهدها بنفسه وحرب لم يشهدا وإنما قامت على أعضاء شيعته بقيادة سفيره إليهم ونائبه الأعظم وهو ابن عمه مسلم بن عقيل ، والسبب الذي دعا مسلم بن عقيل إلى إشهار تلك الحرب قبل أن تتكامل قواته وتجتمع اجناده المبعثرة والتي يستطيع أن يؤلف منها قوة هجومية قوية فنهض مستعجلاً بالقوة الدفاعية التي ألقت من كتائب صغيرة احتياطية جعلت عدة للطوارئ المفاجئة والتي لم تزد على أربعة افواج تقريباً هو أن أمر السلطة الأموية في العراق عبيد الله بن زياد قد أحتال على عميد جيش مسلم بن عقيل وهو الزعيم هاني بن عروة فألقى القبض عليه فأعتقله في دار الإمارة وحيث أنا شرحنا القصة في كتابنا سفير الحسين مسلم بن عقيل تركنا ما هنا فراجعه هناك .

الحرب التي شهدها الحسين «عليه السلام» بنفسه :

وهي التي أستهشهد فيها وهي وقعة كربلاء تلك الفاجعة العظمى والوقعة الكبرى التي بقيت ذكراها على ممر الأحقاب ، فقد كان «عليه السلام» منذ خروجه من الحجاز عقد لواء ودفعه إلى أخيه الفضل العباس الأكبر «عليه السلام» ذلك البطل العلوي العظيم فحملة بين يديه إلى حين التحام تلك الحرب التي جلبت لأمية خزي الأبد وجرت إليها شؤم الدهر فهاجم قوات الأعداء المحدقة بهم مراراً عديدة وأستنقذ بعض أنصارهم الذين طوقهم الأعداء وكان أبو الفضل «عليه السلام» لا يقف في حملته دون أن ينتهي إلى مركز عميد عسكر الأعداء ليرعب

بتلك الهجمات قلوب أمراء القوات المعادية ويذكرهم بالشجاعة العلوية التي لم تغب عنهم ذكراها أيام كافحوا معه أهل الجمل وصفين، وقد قيل في تأبينه: لك موقف بالطف أنسى أهله حرب العراق بملتقى صفين فلم يزل أبو الفضل العباس «عليه السلام» على شدة الخطر مبتهجاً مرتاحاً ووجوه الأعداء كالحية مقطبة لحراجه الموقف وفضاعة المعترك، ويعود رافلاً بالحديد مغيراً على جواده المحلق كنسر الجو منقضاً على حرس الشرائع وتلك القوات المتكدسة على ضفافها فيصدم تلك الحامية ويشق صفوفها المتراسة ويخترق خطوطها المحصنة وينزل بعد أملاك المشرعة إلى الماء فيملأ السقاء لعطاشي آل الرسول.

وعقد الحسين «عليه السلام» رايتين دفع أحدهما لقائد الجبهة اليمنى زهير بن القين البجلي، والأخرى لقائد الجبهة اليسرى حبيب بن مظاهر الأسدي، وفي رواية المرندي: إن الحسين «عليه السلام» عقد رايات كثيرة ذكرنا ذلك في كتابنا «أعلام النهضة الحسينية»^(١).

وقد أكثر الشعراء في مراثيه «عليه السلام» من ذكر اللواء كقول بعضهم عن لسان الحسين «عليه السلام»:

لمن اللوى أعطي ومن هو جامع شملي وفي ظنك الزحام يقيني
سيأتي في فصل شهادته في الجزء الثالث الروايات وحكايات المؤرخين في حمله لواء الحسين «عليه السلام» وما قاله الحسين «عليه السلام».

ومن ألقاب العباس «عليه السلام» العميد والسفير وهما من الألقاب المشهورة ويأتي ذكرهما في الجزء الثالث في وظائفه.

ومن ألقاب العباس الأكبر «عليه السلام» ما هو دون ما تقدم في الشهرة منها الصابر والمحتسب والمواسي والطيار؛ أما الصبر والاحتساب فأمر ظاهر فإنه «عليه السلام» صبر على الظمأ وحدود السلاح وأحتسب نفسه العزيزة ونفوس إخوته الأشقاء وأولاده الأعزاء في ذات الله ففدى بنفسه وبهم أخاه الإمام وأحتسب جميع ما أصابه في ذات الله، وأما المواساة فسنذكرها في صفاته وجميع هذه الخصال جاء مدحه بها عن لسان ائمة أهل البيت «عليهم السلام» في زيارته وغيرها.

(١) مخطوط يقع في ستة أجزاء - يتحدث فيه عن أصحاب الحسين «عليه السلام» - الناشر -.

من ألقاب العباس عليه السلام

لقب العباس عليه السلام «الطيار»

وسر هذا اللقب أن أبا الفضل العباس بن أمير المؤمنين علي عليه السلام لما قطعت يده المباركتان على اللواء يوم كربلاء جعل الله تعالى له جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة كما جعل لعمه جعفر بن أبي طالب عليه السلام وهذا نص صحيح ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام.

روى الصدوق القمي (رحمه الله) في كتاب الأمالي بالإسناد إلى ثابت بن أبي صفية يعني أبا حمزة الثمالي قال: نظر علي بن الحسين عليهما السلام إلى عبيد الله بن العباس عليه السلام فاستعبر ثم قال: ما من يوم أشد على رسول الله من يوم قتل فيه عمه حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله، وبعده يوم مؤتة قتل فيه ابن عمه جعفر بن أبي طالب، ولا يوم كيوم الحسين عليه السلام أزدلف إليه فيه ثلاثون ألف رجل يزعمون أنهم من هذه الأمة كل يتقرب إلى الله بدمه وهو يذكرهم بالله فلا يتعظون حتى قتلوه بغياً وظلماً.

ثم قال: رحم الله عمي العباس فلقد آثر وأبلى وفدى أخاه بنفسه حتى قطعت يده فأبدله الله بهما جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة كما جعل لجعفر بن أبي طالب عليه السلام، وإن للعباس عند الله منزلة يغبطه بها جميع الشهداء يوم القيامة، والحمد لله رب العالمين، انتهى.

للمؤلف يذكر لقب الطيار:

طارت جماهير العدو مروعة	من خوف بأسك أيها الطيار
وكشفت حراس الشريعة فاتكاً	بالملاحدين كأنك الكرار
فملكته رغم الأعادي عنوة	بالسيف عزمك جحفل جرار
وملأت من عذب الروى ذاك السقا	والقلب فيه من الأوام أوار
ما ذقت من ذاك المعين تذكراً	عطش الحسين ويهنك الإيثار

إن الحسين أذاب مهجته الظما فعلاك حين ذكرته استعبار
ناديت هوني بعد سبط محمد يا نفس إني المؤثر الصبار
يسقيك إذ واسيته من حوضه يوم القيامة جده المختار
أقبلت تركض بالسقا مبادراً خيم الحسين وما أفاد بدار
قطعت يداك وشق بالسهم السقا والخيم كردسها لك الأشرار
فوقفت بين جموع لا يمنة بقيت تقيك ولم تعنك يسار
فقد الحسين بك الحمية والوفا وأخاً تحاذر بأسه الاقدار
قد كنت تحمل في الجلاد لوائه ولك الفخار علامة وشعار

ألقاب العباس العامة

للعباس الأكبر «عليه السلام» ألقاب لقبه بها العوام وهي كثيرة جداً مشتقة من صفاته وأفعاله كما كان القدماء يشتقون اللقب من صفات الملقب به .

منها المستعجل:

يعنون إنه «عليه السلام» يسرع في قضاء حوائج الراغبين إليه المتوسلين به وبأهله الكرام إلى الله الذين هم من أعظم الوسائل عنده وأجل الذرائع لديه وهذه صحيحة ومشاهدة بعضها الوجدان، والتجربة أكبر برهان فإنه «عليه السلام» ما توسل به متوسل إلى الله تعالى ولا أستشفع فيه متشفع مع خلوص نية وصحة عقيدة ويقين صادق وإخلاص ثابت إلا وقضى الله حاجته عاجلاً ويسرها وسهلها سريعاً .

ومنها المضهض:

وضهضت النار بلسان العوام اشتد لهبها وعظم استعارها بالوقود، يعنون إنه «عليه السلام» شديد البطش سريع الفتك بالمعتدين والمتجرئين عليه فإن الحالف فيه كاذباً والمجترء بأكل نذره أو جحده أو جعل له شرطاً ولم يف به وما شاكل ذلك فإنه ينكبه سريعاً من دون إمهال ويبطش به البطش العاجل وذلك مشاهد محسوس تعرفه العامة والخاصة .

ومنها أبو الشارة:

وهذا لقب وليس كنية كما يظن لأنه بدء بـ «أب» فإن «أب» هنا بمعنى صاحب الشارة وهذه الشارة وهي نوع من كراماته الكثيرة المشهورة والتي لا شك فيها ولا ارتياب ولا خفاء فيها لأنه قد أشترك الجميع في العلم بها ومعنى الشارة هو أن

يصيب الحالف كذباً أو المعتدي بأي نوع كان نكبة إما موت أو حرق أو غرق أو مرض مزمن وما شاكل هذا وقد قصف الله أعمار من حلفوا به كذباً أو منعوا تأدية حقوقه من النذور وغيرها أو تجاسروا عليه عتواً وتكبراً، وجميع هذه من الأمور المتسالم عليها عند عموم الشيعة وتواترت أخبارها لدهيم يتناقلها الخلف عن السلف وينقلها الحاضر للغائب ولم تختص الشعية بمشاهدة تلك الكرامات الباهرة بل شاهدها غيرهم وكنتمها عناداً وانحرافاً.

للمؤلف:

لقد شاهدت رهان سيد رسلها بمكة لم يخصص بذلك عارف
ولما أغتدى كالشمس دانت طوائف ومالت عن التصديق فيه طوائف
كذلك برهان ابن حيدر ظاهر جلي ولكن مال عنه المخالف

ومنها أبو رأس الحار:

وهو لقب أيضاً لا كنية ومعناه عندهم سرعة غضبه في ذات الله وعدم سماحه للجائر وعدم عفوه عن المجرم مهما كان.

ومنها الترهيب ببيانه:

يعني ابوابه ويعنون أن أبواب حضرته الشريفة ومرقده المقدس مخوفة مرهوبة لكثرة ما وقع منه «عليه السلام» من الكرامات المسماة بالشارة حتى أن الداخل إلى حضرته المقدسة يمتلئ رعباً وهيبه له وذلك لكثرة ما شاهدوا على أبوابها من أناس تجاسروا عليه بحلف كاذب أو سرقة أو إقدام بغير احترام فجعلهم آية ونكالاً فسبب ذلك في صدورهم هيبة ورهبة وغرضهم التعبير عما يفهمه العلماء العارفون من أن لولي الله هيبة تمتلئ منها صدور الناس.

ومنها باب الحوائج:

وقاضي الحاجات ولعل هذا اللقب قديم للعباس «عليه السلام» والغرض من ذلك قضاء الحاجات لمن توسل به وأستشفع إلى الله فيه وهذا أيضاً مجرب.

ولقد حدثني من يوثق به ويعتمد على قوله من المجاورين لسيدنا العباس «عليه السلام» أن امرأة جميلة بديعة الحسن كانت تطوف بقبر أبي الفضل العباس «عليه السلام» فرآها شاب يطوف بقبره أيضاً فأعجبته فلم يتمالك دون أن لمسها بيده فدعت عليه فشلت يده ودعا الله بجاء العباس «عليه السلام» أن يزوجه إياها وبعد مدة تزوج امرأة وهو لا يعرف تلك المرأة فلما آتست به سألته عن سبب

شلله فأخبرها بالقصة، قالت له: يا هذا وأنت قد قضى الله حاجتك إنها هي المرأة التي دعت عليك في ساعة كذا في وقت كذا بعلامة كذا فعرف القصة وحمد الله على ذلك.

ومنها المصفي بالياء المنقطة؛

وهو من التصفية ومعناه عندهم حسم الخصومة بين المتشاجرين إذا أنتهت إليه فإن المتهم الذي يصر على المناكرة والحجود إذا أُريد منه الحلف بحضرة سيدنا العباس «عليه السلام» لا يحلف خوفاً ولا بد له من الاعتراف فتنتهي الخصومة، وإذا حلف علموا أنه بريء مما قرف به فتنحسم مادة النزاع والتشاجر على الحالين جميعاً وهذا معنى قولهم المصفي.

ومنها أبو فرجة؛

لقب لاكنية وهم لا يقصدون أن له بنتاً تسمى فرجة إنما يقصدون أنه يقصدون أنه يفرج الكرب عن القاصد إليه والمستجير بجانبه والمتوسل إلى الله بجاهه وجاه أهل بيته الكرام والألقاب العامة كثيرة يكفي هذا المقدار منها. للمؤلف:

ليست كرامته تخفى على أحد	إلا على حاسد في غيه سبحا
أم كيف تخفى وأدناها إذا ظهرت	من شبل حيدر مثل الشمس زاد ضحى
بعض الكرامات كنا شاهدين لها	وبعضها شاهدتها سائر الصلحا
يا أيها الناس إن الواثقين بهم	فازوا وخاب الذي عن حبهم جمحا
فكم جلى الله عنا في محبتهم	كرباً وذنباً عفى عنا بهم ومحى
فلازموا حبهم تنجو بحبهموا	يوم القيامة وأعصوا من جفى ولحى
فالشاهرون عليهم سيف بغيهموا	خابوا ومبغض آل الله ما ربحا
لأنهم حجة الباري وخيرته	أهل التقى وخير الأمة الصلحا
إلعن يزيد وثني ابن الدعي ولا	تنسى ابن سعد من اللعنات مصطبحا
القاطعين يد العباس سيدنا	والقاتلين حسيناً سيد الصلحا
من لو يوازن بالدنيا وساكنها	مكارماً ومزايا خيرة رجحا

صفات العباس الأكبر «عليه السلام»

والصفات قسمان: خلقية وخلقية؛ فالأولى صفات البدن نحو الجمال وطول القامة وطول العنق وتناسب الأعضاء وما شاكل ذلك، والثانية صفات النفس نحو الكرم والشجاعة والعلم والحلم وما شابه ذلك.

الصفات البدنية للعباس «عليه السلام»:

فقد كان سيدنا العباس بن علي «عليهما السلام» من أحسن الناس خلقه وشكلاً وأتمهم بدنًا ومحاسناً، ويعد من رجال بني هاشم المتميزين بصفاتهم الجسمانية من الجسامة وطول القامة والجمال الباهر، وقد وصفه بعض العلماء - وهو أبو الفرج الأصبهاني - بأنه كان جسيماً وسيماً يركب الفرس المطهم ورجلاه تخطان في الأرض.

أثر الضخامة في الإرهاب ومدح البسطة الجسمية:

لا شك أن للضخامة تأثيراً في إرهاب العدو وإرغامه وكلما كان البطل جسيماً ضخماً طويلاً كان في الصدور أهيب وللأعداء أرهب، وكان في البطولة مقدماً لأن البطولة تكسو الرجال مهابة فيصبح لدى أعدائه مهيباً مرهوباً، ولم يزل وصف البطولة عند العرب القدماء فخراً لكرماتها الممتازين وفرسانها المشهورين لأن البطولة في الشخص تشتمل على أنواع من إرهاب الأعداء نحو الشجاعة وشدة البأس والبطش والجرأة والإقدام والقوة والضحامة البدنية ومدوحة وبالأخص طول القامة وقد امتنَّ الله تعالى على عبده عاد حيث خلقهم ضخام الأبدان طوال القامات بقوله: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾^(١)، وقوله تعالى توبيخاً لبني إسرائيل على امتناعهم من طاعة طالوت لما ملكه عليهم بقوله تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾^(٢).

وقد قال مولانا سيد الشهداء أبو عبد الله الحسين «عليه السلام» في أحد أصحابه وهو عبد الله بن عمير الكلبي وقد رآه طويلاً جسيماً: أحسبه للأقران قتالاً.

قال أبو جعفر الطبري في تاريخه: خرج يسار مولى زياد بن أبيه وسالم مولى عبيد الله بن زياد (فقالا:) فليخرج إلينا بعضكم فوثب حبيب بني مظاهر وبرير بن

حضير، فقال لهما الحسين «عليه السلام»: أجلسا، فقام عبد الله بن عمير الكلبي فقال أبا عبد الله: رحمك الله أئذن لي لأخرج إليهما، فرآه الحسين «عليه السلام» رجلاً آدمياً طويلاً شديد الساعدين بعيد ما بين المنكبين، فقال الحسين «عليه السلام»: إني أحسبه للأقران قتالاً أخرج إذاً، فخرج إليهما فقالا: من أنت؟ فأنسب لهما، إلى آخره، وقد ترجمنا للكلبي هذا في كتابنا «إعلام النهضة الحسينية».

فلضخامة الجسم وطول القامة أثر مهم في إرهاب الأعداء وإخافة الخصم وقد جاء في الأخبار القديمة وأخبرنا به القرآن المجيد إجمالاً وفصله التاريخ لنا تفصيلاً، فالقرآن الكريم يقول حكاية عن قوم موسى لما أمروا بحرب العماليق: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾^(١)، ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^(٢) إلى آخر ما حكاه الله تعالى من قصتهم التي شرحها التاريخ.

قال أبو جعفر الطبري في التاريخ في جملة أخبار موسى الكليم «عليه السلام»^(٣): ثم أمرهم - يعني موسى «عليه السلام» - بالمشير إلى أريحاء في أرض بيت المقدس فساروا حتى إذا كانوا قريباً منها بعث موسى «عليه السلام» اثني عشر نقيباً من جميع أسباط بني إسرائيل فساروا يريدون أن يأتوه بأخبار الجبارين فلقبهم رجل من الجبارين يقال له عاج^(٤) فأخذ الإثنى عشر فجلبهم في حجزته وعلى رأسه حزمة حطب فأنطلق بهم إلى أمراته فطرحهم أمامها وقال: أنظري إلى هؤلاء القوم يزعمون أنهم يريدون قتالنا! وقال: ألا أطحنهم برجلي؟ فقالت أمراته: بل خل عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا، ففعل ذلك، فلما خرجوا قال بعضهم لبعض: يا قوم! إنكم إن أخبرتم بني إسرائيل بخبر القوم أرتدوا عن نبي الله ولكن أكتموا وأخبروا نبي الله فيكونان هما يريان رأيهما، فأخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك ليكتموا ثم رجعوا فأنطلق عشرة فنكثوا العهد فجعل الرجل منهم يخبر أخاه وأباه بما رأوا من أمر عاج، وكنتم رجلاً منهم فأتوا موسى وهارون «عليهما السلام» فأخبروهما الخبر فذاك حيث يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾^(٥)، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ

(١) المائدة: ٢٢.

(٢) المائدة: ٢٤.

(٣) تاريخ الطبري ١/٢٢١.

(٤) هو الذي تسميه القصاص والعوام عوج بن عنق وبعض العوام يقول شنق بن عنق.

(٥) المائدة: ١٢.

أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا^(١) وساق القصة بطولها ..

وإنما أُرهبوا وأُرعبوا لضخامة أجسام هؤلاء العمالق وطول قامتهم .
وقال أحمد بن ألياس الحنفي في بدايع الزهور^(٢) في شرح هذه القصة :
فأختار موسى «عليه السلام» اثني عشر رجلاً فقال : أريد أن تتوجهوا إلى أريحاء مدينة الجبارين لتأتوني بخبر أهلها وإذا جئتم فأكتبوا خبرها عن بني إسرائيل ، فخرجوا ومعهم يوشع بن نون وكالب بن يوقنا وساروا حتى أشرفوا عليها فرآهم رجل من الجبارين فساقهم حتى أدخلهم أريحاء فأجتمع عليهم أهلها فوجدوهم عظيمي الجثث طوالاً وكان بنو إسرائيل بالنسبة إليهم صغار الجثث ضعفاء ، فهموا بقتلهم فقال بعضهم : لا تقتلوهم واجعلوهم لنا عبيداً ، فلما جاء الليل هربوا فلما وصلوا إلى بني إسرائيل أشاعوا ما صدر لهم فوق الخوف في قلوب بني إسرائيل فقالوا : يا موسى ! إن مملكة فرعون كانت أخف علينا مما نحن فيه من دخول مدينة الجبارين ، ثم ساق القصة آخرها .

طوال القامة عند العرب

لم تزل العرب في قديمها وحديثها تعد الطول مفتخراً لها وتقدم الطوال في الحروب تهويلاً على الأعداء ، وأشعارها وأخبارها ناطقة وهي كثيرة لا تضبط في هذه العالجة .

قال الطبري في التاريخ في أخبار القادسية^(٣) : إن سعد بن أبي وقاص جمع نفرأ عليهم نجار وهم آراء ونفرأ لهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء ؛ فأما الذين عليهم نجار ولهم آراء ولهم أجتهد فالنعمان بن مقرن وبسر بن أبي رهم وحملة بن حوية الكناني وحنظلة بن الربيع التميمي وفرات بن حيان العجلي وعدي بن سهيل والمغيرة بن زرارة بن النباش بن حبيب ، وأما من لهم منظر لأجسامهم وعليهم مهابة ولهم آراء فعطارذ بن حاجب والأشعث بن قيس والحارث بن حسان وعاصم بن عمرو وعمرو بن معد يكرب والمغيرة بن شعبة والمثنى بن حارثة فبعثهم دعاة إلى الملك إلخ .

أما الأشعار فكثيرة منها قول عنترة الفوارس العبسي في معلقته :

(١) المائدة : ٢٠ .

(٢) بدايع الزهور : ص ١٢٨ .

(٣) تاريخ الطبري ٩٢/٤ .

بطل كأن ثيابه في سرحة يحذي نعال السبت ليس بتوأم
السرحة أعظم الشجر، والسبت تسميه العوام السبته حزام من صوف يجعل
حمائل للخنجر، وقال غيره:

طويل نجاد السيف ليس بحبتر إذا أهتز وأسترخت عليه الحمائل
وطول حمائل السيف كناية عن طول القامة، وقال أبو هاشم في سعيد بن
سلم ابن قتيبة ابن مسلم الباهلي يمدحه:
ألا قل لساري الليل لا تخشى ظلة
لنا سيد أربى على كل سيد
يطول على الرمح الرديني قامة
وقال آخر يرثي رجلاً:

ومحتضر المنافع أريحني
عزیز عزة في غير فحش
جعلت وسادة إحدى يديه
ورثت سلاحه وورثت ذوداً
وقال توبة بن مضر السعدي:

ولما التقى الصفان واختلف القنا
تبين لي أن القمامة ذلة
القمامة القصر في القمامة، وقال جرير الخطفي:

تعالوا ففاتونا ففي الحكم مقنع
فإني لأرضى عبد شمس وما قضت
وقال حسان بن ثابت الأنصاري:

وقد كنا نقول إذا رأينا
كأنك أيها المعطى بياناً
لذي جسم يعد وذي بيان
وجسماً من بني عبد الممدان

امتداد القامة في قبيلتين من العرب:

قد اشتهرت قبيلتان من العرب بنو هاشم بن عبد مناف وبنو عبد الممدان بن
الديان من بني الحارث بن كعب من مذحج بضخامة الأجسام وطول القامات مع

الوسامة وحسن البيان، وبنو هاشم أشهر وأذكر وأفخر وأميز بجميع خصال الحمد.

قال الحلبي الشافعي في سيرته في حديث مولد النبي ﷺ^(١): روي عن أمه ﷺ أنها قالت: لما أخذني ما يأخذ النساء أي عند الولادة وإني لوحيدة في المنزل رأيت نسوة كالنخل طولاً كأنهن من بنات عبد المطلب ما رأيت أضوء منهن وجوهاً، وكأن واحدة من النساء تقدمت إلي فاستندت إليها وأخذني المخاض وأشدت علي الطلق وكأن واحدة منهن تقدمت إلي وناولتني شربة من الماء أشد بياضاً من اللبن وأبرد من الثلج وأحلى من الشهد فقالت لي: أشربي، فشربت، ثم قالت الثالثة: أزدادي ثم مسحت بيدها على بطني وقالت: بسم الله أخرج بإذن الله، فلقن لي: نحن آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران.

ثم قال^(٢): وهذا يفيد أن بنات عبد المطلب كن متميزات على غيرهن من النساء في إفراط الطول وقد رأيت أن علي بن عبد الله بن عباس كان مفرطاً في الطول كان إذا طاف كأن الناس حوله مشاة وهو راكب، وكان مع هذا الطول إلى منكب أبيه عبد الله بن عباس، وعبد الله إلى منكب أبيه العباس، وكان العباس إلى منكب أبيه عبد المطلب.

وقال المبرد في الكامل^(٣): يقال: إن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب كان إلى منكب عبد الله، وكان عبد إلى منكب العباس، وكان العباس إلى منكب عبد المطلب.

وحدثني التوزي قال: طاف علي بن عبد الله بالبيت وأنا عجوز قديمة وعلي قد فرع الناس كأنه راكب والناس مشاة، فقالت: من هذا الذي قد فرع الناس؟ فقبل: علي بن عبد الله بن عباس، فقالت: لا إله إلا الله إن الناس ليرذلون عهدي بالعباس يطوف بهذا البيت كأنه فسطاط أبيض.

وحدثني علي بن القاسم بن علي بن سليمان بن علي بن عبد الله أن العباس قال: كان يقال صار شبه علي بن عبد الله في عظم الاجساد في العلين يعني علي ابن المهدي المنسوب إلى أمه ربيعة وعلي بن سليمان بن علي.

الطوال من بني هاشم وغيرهم:

قال ابن قتيبة في المعارف^(٤): العباس بن عبد المطلب كان يمشي في

(١) السيرة الحلبي ١/٧٢.

(٢) السيرة الحلبي ١/٧٣.

(٣) الكامل للمبرد ١/٦٦.

(٤) المعارف لابن قتيبة: ص ٢٥٦.

الطواف كأنه عمارية على ناقة والناس كلهم دونه، وكان علي بن عبد الله بن العباس طويلاً جميلاً وعجب قوم من طوله فقال رجل: يا سبحان الله كيف نقص للناس لقد أدركت العباس وهو يطوف بهذا البيت كأنه فسطاط أبيض فحدث بذلك علي، فقال: كنت إلى منكب أبي، وكان أبي إلى منكب جدي، إنتهى.

وكان عقيل بن أبي طالب رجل طويل القامة مفرطاً في الطوال، قال أبو الحجاج البلوي الشافعي في كتاب ألف با^(١): كان عقيل بن أبي طالب طوالاً وكان أحد العشرة الذين طولهم عشرة أشبار، إنتهى.

وهؤلاء يقال لكل واحد منهم مقبل الظعن لإفراطه في الطول يعني إنه يستطيع أن يقبل الراكبة على البعير وهو جالس لا يحتاج أن يقوم إليها منهم عبادة بن الصامت الخزرجي الأنصاري من أعيان الصحابة وأحد نقباء النبي ﷺ الإثنى عشر كان طويلاً مفرطاً في الطول.

قال الحافظ العسقلاني الشافعي في الإصابة^(٢): روى ابن سعد إنه كان طوالاً جسيماً جميلاً، إلخ.

وبعضهم يقول: طويلاً جسيماً دميماً والله أعلم، ومنهم الزبير بن العوام وذكره الحلبي^(٣).

والذين ذكرهم المبرد في الكامل^(٤): العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله وجريز بن عبد الله البجلي والأشعث بن قيس الكندي وعدي بن حاتم الطائي وابن جذل الطعان الكناني واسمه عبد الله، وأبو زبيد الطائي وزيد الخيل بن مهلهل الطائي وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي.

قال المبرد: كان أحد هؤلاء يقبل المرأة على الهودج وكان يقال للرجل منهم مقبل الظعن وكان طلحة بن عبد الله موصوفاً بالتمام.

قال ابن قتيبة في المعارف^(٥): كان حبيب بن مسلمة الفهري كالمشرف على دابة لطوله، وكان عمر بن الخطاب كأنه راكب والناس يمشون لطوله.

ثم ذكر العباس بن عبد المطلب وقال: وكان جريز بن عبد الله البجلي يفتل في ذروة البعير من طوله وكانت نعله ذراعاً، وكان عدي بن حاتم طويلاً إذا ركب الفرس كادت رجله تخط في الأرض، وكان قيس بن سعد طويلاً جسيماً.

(٢) الإصابة ٢ / ٢٦٩.
(٤) الكامل للمبرد ٢ / ٩١.

(١) ألف با: ص ٨١.
(٣) السيرة الحلبي ١ / ٧٣.
(٥) المعارف: ص ٢٥٦.

وذكر ما تقدم في ترجمة ابن الحنفية وقال: وعبيد الله بن زياد «لعنه الله» كان طويلاً لا يرى ماشياً إلا ظنوه راكباً من طوله.

ثم ذكر علي بن عبد الله بن عباس وقال: كان جبلة بن الأيهم آخر ملوك غسان طوله اثني عشر شبراً وإذا ركب مسحت قدمه الأرض، وكان عمارة بن عقبة الحنفي الخارجي طويلاً ولما مات لم يجدوا له سريراً يحملونه عليه فزادوا في السرير ألواحاً وأمنه الحجاج فمات بالبصرة، إنتهى.

وكان مروان بن الحكم طويلاً يلقب بـ«ظل الشيطان» ويلقب بـ«خيطة الباطل» لطوله، كان عبد الله بن أبي سلول أحد بني الحبلى رأس المنافقين طويلاً، لما أسر العباس بن عبد المطلب يوم بدر أرادت الأنصار أن تكسوه ثوباً فلم يجدوا ما يلبسه سوى ثوب عبد الله بن أبي فكسوه إياه، وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله بطلاً جسيماً طوالاً، وكان الطرماح بن عدي الطائي الشاعر طويلاً وله قصة مع معاوية وهذا باب واسع، ولنرجع إلى تمدح العرب بالطول وأفتخارهم به.

قال مادم الرشيد هارون بن المهدي العباسي:

جهير الكلام جهير العطاس جهير الرواء جهير النعم
ويخطو على الأين خو الظليم ويعلو الرجال بخلق عمم

قال المبرد: عمم أي جسيم.

وذكر الجاحظ في البيان والتبيين^(١) بمناسبة هذين البيتين ما لفظه: حدثني إبراهيم بن السندي لما أتى عبد الملك بن صالح وفد الروم وهو في البلاد أقام على رأسه رجالاً في السماطين لهم قصر وهام ومناكب وأجسام وشوارب وشعور فبينما هم قيام يكلمونه ومنهم رجل وجهه في قفا البطريق إذ عطس عطسة ضئيلة فلحظه عبد الملك فلم يدري أي شيء أنكر منه، فلما مضى الوفد قال له: ويلك هلا إذ كنت ضيق المنخر كز الخيشوم أتبعثها بصيحة تخلع بها قلب العليج، إنتهى.

قوله «قصر وهام» يعني أعناق ضخمة ورؤس عظيمة من قولهم فلان عظيم القصرة يعني الرقبة، ومن الشعر في مدح الطول قول مادم قثم بن العباس بن عبد المطلب:

في باعه طول وفي وجهه نور وفي العرنيين منه شمم

وقول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

أعيني جوداً ولا تجمداً إلا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجريء الجميل ألا تبكيان الفتى السيدا
طويل النجاد رفيع العماد وساد عشيرته أمردا
قال المبرد في الكامل^(١): تريد بطول نجاده طول قامته وهذا مما يمدح به
الشريف، وقول مروان بن أبي حفصة للمهدي محمد بن المنصور العباسي:
قصرت حمائله عليه فقلصت ولقد تأنق قينها فأطالها
وقال رجل طائي:

جدير أن يقل السيف حتى ينوس إذا تمطى في النجاد
وقال الحكمي أبو نؤاس:

سبط البنان إذا احتبى بنجاده غمر الجماجم والسماط قيام
والعرب تكني عن طويل القامة برفيع العماد وطول النجاد.

قال المبرد في الكامل^(٢): كان لبید بن ربيعة العامري شريفاً في الجاهلية
والإسلام وقد كان نذر أن لا تهب الصبا إلا نحر وأطعم حتى تنقضي فهبت في
الإسلام وهو بالكوفة مقتر مقل فعلم بذلك الوليد بن عقبة بن أبي معيط وكان
واليها لعثمان بن عفان وكان أخا عثمان لأمه فخطب الناس وقال: إنكم قد عرفتم
نذر أبي عقيل وما وكد على نفسه فأعينوا أخاكم على مروته ثم نزل فبعث إليه بمائة
ناقة وأبيات يقول فيها:

أرى الجزار تشحذ مديته إذا هبت رياح أبي عقيل
طويل الباع أبيض جعفري كريم المجد كالسيف الصقيل
وفي ابن الجعفري بما لديه على العلات والمال القليل

فلما أته قال: جزى الله الأمير خيراً قد عرف إنني لا أقول الشعر ولكن
أخرجي يابنية، فخرجت بنت خماسية فقال لها: أجيبني الأمير فأقبلت وأدبرت
وبعث إلى الناس ففضى نذره ففي ذلك تقول ابنة لبید:

إذا هبت رياح أبي عقيل دعونا عند هبتها الوليدا
طويل الباع أبيض عشمياً أعان على مروته لبيدا

بأمثال الهضاب كأن ركباً عليها من بني حام قعودا
أبا وهب جزاك الله خيراً نحرناها وأطعمنا الشريدا
فعد أن الكريم له معاد وظني بابن أروى أن يعودا
فقال لها ليبد: أحسنت يابنية لولا أنك سألت، فقال: إن الملوك لا يستحي
من مسألتهم، فقال لها: يابنية! وأنت في هذا أشعر، إنتهى.
ذم القصر والاعتذار منه:

فكما أن العرب مدحت بطول القامة في الأبطال كرهت القصر وذموا من
أتصف به من الرجال وعابوه فمن ذلك قول موسى بن عبد الله بن خازم السلمي
والي خراسان وقد قتل أخوه محمد، وفي رواية ابنه بخراسان:
ذكرت أخي والخلو مما أصابني يغطي ولا يدري بما في الجوانح
فلو ناله المقدار في يوم غارة صبرت ولم أجزع لنوح النوائح
ولكن أسباب المنايا صرعنه كريماً محياه عريض الممادح
بكف أمرء كز قصير نجاده خبيث ثناه عرضة للفضائح
وقول بشر بن الهذيل الفزاري يعتذر من قصر قامته:
فإن لا يكن عظمي طويلاً فإنني له بالخصال الصالحات وصول
إذا كنت في القوم الطوال فطلهمو بعارضة حتى يقال طويل
ولا خير في حسن الجسم وطولها إذا لم يزن حسن الجسم عقول
وكم قد رأينا من فروع طويلة تموت إذا لم تحيهن أصول
وقال آخر يذم قوماً من العرب:
إذا دخلو بيوتهموا أكبوا على الركبات من قصر العماد
وهذا أيضاً كثير في شعر العرب ومر ما يشير إليه.

نقد المؤلف للمبرد في وصف النبي ﷺ

قد أورد المبرد في الكامل وغيره من العلماء كلاماً يجب الوقوف عليه ولفظ
الكامل^(١): قال: وروي أن النبي ﷺ وهو الأسوة والقودة كان فوق الربعة ولم
يكن بالطويل المشذب وكان إذا مشى مع الطوال طالهم ولم يختلف أهل الحكمة

والنظر من العرب والعجم أن الكمال في الاعتدال ولا يقال غير هذا عن حكيم،
إنتهى.

وفيه: أولاً: إن الاعتدال نسبي فكم مفرط في الطول في زمن إذا قيس إلى معتدل الزمان الآخر كان قصيراً وهكذا بالنسبة إلى الزمان الواحد، فكم نعد مفرطاً في الطول عندنا فإذا جاءنا من شرق الأرض وغربها من إذا قسنا مفرط الطول عندنا إليه وجدناه قصيراً وعليه فلا تتحقق نسبة الاعتدال الحقيقي إلا في الزمن الخاص في البلد الخاص لا غير.

ثانياً: إن العبارة التي أوردها هذا المتبحر وقعت شاهداً لنا لا علينا من حيث أنه أثبت أن النبي ﷺ كان فوق المربع يعني إنه كان طويلاً غاية الأمر إنه لم يكن مفرطاً في الطول كما هو نص قوله «ليس بالطويل المشذب وكان فوق المربع» فقد خرج عن الاعتدال الذي ادعى عليه الاجتماع فناقض من حيث لا يدري وأخرج النبي ﷺ عن الاعتدال وهو لا يعقل سامحه الله.

ثالثاً: أنه حكم لنا نفسه وهو غافل حيث أثبت أن النبي ﷺ إذا ماشى الطوال طالهم فقصي أن الطول صفة كمال فلا يكون أكمل من رسول الله ﷺ أحد فوجب بحسب أصل الحكمة من باب المعجزة أن يطول عليهم ليكون هو الأكمل ولهذا لما كان القصر نقصاً وعيباً وجب بحكم الحكمة أن لا يساوي القصار لأن في صفتهم نقص في الخلقة وهو ﷺ منزّه عن كل نقص ومتصف بكل كمال لهذا وجب أن يطول الطوال لأن الطول كمال ولا يساوي القصار أو يقصر عنهم لأن القصر عيب ونقص.

وأما ما ادعاه من اتفاق أهل النظر على مدح الاعتدال فمقبول إن صح لأعتدال الحقيقي من حيث أن معرفة الاعتدال الحقيقي مشكلة لأن كل واحد إذا قسّمه إلى من هو أطول منه كان قصيراً وإلى من هو أقصر منه كان طويلاً وقد يكون المفرط في الطول في بلد مفرطاً بالقصر في بلد آخر، نعم لو حصل لنا هذا الفرد وعرفناه تحقيقاً كان هو الأكمل وإلا فمعرفة الطويل الغير النسبي والقصر كذلك لا تتجاوز الفرد الواحد لو عرفناه يقيناً كما أخبرونا أن في القرن الأول الإسلامي كان جبلة بن الأيهم الغساني كان طوله اثني عشر شبراً، وأن عبد الله بن مسعود الهذلي كان طوله شبران ولا يجب أن يطول رسول الله ﷺ على جبلة لأنه خرج بطوله عن الكمال وتجاوز مقدار الفضل فكان نقصاً وهو المعني بالمشذب، فرسول الله ﷺ أكمل الخلق والاعتدال المحمود هو الوقوف بين حدي الإفراط والتفريط كالتهور

في الإقدام الخارج عن حد الشجاعة وأمثال ذلك من الصفات المعتدلة وكذلك الطول الذي يعود سخرية وأستهزاء كما يقال في طول جبلة، أما ما عداه فهو من الكمال والعرب أهل حروب والطوال أقرب إلى التهويل وأولى بالإرهاب، وأما الأمم الغير العربية فكذاك، وقد مر في ترجمة ابن الحنفية ما راسل به ملك الروم معاوية ابن أبي سفيان.

وذكر الجاحظ في البيان والتبيين أن الروم تشترط في قسها شروطاً منها طول القامة^(١) وهذا نصه: وقع بين فتى من النصارى وبين أبي قهريز كلام، فقال له الفتى: ما ينبغي أن يكون في الأرض رجل واحد أجل منك، وكان ابن قهريز في نفسه أكثر الناس علماً وأدباً وكان حريصاً على الجثقة، فقال للفتى: كيف حللت عندك هذا المحل؟ فقال: إنك تعلم أنا لا نتخذ الجاثليق إلا مديد القامة وأنت قصير القامة، ولا نتخذه إلا جهير الصوت جيد الحلق وأنت دقيق الصوت رديء الحلق، ولا نتخذه إلا وافر اللحية عظيمها وأنت خفيف اللحية صغيرها، وإنا لا نتخذ في الجثقة إلا رجلاً زاهداً في الرياسة وأنت أشد الناس عليها كلباً وأظهرهم لها طلباً فكيف لا تكون أجل الناس وخصالك كلها تمنع من الجثقة، وأنت قد شغلت في طلبها بالك وأسهرت فيها ليلك، إنتهى.

أما الفرس فتبالغ في رجال منهم أسفنديار، فأين الاتفاق الذي ادعاه المبرد؟ نعم الاتفاق في الاعتدال في سائر الأشياء دون القامة فإن الممدوح فيها الامتداد والحاكم على العقول هو القرآن وقد سمعت الآيات المادحة لعظم الأجسام، نعم المعتدل أحسن النظر وأقرب إلى ذوق البشر والأطول أقرب إلى التهويل والإرهاب فإنه يكتسب هيئة ولا أحسب أن هناك من يستريب أن طول القامة مع ضخامة الجسم فضيلة في الإنسان والقضايا التاريخية قاضية بهذا وحسبك في قصة اليرموك وحديث الرومي الذي علا على الصخرة وهاب المسلمون من الدنو إليه حتى رقى إليه الأشتر، فراجع الطبري وغيره.

والعرب يستحسنون في الإنسان ثلاثة أشياء إذا طالت القامة والعنق والساعد، ولا يفرقون في الأوليين بين الرجل والمرأة بل والثالث وقد قال بعضهم:

عبلة الساعد فيه لم تكد تسعد جارا

فمدحها بعبالة الساعد وهي ضخامته وإذا كان ضخماً قصيراً كان قبيحاً من غير شك فلا بد أن يطول مع ضخامته حتى يحسن وقد ذم شاعر العرب قصيرة القامة.

أحب من النسوان كل قصيرة إلي وما تدري بذاك القصائر
أردت قصيرات الحجال ولم أرد قصار الخطا شر النساء البحائر
ولهم في وصف الغيداء الجيداء ما ليس هذا موضعه.

طول العنق في الرجال وطول السواعد؛

فطول العنق في الرجل ممدوح عند العرب وكذلك طول الساعد لأنه إذا طال وصل إلى الأعداء وقد ذكر بعض العرب أنهم إذا قصرت سواعدهم في الضرب وصلوها بخطاهم إلى الأعداء، قال القتال الكلابي:

يا ليتني والمنى ليست بنافعة لمالك ولحصن أو لسيار
طوال أنضية الأعناق لم يجدوا ريح الإماء ولو باتت بأطهار
وقال المبرد في الكامل^(١): طوال أنضية الأعناق، النضو مركب النصل في

السنخ وضربه مثلاً وإنما أراد طوال الأعناق، وقال الشمردل بن شريك اليربوعي:

يشبهون ملوكاً في نجالتهم وطول أنضية الأعناق واللمم
إذا بدى المسك يندى في مفارقهم راحوا كأنهم مرضى من الكرم

وقال معوذ بن بشر المازني في طول الأذرع والسواعد:

لهم أوجه بيض حسان وأذرع طيال ومن سيما الملوك نجائر

وقال أدهم بن أبي الزعرار الطائي:

إذا قيل من للمعضلات أجابه عظام الله ما منا طوال السواعد

قال قيس بن ثعلبة البكري:

دعوت بني قيس إلي فشمرت خناذيد من سعد طوال السواعد

إذا ما قلوب القوم طارت مخافة من الموت أرسو بالنفوس المواجد

إذا جمحت حرب بهم جمحوا لها ولم يقصروا دون المدى المتباعد

وفي وصل السواعد بالخطا يقول نابغة بني ذبيان الحارثي:

إن تسألني عني سمي فإننا يسمو إلى قحم العلا أدنانا

وتبيت جارتنا حصانا عفة نثى وبأخذ حقه مولانا
 ونحن نحق شريكنا في ماءنا حتى يكون كأنه أسقانا
 ونقول إن طرق المثوب أصبحوا لوصاة والدنا الذي أوصانا
 أن لا نصد إذا الكماة تقدمت حتى تدور رحاهم ورحانا
 ونبيع كل حمى قبيل عنوة قسراً ونأبى أن يباح حمانا
 ويعيش في أحلامنا أشياءنا مرداً وما وصل الوجوه لحانا
 ويظل مقترباً بحسن عفافه حتى يرى وكأنه إغنانا
 ويسود سيدنا بغير مدافع ويسود فوق السيدين ثنانا
 وإذا السيوف قصرن بلغها لنا حتى تناول ما نريد خطانا
 وإذا الجياد رأينا في مجمع أعظمنا ورحلن عن مجرانا
 ذكرتها كلها لحسن أسلوبها وبديع آدابها، وقال كعب بن مالك الأنصاري:
 نصل السيوف إذا قصرنا بخطونا قدماً ونلحقها إذا لم تلحق
 وقال آخر:

إذا الكماة تنحوا أن ينالهموا حد الظبابة وصلناها بأيدينا
 وقال آخر:

وصلنا الرقاق المرهفات بخطونا لدى الهول حتى أمكنتنا المضارب
 وقال حميد بن ثور الهلالي:

ووصل الخطا بالسيف والسيف بالخطا إذا ظن أن السيف ذو السيف قاصر
 ويكفي هذا المقدار من الشواهد الشعرية.

البطولة عند العرب واجتماع خصالها في العباس الأكبر

اجتمعت الصفات الأربعة وهي طول القامة وطول العنق وطول الساعد والجسامة في العباس الأكبر بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» وهذه هي البطولة العربية فليس البطل عند العرب إلا الشجاع الجريء الطويل القامة الضخم الجسم الشديد العضد الطويل الساعد.

البطولة في رأي الأمم الحرة

هي عند الشعوب الحرة والأمم المتمدنة صفة جمع لعامة الكمالات فهم لا يصفون بها إلا من تمت محاسنة وكملت مزاياه وصفاته النفسية والبدنية فلا يطلقون لفظ البطل إلا على من لا نظير له في قطره ولا مثيل له في شعبه ولذلك ينعتون الملوك والدعاة الكبار والمصلحين والمبشرين من الأنبياء وغيرهم ورجال الأمة المبرزين الممتازين على غيرهم بالبطولة ولذا سمي أحد المستشرقين كتابه بالأبطال ولم يذكر فيه إلا أعيان الرجال الذين قاموا بدعوة قلبوا بها الوضع القديم رأساً لعقب وجاؤوا بشريعة جديدة أو أنتهجوا مسلكاً جديداً فحازوا لذلك شهرة وذكرًا وكذلك سمي بعض العصريين كتابه الأبطال الثلاثة ويعني بهم عاهل العروبة ملك العراق المرحوم فيصل الأول الشريف الحسيني وملك إيران رضا خان ورئيس جمهورية تركيا مصطفى كمال.

فإذا كانت البطولة عنوان المحاسن ومجمع الكمالات فلا شك ولا أرتياب أن أبا الفضل العباس الأكبر ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليهما السلام» قد تكاملت فيه صفات المكارم واجتمعت له مزايا الكمال وحاز جلّ الفضائل الموجبة للتنويه والإطراء له مدحاً وتقريظاً لأنه كما ستعرف كان شجاعاً شديداً البأس ذا نجدة عظيمة وثبات مدهش وكان عالماً فقيهاً حكماً وخطيباً بليغاً وشاعراً فصيحاً ووفياً أياً وكريماً جواداً صاحب مواسات وإيثار وكان ورعاً زاهداً عابداً، وقد وصفه أبو الفرج الأصبهاني في كتاب مقاتل الطالبين بقوله: كان العباس بن

علي رجلاً وسيماً جسيماً يركب الفرس المطهم ورجلاه تخطان في الأرض وكان يسمى قمر بني هاشم ويلقب السقا ويسميه أهل النسب أبا قرية الخ.

وقد جمعت هذه الفقرات من صفات أبي الفضل «عليه السلام» الوسافة وهي عبارة عن بداعة الشكل والمنظر ويعبر عنها بالملاحه وحسن الملامح ولطافة الشكل، وقمر بني هاشم نعت له بالجمال الذي هو أصل الوسامة لأن الوسامة رونق الجمال تبرزه الملامح وتظهره السمائل وأثبت له نوراً من حيث أنه قمر هذه القبيلة الممتازة بحسنها وجمالها، وطول القامة بقوله: رجلاه تخطان الأرض، والجسامة وهو عبارة عن كونه ممتلئ الاعضاء والبدن والبطولة وهو كذلك فإنه بطل العلقمي، وقد قال الأسديون الذين دفنوا الشهداء للإمام زين العابدين «عليه السلام»: بقي بطل على المسناة، وقد قال الأزري (رحمه الله) في تأبينه: بطل أطل على العراق مجلياً فأعصوبت فرقاً تمر شامها والحلي (رحمه الله) في تأبينه:

بطل تورث من أبيه شجاعة فيها أنوف بني الضلالة ترغم

قمر بني هاشم حسنه وجماله

ومن صفات العباس بن أمير المؤمنين «عليه السلام»: الحُسن والجمال؛ لأنه قمر بني هاشم وقد كساه الله تعالى ثوب الجمال ورداه برداء الحسن البديع وذاك مما يزيده فضلاً ويكسبه مجداً حيث أن المال رداء الله الذي ألبسه لأنبياءه وأمتن به على أهل الخير والصلاح وكما كساه الله الأتقياء البررة فقد سربل به الملوك العطاء والأشراف الكبراء.

إن العرب لتمدح بالحسن وصباحة الوجه ساداتها وزعماءها ومن المحقق لدى كل أحد أن تشويه الخلقة علامة المقت الرباني غالباً وأن الدمامة من العيوب عند ذوي العقل، وهنا قصة يجدر إيرادها وإن طالت.

قال الميداني في مجمع الأمثال^(١): قال المفضل: إن كبيش بن جابر أخا ضمرة ابن جابر من بني نهشل كان عرض لأمة لزرارة بن عدس يقال لها رشية كانت سبية أصابها زرارة من الرفيدات وهم حي من العب فولدت له عمراً وذؤيباً وبرغوثناً فمات كبيش وترعرع قال أذهبي بهؤلاء الغلثة فعبسي بهم وجه ضمرة وخبريه من هم وكان لقيط عدواً لضمرة فأنطلقت بهم إلى ضمرة فقال: ما هؤلاء؟

قالت: بنوا أخيك فانتزع منها الغلّة وقال: الحقّي بأهلك فرجعت فأخبرت أهلها بالخبر فركب زرارة وكان رجلاً حليماً حتى أتى بني نهشل فقال: ردوا علي غلّتي فسيبه بنو نهشل وأهجروا له فلما رأى ذلك أنصرف فقال له قومه: ما صنعت؟ فقال: خيراً ما أحسن ما لقيني به قومي فمكث حولاً ثم أتاهم فأعادوا عليه أسوأ ما كانوا قالوا له فأنصرف فقال له قومه: ما صنعت؟ فقال: خيراً قد أحسن بنو عمي وأجملوا، فمكث بذلك سبع سنين يأتهم في كل سنة فيردونه بأسوأ الرد فبينما بنو نهشل يسيرون ضحى إذ لحق بهم لاحق فأخبرهم أن زرارة قد مات، فقال لهم ضمرة: يا بني نهشل قد مات حليم إختكم فاتقوهم بحقهم، ثم قال ضمرة لنسائه: قفن أقسم بينكن الثكل وكانت عنده هند بنت كرب بن صفوان وأمراة يقال لها خليدة من بني عجل وسبية من عبد القيس وسبية من الازد من بني طمشان وكان لهن أولاد غير خليدة فقالت لهند وكانت لها مصافية: ولي الثكل بنت غيرك على سبيل الدعاء فأرسلتها مثلاً، فأخذ ضمرة شقة بن ضمرة وأمه هند، وشهاب ابن ضمرة وأمه العبدية، وعنوة بن ضمرة وأمه الطمثانية فأرسل بهم إلى لقيط بن زرارة وقال: هؤلاء رهن بغلمانك حتى أرضيك منهم، فلما وقع بنو ضمرة في يد لقيط أساء ولايتهم وجفاهم وأهانهم، فقال في ذلك ضمرة بن جابر: صرمت إخاء شقة يوم غول وإخوته فلا حلت حلالي كأنني إذ رهننت بني قومي دفعتهم إلى صهب السبال ولم أرهنهم بدم ولكن رهننتهم بصلح أو بمال صرمت إخاء شقة يوم غول وحق إخاء شقة بالوصال فأجابه لقيط:

أبا قطن إنني أراك حزيناً وإن العجول لا يبال حنيناً
أفي أن صبرتم نصف عام لحقنا ونحن صبرنا قبل سبع سنينا
فقال ضمرة:

لعمرك إنني وطلاب حبي وترك بني في الشرط الأعادي
لمن نوکی الشيوخ وكان مثلي إذا ما ضل لم ينعش بهاد

ثم إن بني نهشل طلبوا إلى المنذر بن ماء السماء أن يطلبهم من لقيط فقال المنذر: نحوا عني وجوهكم، ثم أمر بخمر وطعام ودعا بلقيط فأكلا وشربا حتى إذا أخذت الخمر منها قال المنذر للقيط: يا خير الفتيان ما تقول في رجل اختارك

الليلة على ندامي مضر؟ قال: أقول: إنه لا يسألني شيئاً إلا أعطيته أياه غير الغلطة فقال المنذر: أما إذا أستثنت فلست قابلاً منك شيئاً حتى تعطيني كل شيء سألتك، قال فذاك لك، قال: فإني أسألك الغلطة أن تهبهم لي، قال: سلني غيرهم، قال: ما أسألك غيرهم فأرسل لقيط إليهم فدفهم إلى المنذر فلما أصبح لقيط لأمه قومه فندم، فقال في المنذر:

فإنك لو غطيت أرجاء هوة مغممة لا يستثار ترابها
بثوبك في الظلماء ثم دعوتني لجئت إليها سادراً لا أهابها
فأصحبت موجوداً عليّ ملوماً كأن نضيت عن حائض لي ثيابها
قال: فأرسل المنذر إلى الغلطة وقد مات ضمرة وكان صديقاً للمنذر، فلما دخل عليه الغلطة وكان يسمع بشقة ويعجبه ما يبغله عنه فلما رآه قال: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، فأرسلها مثلاً، قال شقة: أبيت اللعن وأسعدك إلهك إن القوم ليسوا بجزر وإنما يعيش الرجل بأصغريه لسانه وقلبه، فأعجب المنذر كلامه وسره كلما رأى منه فسماه ضمرة بأسم أبيه فهو ضمرة بن ضمرة إلخ.

وإنما ازدراه المنذر لأنه كان دميماً تقتحمه العين لدمايته كما صرح بذلك غير الميداني من رواة هذه القصة كالسيوطي في المزهري ومثلها قصة عمرو بن شاس الأسدي وشهرتها أعظم من شهرة قصة ضمرة وهي مطولة.

ومختصرها عن الميداني في مجمع الأمثال^(١) بعد القصة السابقة قال: وقريب من هذا ما يحكى أن الحجاج أرسل إلى عبد الملك بن مروان بكتاب مع رجل فجعل عبد الملك يقرأ الكتاب ثم يسأل الرجل فيشيفه بجواب ما يسأل فيرفع عبد الملك رأسه إليه فيراه أسوداً فلما أعجبه ظرفه وبيانه قال متمثلاً:

فإن عراراً إن يكن غير واضح فإني أحب الجون ذا المنكب العمم
فقال له عرار: هل تدري من عرار؟ أنا والله عرار بن عمرو بن شاس الأسدي الشاعر، إنتهى، وقبل هذا البيت:

أرادت عرارا بالهوان ومن يرد عراراً لعمري بالهوان فقد ظلم
قاله عمرو بن شاس لزوجته ضرة أم عرار وقد عنفته على حبه وعيرته بسواده.

وقال الحافظ السيوطي جلال الدين الشافعي في المزهري^(٢): قال ابن

الكلبي: وفد الصقعب بن عمرو النهدي في عشرة من بني نهد على النعمان بن المنذر وكان الصقعب رجلاً قصيراً دميماً تقتحمه العين وكان شريفاً بعيد الصوت فنظر الآذن إلى أعظمهم وأجملهم فقال: أنت الصقعب؟ قال: لا، قال للذي يليه في العظم والهيئة: أنت هو؟ قال: لا، فأستحي فقال: أيكم الصقعب؟ قال الصقعب: ها أنا ذا فأدخله إلى النعمان فلما رآه قال: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، فقال له الصقعب: أبيت اللعن إن الرجال ليسوا بالمسوك يستقى فيها إنما الرجل بأصغريه بلسانه وقلبه إن قاتل قاتل بجنان وإن نطق نطق ببيان، فقال له النعمان: لله أبوك كيف بصرك بالأمر؟

قال: أنقض منها المفتول وأبرم منها المسحول وأجيلها حتى تجول، وليس لها بصاحب من لم ينظر في العواقب.

قال: قد أجدت وأحسنت فأخبرني عن العجز الظاهر والفقر الحاضر؟

قال: أما العجز الظاهر فالشاب الضعيف الحيلة التبوع للحليلة الذي يحوم حولها إن غضبت ترضأها وإن رضيت تفداها فذاك الذي لا كان ولا ولد النساء مثله، وأما الفقر الحاضر فالذي لا تشبع نفسه وإن كان له قنطار من ذهب.

قال: فأخبرني عن السوءاء السوءاء والداء العيأ؟

قال: أما السوءاء السوءاء فالمرأة السليطة التي تعجب من غير عجب وتغضب من غير غضب فصاحبها لا ينعم باله ولا يحسن حاله وإن كان ذا مال لم ينفعه، وإن كان فقيراً عيرته به فأراح الله منها بعلها ولا متع بها أهلها، وأما الداء العيأ فالجار جار البيت إن شهدك سافهك وإن غبت عنه سبك وإن قاولته بهتك وإن سكت عنه ظلمك.

فقال له النعمان: أنت أنت فأحسن صلته وصلة أصحابه، إنتهى والحكايات كثيرة فأطلبها.

السري في قبح الدمامة ورأي الطبيعيين؛

فكما أن الدمامة من العيوب المحقرة والنقائص المحسوسة من حيث أنها تشويه للخلقة وتشويه الخلقة من صفات الشياطين ومردة الجان وقصة الجاحظ إذ ساقته المرأة إلى الصائغ ليصنع لها تمثال شيطان على صورته مشهورة، والدمامة وحلاكة اللون من سيماء الزنج وقد قرر علماء الطبيعة أن الألوان أفضلها المعتدل في البياض كالحمرة المشربة ببياض ناصع وهو اللون الذهبي ويطلق عليه اسم السمرة كألوان العرب وذلك عندهم دليل اعتدال مزاج الأنثى وسلامة الرحم من الآفات.

وشر الألوان السوداء لأنه ناشئ من خروج الرحم عن سمت الاعتدال بغلبة الحرارة في النضج الشديد الموجب للاحتراق فيكتسي الجنين من ذلك سواداً حالكاً كألوان الزنوج ومن شاكلهم من الحبشة والنوبة، والبياض المفرط وهو الذي تسميه العوام البياض الفاهي أي الذي لا رونق له ولا رواء فيه قد سلب النور والإشراق وتطلق العرب على أهل هذا اللون صهيب السبال، والسبلة هي اللحية إذ الغالب على أبيض اللون الشديد البياض أن تكون لحيته صهباء بين الحمرة والبياض وتسميها العوام شقرة وصهبة وهذا ناشئ عن ضعف المزاج عن النضج وفساد قوة الرحم النارية التي تتم نضج المولد فيخرج حينئذ شديد البياض أصهب الشعر أزرق العينين كألوان سكان أوربا الشمالية وأتراك آسيا الغربية.

وكلا اللونين عند علماء الطبيعة خارج عن حد الاعتدال فخير الألوان أعدلها وهو ما أشرب بحمرة وعلاه نور وإشراق وهذا هو لون العرب وسكان الأقطار المتوسطة وقد قال شاعر العرب:

هجان عليها حمرة في بياضها تروق لها العينان والحسن أحمر

والبياض المشرب بحمرة تسميه العرب القدماء السمرة وليست السمرة التي تعرفها العوام ويسمونها الحنطاوية بل التي يسميها علماء الطبيعة بالذهبية التي تشبه لون الأبريز وكلما علت الوجه لمعات إشراق وتلألؤ وأسارير إضاءة وأنوار على حد ما قيل:

كأن دنانيراً على قسماتهم

جمال النبي ﷺ وأهل بيته «عليهم السلام»

كان أجمل وأكمل بحكم العقل وذلك لون وجه أبي الفضل العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» وهو أيضاً لون الأنبياء «عليهم السلام» ولون سيد الرسل وخاتم الأنبياء محمد ﷺ وأهل بيته الهداة فإن نبينا محمد ﷺ ولا نظير له في العالم كله كان «عليه الصلاة والسلام» عظيم النور يهتدي إليه الناس في الظلماء بنور جبينه وأبنته سيدة النساء فاطمة الزهراء «عليها السلام» يجتمعن النساء فيغزلن على إشراق وجهها وتلألؤ غرتها، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب والحسن والحسين «عليهم السلام» كان يستدير النور على جباههم أستدارة الهالة على البدر فصباحة الوجه من دلائل الفضل وإمارات الخير، قال الشاعر لممدوحه:

أنت شرط النبي إذا قال حقاً أطلبوا الخير من صباح الوجوه

وهو عقد لحديث نبوي نصه «أطلبوا الخير عند حسان الوجوه»، وقال آخر: لقد قال الرسول مقال صدق وخير القول ما قال الرسول إذا الحاجات فرت فأطلبوها إلى من وجهه حسن جميل

أنواع الجمال؛

هو نوعان: نوع يدرك بالبصر كإشراق الوجه وأحمراره وملاحة العينين وأمثال ذلك فهو الحسن والصباحة، ونوع يدرك بالفكر مما تظهره الملامح والهيئة من تناسب الأعضاء في الشكل وحسن التخطيط وإبداع الخلقة وإتقان الصورة من حيث التركيب البديع وظرافة الأعطاف وقد اختلفوا فمن قائل أن الحسن هو النوع الأول والجمال هو النوع الثاني، ومنهم من يقول بالعكس.

قال في الشرح الجلي^(١): من الزينة البدنية الحسن والجمال والملاحة؛ فالحسن في اللغة هو تناسب الأعضاء ولطافتها.

وقال القيصري في شرح ثائية ابن الفارض: الحسن شيء يدرك بالذوق ولا يوصف.

وقال في محل آخر من الشرح: الحسن عبارة عن تناسب الأعضاء ولطافتها وعليه فإنه يدرك ويحد، وقيل: يدرك ولا يوصف.

قلت: وجه الجمع بين هذا القول وبين عبارتي القيصري أن الحسن ينقسم إلى أربعة أقسام وهو الحسن الحادث:

الأول: حسن حسي وهو تناسب الأعضاء.

الثاني: حسن عقلي وهو في المعاني المدركة بالعقل كالعدل والرحمة.

الثالث: حسن روحاني وهو ما كان في الأخلاق خاصة.

الرابع: حسن شرعي وهو في الأمور الدينية كلزوم الجماعة والاعتقاد الصحيح ويزاده القبح في الأقسام الأربعة.

وأما الحسن القديم الذي يضاف إلى الله فهو رتبة خامسة خارجة عن المفاهيم الأربعة وهذا لا يضافه قبح كما يضاف الحسن المتعارف إلخ.

ثم قال^(٢): ويرادف الحسن البهجة والوسامة الحسن، وأما الجمال فقال بعضهم هو عين الحسن وقال آخرون أثر يظهر في الإنسان من إدمانه على التغذية بالجميل وهو الشحم وكان ذلك الأثر هو السمن.

(١) الشرح الجلي: ص ١٧٤.

(٢) الشرح الجلي: ص ١٧٥.

وقال بعد كلام: ونقل في المصباح عن سيويه أن الجمال رقة الحسن وعليه يكون الجمال حسناً خاصاً، وقيل: الجمال هو الحسن لكن تختلف أسماؤه باعتبار الاعضاء كما قال السهيلي في شرح السيرة.

قال الأصمعي: الجمال في الأنف والملاحة في الفم.

وقال العارف النابلسي في شرح الفصوص: الجمال الصوري هو إشراق وجه الروح إلى جهة الجسم ويؤيده ما حكى أن المأمون أستعرض عسكره يوماً فرأى رجلاً قبيح المنظر فأستدعاه وأستنطقه فوجده غيباً غير فصيح، فقال لأصحابه: أسقطوا هذا من ديوان الند، قالوا: ولم ذاك؟ قال: لأن الروح لها نور وجمال فإذا أشرق نورها على ظاهر الشخص كان جمالاً، وإذا أشرق على باطنه كان ذكاء وفصاحة هذا الرجل لم يشرق فيه نور الروح لا في الظاهر ولا في الباطن فهو لا خير فيه.

وقيل: الحسن حسن الخلق بفتح الخاء، والجمال حسن الخلق والخلق والفعل؛ قاله البوريني في شرح ديوان ابن الفارض.

ثم قال^(١): وأما الملاحة فقال في الصحاح أنها البهجة وحسن المنظر.

ثم قال بعد كلام: قال السهيلي: الحسن يتعلق بالمفردات فلا يوصف به إلا ما كان مفرداً كقولك هذا خاتم حسن والجمال يتعلق بالمركبات الجميلة فإذا اجتمع من ذلك جمع وصف صاحبها بالجمال أي مثل الإنسان إذا كان له جملة أعضاء حسنة فإنه حينئذ يوصف بالجمال.

قلت: قد وصف الله تعالى بالجمال وهو متنزه عن التركيب ولكن بالنظر إلى جملة من حسن أسمائه وصفاته وأفعاله تعالى فإنها كلها حسنة ولهذا ورد في حديث الجامع الصغير: إن الله جميل يحب الجمال، قال المناوي: أي له الجمال من كل وجه فهو تعالى يحب أسمائه وصفاته ويحب ظهورها على الخلق فإنه عليم يحب العلماء، كريم يحب الكرماء إلى غير ذلك فهو يحب من تخلق بصفاته، إلخ.

وفي المزهري للحافظ السيوطي^(٢): قال الثعالبي في فقه اللغة: عن ثعلب عن ابن الأعرابي: الصبابة في الوجه والوضاءة في البشرة والجمال في الأنف والملاحة في الفم والحلاوة في العينين والظرف في اللسان والرشاقة في القد واللباقة في الشمائل وكمال الحسن في الشعر، إنتهى.

وكل واحد يجري على مبلغ أجهاده في كلام العرب ولكن ليس لذلك مناط واحد فكما يقولون ما سمعت يقولون أيضاً فلان حسن الوجه وفلان جميل الصورة وبهي الطلعة، ويصفون الباري تعالى بالجميل ويعنون به جميل الفعل كما سمعت ولقد تمحل الشاعر مع ظرافته وبديع أسلوبه حيث يقول:

خلقت الجمال لنا فتنة وقلت لنا يا عبادي أتقون
وأنت جميل تحب الجمال فكيف عبادك لا يعشقون

وقد موه هذا الشاعر الظريف وسبك الجد بالهزل فأوهم أن الله تعالى جميل يحب جمال الصورة وهذا لطف وظرافة قواه على هذا التجاسر بعض الأحاديث الضعيفة من أن الله تعالى جميل يستحي أن يعذب صاحب الوجه الجميل بالنار فليصنه عن معصية الله، أو ما هذا معناه، وجمال الله تعالى جمال صفات والصورة منزه عنها ومحبه للجمال ليست كمحبتنا نحن للصور الجميلة على جهة الشوق والتلذذ بل محبه للجميل من الفعال والصورة لو قلنا بها محبة إكرام وإجلال.

وحيث أن الحسن والجمال من خيرات الله وفواضله التي أفاضها على عباده ومن نعمه التي أسداها إلى خلقه فهو يحب من ظهرت عليه تلك النعمة إذا قام بواجب شكرها في تأدية ما أفترض عليه من فرائضه وسننه وإذا لم يقم بذلك الواجب وقابله بجعود النعمة والكفران لزمه ما لزم كافر النعم من المقت والبغض لهم.

قال في الرياض الخزعلية^(١): ونعمة الجمال أول نعمة أنعم الله بها على الإنسان هي وإن كانت أقل من غيرها إلا أنها من الخيرات التي يتوصل بها الإنسان إلى حاجاته ومهماته وذلك لأن القبيح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب وجاهه في الصدور أوسع فهو من هذا الوجه جناح مبلغ إلى الحاجات كالمال والجاه إذ هو نوع قدرة إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح إلخ.

وليس غرضنا بيان معنى الجمال وحقيقته على الدقة الحكيمة بل يكفي معرفته بهذا الأسلوب وإنه من نعم الله تعالى على العباد وإنه من صفات الأنبياء، وأنه ممدوح عند العرب، ويعد في مكارم أشرافهم وساداتهم، أما حسن نبي الله يوسف فقد كفانا القرآن الكريم نعتة، وأما نبينا محمد ﷺ فقد أتفق علماء الفريقين السنة

والشيعة على أنه أجمل البشر وتعدادهم في المقام ونقل أقوالهم يوجب تطويلاً.

صفة النبي محمد ﷺ

قال الطبرسي (رحمه الله) في كتاب مكارم الأخلاق عن الحسين بن علي «عليهما السلام» قال: سألت خالي هند بن أبي هالة التميمي وكان وصافاً لرسول الله ﷺ عن حلية النبي وأنا أشتهي أن يصف لي شيئاً منها أتعلق به، فقال: كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً، يتلألاً وجهه تلألاً القمر ليلة البدر، أطول من المربع، وأقصر من المشذب، عظيم الهامة، رجل إذا انفردت عقيصته فرق وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه وهو ذا وفرة، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب، بينهما عرق يدره الغضب، أقنى العينين، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية، سهل الخدين، أدعج، ضليع الفم، مفلج الأسنان، دقيق المسربة، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادناً، متماسكاً، سواء البطن، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، أنور المتجرد، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط عدى الثديين والبطن، فما سوى ذلك أشعر الذراعين والمنكبين وأعلا الصدر، طويل الزندين، رحب الراحه، سبط القصب، شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف، خمصان الاخمصين، مسح القدمين، ينبو عنهما الماء، إذ زال زال قلعاً، يخطو تكفياً ويمشي هوناً، سريع المشية، إذا مشى كأنما ينحدر من صيب، وإذا التفت التفت جميعاً، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جلّ نظره الملاحظة إلخ.

وقال الأبشيهي الشافعي في المستطرف^(١): وإلى سيدنا محمد رسول الله ﷺ ينتهي الحسن والجمال، ثم ذكر ما ذكرنا وذكر قول حسان بن ثابت في رسول الله: وأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساء خلقت مبرءاً من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

صفة مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)

وقد مر قول ابنه محمد بن الحنفية في خطبته: إخسأوا عن القمر الزاهر والبدر الباهر.

قال محمد بن علي بن شهر آشوب (رحمه الله) في كتاب المناقب^(١): عن جابر وابن الحنفية أنه «عليه السلام» كان رجلاً دحداً ربع القامة، أزج الحاجبين، ادعج العينين، أنجل يميل إلى الشهلة، كأن وجهه القمر ليلة البدر حسناً وهو إلى السمرة، أصلع، له حفاف من خلفه كأنه إكليل، وكأن عنقه إبريق فض وهو أقرب ضخم البطن، عريض الصدر، محض المتن، شثن الكفين، ضخم الكسور، لا يبين عضده من ساعده، قد أدمجت إدماجاً، له لحية قد زانت صدره، غليظ العضلات، خمش الساقين إلخ.

صفة سيدتنا فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ

قال المازندراني في كتاب المناقب المذكور^(٢): أنس بن مالك قال: سألت أُمِّي عن صفة فاطمة «عليها السلام» فقالت: كانت كأنها القمر ليلة البدر، والشمس كفرت غماماً وخرجت من السحاب، وكانت بيضاء بضة، إنتهى. ويذكر غيره أن النساء يجتمعن فيغزلن على ضوء وجهها. وقد قال الحسين «عليه السلام» لابن أخيه الحسن المثنى: اخترت لك أبنتي فاطمة لأنها أكثرهن شبهاً بأمي فاطمة، وفاطمة بنت الحسين كانت عظيمة الجمال حتى قيل إن امرأة مردودتها سكيكة لمنقطة القرين.

صفة الحسن بن علي سبط رسول الله ﷺ

وحيث قد أتفق الناس أنه شبيه رسول الله ﷺ في الخلقة والخلق لم نرى في التطويل حاجة.

صفة الحسين بن علي «عليهما السلام» سبط رسول الله ﷺ

قال علي دده الحنفي في محاضرات الاوائل والأواخر^(٣): وحملته سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء «عليها السلام» ستة أشهر وما سمع بمولود في ستة أشهر إلا يحيى بن زكريا «عليه السلام» وكان له جمال عظيم ونور يتلأل في جبينه وخده يضيء حواله في الليلة الظلماء، وكان أشبه الناس برسول الله ﷺ، إلخ. وقد ذكر بعض أرباب المقاتل أن الأسديين لما جاؤوا لدفن الشهداء بعد ارتحال عسكر عمر بن سعد لم يعرفوا أحداً منهم لأن رؤوسهم قطعت إلا الحسين «عليه السلام» فإنهم عرفوه بأنواره الساطعة فإنه قد جلل القتل بأنواره، ولجماله

(٢) المناقب لابن شهر آشوب ٢٢/٤.

(١) المناقب ١٦٣/٣.

(٣) محاضرات الاوائل والأواخر: ص ٧٢.

الباهر وحسنه البديع يقول عدوه وهو يقرع ثنياه بمخصرته : أما إنه كان غلاماً صبيحاً ، ويقول عدوه وهو الآخر الشامت بقتله ويهتز فرحاً مرحاً :

يا حبذا بردك في اليدين ولونك الأحمر في الخدين
كأنما حف بوردتين شفيت نفسي بدم الحسين

وقد قال بعض الشهداء معه وهو الغلام الذي قُتل أبوه معه :

أميري حسين ونعم الأمير سرور فؤاد البشير النذير
علي وفاطمة والداه فهل تعرفون له من نظير
له طلعة مثل شمس الضحى له غرة مثل بدر منير

ورثاه السوسي الشاعر بقوله :

يا قمرأ غاب حين لاحا أورثني ففداك المناحا

ورثاه الكعبي الشاعر بقوله :

ومجرح ما غيرت منه القنا حسناً ولا أخلق من جديد
قد كان بدرأ فاغتنى شمس الضحى مذ ألبيسته يد الدماء لبودا

وهو كثير في مراثيه ، والجمال من المواهب الإلهية والمنح الربانية لبني هاشم فقد كانت العرب تسمي عبد مناف البدر ، وتسمي هاشم بن عبد مناف وإخوته أقداح النضار ، والنضار الذهب ، ولقبوا عبد المطلب بالبدر ، ووصفوا أولاده بأنهم جمال جون وهي البيض من الإبل لجمالهم وعظم أبدانهم ، وقالوا في العباس بن عبد المطلب كأنه فسطاط أبيض لجماله وعظمه ، سرى الجمال على أعقاب بني هاشم فكان أبو الفضل العباس بن علي يسمي قمر بني هاشم ، وكان علي بن الحسين الأكبر «عليهما السلام» كفلقة قمر طالع ، وكذلك القاسم بن الحسن ووصفه عدوه بذلك ، وعبد الله الرضيع بن الحسين الشهيد رمي بالسهم على بريق رقبته فإنها كانت تلمع على عضد أبيه «عليه السلام» ، وفي بني العباس من يضرب به المثل في الجمال كالأمين بن الرشيد وأبي عيسى بن الرشيد^(١) والمعتز بن المتوكل والمكتفي وجعله مادحه ثالث الشمس والقمر فقال :

(١) قال الثعالبي في ثمار القلوب ص ٣٧ : كان أبو عيسى بن الرشيد أحسن أهل زمانه حتى أنه كان أحسن من أخيه الأمين وهو المضروب به المثل في الحسن ، وكان يقال لأبي عيسى يوسف الزمان ، وفي ص ٤٨ : كان يقال لكل من محمد الأمين وأخيه أبي عيسى يوسف الزمان لفرط جمالهما ، ويقال : إن جمال ولد الخلافة إنتهى إليهما فما رأى الناس مثلهما إلا المعتز بعدهما ، وذكر كلاماً مطولاً فراجع .

والله لا قبلتها ولو أنها كالبدر أو كالشمس أو كالمكتفي

مدح العرب ساداتها وأشرافها بالجمال

إن ثناء العرب على العظماء منها في غاية الكثرة فمن ذلك ما ذكره الراغب في المحاضرات: قال ابن عنقاء الفزاري:

كأن الثريا علقت فوق نحره وفي أنفه الشعري وفي وجهه القمر
وقال أوس بن حجر:

تجرد في السربال أبيض ناصع مبين لعين الناظر المتوسم
وقال أبو قيس بن الأسلت في أبي أحيحة سعيد بن العاص الأموي ذكره
الجاحظ في البيان والتبيين:

كأن البختري غداة جمع يدافعهم بلقمان الحكيم
بأزهر من سراة بني لؤي كبدل الليل راق على النجوم
وقال دريد بن الصمة الجشمي فارس هوازن:

أبلغ نعيماً وأوفى إن لقيتهما إن لم يكن كان في سمعيهما صم
فلا يزال شهاب يستضاء به يهدي المقانب ما لم تهتك الحرم
أخذه ابن قيس الرقيات في مدح مصعب بن الزبير فقال:

إنما مصعب شهاب من الله تجلت بنوره الظلماء
وكذب في قوله في عبد الملك بن مروان:

يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب
لم يكن عبد الملك جميلاً إنما كان مشوهاً أبخر، ولشدة بخره كان يتساقط
الذباب عليه ولذلك قيل له أبو الذبان.

قال المبرد في الكامل^(١): قال عبد الملك بن مروان لأسيلم بن الأحنف
الأسدي: ما أحسنت ما مدحت به فاستغفاه فإبى أن يعفيه وهو معه على السرير
فلما أبى إلا أن يخبره قال قول القائل:

ألا أيها الركب المخبون هل لكم بسيد أهل الشام تحبوا وترجعوا
من النفر البيض الذين إذا اعتزوا وهاب الرجال حلقة الباب فعقوا

إذا النفر السود اليمانون تميموا له حوك برديه أجادوا وأوسعوا
جلى المسك والحمام والبيض كالدمى وفرق المذارى رأسه فهو أنزع
وقال نصيب الشاعر:

من النفر البيض الذين إذا أنتجوا أقرت لنجواهم لؤي بن غالب
يحيون بسامين طوراً وتارة يحيون عباسين شوس الحواجب
وقال الكميت الأسدي في إحدى الهاشميات المشهورة:

إلى النفر البيض الذين بحبهم إلى الله فيما نابني أتقرب
بني هاشم رهط النبي فإنني بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
وقال الأصم الباهلي وذكره الأمدى في المختلف والمؤتلف:

قتيبة أبطال مساعير بالقنا خضارمة عند اللقاء بحور
إذا القمر منهم مضى لسبيله بدى قمر يجلو الظلام منير
وقال البرج المري في زفر بن هاشم من آل سنان رؤساء بني مرة:

أرى الخلان بعد أبي حبيب بحجر في جنابهموا حذاء
من البيض الوجوه بني سنان لو أنك تستضيء بهم أضأؤوا
لهم شمس النهار إذا استقلت ونور ما يغيبه المساء
بناة مكارم وأساءة كلم دماؤهموا من الكلب الشفاء
فلو أن السماء دنت لمجد ومكرمة دنت لهم السماء
وقال حبيب بن حباش الغنوي:

تركت سليم إذا أضاعوا أمرهم يبكون أثر عمائم حمر
جعلت على بيض الوجوه نمت بهموا آباؤهم لمكارم الذكر
وقال سبيع بن الخطيم التيمي لزيد الفوارس الضبي:

إن ابن ضرار حين أندبه زيدا سعى سعياً غير مكفور
سالت براق الحي حين دعى أنصاره بوجوه كالدنانير
ليس الهجان إذا ما كنت منتحلاً كالورق تنظر في ألوانها الحور

وقال المرار العجلي الراجز:
أبلغ مثل القمر المبين كالفحل قدام اليراع الجون

وقال ابن عنقاء الفزاري في عميلة الفزاري وقد تقدم منها بيت :
 رأي على ما بي عميلة فاشتكى إلي ما له حالي أسر كما جهر
 أتاني فآساني ولو ظن لم ألم على حين لا باد يرجى ولا حضر
 غلام رماه الله بالحسن يافعاً له سيمياء لا تشق على البصر
 كأن الثريا علقت في جبينه وفي جيده الشعري وفي وجهه القمر
 إذا قيلت الفحشاء أغضى كأنه ذليل بلا ذل ولو شاء لانتصر

وقال قيس بن عاصم سيد أهل الوبر :
 خطباء حين يقول قائلهم بيض الوجوه مصاقع لسن
 وقال قطن بن حارثة الكلبي العليمي في رسول الله ﷺ لما وفد عليه :
 رأيته يا خير البرية كلها نبت نضاراً في الأرومة من كعب
 أغر كأن البدر سنة وجهه إذا ما بدى للناس من خلل العصب
 أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه ورشت اليتامى في السغاية والجذب

وقال كعب الأنصاري شاعر النبي ﷺ في بني هاشم :
 يا هاشماً إن الإله حباكموا ما ليس يبلغه اللسان المفصل
 قوم لأصلهموا السيادة كلها قدماً وفرعهم النبي المرسل
 بيض الوجوه ترى بطون أكفهم تندى إذا اغبر الزمان الممحلل

وقال المعذل البكري في مدح النحاس بن ربيعة العتكي من أبيات :
 كأن دنائراً على قسماهم إذا الموت للأبطال كان تحاسيا

وقال الطائي :

فتى عزلت عنه الفواحش كلها فلم تختلط منه بلحم ولا دم
 إذا ما رمى أصحابه بجبينه سرى ليلة الظلماء لم يتكهم
 وقال النابغة الذبياني في الحارث ابن أبي شمر الغساني ملك عرب الشام في
 عصر الرومان :

هذا غلام حسن وجهه مقتبل العمر سريع التمام
 للحارث الأكبر فالحارث الأ صغر فالأعرج خير الأنام
 ثم لعمرو ولعمرو وقد أسرع في الخيرات منهم إمام

خمسة آباء هموا ما هموا هم خير من يشرب صوب الغمام
وقال حسان بن ثابت شاعر النبي ﷺ في آل جفنة ملوك غسان:
أبناء جفنة حول قبر أبيهموا قبر ابن مارية الكريم المفضل
يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

ذم الدمامة

كما أنهم يمدحون بالجمال ويعدونه من سيماء السيادة يذمون بالدمامة
ويجعلونها عيباً في الرئيس ويتخذونها دليل المقت، ففي قول كعب بن زهير بن
أبي سلمى في قصيدته التي مدح بها النبي ﷺ المعروفة بـ«بانت سعاد»:
إذا عرّد السود التنابيل

دليل على ما قلناه فإنه عاب الأنصار بالقصر والدمامة، وقال آخر في نفسه:
وكيف أرجى أن أسود عشيرتي وأمي من سلمى أبوها وخالها
رأيتكموا سوداً جعاد ومالك مخرصة بيض سباط نعالها
قال الأبيشهي الشافعي في المستطرف^(١): أراد رجل أن يكتب كتاباً إلى
بعض أصحابه فلم يجد رجلاً يرسله معه إلا رجلاً وخش الصورة بشع المنظر، فلم
يقدر على تحليلته لفرط دمامته فكتب إلى أصحابه: يأتيك بهذا الكتاب آية من آيات
الله تعالى وقدره فدعه يذهب إلى نار الله وسقره.

وجاءت امرأة إلى صائغ فقالت له: أصنع لي تمثال شيطان، فقال: إني لم
أره، فذهبت فرأت الجاحظ فقالت: تفضل معي، فأقبل معها إلى الصائغ فقالت
له: هذا، وذهبت، فبهت الجاحظ وسأل الصائغ، فأخبره بما أرادت، وفي
الجاحظ يقول الشاعر:

لو يمسح الخنزير مسخاً ثانياً ما كان إلا دون قبح الجاحظ
رجل ينوب عن الجحيم بوجهه وهو العمى في عين كل ملاحظ
ولو أن مرآة جلت تمثاله ورآه كان له كأعظم واعظ
حج مخنث فرآى رجلاً قبيح الوجه يستغفر الله، فقال له: يا حبيبي! مالك

تبخل بهذا الوجه على جهنم! .

وقال بعضهم لرجل: طلع لي دمل (دنبل) في أقبح المواضع، فقال: كذبت هذا وجهك ليس فيه شيء .

وخرج رجل قبيح المنظر إلى المتجر فدخل اليمن فلم ير فيها أحسن منه وجهاً فقال:

لم أر وجهاً حسناً منذ دخلت اليمن
فيا شقاء بلدة أحسن من فيها أنا

انتهى . وفي فرسان العرب جماعة يعابون بالسواد ويقال لهم غربان العرب وأغربة العرب، منهم: عنبرة الفوارس العبسي فارسهم وبطلهم وشاعرهم، ومنهم السليك ابن السليكة السعدي فارس بني تميم وهو سليك المقانب، والشنفري الأزدي أحد اللصوص، وخفاف بن ندبة السلمي فارس بني سليم وهو قاتل مالك بن حمار الشمخي سيد بني فزارة، وعبد الله بن خازم أمير خراسان وفارس بني سليم وهو ابن عجلي، ومنهم الحباب أبو عمير بن الحباب السلمي سيد بني سليم في الإسلام أيضاً، ومنهم هفان بن عقبة بن أبي معيط الأموي، ومنهم تأبط شراً الفهمي أحد لصوص العرب وغيرهم وهؤلاء أشهر العرب نجدة وأبعدهم صوت وصيتاً في الفصاحة والفروسية وإنما دخلهم الخلل من جهة السواد فإذا هي عيب من العيوب لا يغطي، والجمال صفة فضل لا تنكر.

جمال أبي الفضل العباس «عليه السلام»

فأبو الفضل العباس الأكبر بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» ممن وسمهم الله بميسم الجمال والوسامة وكساهم أروية الحسن كرامة منه لأنهم أهل الكرامة، وهذا أمر لا نحتاج إلى إثباته بأكثر مما ذكرنا وقد سمعت ما قاله أبو الفرج وكذلك غيره، فكونه يلقب بقمر بني هاشم أمر معروف عند المؤرخين وحسبك بمن يكون قمر هذه العشيرة الفاتكة على عامة البشر بجمالها الباهر وحسنها الزاهر وقد أكثر الشعراء من نعتة بالجمال في مراثيه الكثيرة وأول من فتح لهم هذا الباب سيد الشهداء أبو عبد الله الحسين «عليه السلام» ففي أسرار الشهادة للفاضل الدربندي (رحمه الله) ^(١): قال فيه الحسين «عليه السلام» لما وقف عليه:

أيا ابن أبي نصحت أخاك حتى سقاك الله كأساً من رحيق

ويا قمرأ منيراً كنت عونى على كل النوائب فى المضيق
وهى أربعة أبيات نذكرها تماماً فى محل آخر، وقال الأزرى (رحمه الله):
الله أكبر أى بدر خر من أفق الهداية فاستشاط ظلامها
وقال السيد جعفر الحلى (رحمه الله) وهو يخبر أن الحسين «عليه السلام»
مشى إليه حين سقط:

فمشى لمصرعه الحسين وطرفه بين النساء وبينه متقسم
ألفاه محجوب الجمال كأنه بدر بمنحطم الوشيع ملثم
وللمؤلف من قصيدة:

قمر العشرة ليثها مقدامها قناص أسد الخيس فى الأخياس
حيث قد عرفت بعض صفات العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام»
البدنية وهى الجسامة والوسامة وأمتداد القامة وطول العنق والساعدين مع عباليهما
فنعرفك الآن بعض صفاته النفسية وأخلاقه الحميدة ومزاياه الكريمة.

صفات العباس النفسية

وهي الأخلاق

الأخلاق والصفات النفسية

صفات العباس بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليهما السلام». وهي صفات النفس المعروفة بالأخلاق وهو أن الصفات النفسية منها ما هو راجع إلى معنى قائم بالنفس من حيث الخلقة والفطرة وتسمى هذه بالغرائز والسجايا ويطلق عليها الجبلية والطبيعية، ومنها ما هو راجع إلى النفس بواسطة عروضها لها من حيث تحصيلها بالممارسة والاكتساب وتسمى بالصفات والحالات النفسية وإنما هي هيئات وعوارض لها طارية عليها بواسطة قوة أستعدادها للقبول فيقال لها صفة وحالة وهيئة بهذا الاعتبار، وإن توسط بعض الفلاسفة فأطلق على القسمين إسم الحال والحق إنهما نوعان يطلق عليهما إسم الأخلاق وقد يقال إن الأخلاق هي النوع الأول، والثاني تخلق لكن يرجع التخلق إلى الخلق بكثرة التمرين وقوة الرياضة على التهذيب، وفي المقام آراء مختلفة، وللفلاسفة مذاهب شتى:

فبعض ينفي الأخلاق الطبيعية ويجعل الجميع من العوارض فيقول: لا شيء من الأخلاق بطبعي للنفس وإنما كلها مكتسبات بالرياضة والتمرين وحمل النفس على المحمود والمذموم تدريجي وبالألفة والعادة.

وبعض يقول: كل الأخلاق طبيعية، واختلف أهل هذا القول بين قائل بقبول التهذيب وبين قائل بعدم قبولها للتهذيب وهذا قول ساقط والوجدان يشهد ببطلانه.

ومن الفلاسفة من قال بما ذكرنا أولاً من أن الأخلاق تنحصر في نوعين ذاتية ومكتسبة وهو قول أكثر المحققين منهم وهو الصحيح وحيث إنا كتبنا في كتابنا «السياسة العلوية» شرح عهد مولانا أمير المؤمنين «عليه السلام» لما لك الأشر «رضوان الله عليه» فصلاً مطولاً تركنا التوسع هنا.

قال ابن مسكويه الخازن (رحمه الله) في كتاب تهذيب الأخلاق على هامش

المبدأ والمعاد لصدر الدين الشيرازي (ملا صدرا)^(١): الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء فيغضب ويهيج من أقل سبب، وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء، وكالذي يفرغ من أدنى صوت يطرق سمعه أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكاً مفرطاً من أدنى شيء يعجبه، وكالذي يغتم ويحزن من أيسر شيء يناله، ومنها ما يكون مستفاداً بالعادات والتدرب وربما كان مبدؤه بالروية والتفكير ثم يستمر عليه أولاً فثانياً حتى يصير ملكة وخلقاً ولهذا اختلف القدماء في الخلق: فقال بعضهم: الخلق خاص بالنفس غير الناطقة، وقال بعضهم: قد يكون للنفس الناطقة فيه حظ.

ثم اختلف الناس أيضاً اختلافاً ثانياً فقال بعضهم: من كان له خلق طبيعي لم ينتقل عنه، وقال آخرون: ليس شيء من الأخلاق طبيعياً للإنسان، ولا نقول إنه غير طبيعي وذلك إنا مطبوعون على قبول الخلق بل نتقل بالتأديب والمواعظ إما سريعاً أو بطيئاً وهذا الرأي الأخير هو الذي نختاره لأننا نشاهده عياناً، ولأن الرأي الأول يؤدي إلى أبطال قوة التمييز والعقل وإلى رفض السياسات كلها وترك الناس همجاً مهملين، وإلى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم وهذا ظاهر البشاعة جداً.

أما الرواقيون فظنوا أن الناس كلهم يخلقون اختياراً ثم بعد ذلك يصيرون أشراراً بمجالسة أهل الشر^(٢) والميل إلى الشهوات الردية التي لا تقمع بالتأديب فينهمك فيها ثم يتوصل إليها من كل وجه ولا يفكر في الحسن منها والقيح.

وأما قوم آخرون كانوا قبل هؤلاء فإنهم ظنوا أن الناس خلقوا من الطينة السفلى وهي كدر العالم فهم لأجل ذلك أشرار بالطبع وإنما يصيرون اختياراً بالتأديب وفيهم من ليس هو في غاية الشر فيمكن أن ينتقل من الشر إلى الخير بالتأديب من الصبيان ثم بمجالسة الأخيار وأهل الفضل.

وأما جالينوس فإنه رأى أن الناس فيهم من هو خير بالطبع وفيهم من هو شرير بالطبع وفيهم من هو متوسط بين هذين ثم ذكر احتجاجه ولا فائدة فيه.

(١) تهذيب الأخلاق بهامش المبدأ والمعاد: ص ٣٨٥.

(٢) ربما يقوي مذهب الرواقيين الحديث النبوي وقوله ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه اللذان يهودانه وينصرانه ويمجسانه» الحديث دل بنصه على أن الله تعالى يفرط الناس على الخير وإنما هم يكتسبون الشر والكفر بمتابعة الأشرار.

ثم قال: أما أرسطاطاليس فقد بين في كتاب الأخلاق وفي كتاب المقولات أيضاً أن الشرير قد ينتقل بالتأديب إلى الخير ولكن ليس على الإطلاق لأن يرى أن تكرير المواعظ والتأديب وأخذ الناس بالسياسات الجيدة الفاضلة لا بد أن يؤثر ضروب التأديب في ضروب الناس فمنهم من يقبل التأديب ويتحرك إلى الفضيلة بسرعة، ومنهم من يقبله ويتحرك إلى الفضيلة بإبطاء ونحن نؤلف من ذلك قياساً وهو هذا: كل خلق يمكن تغييره ولا شيء مما يمكن تغييره هو بالطبع فإذا لا خلق ولا واحد منه بالطبع، والمقدمتان صحيحتان والقياس منتج في الضرب الثاني من الشكل الأول.

أما تصحيح المقدمة الأولى وهي كل خلق يمكن تغييره فقد تكلمنا عليه وأوضحناه وهو بين من الصبيان ومما أستدللنا به من وجوب التأديب ونفعه وتأثيره في الأحداث والصبيان ومن الشرائع الصاغة التي هي سياسة الله لخلقة.

وأما تصحيح المقدمة الثانية وهي لا شيء مما هو بالطبع أبداً فإن أحداً لا يروم أن يغير حركة النار التي إلى الأسفل ولو رامه لما صح له شيء من هذا ولا ما يجري مجراه أعني الأمور التي هي بالطبع فقد صحت المقدمتان وصح التأليف في الشكل الأول وهو الضرب الثاني وصار برهاناً إلخ.

وسنذكر جملة من كلامه فيما يأتي وسيتضح أن مدعاه غير تام وإنما نذهب إلى وجود أخلاق طبيعية للنفس وإنها تقهر بالرياضة وتغلب بالسياسة حتى تكون في أقصى درجة من الضعف لا تكاد تذكر، وتغيير ما بالطباع سهل بالمعالجة فالحديد الذي طبعه الرسوب في الماء قد وجدناه يقبل المعالجة حتى يصير طافياً على وجه الماء كما يأتي مع شواهد كثيرة.

قال شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع في كتابه الذي ألفه للخليفة المعتصم العباسي وسماه «سلوك المالك في تدبير الممالك» ونصه^(١): الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية وينقسم هذا إلى قسمين وهما ما يكون طبيعياً من أصل الخلقة كمن يحركه أدنى شيء نحو الغضب، وكمن يجبن من أيسر شيء وكالذي يفرع من أدنى شيء، وما يكون مستفاداً بالعادة ومبدأ ذلك بالفكر والروية ثم يستمر عليه أولاً فاولاً حتى يصير عادة وملكة يقارب الطبيعي إلخ.

(١) سلوك المالك في تدبير الممالك: ص ١٦.

وقد مضت مقالته في نسب العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» .
قال صاحب مجلة الحقائق وهو أبو النصر يحيى السلاوي^(١) : الأخلاق
والسجايا الخليفة من جهة تطلق على الطبيعة والسجية كما في قول القائل - هو
زهير بن أبي سلمى - :

ومهما تكن عند أمرء من خليفة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
يجمع على خلائق كقول لبيد :

فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها
فيقال : نعم الخليفة العفة ورجل خليف بالمجد أي مخلوق له ومفطور عليه ،
ومن جهة على الخلق بمعنى المخلوقات كما في قوله تعالى : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾^(٢)
أي مخلوقه ويجمع أيضاً على خلائق خلاف قولك «خلقت الأديم» إذا هيأته
للتفصيل وقدرته قبل القطع ، ومنه قول الحجاج : ما خلقت إلا فريت ، وما وعدت
إلا وفيت ، وكلا هذين المعنيين ليس مراداً عندنا وإنما المراد جهة الخلق الملحوظ
فيه التخلق بمعنى التطبع .

ثم قال بعد كلام : الأخلاق السببية من حيث إمكان تمرين النفوس عليها
حسنة كانت أو سيئة كما يدل عليه ما ورد في الآثار الصحيحة من حديث «تخلقوا
بأخلاق الله» لأن صريح الأمر يستلزم كون الأمور به مقدوراً عليه وإلا لزم عليه ما
لا يخفى من الحرج والمشقة ولا يقال ربما كان ذلك من باب الأخذ بالاحتياط في
العمل مقدوراً كان أو غير مقدور رجاء أن يصادف ساعة أزلية تستميل النفس إليه
وتمرنها عليه لأننا نقول هذا هو عين ما أردناه من كون الأمور به مقدوراً أن تكون
الفطرة الطبيعية مخلوقة لله بصفة راسخة ثابتة في النفس غير قابلة للتحويل والانتقال
إلا بأمر مسلم لا نزاع فيه ويكون الأخذ في الأسباب مزاولة بالرياضات اللائقة
مقدوراً للعبد من حيث مباشرته للعمل مسلم أيضاً ، وأما كون ذلك العمل مقروناً
بالنتيجة فلا شبهة لأحد في أنه متوقف على مصادفة العناية وإلا لكان كل أحد
قادراً بالذات على تحويل فطرته كيف شاء إلخ .

ولم تحصل لهذا الأديب المعرفة بالفرق بين الأخلاق الغريزية والأخلاق
الكسبية وإن قبول النفس للتأديب والرياضة - كما سنذكر - مما يوجب إزالة ما في
النفس ومحوه بتاتاً أو يوجب قهره وغلبته كالماء الذي من طبيعته البرودة فإن

مماسته للنار أو مجاورته لها أو إبرازه للشمس والحرارة الموجبة لتسخينه وتغيير صفته قد أستقوت على طبيعته الباردة وقهرتها وغلبتها حتى حولتها من صفة البرودة إلى صفة الحرارة والطبيعة غير زائلة بالكلية بحيث لو زال هذا القاهر لعادت إلى أصلها .

وأما الأخلاق المكتسبة من مجاري العادات فإنها تزول بالكلية كما تزول النقوش والأصباغ العارضة للأجسام وقد ذكر في «سلوك المالك» في الفرق بين السجايا والأخلاق ما لفظه^(١) : اختلف العلماء في الفرق بين السجايا والأخلاق فذهب قوم إلى أن السجايا مالم تظهره الطباع والأخلاق ما أظهرته، وسميت الأخلاق أخلاقاً لأنها تصير كالخلقة والشيم كالسجايا والغرائز ممتزج بالطبع، والنحاييز ما ظهر بالقوة. وذهب قوم إلى أن السجايا مالم يتغير بطبع ولا تطبع والأخلاق ما يتغير بهما، وزعم أكثر أهل الطب أن السجايا والأخلاق تابعة لمزاج البدن فتكون مستقيمة بصحته ومتغيرة بفساده، وذهب المتدينون إلى أن الله تعالى ركب في النفوس بحسب إرادته وجعل أختلاف الأخلاق كأختلاف الصور التي ليست لها علة غير إرادته إلخ .

الألف والعادة خُلِقَ مكتسب

قال في مجلة الحقائق^(٢) : المألوفات والعوائد : الألف والعادة شيان معلومان في اللغة والاصطلاح في بعض الأحوال دون بعض وذلك لأن الألف قد يطلق على السجية الراسخة في النفس بمعنى الميل الطبيعي التي هي مفطورة عليه كقولك : ألفت النفوس الخير والفت الشر، ويؤيده دليل جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، ويشترك فيه حينئذ الإنسان وغيره لما هو مشاهد من تأثير حب الراحة والإحسان في النفوس لسائر الحيوان، وتارة على ما يؤلف بالطبع والعادة فيكون بمعنى الميل الذي يحصل بواسطة البواعث النفسية المجردة عن القياس والحصر أو بعض الأسباب المتنوعة كقولك ألفت المكان إذا طاب لك فيه المقام لمصلحة أو حكمة، وألفت الوطن إذا غلب على نفسك حبه لمجرد ميل الفطرة الطبيعية إلى ترجيح مسقط الرأس في الغالب، وألفت الإبل المرعى إذا اعتادت الرتوع فيه لخصب أو ضرورة، وتتفاوت الأميال بقدر تفاوت أنسابها في الضعف

(١) سلوك المالك في تدبير الممالك : ص ٣٣.

(٢) مجلة الحقائق : ص ١٤.

والقوة لأنها في الإنسان أشد منها في بقية أنواع الحيوان وذلك لاستجماعه القوى النفسية وأستعداد طبيعته الملكات أكثر من غيره كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(١) إذ لا يخفى أن أحسن التقويم في الآية الشريفة هو عبارة عن التمهيد والتعديل المعنوي المفطورة عليه النفوس البشرية من نحو اختصاصها بالحافظة والمفكرة والمديرة وغيرها من الأمور المستعدة للقيام بالوظائف النفسية تحت رياسة العقل المتصرف لأنك لو نظرت إليها من حيث القوى والاستعدادات الحسية لرأيتها أفقر أنواع الحيوان لما تستعين به على تحصيل المانع ودفع المكاره.

إذا علمت هذا ظهر لك جلياً أن الألف منه ما هو جوهرى الرسوخ في النفوس لا يقبل الانفكاك عنها ومنها ما هو عرضي يتمكن منها بالمزاولة تارة ويزول أخرى؛ أما الأول فهو الذي لا دخل للعادة فيه كما قدمنا، وأما الثاني فقد يشمل العادة كقوله تعالى: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۖ لَّيْلَهُمْ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾^(٢) أي لا اعتيادهم ذلك وقد لا يشملها كقولهم هذا ألف فلان أي محبوبه، وبما أن القسم الشامل للعوائد مما يترتب عليه كثير من المنافع والمضار فقد رأينا أن نبحث عن أسبابه وموانعه ونشير إلى بعض مضاره ومنافعه إلخ.

الميل والانجذاب الطبيعيان؛

إن للنفوس ميلاً وانجذاباً طبيعيين ونفرة وتمرداً غريزيين؛ أما الميل والانجذاب فالأمر الشهوانية وميلها هذا طبيعي وانجذابها جبلي فيما أنها مزجت بقوة سبعة تنجذب بجلتها وتنقاد بأمالها إلى قتل النفوس وإزهاق الأرواح البشرية وأستلاب أموال المتمولين بأنواع العدوان من النهب والسرقة والتفريم وما أشبهه وبما أنها مزجت بقوة شيطانية لها ميول جذابة وأنقياد شديد إلى استعمال الحيل والمكائد والخداع وما شاكل ذلك، وبما أنها مزجت بقوة بهيمية تميل بطبعها وتنجذب بسجيتها إلى عامة الملاذ الشهوانية من المطاعم والمناكح وسائر الملاذ الدنيوية.

وأما نفرتها وامتناعها فعن قبول صالح الأعمال ومكارم الأخلاق وسائر الطاعات والمقربات غير أن النفوس الروحانية الخالصة المصفاة عن هذه الشوائب المكدرة فإنها غير منجذبة ولا ميالة إلى هذه الأدناس المستهجنة في باب الصلاح

والتقوى بل ميلها وأنجذابها للأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة كنفس الأنبياء والصلحاء البررة من أئمة أهل البيت الهداة ولباقي النفوس المتلوثة بهذه القوى المتلبسة بحل الأمور الهجينة التي تجذبها إليها القوى الثلاثة التي أشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾^(١) وقوله «عليه السلام»: إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي أتباع الهوى، وقوله «عليه السلام»: ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه.

قال الشاعر العرب:

وإنك مهما تعطي بطنك سؤله وفرجك نالا غاية الذم أجمعا
وسماها الله تعالى مرة لوامة لأنها تلوم على أفعال الخير، وسماها مرة أخرى أماراة بالسوء لأنها تأمر بأقتراف الموبقات من الجرائم.
فإذا لامتك أيها الإنسان نفسك اللوامة على فعل الصالحات فوبخها، وإن أمرتك النفس الأماراة بفعل القبيح فأعصها ولا تطعها وقصر من عنانها، وإذا جمحت بك إلى الشهوات فأقبض على لجامها، وإذا طمحت لنيل المستلذات فأزجرها ولا تدعها وجماحها فإنها ربما أردتك في متردى عميق ورمت بك في فج سحيق.

وسُسَّها كما تساس صعاب الخيل، ورضها كما تراض الجامحات فإنها بالرياضة تُسلس وتنقاد، ولا تقل أيها الأريب إن ما بالطبع لا يزول، ولا تنشد ما قيل:
فضح التطبع شيمة المطبوع

فقد أوقفنا الوجدان ودلنا العيان على قبول النفوس للرياضة والتأديب وأثر ذلك بين حتى في الحيوانات البكم ونحن نورد لك نبذة مما قاله العلماء في رياضة النفس وقبولها الأخلاق الحميدة على ما صرح به الحديث النبوي وقد رجع ﷺ من بعض غزواته: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس في حملها على التقوى ثم نذكر لك ما راضت به الأمم الحرة والشعوب المتمدنة الحيوانات الصماء ومرنتها أبدع التمارين فقبلتها وأعتادتها.

حقيقة الرياضة والمجاهدة

قال الشريف الجرجاني في كتاب التعريفات^(٢): الرياضة عبارة عن تهذيب

الأخلاق النفسية فإن تهذيبها تمحيصها عن خلطات الطبع ونزعاته .
وفي مصطلحات الصوفية للفتوحات المكية^(١): الرياضة رياضة أدب وهو الخروج عن طبع النفس ورياضة طلب وهو صحبة المراد لله وبالجمله هي عبارة عن تهذيب الأخلاق النفسية .

وفي التعريفات^(٢): المجاهدة في اللغة المحاربة في الشرع محاربة النفس الإمارة بالسوء بتحميلها على ما يشق عليها بما هو مطلوب في الشرع .
وفي مصطلحات الصوفية^(٣): المجاهدة حمل النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى على كل حال .

وقال الفيروزآبادي في القاموس: راض الفرس ذلله .

وقال فخر الدين الطريحي (رحمه الله) في مجمع البحرين^(٤): في حديث علي «عليه السلام» لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً وتقنع بالملح مأدوماً، قيل: أراد بالرياضة هنا منع النفس الحيوانية عن مطاوعة الشهوة والغضب وما يتعلق بهما ومنع النفس الناطقة عن متابعة القوى الحيوانية من رذائل الأخلاق والأعمال كالحرص على جمع المال وأقتناء الجاه وتوابعهما من الحيلة والمكر والخديعة والغلبة والغضب والحقد والحسد والفجور والانهماك في الشرور وغيرها، وجعل طاعة النفس للعقل العملي ملكة لها على وجه يوصلها إلى كمالها الممكن لها وإزالة الموانع الدنيوية عن خاطره والمعين على ذلك أضعاف القوة الشهوانية والغضب بأضعاف حواسه بتقليل الأغذية والتنوق فيها فإن لذلك أثراً عظيماً في حصول الكمال والتشاغل بحضرة ذي الجلال .

ويمكن أن يقال: إن المراد بالرياضة منع النفس عن المطلوب من الحركات المضطربة وجعلها بحيث تصير طاعتها لمولاها ملكة لها .

وقوله «عليه السلام» «إنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر» قال بعض الشارحين: قوله «إنما هي نفسي» أي إنما هممتي وحاجتي أروضها رياضة النفس مأخوذة من رياضة البهيمة وهي منعها عن الإقدام على حركات غير صالحة لصاحبها فالقوة الحيوانية التي هي مبدأ الإدراكات والأفعال

(١) مصطلحات الصوفية للفتوحات المكية: ص ٥.

(٢) التعريفات: ص ١٣٨. (٣) مصطلحات الصوفية: ص ٥.

(٤) مجمع البحرين: ص ٢١٢ و ٢١٣.

إذا لم تكن مطيعة للقوة العاقلة في تحصيل مراداتها فتكون هي آمرة والعاقلة مؤتمرة كانت بمنزلة البهيمة التي لم ترض فهي تتبع الشهوة تارة والغضب أخرى، وتستخدم القوة العاقلة، وإذا ما راضتها القوة العاقلة حتى صارت مؤتمرة لها مستمرة على يقتضيه العقل العملي تأتمر بأمره وتنتهي بنهيه كانت العاقلة مطمئنة لا تفعل أفعالاً مختلفة المبادئ وكانت باقي القوى مسالمة لها.

ثم قال الشارح: لما كان الغرض من رياضة النفس نيل الكمال الحقيقي فلا بد من الاستعداد وكان ذلك الاستعداد موقوفاً على زوال الموانع الخارجية والداخلية كانت للرياضة أغراض ثلاثة حذف كل مرغوب ومحبوب وهو حذف الموانع الخارجية، الثاني تطويع النفس الأمانة للنفس المطمئنة فينجذب التوهم والتخيل عن الجانب الأسفل إلى الجانب العلوي وتتبعها سائر القوى فتزول الدواعي وهو حذف الموانع الداخلة، الثالث توجيه السر إلى الجنب العالية لتلقي السوانح الإلهية وأقتناصها ويعين على الأول الزهد الحقيقي وهو الإعراض عن متاع الدنيا وطيباتها بالقلب، وعلى الثاني العبادة المشفوعة بالفكر في ملكوت السماوات والأرض وعظمة الله والأعمال الصالحة المنوبة لوجهه خالصاً وعبر عن هذه الأمور المعنوية بالتقوى التي يروض بها نفسه، إنتهى، وله كلام آخر في المجاهدة تركته^(١).

وقال في سلوك المالك^(٢): الفضائل تنقسم إلى قسمين: أحدهما ما أوجب ثناء المخلوقين وهو ما عاد نفعه عليهم، والثاني ما أقتضى ثواب الخالق وهو ما قصد به وجه الله تعالى ونقول: إن الأخلاق غرائز كامنة تظهر بالاختيار وتظهر بالاضطرار وللنفس أخلاق تحدث عنها بالطبع ولها أفعال تصدر عنها بالإرادة فهما ضربان: أخلاق الذات وأفعال الإرادة، والإنسان مطبوع على أخلاق قلما حمد جميعها أو ذم سائرهما وإنما الغالب أن بعضها محمود وبعضها مذموم فتعذر لهذا التعليل أن تستكمل فضائل الأخلاق طبعاً وغريزة ولزم لأجله أن يتخللها رذائل الأخلاق طبعاً وغريزة فصارت غير منفكة في جبلة الطبع وغريزة الفطرة عن فضائل محمودة ورذائل مذمومة، وإذا أستقر ذلك فالسعيد من غلبت فضائله على رذائله فقد بوفور الفضائل على قهر الرذائل وسلم من شين النقص وسعد بفضيلة الفضل فالإنسان يستحق الحمد على الفضائل المكتسبة لأنها مستفادة بفعله ولا يستحق

(١) مجمع البحرين: ص ٢١٢ و ٢١٣.

(٢) سلوك المالك في تدبير الممالك: ص ٣٨.

على الفضائل المطبوعة وإن حمدت فيه لوجودها بغير فعله، ومن القبيح أن يتحرز المرء من أغذية البدن كي لا تكون ضارة ولا يعني بتهذيب أخلاق نفسه ومداواتها بالعلم الذي هو غذاؤه كي لا يكون باطلاً ضاراً وإذا كنا نعني بجميع أعضاء البدن وخاصة بالأشرف منها فبالحري أن نعني بأجزاء النفس وخاصة بالأشرف منها وهو العقل، وكما أن الأمراض التي تعرض للبدن إن لم يعلم الطبيب الأسباب الفاعلة لها لم يتمكن من علاجها فكذلك علل النفس ينبغي أن نعني بقلع أسبابها فمتى أحس الإنسان بأنه قد أخطأ وأراد أن لا يعود ثانياً فلينظر أي أصل في نفسه حدث ذلك منه فيحتال في إزالته وبعد فلو لم يكن إلى تغيير الأخلاق سبيل لما كان للأقاويل التي أودعتها الحكماء كتبها في إصلاح الأخلاق معنى إذا لم يرج لها نفع ولا جدوى وكذلك لم يكن للمواعظ التي يقصد بها ذوا الأخلاق الذميمة من الأشرار معنى إذا لم نطمع في أنتقالهم عما هم عليه من الشر، إنتهى.

ولابن مسكوية كلام مطول في هذا، وكلام مولانا رسول الله ﷺ ومولانا أمير المؤمنين «عليه السلام» كثير أودعته الكتب المعتمدة ومنها نهج البلاغة، وفي تحصين العارفين من كلام النبي ﷺ ما يخص هذا^(١).

رأي المصنف في رياضة الصوفية

أما طريقة الصوفية في المجاهدة النفسية والرياضة الأخلاقية فخارجة عن طور الاعتدال وكلما خالف تحديد الشرع الأقدس وتعاليمه الصالحة الملائمة للأذواق والمناسبة للقدرة البشرية فليس من المحمود وإن تخيله المتخيل وتوهمه الظان المخطئ إنه من المحمود.

وحقيقة الأمر إن المجاهدة المحبوبة والرياضة المطلوبة شرعاً وعقلاً هي حمل النفس الشامسة على ما تقدر عليه وتطبق النهوض به وإن كان بكلفة ومشقة عليها ولكن تلك الكلفة مقدورة للنفس والنفس مستطبعة لها ليست بخارجة عن حد الوسع والطاقة وإنما شقت وصعبت لمخالفة العادة والألفة لا لعدم القدرة.

وقد يكون التكليف مقدرواً لشخص غير مقدور لآخر لأن النفوس البشرية مختلفة بحسب الاستعداد لتحمل المشاق والمصاعب من وجهين:

الأول: إن النفوس تتفاوت في القوة والضعف ونقص البنية وتماमितها فإنك تجد إن بعض الأشخاص يحمل مقدار وزنة النجف ويمشي به بلا كلفة مقدار

(١) انظر: تحصين العارفين على هامش المبدأ والمعاد لملا صدرا: ص ٤٠٩.

نصف ساعة وأكثر ولا يلحقه من ذلك عناء شاق ولا تعب مؤلم، وآخر لا يقدر على حمل رطل واحد ويلحقه إن حمله مشقة شاقة وعناء مفرط وصعوبة شديدة وأعتبر ذلك في الأكراد الذين يحملون الرزم الثقيلة حتى قيل وكذلك تجد رجلاً ضعيف المعدة قليل الهاضمة يجتزي في اليوم والليلة بقرص واحد وتجد آخر قوي الهاضمة لا يكفيه في اليوم والليلة عشرة أقراص وقد قيل شعراً:

لنا صديق بطنه كالهافية كأن في أمعاءه معاوية

فلكل واحد منهما في المجاهدة شكل خاص ورياضة محدودة لا تزيد على ما يستطيع فإن من يجتزي بالقرص يمكنه المجاهدة بترك الأكل يوماً وليلة، وصاحب العشرة أقراص تكون مجاهدته بالتقليل بمعنى ترك النصف أو الثلثين مما اعتاده لا ترك الكل إلا يوماً كنهار الصوم وكذلك سائر الأوصاف في سائر الاصناف، والصوفية يأخذون الجميع بالسلوك في الرياضة على نهج واحد وهو خطأ محض.

والثاني: إن لبعض النفوس البشرية تأييد رباني وفيض ملكوتي يفيض عليها بالفيض الإلهي فيوجد لها نشاطاً زائداً على العادة ويوحى لها استعداداً كاملاً في القوة الروحية على حد ما قيل:

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت للعبادة الأعضاء

فتقوى تلك النفوس المؤيدة بتأييد الله تعالى على تحمل المصاعب ومكابدة الأهوال وحمل ما لا يطاق لغيرها وهي نفوس الأنبياء والأوصياء، وفي الحديث النبوي: أعظم الناس بلاء الأنبياء ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل، وإليه يشير مولانا أمير المؤمنين «عليه السلام» بقوله: ما قلعت باب خبير بقوة جسدانية، أي أقتلته بقوة الإمداد الرباني والمساعدة الإلهية بما أودع الله فيه من القوة الخارجة عن حد مقدرة الطبيعة وفوق طاقة البنية الجسمانية فليس لي ولا لك التشبه بهم في كل الأعمال الشاقة فلا تقس نفسي ونفسك الضعيفة التي لا يمكنها النهوض بما نهضوا به لأنهم «عليهم الصلاة والسلام» عانوها وكابدوا مصاعبها بقوة خارجة عن الاستعداد والقوة الطبيعية فصلاة ألف ركعة في اليوم والليلة مع مزاولة باقي الأشغال ليس في قدرتي ولا قدرتك إنما ذلك الأمر الصعب قد ساعدتهم عليه التأييدات الربانية وأعانتهم عليه العناية الإلهية بما أودعه الله فيهم من القوة الباهرة ومنحهم من صفاء النفس ما لم يكن لغيرهم وقد قال رسول الله ﷺ لأصحابه وقد نهاهم عن صوم الوصال، فقالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: أنا لست مثلكم أن لي ملكاً يطعمني ويسقيني.

ومن هنا قالوا: إن تكاليف الأنبياء أشد الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل وهذا هو المعروف على السنة المحدثين بالخصائص فإن النبي ﷺ كان مكلفاً بتكاليف لم تكلف بها الأمة كصلاة الليل الواجبة عليه دون أمته لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّخْمُودًا﴾^(١) وكتكليفه بالمنع من خائنة الأعين لقوله ﷺ: ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين، وأمثال ذلك مما هو معروف في محله مما أختص به دون أمته لعدم احتمال الأمة ذلك التكليف الذي لا تحتمله إلا تلك النفس القدسية المهذبة المصفاة بالتهذيب الإلهي والتصفية الربانية وإن أستعداد نفوسهم في القوة والقدرة أمر بديهي فإن رسول الله ﷺ كان مع ربطه حجر المجاعة على بطنه ومعاناته تلك العبادة العظيمة كان يطوف على نسائه كلهن في ليلة واحدة وهن تسع نساء سوى الجواري وصرع ركانة المطلبي وهو المشهور بالقوة حتى ما أستطاع أن يتحرك، وحمل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام»: على عاتقه يوم مكة لرمي الأصنام عن ظهر الكعبة فقال أمير المؤمنين «عليه السلام»: خُيِّلَ لي أنني بلغت السماء على أنه لما أراد حمل النبي ﷺ برك تحته حتى ما أستطاع أن يتحرك وذلك مشهور في السيرة والتاريخ، وإن أمير المؤمنين «عليه السلام» يقتات القرص اليابس من الشعير ويقتلع باب حصن خيبر وكان لا يفتحه إلا سبعون أو أربعون رجلاً كما قال ابن أبي الحديد: يا قالع الباب الذي عن رده عجزت أكف أربعون وأربع

وقد نقل عنه «عليه السلام» أنه قال: ما اقتلعت باب خيبر بقوة جسدانية يعني إنه أقتلعه بتلك القوة التي أمدّه الله بها زيادة على ما يحصل للنفس بوساطة التغذية وما هو لها بحسب أستعدادها الطبيعي الحاصل من المواد الغذائية فإذا قلعه لباب خيبر بإفاضة إلهية لا بقوة غذائية كما في الملائكة الروحانية الذين منعوا التغذية.

ومن المعلوم أن علياً «عليه السلام» كان قليل التغذية يأكل القرص الجشب اليابس من الشعير بنخالته ويطوي الليالي والأيام وكان مع ذلك إذا قبض على إنسان أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس وكان يأخذ البطل العظيم فيرفعه على طول قامته ثم يضرب به الأرض فيهشم عظامه كما صنع ذلك بحريث فارس أهل الشام يوم صفين فليست هذه القوة للغذاء وإنما هي من إفاضات الله تعالى التي أفاض مثلها على الملائكة الذين عدموا التغذية بتاتا وإنما غذاءهم التسبيح.

وصاحب هذه القوة العظيمة عجز عن النهوض برسول الله ﷺ لما أراد

حملة لطرح الأصنام عن ظهر الكعبة، ولما حملة النبي ﷺ على منكبه كان أخف محمول عنده حتى قال «عليه السلام»: خُيِّلَ لي أن لو شئت لمسست السماء؛ هكذا ذكره الحافظ النسائي في خصائص أمير المؤمنين علي «عليه السلام».

فهم «عليهم السلام» شاركوا غيرهم في التأثر بالمؤثرات في النفوس البشرية ولكنهم كانوا أقوى احتمالاً للمصاعب والصعاب بما أختصوا به من مزيد العناية والتأييد الإلهيين، وهذا سيد الشهداء الحسين بن علي «عليهما السلام» لما أشد به العطش وبأصحابه يوم كربلاء ظهر من أصحابه من التشكي والتألم ما لم يظهر منه وحتى كان كأنه ريان الكبد فهو «عليه السلام» بصبره وقوة ملكته الروحانية لم يظهر منه أدنى تأثر وأقل أنفعال حتى أن أصحابه ما علموا بعطشه إلا بمقايضة حالته إلى حالتهم وما عرفوا شدة عطشه حقيقة إلا عندما أشتكى إليه ولده علي الأكبر «عليه السلام» العطش فقال له: هاك لساني فمصه، فلما فعل بكى وقال: والله إن لسانك أيبس من لساني، ويتضمن هذا الفعل من الأسرار الحكيمة أربعة أمور:

(١) يقصد الحسين «عليه السلام» أن يخفى ما به من الجهد ليتضاعف له الأجر بالصبر والكتمان.

(٢) يقصد بإخفائه تثبيت نفوس أصحابه فإنه إذا جزع أشد وجدهم وحزنهم.

(٣) يقصد أن يتأسى به ولده في تحمل المصاعب والأجر على قدر العناء والمشقة.

(٤) إن علي الأكبر «عليه السلام» أول قادم رسول الله ﷺ من أهله فيكون أول مشتكٍ إلى رسول الله ﷺ ما حل بالحسين «عليه السلام» ولهذا قال عند آخر رمق من حياته: هذا جدي رسول الله ﷺ قد سقاني بكأسه الأوفى شربة لا أظمأ بعدها وإن لك كأساً مذخورة، القصة مفصلة في مقتل الحسين «عليه السلام» ويحفظها عامة الذاكرين وخطباء المنابر ولم يصرح الحسين «عليه السلام» بعطشه إلا بعد قتل جميع أنصاره وذلك حيث ورد المشرعة وأقحم فيها جواده الحرون المعروف بالميمون والملقب بذي الجناح فإن الجواد غمس فمه في الفرات ليشرب، فقال له الحسين «عليه السلام»: أنا عطشان وأنت عطشان، فرفع الجواد رأسه كأنه قد فهم.

وقد وصف هذا الصبر وهذا الثبات أخوه أبو الفضل العباس «عليه السلام» على ما يذكره الخطباء والعهد عليهم إنه قال له: أما أنت يا أخي لو وزنت

السموات والأرض بصبرك وثباتك لرجحت وإني لأخيك بشأوك، وفيه يقول رائي:

الله درك يا صبور على الأذى ولأنت أقدر قادر يتخلص
وأشار آخر إلى عظيم المحن التي تحملها الحسين «عليه السلام»:
ولقد تحمل من أرزاءها محناً لم يحتملها نبي أو وصي نبي
وهكذا حالات الأنبياء والأوصياء فمجاهدتهم لأنفسهم ورياضتهم لها إنما
هو على حسب قابليتهم وأستعدادهم فليس لي ولك إلا ما نقدر عليه وليس لنا
تكلف ما فعلوه ونحن عنه عاجزون فأن كان موسى بن جعفر الإمام الكاظم «عليه
السلام» قطع الفلاة الموحشة والمفاضة المقفرة من غير زاد ولا ماء ولا راحلة -
كما في حديث شقيق البلخي المشهور - فليس لي ولا لك أن نقطعها كذلك إذ لا
يبلغ توكلي وتوكلك درجة توكله على الله ولسنا بصدد إيراد خرافات الصوفية التي
موهوا بها وسموها رياضة ومجاهدة وإنما جلّ غرضنا وغاية اهتمامنا في بيان أن
النفس على مافيهها من السجايا الجبلية والطباع الغريزية قابلة للتهذيب وإن تلك
الأخلاق الراسخة في النفس والثابتة من أصل الخلقة لا تمنع التهذيب ولا يمنع
من قبولها للتربية إلا من لا عقل له ولا يمكن لأحد أن يقاوم هذا العالم منذ أول
نشأته إلى اليوم، ومن منع من قبول الطباع للتغير فقد هدم أساس الشرائع الإلهية
من أصلها وقلب المؤسسات المدنية رأساً على عقب؛ فالحضارة في تأسيس
المدارس وسن الأنظمة والقوانين وفرض التعاليم والتمرينات على الأحداث كلها
إنما شرعت لحمل النفس على قبول الأخلاق التي ليست من طبعها ولم تألفها
وقمع ما فيها من الشيم والسجايا التي لا تلائم الفكر الحر والعقل السليم.

قبول الحيوانات للتربية والتعليم

وقد أوقفنا الوجدان ودلتنا الخبرة والتجربة على قبول الحيوانات للتربية
والتهذيب فهذا الصقر الكاسر والسبع المفترس قد مرنا على الاصطياد فألفاه
وأعتاده مع المعلم لهما مشية السامع المطيع من ذوي العقول، وهذا الفيل
الهائج قد مرن على ممارسة الحروب وحمل الأثقال فأذعن لسائسه وأنقاد له،
وهذا الكلب قد مرن على الحراسة فقام بواجبه، وكثيراً ما سمعنا من أهل الخبرة
الذين يخرجون مع الإنكليز لصيد الطير يزعمون أن الإنكليز لا يخرجون للصيد إلا
كلابهم معهم فإذا رمى بعضهم طائراً ووقع أسرع الكلب إليه وأحتمله بفمه ووضع

أمام صاحبه، ولا أزيدك بتهذيب كلب الصيد المسمى بالسلوقي خبرة على العلم الوجداني وقد أخبر الله تعالى في القرآن بقبولها التربية والتمرين على الصيد، وهذه البغال والخيول والحمير قد قبلت التهذيب وقد وصفوا الجياد من الخيل قديماً وحديثاً بقبول الثقافة حتى شاع أن الأصائل لتقف عند فرسانها حين سقوطهم، وأما القروود (الشواذي) والبيغا (بي بي توتي) (بي بي متوه) بلغة البصريين فأمرهما أشهر في قبول التربية والتأثر بالتهذيب من كل حيوان وما هذه إلا حيوانات عجماء لها طبائع ذاتية وغرائز جبلية تمنعها من قبول التهذيب والتربية ومع ذلك فقد قهرت قوة التربية والتهذيب تلك القوى الطبيعية.

قال علي أحمد الشهيدي أحد المعاصرين المصريين في كتاب «تاريخ العالم»^(١): قالت جريدة «الستاندر» بأحد أعدادها الصادر في سنة ١٩٠٠م: إن لبعض الحيوانات أوقات معينة تتناول فيها طعامها فإذا جاء ميعات الطعام لا تتقدم عنه لحظة ولا تتأخر، وإن العقرب إذا تحققت وقوعها في خطر الموت قتلت نفسها، وإن خيول جند الفرسان لا تخطئ في تمييز الملابس الخاصة بفرقتها، وإن الأفيال إذا حمي وطيس الحرب لا تخطئ في التمييز بين أصحابها وجند العدو، وطيور الزاغ والنسر والباز تفرق بين من كان متسلحاً ببندقية أو غير متسلح، ومن أنواع القروود ما يستخدم في ما لا يستطيعه إلا الإنسان فهي بارعة في الخدمة على الموائد «سفرجيه» وإشعال النار في المطبخ والكس ومساعدة الفران بإلقاء الوقود في الفرن وفي تنظيف الأخدية «بالفرجة» وهي تحمل الأحمال الخفيفة كالشبالين وتخفر المنازل فلا تؤذن للغريب بالدخول إليها وتحمل الرسائل وتعمل عمل السعاة وقد تعمل عمل المربيات في تدبير الأحداث وإذا ذهب القرد إلى فراشه أصلح وسادته وتغطي باللحاف.

هذا الذي ذكرته تلك الجريدة وهو في الحقيقة مشاهد أمامنا على الدوام فضلاً عما نراه من البيغا التي تتكلم كما نتكلم، والكلب الذي يخدم الخدمة المنزلية فائتمنه الإنسان فسماه الخادم الأمين حتى في قضاء المأكولات سواء كانت في اللحوم وما شابهها مما قضى على كثير من العلماء بالأشتغال في هذا الموضوع زمناً طويلاً إلى أن وجد أخيراً أن أرقى الحيوانات بالانعطاف إلى الأحياء التي هي أرقى منها كما نعطف نحن إلى المعبودات العليا التي هي أرقى منا.

(١) تاريخ العالم: ص ٧٤.

الجواد المدرّب وذكاء الخيل

وقد ذكرت «جرائد برلين» رواية دوى صوتها في الخافقين ومقتضى تلك الرواية أنه يوجد رجل ألماني اسمه «هرفون أوستن» مقيم في شمال برلين تفرغ لدرس طبائع الحيوانات منذ أربعة عشر سنة حتى لاحظ على بعض أفراسه نباهة زائدة فأخذ في العناية به وتعليمه وتثقيفه على أحدث طرق التعليم المدرسي بأوروبا حتى وإنه يجيب على كل مسألة تطرح إليه جواباً وهو يقرأ الخط ويعرف قيمة النقود والأعداد ونحوها، وإذا نظر الساعة عرف الوقت تماماً، وإذا أريته صورة أحد الأشخاص الذين يعرفهم عرفه حالاً لكن لا يظهر معرفته بالنطق بل يجاوب على ما يطرح إليه من الأسئلة بتحريك الرأس فإن أراد نعم حنى رأسه وإن أراد لا هزه، أما الأسئلة الحسابية فإنه يجيب عليها بالنقر في الأرض بحافره الأيمن، وإذا أراد تأكيد جواب بما ينوب عنه رفع الصوت عند آدميين رفس الأرض بحافره الأيسر رفساً شديداً إلى غير ذلك من التعاليم التي أهلتها لمساوات تلاميذ المدرسي الابتدائية ممن بلغ سنهم الثالثة عشر من عمرهم ولذلك سماه صاحبه بأسم «حنا النبیه».

قالت «مجلة الهلال» في وقتها وشاع أمر هذا الفرس في برلين وتألقت لجنة من علماء الحيوان لمشاهدته وأمتحانه على مرءاً من المتفرجين الكثيرين رجالاً ونساء فتحقق عندهم أنه يفعل ذلك عن نباهة وتفكير لا عن سليقة وعادة من ضمن أسئلة اللجنة المذكورة أنهم سألوه على سبيل المزاح عن عدد الحضور وعن عدد الذين يتقلدون النظارات منهم وعن السيدة التي على رأسها قبعة خضراء فأجاب أجوبة سديدة حتى أندهش الحضور أندهاشاً أدهام لسوء الظن بصاحبه والممتحن فأخرجوهما من مكان اللجنة ليمتحنوه فلم يتأخر عن أية إجابة كانت، ومن النكت اللطيفة أن أحد الحضور تقدم إليهم وأفهمه أنه إذا نظف معلفه بخرقه كافئه على ذلك بزيادة علف فتلفت حنا المذكور يميناً وشمالاً حتى وقع نظره على خرقه بيد أحد الحضور فالتقطها بفمه وأسرع إلى أصطبله وأخذ ينظف معلفه بتلك الخرقه حتى نظفه تماماً ثم بعد ذلك أعاد الخرقه إلى صاحبها الأصلي فأندهش الحضور أندهاشاً عظيماً، وأشتهر أمره حتى تسابقت الأغنياء لمشتراه بالمبالغ الطائلة إلى أن وصل ثمنه (٧٠٧) جنيهاً ولكن صاحبه أبى أن يبيعه مهما بلغ ثمنه قولاً منه إنه لا يطيق فراقه.

قال المراسل - لجريدة وورلد ووك - الإنكليزية وقد يظهر ذلك غريباً ولكنني رأيته يعني بفعل ذلك ورأيت فيه نباهة غريبة لتمييز الألوان فوضعوا أمامه عشر لوناً متحاذية وأخذ أستاذه يسأله عن كل لون منها وهو يدل بحافره عليها وله مهارة غريبة في أداء الألحان الصفيرية حتى يميز بين النغمة وأجزائها، إنتهى كلامه.

ونقل جرجي زيدان في عجائب الخلق وغيره من علماء الحديث ما يقارب هذا عن رجل أمريكي ثقّف جواداً وفي نقل الأقوال تطويل ولا غرابة في ذكاء الخيل وقد ذكر المتأخرون في التربية للخيل العربية وهي الأصائل بالرياضة المسمات بالتجيش أمراً مدهشاً وقد ذكر القدماء أن الجواد إذا سقط فارسه وقف عليه وحام حوله وربما حامى عنه، وقد روى مثل هذا أرباب المقاتل فذكروا أن جواد الحسين «عليه السلام» المسمى بالحرون والملقب بذي الجناح المشهور بالميمون لما سقط الحسين «عليه السلام» جعل يحمم ويدور حوله ويمرغ ناصيته بدمه ثم جعل يكدم بيديه من دنى منه من الأعداء ليمسكه فيخبطه بحافره حتى أيس من نهوض الحسين «عليه السلام» رجع إلى الخيمة ملحاً بالصهيل كأنه ينذر العيال ويخبرهم بقتل الحسين «عليه السلام» والحكايات عن الخيل العربية بمثل هذا كثيرة.

وقد شاهد البصريون في القرن الرابع عشر الهجري (بصيراً يرقص) رأوه في السركس الهندي الذي جلب إليهم من الهند وليس من طبيعة البعير الرقص لولا الرياضة والتمرين ولم تكن العرب القديمة على فطرتها وبساطتها وعراقتها في الجهل كما يقال ممن يجهل قبول النفس للثقافة وإن الطباع تتغير بالمصاحبة والأخلاق لها قابلية التهذيب بضروب التعليم والرياضة وقد أكثر من ذلك شعراؤهم، قال بعضهم:

عليك بالنفس فأستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وقال آخر:

لا تنهى عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
فأبدأ بنفسك وأنهاها عن غيرها فإذا أنتهت عنه فأنت حكيم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى كيما يصح به وأنت سقيم

وقال آخر يذكر تأثير النفس بالمصاحبة:

صاحب أخا ثقة تحضى بصحبته فالطبع مكتسب من كل مصحوب

كالريح آخذة مما تمر به نتناً من النتن أو طيباً من الطيب
وقال آخر يصف كيفية التخلق بأخلاق الحمد:
فإن أعجبتك خصال امرء فكنه تكن مثلما يعجبك
وهو كثير في شعر العرب وقد طال بنا المقام.

أخلاق العباس «عليه السلام» وسجايه

وقد تبين أن الأخلاق تكون مكتسبة بالعادات وطبائع قابلة للتهديب فإذا كانت أخلاق الشخص الغريزية كلها صالحة وسجايه كلها فاضلة وصاحب مدة حياته وطيلة عمره أهل الخصال الحميدة والأخلاق المرضية فقد ازداد فضلاً على فضل وكمالاً على كمال.

ولا غرو أن يكون من أكمل البشر طبعاً واكتساباً فالعباس الأكبر ابن أمير المؤمنين «عليهما السلام» جامعة الفضائل وكلية الكمالات بما أن نفسه الهاشمية منطبعة بمكارم الأخلاق والشيم بحسب فطرتها وأصل خلقتها ولا يشركهم في هذه الفضيلة أحد من الناس وقد أوضح لنا هذه الحقيقة سيدنا وإمامنا السجاد زين العابدين علي بن الحسين «عليه السلام» بقوله في خطبته المشهورة في مجلس اللعين يزيد ابن معاوية: «أيها الناس! أعطينا ستاً وفضلنا بسبع الخ» والدلالة عليه أيضاً وجدانية وشاهدها معها إذ لا يوجد في الهاشميين بخيل ولا جبان ولا غبي وإن وجد فالعلة من جهة الأمهات وقد قال معاوية بن أبي سفيان الخصم الألد لبني هاشم: (إذا لم يكن الهاشمي جواداً لم يشبه أصله) وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام»: «نحن أفصح وأسمح وأحمى لما وراء ظهورنا من بني أمية».

فالعباس الشهيد «عليه السلام» من لباب بني هاشم وصميم عبد مناف وقد زاده فضلاً على فضل صحبته لأهل الفضائل وخدمته لسادات أرباب المكارم فقد قضى حياته وأفنى عمره في صحبة أكرم الخلق بعد النبي ﷺ شمائلاً وشيماً وأفضلهم أخلاقاً ومزاياً وأكملهم طباعاً وسجايه، وتزداد المرات بالجلاء صفاء والسيف بالصقالة رونقاً فأمر المؤمنين وهو والده الأكرم وأبوه سيد أرباب الفضائل قد شهد له عدوه الكاشح وخصمه الألد معاوية بن أبي سفيان وقد قال له الثقفي: جئتك من عند الغبي البخيل الجبان علي بن أبي طالب، فقال معاوية: لا تقل هذا فإنه أشجع العرب وأفصح قريش وأجودها، أما والله لو كان له بيتان بيت

من تبر وبيت من تبين لأنفق تبره قبل تبينه، إلى آخر ما ذكره ابن قتيبة في تاريخه الإمامة والسياسة.

والحسن والحسين «عليهما السلام» أخواه خير الإخوة وأفضل الأشقاء وقد شهد لهما رسول الله ﷺ في تشبيههما به وهو ﷺ على خلق عظيم فأكتسب العباس «عليه السلام» بصحبته زيادة على ما في جبلته وفطرته من سجايا الخير وشيم الصلاح ما أمتاز به على عامة أرباب الأخلاق الحميدة والصفات الكريمة. للمؤلف:

أبو الفضل اقتدى في كل فضل بوالده علي ذي المعالي
وبالسبطين من فاقا البرايا جميعاً بالخلائق والفعال
فما مثل الوصي وصي طه ولا السبطين في شرف الخصال
سوى من لا يكون له مثيل نبي الله خيرة ذي الجلال
وفي العباس من كرم السجايا كثير ليس يحصر في مقال
وفاء نجدة زهد وعلم وإيثار وصدق في المقال
عفاف ظاهر حلم وجود وبأس صادق عند النزال
نحن أجملنا الكلام في ذكر محاسن أخلاق العباس بن أمير المؤمنين
«عليهما السلام» فوجب أن نذكرها تفصيلاً لينتفع بذلك القراء.

كرم العباس الأكبر وسخاؤه

الجود من صفات بني هاشم الراسخة

نحن لا نبرهن على إثبات ذلك بأكثر مما خلدته الآثار التاريخية أن هذه القبيلة أعني الهاشمية ليس فيها غير الجواد الذي لا يجارى، الكريم الذي لا يبارى.

قال الثعالبي في ثمار القلوب^(١): كان يقال أربعة كانوا ومحال أن يكونوا: زبيري سخي، ومخزومي متواضع، وهاشمي شحيح، وقرشي محمب آل محمد ﷺ، انتهى.

وقد تحرى علماء المثالب أن يقدحوا في بني هاشم بوجود بخيل يتقربون بثلبه إلى قلوب بني أمية فما وجدوا في قديمهم أحداً بل ولا في حديثهم فرداً

(١) ثمار القلوب: ص ٩١.

يجعلونه موضعاً للثلب حتى قيام الدولة العباسية فأوجدت لهم سانحة الفرصة ذاك الخليفة الجبار أبا جعفر المنصور فعذوه فيهم بخيلاً وزادوا في القدح عليه بأن قالوا: إنه قد تجاوز حد البخل إلى أبغض منه وأمقت وهما الشح والحرص فكان يحاسب على الدانق فأشتق له من هذا الفعل لقب «الدوانيقي» ولعل الدانق ربع الفلس، وأنكر ذلك عليهم المعتصبون له فقالوا: إنه لم يكن بخيلاً ولا الشح من صفته ولم يكن بالحريص المبالغ ولا الشحيح الممقوت فكيف وداره إدارة عظيمة لإدراار الصلات والعطايا على السائلين وهباته موفرة للعلماء كعمرو بن عبيد وأضرابه مما لا ينكر، ومحاسبته على الدانق ليست من باب البخل وإنما هي من باب الحزم واليقظة تحرزاً من الخيانة فإن من تفتن للدانق لا يختان في الألف.

وقد روي عبد الله الجواد بن جعفر الطيار في السوق يماكس في درهم، فقيل له: العجب منك تعطي الألوف وتماكس في الدرهم، فقال: ذاك مالي جُدت به وهذا عقلي لم أجد به، ومعناه أن التغافل عما يحمل عليه جود وعما لا يحمده عليه جهل؛ فالمنصور إلى مثل هذا ينظر.

وأيضاً روي قيس بن سعد بن عبادة وهو أحد الأجواد بالمدينة يلتقط التمر الساقط تحت النخل ويجمعه، فقيل له: أتفعل هذا وأنت تجود بما تجود به؟ فقال قيس: الذود إلى الذود إبل فكما لم ينسب هذان الكريمان إلى البخل بسبب هذين الفعلين فلا ينبغي أن ينسب المنصور بسبب هذا الفعل إلى البخل.

ويشهد لدعوى المعتصبيين النافين عنه البخل ما ذكره أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد^(١) عن أبي العيناء قال: دخل المنصور من باب الذهب فإذا بثلاث قناديل مصطفة فقال: ماهذا، أما واحد من هذا كان كافياً يقتصر من هذا على واحد، قال: فلما أصبح أشرف على الناس وهم يتغدون فرأى الطعام قد خف من بين أيديهم قبل أن يشبعوا، قال: يا غلام! علي بالقهرمان، قال: مالي رأيت الطعام قد خف من بين أيدي الناس قبل أن يشبعوا؟ قال: يا أمير المؤمنين! رأيتك قد قدرت الزيت فقدرت الطعام، قال: فقال: وأنت لا تفرق بين الزيت يحترق في غير ذات وهذا طعام إذا فضل فضل منه وجدت له آكلاً، أبطحوه فبطحوه فضربه سبع درر الخ، لكن الانصاف أن المنصور كان بخيلاً وهذا الفعل متكرر منه وهو المحاسبة على الدانق وأخباره بالبخل تتدفق كالسيل الجارف لا يحول دونه سد منيع وخروج الفرد والفردين لا يستلزم نقصاً.

فإذا أستبان أن هذه القبيلة لا بخيل فيها سوى المنصور فبالقطع يكون العباس ابن أمير المؤمنين «عليهما السلام» من الأجواد وعلى أي قول أعتمدنا على قول القائل أن الأخلاق سجايا وغرائز أو على قول من يقول إنها مكتسبة وموروثة فيهما والكرم سجية وغريزة في قومه وسبيل ذلك واضح فإن سجايا بني هاشم الكرم وكونها مكتسبة وإنها تحصل بطول الصحبة والتمرين فتألف وتعتاد وتقوم العادة مقام الطبع فلا شك إنه «عليه السلام» قد عاشر أكرم الخلق وأجودهم أباه علياً وأخويه الحسن والحسين «عليهم السلام» وإنما لم يشهر شهرة غيره بالكرم لعدم انفصاله عن خدمتهم وخاصة خدمة أخيه الحسين «عليه السلام» حتى في حياة أبيه وأخيه الحسن «عليهما السلام» وأنه كان ملازماً له كالحاجب له كما سيجيء فخفي ذكر كرمه بكرم أخويه الحسن والحسين «عليهما السلام» والشمس تخفي أنوار الكواكب كما قال النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر:

لأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبدو منها كوكب
وبعد هذا كله يدل على كرمه أمور:

(١) إنه جاد بنفسه لأخيه الحسين «عليه السلام» وقد قال أبو تمام الطائي لممدوحه:

وجاد بالنفس إذ ضن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود
وكثيراً ما يجود الجواد بماله وإن كان خطيراً ويبخل بنفسه وقد قال الياضي الشافعي في تفضيل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» على عثمان بن عفان ويذكر أن علياً «عليه السلام» جاد بالنفس وعثمان بالمال:

ليس الذي يبذل الأموال محتسباً في نصرة الدين سمحاً فيه بالمال
كبازل نفسه لله محتسباً في كل هيجا لجند الكفر قتال
كل حميد ولكن ليس جود فتى فالمال كالجود بالروح الزكي الغالي
وقال بعض من رثى أصحاب الحسين «عليه السلام»:

جادوا بأنفسهم عن نفس سيدهم وقد رأوا لبثهم من بعده عارا
وحري بمن يرى اللبث بعد إمامه في الدنيا عاراً وشناراً أن يجود له بنفسه
الغالية ويبذل له روحه العزيزة.

(٢) يدل على سخاء أبي الفضل بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» إثاره للعطاشى من أهله على نفسه كما سنذكره في الإيثار حتى قضى عطشاً وقد مدحت

العرب كعب بن مامة الأيادي واثنت عليه الثناء العظيم لأنه أثر رفيقه بحصته من الماء حتى قضى عطشاً وجعلوه في أعلى مرتبة الجود.

(٣) قضاؤه الحاجات حياً وميتاً كما لقب بهذا السبب قاضي الحاجات وباب الحوائج؛ أما قضاؤه لها في حياته فظاهر من حيث أنه كان منقطعاً لخدمة أخيه الحسين «عليه السلام» ومن قصد الحسين «عليه السلام» فإنما يقصده أولاً لأنه الباب والحاجب فتقضى الحاجات علي يده وقد ظهرت في كربلاء منه آثار مشهورة بقضاء الحاجات مرت في السقاية.

أما قضاؤه الحاجات بعد شهادته إلى اليوم فحدث ولا حرج وسيأتي في الجزء الثالث في فصل كراماته بعض الحكايات وقد مدحه بعض الشعراء بالسخاء وقضاء الحاجات فقال:

لشوس عباس يريهم وجهه	والوفد ينظر باسماء محتاجها
باب الحوائج ما دعت مروة	في حاجة إلا ويقضى حاجها
بأبي أبا الفضل الذي من فضله	السامي تعلمت الوري منهاجها
زج الثرى من عزمه فوق السما	حتى علت في تربة أبراجها
قطعت يداه وطالما من كفه	ديم السماحة أمطرت ثجاجها

ذكر هذه الأبيات صاحب معالي السبطين، وللمؤلف فيه أيضاً:

أبو الفضل ذو كرم باهر	يحيي الوفود وزواره
بطلق المحيا كبدر السماء	وقد حسد البدر أنواره
وما الغيث مثل ندا كفه	على الجذب واصل أمطاره
فما الجود غير قضا حاجة	فسل زائريه وسل جاره
إذا غبت عنه وفات العيان	يبلغك الناس أخباره
بأن أبا الفضل أصل النجاح	وسائل عن الغيث آثاره
وإن رام أنكارها حاسد	فقل قمر رُمت إنكاره
فإن تنسى هذا أتسى السماح	بمهجته للحسين وإيثاره
وذي غاية الجود عند الكرام	فدع عنك كعباً وأخباره
ونؤه بشبل علي الفخار	وردد مدى الدهر تذكاره

وما لقب «عليه السلام» بأبي الفضل إلا لكونه ذا فضل ظاهر حسبما ذكرنا،

ولذا قيل فيه :

أبا الفضل يا من أسس الفضل والإبا أبا الفضل إلا أن تكون له أبا

علم العباس الأكبر «عليه السلام» وفقهه

لا أحسب أن أحداً يشك أو يرتاب في علم العباس الأكبر «عليه السلام» وأنه من الفقهاء العظام والعلماء الأعلام، لا أرتاب في قلبي إن جاحد ذلك مجازف مغامر بل متجاوز طور الأدب الديني معدوم الحياء.

نعم أنا أقول بكل صراحة غير مشكك ولا مرتاب أنه لا أحد أعرف بحقائق الأديان ولا أعلم بنواميس الشريعة الإسلامية وأحكام الدين المقدس من رجل ذهبت حياته في خدمة الأئمة سادات العلماء في أقطار الأرض ومرجعهم في سائر الفنون كأبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأخويه الحسن والحسين «عليهم السلام» حتى أنه «عليه السلام» لم يفارق تلك الأعتاب المقدسة لحظة واحدة ولم يبتعد عن تلك الأبواب المحترمة خطوة، فليله ونهاره ملازم لخدمتهم ملازمة الظل لذي الظل مع حرصهم على تثقيف الأبعاد وتعليم الغرباء فكيف لا يثقفون الأقارب ولا يعلمون الأرحام، ومن المعلوم أن بالملازمة يحصل العلم سماعاً وتعليماً وقد قيل: ولد الفقيه نصف فقيه، والمشائون من الفلاسفة مشوا في ركاب أرسطو كما أن الرواقيين منهم لازموا رواقه فأمتاز الفريقان في فن الفلسفة وشهر الجمعان بالحكمة.

فكيف لا يمتاز العباس الأكبر «عليه السلام» وهو خريج كلية الحقائق وتلميذ أساتذة الحق وجهابذة الملة وفطاحل علماء الشريعة المقدسة، ومن تخرج من تلك المدارس الروحانية العرفانية وجعل في الصف المقدم من صفوف تلك الكليات الراقية فبالحري أن يفوز بالنجاح وأن يحصل له الامتياز على من عدى أساتذته العظماء وأساتذة علماء الأمة قاطبة ومعلمي علماء الإسلام عامة الفنون.

وقد أقام عمر بن الخطاب، علي بن أبي طالب مقام الأستاذ وأقام نفسه مقام التلميذ وهو السلطان والخليفة ورجع إلى قوله رجوع أصاغر الطلاب إلى رأي المعلم الأكبر ورأس المدرسين وقد صرح مراراً عديدة في مقالات شتى تختلف لفظاً وتتفق معنى؛ فمرة يقول: لا عشت لزمان لا أراك فيه يا أبا الحسن، ومرة يقول: أطال الله بقاءك، ومرة يقول: معظلة ولا أبو حسن لها، ومرة يقول: لولا علي لهلك عمر، ومرة يقول: لمن أنكر حكم علي «عليه السلام»: وقعت عليك

عين الله في حرم الله، ومرة يقول: أقضانا علي، هذه المقالات تكررت من الخليفة عمر بن الخطاب.

كما شاع قول عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ: العلماء ثلاثة: عالم بالشام وعالم بالعراق وعالم بالمدينة يعني نفسه وأبا الدرداء وعلياً «عليه السلام» وهو عالم المدينة.

ثم يقول: وعالم الشام والعراق محتاجان إلى عالم المدينة وهو مستغن عنهما.

وكما شاع قول عبد الله بن عباس حبر الأمة: علمي وعلم جميع أصحاب محمد ﷺ في جنب علم علي «عليه السلام» كالقرارة في المثعنجر.

والعباس الأكبر أبوه الأنزع البطين الذي قال فيه ابن الأثير في النهاية: الأنزع من الشرك، البطين من العلم، وقد قال فيه رسول الله ﷺ: أنا مدينة العلم وعلي بابها، وقال هو «عليه السلام» عن نفسه: هذا سبط العلم، هذا لعاب رسول الله ﷺ يعني صدره الشريف، علمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب.

وكيف لا ينخرط في سلك العلماء من هذا أبوه وأخوه الحسن والحسين «عليهم السلام» وإنهما أفاضاً شؤبياً واحداً من علومهما على أخيهما محمد الأكبر بن الحنفية فأصبح من جهابذة العلماء ولم يلازمهما ملازمة العباس وإن لازمها أكثر من غيره عدى العباس الشهيد فإنه أكثر منه ملازمة لهما وأعظم مواضبة فلا شك أنه الوحيد في الفقاهاة والعلم.

ولعل الجاهل بحقائق الأشياء يتطرق التشكيك في أن العباس الأكبر «عليه السلام» لو كان فقيهاً عالماً لاشتهر بذلك شهرة أخيه محمد بن الحنفية وعد في صف علماء الهاشميين وهذه تخيلات وأوهام، لم يشتهر محمد بن الحنفية في حياة أبيه وأخويه الحسن والحسين «عليهم السلام»:

ومن ورد البحر استقل السواقيا

كلا لا ترد الناس السواقي والبحار طامية ولا تحتسي الأوشال والأنهار طافحة فلما جفت تلك الأنهار ونضبت تلك البحار وبقي الجدول جارياً ورده الوارد وأستقى منه الظمئآن؛ فمحمد الأكبر والعباس الأكبر في حياة أبيهما وأخويهما سواء في عدم الشهرة العلمية ولو بقي العباس الأكبر بقاء محمد بن الحنفية لرزق في العلم صيتاً ونال شهرة ولسارت بمعارفه الركبان لكن:

عجل الخسوف عليه قبل أوانه فمحاه قبل مظنة الأبدار
وقد كان أبو الفضل العباس «عليه السلام» معروفاً بالعلم فهذا الحافظ
العسقلاني الشافعي يصرح في كتاب الإصابة فيمن روى عن أمير المؤمنين علي
«عليه السلام» من أعلام الصحابة وأعيان التابعين ثم يقول: ومن بقية التابعين عدد
كثير من أجلهم أولاده محمد بن عمر والعباس الخ، ومحمد هو ابن الحنفية وعمر
هو الأطراف.

على أن العباس «عليه السلام» قد صدرت منه أمور يوم الطف دلت على
وفور علمه كنفذه الماء من يده تأسيساً بالإمام الحسين «عليه السلام» وإيثاره له كما
سنذكره في الإيثار والمواسات وهذه مسألة فقهية وهي أن الإيثار راجح شرعاً
لورود الأدلة السمعية من الآيات والروايات وما دلت عليه الأدلة السمعية فهو
راجح شرعاً فهذه من مسائل الفقه وما صدرت منه تلك الفعلة الحميدة على جهة
الفطرة والبداهة بل على جهة الاختيار للمحبوب المطلوب شرعاً.

وكقوله «عليه السلام» في خطباته الموجهة تجاه أخيه الحسين «عليه السلام»
كما يجيء في آدابه نحو قوله: «سيدي يا بن رسول الله ﷺ»، ولم يخاطبه بأخي
لعلمه أن مرتبة الإمامة فوق كل مرتبة ومهما كان الأخ فلا ينبغي أن ينزل نفسه
للإمام إلا منزلة العبد فيخاطبه خطاب المملوك للمولى بسيدي، والمخاطبة بالأخوة
دليل المكافأة ولا يكافئ الإمامة شيء كالنبوة وهذا من الفقه في الدين والأدب
الراقي وتفخيم ذي الشأن مستحب شرعاً ومطلوب عقلاً.

قال أبو حاتم السجستاني في كتاب المعمرين^(١): قال معاوية: إني لأحب
أن ألقى رجلاً قد أتت عليه سن وقد رأى الناس يخبرنا عما رأى، فقال بعض
جلسائه: ذاك رجل بحضر موت، فأرسل إليه فأتى به، فقال له: ما أسمك؟ قال:
آمد، قال: ابن من؟ قال: ابن آبد، فقال: ما أتى عليك من السن؟ قال: ٣٦٠
سنة، قال: كذبت ثم تشاغل عنه ثم أقبل عليه فقال: ما أسمك؟ قال: آمد، قال:
ابن من؟ قال: ابن آبد، قال: كم أتى عليك من السن؟ قال: ٣٦٠ سنة، قال:
فأخبرنا عما رأيت من الأزمان أين زماننا هذا من ذاك؟ فقال: كيف تسأل من
تكذب؟! قال: ما كذبتك ولكن أحبيت أن أعلم كيف عقلك.

قال: يوم شبیه بیوم، وليلة شبیهة بليلة، يموت ميت ويولد مولود فلولا من

(١) كتاب المعمرين: ص ٧٩.

يموت لم تسعهم الأرض، ولولا من يولد لم يبق أحد على وجه الأرض.

قال: فأخبرني هل رأيت هاشماً؟

قال: نعم رأيت طوالاً حسن الوجه يقال إن في عينيه برلة أو غرة بركة.

قال: فهل رأيت أُمّية؟

قال: نعم رأيت رجلاً قصيراً أعمى يقال إن في وجهه لشرأ أو شؤماً.

قال: فهل رأيت محمداً؟

قال: ومن محمد؟ قال: رسول الله.

قال: ويحك هلا فحمت كما فخمه الله فقلت رسول الله، الخ.

وليس أبو الفضل «عليه السلام» ممن يجهل واجب تفخيم الإمام عقلاً وأحترامه تديناً. للمؤلف:

ألا إن عباس بن حيدر عالم بواجب دين الله والراجح الشرعي يعظم أرباب الإمامة موفياً لهم حقهم في الأصل للحق والفرع وكقوله «عليه السلام» لأخوته الأشقاء الذين هم من أمه أم البنين: تقدموا يا بني أُمّي لأحتسبكم فإنه لا ولد لكم، وهذا القول منه «عليه السلام» مشهور رواه عامة أرباب المقاتل واختلفوا في ضبط العبارة، فالطبري المؤرخ هذا لفظه في تاريخه^(١) قال: وزعموا أن العباس بن علي قال لإخوته من أبيه وأمه عبد الله وجعفر وعثمان: يا بني أُمّي! تقدموا حتى أرثكم فإنه لا ولد لكم ففعلوا فقتلوا إلخ.

وهذا في ظني تصحيف والأصل حتى أراكم فصحفه الراوي بإرثكم.

وأما أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري فلفظه في الأخبار الطوال^(٢): ولما رأى ذلك العباس قال لإخوته عبد الله وجعفر وعثمان بني علي «عليه وعليهم السلام» وأُمهم جميعاً أم البنين العامرية الوحيدة: تقدموا بنفسي أنتم فحاموا عن سيدكم حتى تموتوا دونه فتقدموا جميعاً فضاربوا أمام الحسين «عليه السلام» بوجوههم ونحورهم إلخ.

وأما أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني فلفظه في مقاتل الطالبين عن الضحاك المشرقي قال: قال العباس ابن علي لأخيه من أبيه وأمه عبد الله بن علي: تقدم بين يدي حتى أراك وأحتسبك فإنه لا ولد لك فتقدم بين يديه الخ، ومثله ذكر في أخويه عثمان وجعفر.

وأما الشيخ المفيد أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان فلفظه في كتاب الإرشاد: فلما رأى العباس بن علي «عليهما السلام» كثرة القتلى في أهله قال لإخوته من أمه وهم عبد الله وجعفر وعثمان: يا بني أُمي! تقدموا أمامي حتى أراكم قد نصحتكم لله ولرسوله فإنه لا ولد لكم الخ، وهذا بعينه لفظ الشيخ المحقق جعفر بن نما الحلبي في مثير الأحزان.

وينتج من جميع هذه الأقوال ثلاثة أمور كلها تدل على فقاوته وعلمه:

الأول: قوله: «تقدموا لأراكم قد نصحتكم لله ولرسوله» الخ، جهة الفقاوة في هذا إنه «عليه السلام» قد علم أن أفضل الجهاد ما كان بالنفس والنفيس، أما نفسه فعازم على بذلها لأخيه الحسين «عليه السلام» وهو واثق بذلك من نفسه، وأما النفيس وليس لديه هناك أنف من إخوته الأشقاء فأحب أن يقدمهم ويكون قد بذل في الجهاد نفسه ونفسه ولا شك بتضاعف الأجر على ذلك وحسبك بقصة الخنساء وحثها أولادها الأربعة على الجهاد يوم القادسية فقتلوا جميعاً، وأطلب قصتهم من التاريخ وأرجازهم تشهد لما نقول، ويتفرع على مسألة تقديم العباس «عليه السلام» لإخوته من الفروع الفقهية ما خفي على كثير من مهرة الفن وأساتذة الصنعة مثل مسألة الشكر على النعمة.

والعباس «عليه السلام» يرى من أتم نعم الله عليه وأفضلها عنده الشهادة في سبيله ومن إتمامها أن يرزقها الله تعالى لإخوته الذين هم أعز ما لديه من حاضري إخوته بعد الحسين «عليه السلام» فإذا تفضل الله عليهم بالشهادة ورزقهم إياها فقد أسعدهم وأنالهم كرامته فوجب عليه الشكر الذي يجب عقلاً وشرعاً عند تجدد كل نعمة إذ شكر المنعم واجب بالإدلة العقلية والنقلية.

الثاني: الاحتساب فقوله «عليه السلام» «تقدموا لأحتسبكم» وفي هذا الاحتساب يتضاعف الأجر لعلمه أنه إذا توالى الفوادم وتواترت المصائب وصبر عليها الصابر محتسباً فقد تضاعف أجره عند الله ولا إشكال أنه إذا شاهد مصارع إخوته الأشقاء واحداً بعد واحد فقد تضاعف له العناء والأسف ولو أنهم قتلوا قتلة واحدة كان لها حكم المصيبة الواحدة ولكن المصائب تتعدد بقتل الواحدة تلوا الواحدة فتتضاعف لذلك الأحزان، ومن فروع هذه المسألة الفقهية مسألة الصبر فإن الذي يبتلى بفقد الأعزاء وأنفس الأشياء وأغلاها عنده ثم يصبر ويحتسب يكون له الأجر المضاعف ويجزيه الله تعالى أفضل جزاء الصابرين وقد حصل لأبي الفضل العباس «عليه السلام» في هذه القتلة ثلاثة أشياء توجب الكرامة ومزيد الحباء عند

الله تعالى: الشهادة والشكر والصبر، وهذا من عجيب الفقه الذي يتحراه الفقيه العليم في مثل ذلك الموقف الحرج والمقام الصعب ذي الأهوال والتهاول الذي طارت منه الأذهان وأندهشت فيه الفكر وحارت الألباب.

الثالث: المسألة الفرضية الميراثية وهي المشهورة عند الفقهاء وهذه مسألة فقهية مقترنة بفكر ثاقب يجري مجرى الإعجاز في التكهن بالحوادث المستقبلية وذلك أن فقه هذه المسألة على مذهب أهل البيت «عليهم السلام» والعباس «عليه السلام» منهم أن الأم هي الوارثة لبنيتها المفقودين والأخ منها أو من غيرها محجوب عن الميراث بها ولا يرثون مع الام إلا بشروط اعتبرها الفقهاء وإن فقدت الأم فأبن الأخ الشقيق يحجب الأخ لأحد الأبوين هذا مذهب العباس وأهل بيته، فهو «عليه السلام» يعرفه ويعلمه وعند القضاة من أهل السنة أهل التعصيب أن الأخ يحجب الأم هكذا كانت الحال في الدور الأموي طيلة حكومتها الجائرة فنظر العباس «عليه السلام» وأصاب بفكرته الثاقبة أن الأمر في ميراث إخوته إن قتلوا بعده سينزع من يد أمه قهراً ولا ينظر إلى مذهب أهل البيت «عليهم السلام» وإنما يؤخذ بفتوى قضاة العامة فرأى من الحزم أن يقدم إخوته أمامه فيقتلوا فإذا قتلوا ورثهم هو لأنه الأكبر وأولى من عمر الأطراف لتقربه إليهم بالأبوين فإذا حاز ميراثهم حياً ورثه ابنه عبيد الله بعد قتله فتضعف حجة المخاصم لابنه عبد الله حتى على مذهب فقهاء السنة.

وقد وقع الأمر على مقتضى حدس العباس «عليه السلام» فإن عمر الأطراف نازع عبيد الله ابن العباس إلى قضاة العامة وأعانتهم السلطة الأموية الجبارة ثم صولح على شيء يسير رضا به وهذا جور في الحقيقة وتحامل لم يعضده مذهب من جميع فرق المسلمين؛ أما على مذهب أهل البيت «عليهم السلام» فواضح أن الميراث للأم البنين، وعلى مذهب السنة أيضاً لا يجوز أن يعطى لعمر الأطراف شيء ومحمد بن الحنفية أكبر منه وهو حي وعبيد الله بن النهشلية حي أيضاً ونسبتهما إلى ولد علي «عليه السلام» كنسبة عمر الأطراف ولكن تلك العصور مات فيها الحق والعدل وأحيي الجور والعدوان وقد عرفت صحة فحاشية العباس «عليه السلام» في النزاع على ميراث الأخوة الشهداء.

وقد رأى بعض من يدعي الفقاهاة وهو بعيد عنها كذب القضية لأنه يزعم أن قدر العباس الأكبر «عليه السلام» أجل من أن يلحظ أمر الدنيا فيطلب من إخوته الميراث وأنكر أن يكون قال ذلك وقال: إنما قال: أحسبكم فقط وغفل في ذلك

غفلة عظيمة من حيث ظن أن كلما تعلق بأُمور الدنيا بعيد عن طلبه الصلحاء الأخيار وأهل الفضل من الأتقياء البررة فليس لهم غرض بكل شئونها ومطالبها . ولم يدري المغفل أن بعض الأُمور الدنيوية هي أُمور أُخروية لأن بر الصلحاء وأهل الفضل والديانة من أفضل الطاعات وأجل القربات وهي إنما تقع بالأُموال فتكون المسألة دنيوية دينية ، ألم يدري هذا المغفل أن رسول الله ﷺ وهو سيد الأتقياء وقدوة الصلحاء ومن لا تسوى عنده الدنيا ذرة من الذر كيف أهتم في أمر فدك وبقية أملاكه في وادي القرى وغيره حتى جعلها طعمة لأبنته فاطمة الزهراء «عليها السلام» ولم يترك ذلك سائراً على ما يقتضيه حق الوراثة الشرعية لعلمه ﷺ أنها ستدفع عن الميراث وتمنع منه فأحتاط لها بإعطائها ذلك نحلة وجعله لها طعمة لكي تنقطع عنه أطماع الطامعين ويتوفر على أبنته الكريمة حقها ولا تكون عالة على أحد من الناس ومع ذلك فقد حدث ما حدث .

وهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» أزهد أهل الدنيا قاطبة بعد رسول الله ﷺ وأبعدهم من حطام الدنيا وهو الذي كان يكنس بيوت الأُموال ويصلي فيها ويختم على جراب قوته لئلا ينخل وقد أنتهت إليه عامة طرق الزهاد وأخباره متواترة في العزوف عن الدنيا حتى طلقها ثلاثاً وقد أهتم في أمر البغيغة وعين أبي نيزر حتى جعلهما وقفا لنوائب الحسن والحسين «عليهما السلام» دون سائر بنيه هذه سنة الصلحاء وسيرة النقباء .

فأبو الفضل العباس «عليه السلام» أعلم من هذا الغبي المتمحل والمغفل المتكلف لما لا يعلم فإنه «عليه السلام» قد سار سيرتهما وأقتفى أثرهما فأهتم بأمر ولده الطفل وأحتاط في مدافعة خصمه وهو عمه الشحيح الطامع بغير حق حتى أنه ترك مذهب أبيه أمير المؤمنين «عليه السلام» فسعى في حرمان ورثة أخيه الطفل الصغير والمرأة الضعيفة التي بقيت بلا كاسب أعتداء منه عليهما وبغيا بعله أنه الأبن وإنه العم ويتعصب له الأمويون أهل الجور والعدوان في حرمان ذرية من حاربهم وقام بالسيف عليهم حتى أصبح ورثة العباس «عليه السلام» عالة يتكففون .

فأحتاط العباس «عليه السلام» لهم بهذا ولولا ما فعله «عليه السلام» ما قبل عمر بن علي المصالحة على اليسير ويترك ما تشبث به في الحكم الجائر وليس هذا مما ينافي بالإخلاص أو يخل بالتقوى والورع حتى لا ينبغي أن ينسب إليه فقد كان الزهاد والأتقياء يعملون في مصالح صالحي الورثة بأن يوصوا لهم بحصة معينة من أموالهم لتقويتهم على طاعة الله تعالى فنعم العون على طاعة الله المال وقد عرفت

ما صنعه أمير المؤمنين «عليه السلام» في تخصيص الحسن والحسين «عليهما السلام» وقد نقلها علماء الفريقين الشيعة والسنة ولولا الإطالة لأوردناها ولعل الكثير من القراء له إلمام بها وأطلاع.

وإذا كانت هذه سيرة رسول الله ﷺ وسيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» وبقية الأتقياء وأرباب الديانة فأى غضاضة في هذا الأمر الذي أراده العباس «عليه السلام» والحق يشهد أنه «عليه السلام» قصد السنن الثلاثة المؤكدة في الشريعة الإسلامية وهي الشكر والصبر وصلة الأرحام لقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾^(١) وقد جاء في المثل ولد الفقيه نصف فقيه، وأنا أقول: الفقه كله مجتمع عنده ومنسوب إليه لأنه ابن أعلم الناس وأخواه هما أعلم الناس وأفقههم.

للمؤلف فيه:

جئني بمثل أبيه كنز علومها هيهات يوجد أو فتى كأخيه
إن الفتى كأبيه في أخلاقه قد قيل إن الأبى سر أبيه
فهذا علم العباس «عليه السلام» بالعلوم النقلية ويأتي بعضها في فصاحته.

علم العباس «عليه السلام» بالعرفانيات:

أما علمه بعلم المعقول فله يد في العرفانيات وقد دلنا منظومه على قدرته العرفانية ومنزلته في علم المعقول وقد تحقق لدينا أن مرتبته في هذا الفن هي المرتبة الراقية والمنزلة السامية وذلك حيث يقول:

فليس هذا من فعال ديني ولا فعال صادق اليقين

وهذا القول منه يدل دلالة قوية على كونه من علماء الفلسفة الماهرين وأساطين الحكمة القديرين لأن مراتب المعرفة بوجود الحق باري الخلق والسلوك إلى رب الأرباب له خمسة مراتب مترتبة طوياً حسبما رتبها سيد المتألهين وإمام الحكماء الموحدين أبوه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» وهي:

(١) اليقين.

(٢) علم اليقين.

(٣) عين اليقين.

(٤) حق اليقين وهو صدق اليقين.

(٥) الوصول، وهذه المرتبة الخامسة كما سنذكر قوله «عليه السلام» لا يصل إليها خلق سوى محمد ﷺ وأهل العزم وأوصياء محمد ﷺ فقد تكون لبعض العارفين الرتبة الأولى وهي اليقين ثم لا يتجاوزها، وقد تحصل لبعضهم الرتبة الثانية وهي علم اليقين ثم لا يعدوها، وقد تحصل لبعضهم الرتبة الثالثة وهي عين اليقين، وقد تتكامل في بعضهم المعرفة فيصل إلى الدرجة الرابعة، وهي حق اليقين أو صدق اليقين وهذا قليل، والأوحد الماهر من وصلها وقد أنتهت معرفة أبي الفضل العباس «عليه السلام» لصفاء نفسه وإضاءة أنوار عقله إليها، ومن جهة تحصيله العلمي من وجهتي النظر والتفكير وتقليداً لأئمة الهدى الذين لهم كمال المعرفة والعلم بما وراء الحقيقة كأنهم قد عاينوا معاينة وشاهدوا مشاهدة.

وأولئك هم أبوه سيد العارفين بعد رسول الله ﷺ وأخواه الحسن والحسين «عليهما السلام»، وحق اليقين هو صدق اليقين فإن من لم يصب حق اليقين فليس بصادق اليقين فمن صفت نفسه الشفافة وأستضاء بأنوار عقله الهادي المدرك للمحجبة وأستند في إشاراته إلى مكاشفات المكاشفين من أئمة الدين الذين عصموا من الزلل وأختصوا بوحى الله تعالى وإيحائه ومنحهم خاصة فضيلة الإلهام وفطرهم على إصابة الحقائق لما ركب فيهم من قوة الحدس فلا شك في وصول تابعهم والمقتدي لهم إلى درجة صدق اليقين.

توضيح درجات اليقين

وحيث أن هذه الدرجات الخمسة مغلقة على غير الأفذاذ من العلماء والنوادر من الحكماء لزمنا إيراد شرحها على اختصار لتشارك عامة طبقات القراء في معرفتها.

قال العلامة الحلي «رحمة الله عليه» في رسالة شرح فيها كلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» الخمس العجيبة ونصه في الرسالة المطبوعة ملحقة بالرضاعيات^(١): إعلم أن لليقين مراتب:

أولاً: اليقين المجرد بواسطة التقليد المحض والتصديق بقول النبي ﷺ بحيث لا يدخل الشك والوهم والظن فيه.

ثانياً: اليقين الذي حصل بعد التقليد بواسطة العلم من جهة البرهان العقلي.

(١) رسالة العلامة الحلي في شرح كلمات أمير المؤمنين عليه السلام الملحقة بالرضاعيات: ص ١٦٣.

ثالثاً: اليقين الذي حصل بواسطة المشاهدة.

رابعاً: اليقين الذي يحصل بواسطة القرب.

خامساً: اليقين الذي حصل بواسطة الوصول وهذه اليقينيّات الثلاثة حاصلة للسالكين دون غيرهم وأنا أضرب لك مثلاً تتفطن به مراتب اليقين وهو أن دهقاناً عارفاً بأسرار الدهقنة إذ أخبر أحداً لم ير في عمره الشجرة والثمرة بأن وضع في موضع كذا شجرة يخرج منها زهر يحول ثمرة إذا أكلتها وجدت ذوقها فيسأل المخبر إلى ذلك الموضع وشاهد الشجرة ثم الثمرة ثم أكل من الثمرة ووجد ذوقها وحصل له كمال اليقين بأن الدهقان كان صادق القول إلخ.

ثم شرع (رحمه الله) بعد كلام في ذكر الكلمات الخمسة وشرحها فقال^(١):
أما بعد، فقد التمس مني أخ في الدين أن أكتب رسالة موجزة في شرح كلام سيد الوصيين وإمام العارفين علي بن أبي طالب «عليه السلام» حين سأله كميل بن زياد النخعي (قدس سره) عن الحقيقة، فقال صلوات الله عليه: مالك والحقيقة؟

قال كميل: أولست صاحب شرك؟

قال: بلى ولكن يرش عليك ما يطفح مني.

فقال كميل: أو مثلك يخيب سائلاً؟

فقال «عليه السلام»: الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة.

قال كميل: زدني.

فقال «عليه السلام»: محو الموهوم مع صحو المعلوم.

قال: زدني.

فقال «عليه السلام»: هتك الستر عند غلبة السر.

قال زدني.

قال «عليه السلام»: جذب الأحذية بصفة التوحيد.

فقال: زدني بياناً.

قال «عليه السلام»: نور يشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التوحيد

آثاره.

قال: زدني.

(١) رسالة العلامة الحلي في شرح كلمات أمير المؤمنين عليه السلام المحلقة بالرضاعيات: ص ١٦٥.

فقال «عليه السلام»: أطفئ السراج فإن الصبح قد طلع.

ثم قال (رحمه الله) في تفسيرها: لا يمكن الجواب في كشف الحقيقة إلا من آثارها على طريق الرمز والإشارة كما قال «عليه السلام» «الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة» وذلك لأن الله تعالى محجوب بصفاته، وصفاته الجلالية تتعلق بذاته، وصفاته الجمالية تتعلق بأفعاله؛ فالسالك الطالب للحق إذا سلك المفاوز الجسمانية وعبر من الروحانية وصل إلى صفات الجمال ثم إلى صفات الجلال فإذا تجاوزهما تجلى له الحقيقة.

وقوله: «من غير إشارة» إشارة إلى أن الله تعالى منزّه عن أن يكون مشاراً إليه أو يكون له حدّ أو نهاية لأن هذه الصفات من صفات المحدثات.

إلى أن قال كميل: «زدني» وهو في عين السلوك يريد الوصول الذي هو نهاية مراتب السالكين، فأجاب «عليه السلام» بما أجاب وهو إشارة إلى مرتبة اليقين المجرد ولم يقنع كميل بذلك والتمس مرتبة علم اليقين فأجاب عنه ثانياً بقوله «محو الموهوم مع صحو المعلوم» لأن الحقيقة إذا كشفت من صفات الجلال التي يتعلق بالذات وأدرك أثره السالك أنمحي وهمه وزال عنه شكه وظنه وشاهد آثار الحقيقة بنور علم اليقين.

ولم يقنع كميل بعلم اليقين والتمس منه مرتبة عين اليقين فأجاب بأنها «هتك الستر عند غلبة السر» وذلك لأن الإنسان إذا محى مظنوناته وهمه عند أنكشاف سبحات الجلال عن الحقيقة فيصبحوا المعلوم ويعلم بعد علم اليقين علامات الحقيقة ويسكر السالك من شراب الوجد.

إلى أن قال: ثم لم يقنع كميل بمرتبة عين اليقين والتمس مرتبة حق اليقين فأجاب «عليه السلام» «جذب الأحدية بصفة التوحيد» معناه أن من هتك ستره من غلبة السرور وسكر من شراب الوجد الحقيقي ثم نفس من سكره ويجلس على سرير الصحو ويلعلم أن ليس في الوجود إلا الله وينفي الاثنينية بالكلية تمكن من التوحيد الحقيقي وهو أن لا يرى في الوجود إلا الله الواحد الحق مع وجود كثرة المكونات ويعلم أن الآثار مظاهر أفعاله، والأفعال مظاهر صفاته، وصفاته ثابتات لذاته، وهذه مرتبة عليّة في علم التوحيد.

ثم لم يقنع كميل بمرتبة حق اليقين والتمس حقيقة حق اليقين فأجاب «بنور يشرق من صبح الأزل» يعني من ينفي الاثنينية ويتمكن من التوحيد الحقيقي ولم ير في الوجود سوى الله المعبود تجلى الحق عليه بصفاته الذاتية فعند ذلك يصير عبداً

ربانياً وهو وإن كان بين الخلق يكون مع الحق والحق معه فالبحق يسمع وبه يبصر وبه ينطق وبه يبطلش كما ورد في الحديث الرباني «لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوفل حتى أحبيته فإذا أحبيته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً فبي يسمع وببي يبصر وببي ينطق وببي يمشي».

وقوله «عليه السلام» «نور يشرب من صبح الأزل فتلوح على هياكل التوحيد آثاره» عن السلاك الواصلين إلى الحق المشرفين بتجلي الصفات الذاتية ولفظ آثاره إشارة أن لا يكون تجلى بالحقيقة على الدوام بل تكون آثاره متجلية.

ثم جاوز كميل هذه المعرفة وكاد يشرع في مقام لو ثار إليه طائر لأحترق جناحه ولما سأل الزيادة عن هذه المرتبة التي هي مرتبة الوصول أجاب عنه «عليه السلام» «اطف السراج فإن الصبح قد طلع» ومنع عن هذا وأعلمه أن هذه المرتبة آخر مراتب الكمال وليس وراء عبادان قرية وهي مرتبة الوصول ولهذه المرتبة بداية ووسط ونهاية؛ فالنهاية لمحمد ﷺ والوسط لعلي «عليه السلام» والبداية لمريديه ومتبعي آثاره على وجه الشريعة والطريقة حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة نيابة، فالمرید يأخذ المعارف والحقائق عن الولي والولي يأخذ من النبي ﷺ ولذا كانوا خير الأمم وتمنى جميع الأنبياء أن يكونوا منهم لأنهم عاينوا بنور النبوة أنه يكون لأمة محمد ﷺ هذه المرتبة وقال ﷺ علماء أمتي كأنبیاء بني إسرائيل وهم العاملون بأحكام الشريعة ودقائقها، إنتهى ملخصاً.

وجعل عبد الله الأنصاري الصوفي الحنبلي في منازل السائرين درجات اليقين ثلاثة:

(١) علم اليقين.

(٢) عين اليقين.

(٣) حق اليقين، راجعه مع شرحه^(١)، وأهمّل اليقين الذي هو أول الدرجات لأنه أكتفى بتقسيمه إلى ثلاث والخارج عنها هو اليقين المجرد ولم يذكر الدرجة الخامسة التي هي الوصول لأنه بصدد بيان صفات السائرين والسالكين وهذا أقصى ما يصلون إليه؛ فالوصول إلى الدرجة الخامسة يختص بالأنبياء والأوصياء فوافق تقسيم العلامة.

وقد أستبان أن أبا الفضل العباس «عليه السلام» في أرقى درجة اليقين

العرفاني التي لا يمكن أن يتجاوزها إلا من كان معصوماً بالعصمة الإلهية التي هي حقيقة النبوة والإمامة فيصدق قوله «عليه السلام»:

فليس هذا من فعال ديني ولا فعال صادق اليقين

بالإقبال بكليته على مواجهة رب الأرباب والمجاورة له في دار البقاء والتخلي عن هذه الدار الفانية ذات الأكدار والشواغل الكثيرة الموجبة لحجب المريد عن مواصلة المراد والحائل بينه وبين التجليات الحقيقية، فإذا قطع هذه العلائق الدنيوية فهو صادق اليقين في الشوق المستغرق به من عشق الذات التي جلت عن مثل هذه الإطلاقات ودنى منها بإخلاص التوحيد دنو الواجد المتفاني في محبة مراده الأعظم وليست علوم أهل البيت «عليهم السلام» بمكتسبة ومحصلة بدراسة المصنفات وقراءة المؤلفات وإنما هي منح ربانية وإضافات إلهية يفيضها عليهم واهب العقول وصاحب المواهب العالية منذ عهد الطفولية.

ومن تبحر في معاني تلك الأذواق العجيبة تحير وأذهله الأمر عن التفكير، فهذا أبو الفضل العباس «عليه السلام» يحدثنا عنه أخطب خوارزم الحنفي في مقتله بما لفظه: قيل: كان العباس «عليه السلام» الذي يسمى السقاء يوم كربلاء وزينب ولدا علي «عليهما السلام» صغيرين وكانا عند أبيهما العباس «عليه السلام» عن يمينه وزينب عن شماله، فألتفت إلى العباس «عليه السلام» وقال: قل واحد، فقالها، فقال: قل اثنين، فقال: إني أستحي أن أقول اثنين باللسان الذي قلت به واحد، فقبل بين عينيه وألتفت إلى زينب فقالت له زينب: يا أبتاه! أتحننا؟ قال: نعم أولادنا أكبادنا، فقالت: يا أبتاه حبان لا يجتمعان في قلب مؤمن حب الله وحب الأولاد فإن كان لا بد فالشفقة لنا والحب لله خالصاً، فأزداد لهما حباً وقيل: بل القائل الحسين «عليه السلام» الخ.

وتعجب كيف أدرك وهو طفل أن الواحد لا يشنى لأن التثنية شرك والوحدانية إخلاص وهذه مسألة غامضة عويصة زل فيها الكبار من العقلاء المفكرين وأبو الفضل في سن الطفولية يدرك بفطنته أن الواحد قائم بذاته لا يشنى وإذا كانت هذه قدرته الحكيمة وهو طفل فطيم فكيف لا يدرك بفطنته وهو في سن الرشد والاكتمال درجة صدق اليقين العرفانية التي أعيت معرفتها على جماعة من علماء الناس.

للمؤلف:

الله قد منح العباس مقدرة وفطنة زل عنها فكر سقراط

أصاب وهو صبي في تفكره وكم حكيم كبير فكره خاطي

فصاحة العباس الأكبر «عليه السلام»

لا خفاء أن قريش أفصح العرب وبلغتهم نزل القرآن، وأفصح قريش هم بني هاشم، وأفصح من بني هاشم رسول الله ﷺ وبعده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» وسيدة النساء فاطمة الزهراء والحسن والحسين «عليهم السلام»، ولا ريب أن من الفصحاء الخطباء محمد بن الحنفية وعبد الله بن العباس وابن الطيار ومن نسائهم زينب الحوراء وأم كلثوم بنتا أمير المؤمنين «عليه السلام» وفاطمة وسكينة بنتا الحسين «عليه السلام» وتعداد الفصحاء من هذه القبيلة تطويل وشهرتها تغني عن إيراد الحجج.

والعباس الأكبر فرع من تلك الشجرة اليانعة المثمرة، وغصن من تلك الدوحة الباسقة التي تفيأت بظلها طوائف الإسلام.

أما فصاحة قريش مضافاً إلى شهادة القرآن بفصاحتهم من حيث نزوله بلغتهم ولسانهم وقد شهدت لهم العرب بالفصاحة وأقرت لهم بالبلاغة.

قال الجاحظ في البيان والتبيين^(١): قال معاوية يوماً: من أفصح الناس؟ فقال قائل: قوم أرتفعوا عن لخلخانية الفرات وتيامنوا عن كشكشة تميم، وتياسروا عن كسكسة بكر، ليست لهم غمغمة قضاة، ولا طمطممانية حمير، قال: ومن هم؟ قال: قريش، قال: وممن أنت؟ قال: من جرهم، إنتهى.

وللحافظ جلال السيوطي من المزهري في فصاحة النبي ﷺ وقريش فصلاً فراجع^(٢).

إذ ليس قصدنا استيفاء القصص التي تبرهن على فصاحة القرشيين فقد جعلهم العرب حكماء، ومن شهد له قريش من الشعراء تقدم وما سميت المعلقات إلا لتعليقها على كعبتهم.

وأما رسول الله ﷺ فقد صح قوله: أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش وأسترضعت في بني سعد، وقد عرفت أن قريشاً أفصح العرب ويتلوهم في الفصاحة هوازن، وأفصح هوازن سعد بن بكر بن هوازن.

وأما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» وليس الغرض أن نعرفه

للناس بالفصاحة فإنه هو الذي عرف الناس نفسه وشهد له الأعداء والخصماء الألداء، فهذا معاوية بن أبي سفيان وهو الذي يجهد على إسقاطه بكل ما وجد إليه سبيلاً حتى فرض لعنه على المنابر ما أستطاع إنكار فصاحته وجوده وشجاعته.

روى ابن قتيبة أحد أئمة الحديث من أهل السنة في تاريخه المعروف بالإمامة والسياسة^(١) قال: ذكروا أن عبد الله بن أبي محجن الثقفي قدم على معاوية وقال له: يا أمير المؤمنين! جئتك من عند العبي الجبان البخيل ابن أبي طالب.

فقال معاوية: لله أنت! أتدري ما قلت؟ أما قولك العبي فوالله لو أن ألسن الناس جعلت لساناً واحداً لكفاها لسان علي، وأما قولك إنه جبان فشكلك أمك هل رأيت أحداً قط بارزه إلا قتله، وأما قولك بخيل فلو كان له بيتان أحدهما من تبر والآخر من تبين لأنفذ تبره قبل تبينه إلخ.

وإيراد الحجج لهذا الغرض تطويل لكنا نقول: هل سمعت برجل قبله أو بعده أن حفظ كلامه يجعل من حفظه في الدرجة العليا من الفصاحة ولو كان أعجمي اللسان لم نعرف ذلك لغيره فإن كلامه حفظه رجلاً أعجمياً فأصبحا من أشهر كتاب الدنيا يضرب ببلاغتهما الأمثال لحد اليوم وهما عبد الحميد الكاتب - كاتب مروان الحمار - آخر ملوك بني أمية في المشرق، وابن المقفع صاحب رسائل البلاغة كاتب آل سليمان بن علي من بني العباس وهو صديق عبد الحميد الكاتب.

أما عبد الحميد فذكر الجهشيارى في كتاب الوزراء^(٢) ما لفظه: قيل لعبد الحميد ابن يحيى: ما الذي مكنك من البلاغة وخرجك فيها؟ قال: حفظ كلام الأصلح - يعني علي بن أبي طالب «عليه السلام» -، إنتهى، وذكره غيره.

وأما ابن المقفع فقال السندوبي في تعليقه البيان والتبيين^(٣): والظاهر أنه تخرج في البلاغة على خطب الإمام علي «عليه السلام» ولذا كان يقول: شربت من الخطب ريثاً ولم أضبط لها رويّاً ففاضت ثم فاضت فلا هي نظاماً ولا غيرها كلاماً، إلخ.

وقد أعترف معاوية بن أبي سفيان للحسن بن علي «عليهما السلام» بالفصاحة وقد طلب منه أن يخطب أهل الشام بمشورة ابن العاص وقصد إسقاطه ولما نزل قال معاوية لعمرؤ: والله ما قصدت إلا هتكى، ما كان أهل الشام يرون أن أحداً

(٢) كتاب الوزراء: ص ٥٤.

(١) الإمامة والسياسة ٩٧/١.

(٣) تعليقه البيان والتبيين ١٠٩/١.

مثلي حتى سمعوا من الحسن ما سمعوا .

أما الحسين بن علي «عليه السلام» فقد تقدم في الجزء الأول فصاحته فراجع .

وعلى كل حال ففصاحة بني هاشم لا يستريب بها كل ذي معرفة بأساليب الكلام وفنونه ولا يشك فيها أرباب التمييز للكلام الفصيح .

أما أبو الفضل العباس «عليه السلام» فمعروف بفصاحة اللسان، قال الفاضل الدربندي في الأسرار^(١) : قد ذكر أن بعض الأبطال تهدده وكان جريئاً ذا سطوة مرهوبة، وإن العباس «عليه السلام» لم يكثر بموقفه فأجابه قائلاً له بثبات ورباطة جأش : إني أرى كلامك كالسراب الذي يلوح فإذا قصد صار أرضاً بواراً والذي أملت أن أستسلم لك فذاك بعيد الحصول صعب الوصول، وإني يا عدو الله ورسوله معود للقاء الأبطال والصبر على النزال ومكافحة الفرسان وبالله المستعان، ومن كملت هذه الصفات فيه فليس يخاف من برز إليه، ويلك أليس لي اتصال برسول الله ﷺ؟! أنا غصن متصل لشجرتة، وزهرة من نور ثمرته، ومن كان من هذه الشجرة فلا يدخل تحت الذمام، ولا يخاف ضرب الحسام، وأنا بن علي لا أعجز عن مبارزة الأقران، وما أشركت لمحة بصر، ولا خالفت رسول الله ﷺ فيما أمر، وأنا منه الورقة من الشجرة وعلى الأصول تنبت الفروع فأصرف عنا ما أملت فما أنا ممن يأسى على الحياة أو يجزع من الوفاة فخذ في الجد أصرف عنك الهزل، وأنشأ يقول :

صبراً على جور الزمان القاطع	ومنية ما إن لها من دافع
لا تجزعن فكل شيء هالك	حاشى لمثلي أن يكون بجازع
فلئن رمانا الدهر منه بأسهم	وتفرق من بعد شمل جامع
فلکم لنا من وقعة شابت لها	قمم الأصاغر من ضراب قاطع

ومن شعر العباس «عليه السلام» وذكره^(٢) :

لله عين رأت ما قد أحاط بنا	من اللئام وأولاد الدعيات
يا حبذا عصابة جادت بأنفسها	حتى تحل بأرض الغاضريات
الموت تحت ذباب السيف مكرمة	إذ كان من بعده سكنى لجنات

ويأتي بعض أشعاره في باب شهادته في الجزء الثالث، أما خطبته المشهورة

(١) أسرار الشهادة: ص ٣٢٠.

(٢) أسرار الشهادة: ص ٣١٩.

على السنة خطباء المنابر الحسينية والتي يقول فيها هذه ثيابنا قد لبسناها أكفاناً لنا
فمعروفة عندهم أما أنا فلم أقف لها على مصدر أعتمد النقل عنه .
للمؤلف فيه «عليه السلام» :

ورث الفصاحة من أبيه وإنه لخطيب أندية الفخار الأبين
من عصابة فاقوا الأنام فصاحة أن يخطبوا فوق المنابر أحسنوا
سيان ألسنهم وحد سيوفهم لا بل أمض من السيوف الألسن
ما فيهموا إلا خطيب مصقع عند الخطابة أو أديب محسن
قس ابن ساعدة إذا قايسته فيهم بعدل فهو أبكم أكن

شجاعة العباس الأكبر «عليه السلام»

من صفات العباس بن أمير المؤمنين «عليه السلام» الشجاعة .

بيان ما هي الشجاعة وحقيقتها:

فإن هذا من لوازم هذا الفصل ولأن أظهر صفات أبي الفضل العباس الأكبر
هي الشجاعة وإن كانت بقية صفاته ظاهرة ونحن قد كتبنا في كتابنا «السياسة العلوية»
شرح عهد أمير المؤمنين «عليه السلام» للأشتر فصلاً مطولاً في الشجاعة نلخصه هنا
ونورده إتماماً للفائدة .

الشجاعة عرض أم غريزة:

لا شك أن الشجاعة من الغرائز النفسية والطبائع المرتكزة في القوى الذاتية
لكنها تقوى وتضعف بحسب الممارسة فأشبهت الهيئات والملكات وأستحق
المتصف بها المدح والإطراء .

معنى الشجاعة لغة:

العرب تسمي الحية الذكر وهو العريد «العريد» بلسان العوام الشجاع فأطلقته
على الرجل الجريء المقدم خواض الأهوال والغمرات وذلك لأن العريد
«العريد» في لعبه السم المتلف وكذلك الرجل الشجاع في سيفه التلف وفي ملاقاته
كليهما المخاطرة ومظنة الهلاك والعطب .

قال ابن الأثير في النهاية: الشجاع - بالضم والكسر - الحية الذكر، وقيل:
الحية مطلقاً .

وقال الفيومي في المصباح المنبر: شجع - بالضم - شجاعة قوي قلبه

وأستهان بالحروب جرأة وإقداماً فهو شجاع وشجاع، وبنو عقيل تفتح الشين حملاً له على نقيضه وهو جبان وبعضهم يكسر للتخفيف.

وقال الدميري في حياة الحيوان: الشجاع - بالضم والكسر - الحية العظيمة التي تثب على الفارس والراجل وتقوم على ذنبها وربما بلغت رأس الفارس وتكون في الصحاري.

وذكر مثل هذا الطريحي في مجمع البحرين وقال: الشجاع الأقرع حية قد تمعط فروة رأسها لكثرة سمها، والشجاعة شدة القلب عند البأس، وقد شجع الرجل شجاعة قوي قلبه وأستهان بالخطوب جرأة وإقداماً.

وقد تبع صاحب القاموس في قوله الشجاع الشديد القلب عند البأس ويشهد لهذا التفسير ما حملته الانباء التاريخية التي يعول عليها من آثار بعض الشجعان الذين قد شق عن قلوبهم فوجد في غاية الصلابة، فقد حمل إلينا الأثر الصحيح قصة حمزة بن عبد المطلب «سلام الله عليه» فإنه لما أُستشهد في أحد وتشاغل عنه المسلمون لما دهمهم من الأمر المزعج بالهزيمة، عمدت هند بنت عتبة أم معاوية ابن أبي سفيان إلى بطنه فشقتها وأستخرجت قلبه وأرادت أكلها فلما لأكتها وجدتها مثل الصخرة الصماء فلفظتها من فمها فلما وصلت إلى الأرض نزت ووثبت إلى فوق، ومن هنا قيل لهند آكلة الأكباد وسمي ابنها معاوية ابن آكلة الأكباد تعبيراً له بذلك وذماً.

وهكذا نقل المؤرخون في أخبار شبيب بن يزيد الشيباني رأس الخوارج الصفرية وهو الخارج على الحجاج الثقفي وصاحب الحروب المشهورة فإنه لما غرق في دجيل الأهواز شق عن بطنه وأستخرج قلبه فكان إذا ضرب به الأرض نزا إلى فوق وثبت قدر قامة.

وعلى تفسير الدميري فهو غير العريد بل أعظم منه وخاص بالفلوات لا يكون في غيرها.

معنى الشجاعة وحقيقتها عقلاً؛

قال الشريف الجرجاني في التعريفات^(١): الشجاعة هيئة حاملة للقوة الغضبية بين التهور والجبن بها يقدم على أمور ينبغي أن يقدم عليها كالقتال مع الكفار مالم يزيدوا على ضعف المسلمين.

وقال أحمد بن أبي الربيع في سلوك المالك^(١): الشجاعة وهي علة الإقدام وأن لا ينهزم عند الشدائد والمخاوف وقوامها في القوة الغضبية.

وقال^(٢): القوة الغضبية وهي الحيوانية السبعية ومسكنها القلب ويشارك الإنسان بها الحيوان وأحد قواها حب الغلبة والرياسة وبها يدفع ما لا يوافق بدنه ونفسه فإن اعتدلت فصاحبها يوصف بالشجاعة والفروسية وقوة القلب وإن خرجت عنه، فإما إلى الزيادة فإنه يوصف بالتهور وكثرة الغضب أو النقصان فإنه يوصف بالجبن وضعف القلب.

وقال ابن مسكويه الخازن في تهذيب الأخلاق بعد كلام: ثم إن صاحب الجود والشجاعة إذا عم غيره بفضلته وتعدياه رجي بأحدهما وأحتشم، وهيب بالأخرى وذلك في الدنيا فقط لأنهما فضيلتان حيوانيتان، ثم قال: أما الشجاعة فهي فضيلة النفس الغضبية وتظهر في الإنسان بحسب أنقيادها للنفس الناطقة المميزة وأستعمال ما يوجبه الرأي في الأمور الهائلة أعني أن لا يخاف من الأمور المفزعة إذا كان فعلها جميلاً والصبر عليها محمود إلخ.

أما العرب فلا تستطيع أن تعرف الشجاعة بأكثر من أنها غريزة من غرائز النفس وطبيعة من طبائعها، أخبر المؤرخون في غزوة الخندق ويوم الأحزاب أن عمرو ابن ود العامري قائد جيش الأحزاب لما أقتحم الخندق على أصحاب رسول الله ﷺ وطلب المبارزة منهم وجبنوا عن لقائه قال يسمعهم:

ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن الشجاع مواقف القرن المناجز
إن الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز
فأجابه أمير المؤمنين مبارزة وإنشاداً:

لا تعجلن فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نية وبصيرة والصدق منجي كل فائز
إنني كذلك لم أزل متسرعاً نحو الهزاهز

الصفات المندرجة تحت الشجاعة:

حيث أن حقيقة الشجاعة صبر وثبات وحمل النفس على مكروه وممقوت

(١) سلوك المالك في تدبير الممالك: ص ١٨.

(٢) نفس المصدر: ص ٢٠.

لأنها بالطبع تحب البقاء وتكره الفناء ومن لوازمها الجبلية الفطرية التعاضم والبذخ لأن من خاض الأهوال ولم يبالي بالمعاطب يستشعر في نفسه عظمة ويعتريه تباذخ وشموخ وحيث أن للنفس الإنسانية حاكمية على الشجاعة فوجب أن تقهر تلك النخوة الغضبية وتكسر تلك السورة الشيطانية وقمعها وكسرها بما يسمى عند العقلاء حلماً وعند المشرعين عفواً فاندرجت تحت الشجاعة أمور هي كما نص عليها ابن مسكوية في تهذيب الأخلاق^(١) ولفظه: الفضائل التي تحت الشجاعة: كبر النفس، النجدة، عظم الهمة، الثبات، الصبر، الحلم، عدم الطيش، الشهامة، احتمال الكدة، والفرق بين هذا الصبر والصبر الذي في العفة أن هذا يكون في الأمور الهائلة وذلك يكون في الشهوات الهائجة.

أما كبر النفس فهو الاستهانة باليسير والأقذار على حمل الكرامة فصاحبه أبداً يؤهل نفسه للأمور العظام مع أستخافه لها.

وأما النجدة فهي ثقة النفس عند المخاوف حتى لا يخامرها جزع.

وأما عظم الهمة فهي فضيلة للنفس تحتل بها سعادة الجد وضدها من الشدائد التي تكون عند الموت.

وأما الثبات فهو فضيلة للنفس تقوى بها على احتمال الآلام ومقاومة الأهوال خاصة.

وأما الحلم فهو فضيلة للنفس تكبر بها الطمأنينة فلا تكون شغبة ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة.

وأما السكون الذي نعني به عدم الطيش فهو إما عند الخصومات وإما في الحروب التي يذب بها عن الحريم أو عن الشريعة وهي قوة للنفس تقسر حركتها في هذه الأحوال لشدتها.

وأما الشهامة فهي الحرص على الأعمال العظام توفيقاً للأحداث الجميلة.

وأما احتمال الكدة فهو قوة للنفس تستعمل آلات البدن في الأمور إلخ.

الشجاعة بالتمرين والممارسة؛

لم نجد في سير الشجعان منذ القديم إلى اليوم من حاز صفات الكمال في الشجاعة وأنتفت عنه رذائلها أجمع إلا نبينا محمد ﷺ وأهل بيته الكرام حسب المعروف من سيرهم في حروبهم الدينية وهو مشروح على تفاصيل تاريخية مذكورة

(١) تهذيب الأخلاق بهامش المبدأ والمعاد: ص ٣٨١.

في محلها وقد أخبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» في خطبته عن أن الشجاعة بالممارسة والتمرين في بعض خطبه وكان يصحب أولاده معه يشهدهم الحرب وكل ذلك مشهور.

الشجاعة بين نقيضين ذميمين؛

قد حررنا في العدالة في كتابنا «السياسة العلوية» أنها معتبرة في جميع الأشياء عند عامة العقلاء من الفلاسفة وغيرهم فإن تجاوز الحد في الإفراط والتفريط مذموم ولذا قالت العرب في أمثالها: كل شيء تجاوز حده أنعكس إلى ضده، وقال شاعرهم:

كلا طرفي قصد الأمور ذميم

فالإفراط في التأخر مذموم لأنه جبن، والإفراط في التقدم أيضاً مذموم لأنه تهور يجر إلى العطب؛ فالتهور والجبن مذمومان لأنهما خارجان عن حد الاعتدال وقد سمعت كلام أحمد بن أبي الربيع ومثله كلام ابن مسكويه في تهذيب الأخلاق^(١).

التفرقة بين التشجيع والشجاعة

هذه التفرقة غامضة جداً نظراً إلى المظاهر الحربية والمخاطرات بالنفوس لأجل الغايات المتشعبة والمقاصد المتنوعة على الأخص إذا قلنا أن الشجاعة من الملكات المكتسبة بالممارسة والتمرين وإنها كسائر الهيئات النفسية فيشتبه علينا معرفة الشجاع من المتشجع حقيقة ولعل التفرقة ستظهر متجلية إذا خلي المقام عن الأغراض وبعدت الغايات بحيث لا تنال تبين الشجاع من المتشجع على حد ما قيل:

إذا اشتبكت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى

فالشجاع يقدم بطبعه وجبلته التي فطر عليها من الإقدام أنفة من التأخر والإحجام وإن لم تكن هناك غاية مقصودة، فقد ذكر المؤرخون أن عمير بن الحباب السلمي فارس مضر بل فارس العرب في عصره، كان في جيش عبيد الله ابن زياد لما التقى مع إبراهيم بن الأشتر، وكان عمير يبغض آل مروان بسبب واقعة مرج راهط وأنه يتذكر مصارع قومه فيها وكان بينه وبين ابن الأشتر مودة فأنسل إليه في الليل وأوعده أن ينهزم أول الناس ليكسر جيش ابن زياد، فلما نشبت الحرب

(١) تهذيب الأخلاق: ص ٣٨٤.

أنف من الفرار وثبت في مركزه فلم يتزحزح حتى جعل الله النصر لابن الأشتر وقتل ابن زياد وتحطم جيشه وفض الله ذلك الجمع بأسره هذه شيمة الشجاع.

أما المتشجع فإنه يجبن عند فقد الأغراض والغايات فإنه أقدم حيث أقدم مكرهاً لنفسه حاملاً لها على ضد إرادتها واختيارها نظراً منه لمقصوده وطمعاً بنيل غرضه وطلباً لما يظنه متوقفاً على الإقدام، وتظهر التفرقة أيضاً في محل آخر وهو إذا تتابعت الأخطار واتصلت الأهوال فإن المشتجع لا يقوى على إكراه نفسه كل وقت ولا يستطيع إيقافها كل حين فيفتضح، وأوردنا في كتابنا «السياسة العلوية» في فصل الجبن ما يناسب هذا المقام.

والشجاع كلما تتابعت عليه الأخطار والشدائد وأشدت الأهوال والغمرات أطاعته نفسه في الثبات والصبر وقد قال شاعر الأنصار عمرو بن الأطنابة في الجاهلية:

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

وقال رأس الأزارقة من الخوارج قطري بن الفجأة المازني:

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأهوال ويحك لا تراعي

فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذي لك لن تطاعي

وقد أبدع هذا المارق في تسلية نفسه على الحياة وتأنيبها في إرادة الفرار بالأجل الطبيعي حيث أن قصدها هو البقاء الذي لا يحصل لها وليس لها زيادة يوم واحد على أجلها المقدر لها فضلاً عن بقاءها الأبدى، وفي الشعر المنسوب لأمير المؤمنين علي «عليه السلام»:

أي يوميك من الموت تفر يوم لا يقدر أم يوم قُدر

يوم لا يقدر لا تحذره ومن المقدور لا ينجو الحذر

وقد قال شاعر الصحابة ثالث أمراء النبي ﷺ يوم مؤتة عبد الله بن رواحة الأنصاري يوبخ نفسه وقد تريت عن الإقدام وقد قتل أصحابه جعفر الطيار وزيد بن حارثة:

يا نفس إن لم تقتلي تموتي

ثم تقدم فقاتل حتى قُتل، وما قاله صحيح فإن الذي لا يقتل حميداً سيموت ذميماً، واختيار القتل عند العظماء وأهل الأقدار العظيمة والأخطار من الكبراء أحسن وأجمل من الموت على الفراش، وقد قال مولانا أمير المؤمنين علي «عليه

السلام» - وهو سيد الشجعان وأمير الفرسان -: لألف ضربة بالسيف في سبيل الله أهون عليّ من موة على فراش، وقال شاعر العرب الطرماح بن حكيم الطائي:
 أعوذ بربي أن تكون منيتي على شرجع يعلى بخضر المطارف
 وقال آخر من شعراء العراق يذكر موت أربد الفزاري الذي رد على أمير المؤمنين «عليه السلام» كلامه فقال الأشر: من لهذا أيها الناس؟ ففر أربد وتبعته همدان وغيرها فقتلوه ضرباً بنعالهم في سوق البراذين:
 أعوذ بربي أن تكون منيتي كمامات في سوق البراذين أربد
 تعاوره همدان خفق نعالهم إذا رفعت عنه يد وضعت يد
 وقد استبان حال الشجاع من المتشجع فإن نفس الشجاع إذا كرهت الإقدام قهرها والمتشجع تقهره.

قال ابن مسكويه الخازن في تهذيب الأخلاق^(١): حال من يعمل أعمال الشجعان وليس بشجاع وذلك أن من باشر الحروب وأقدم على ركوب الأهوال لبعض ما يوصل إليه المال أو لبعض الرغبات التي لا تحد كثرة فإن مثل هذا يعمل عمل الشجعان ولكن يعمل بطبيعة الشره لا بطبيعة الفضيلة التي تدعى شجاعة وذلك أنه يخاطر بنفسه الشريفة ويصبر على المكاره العظيمة طمعاً في المال وما يوصل إليه بالمال وقد رأيت أهل الشقاوة يعملون عمل الأعفاء وعمل الشجعان وهم أبعد الناس عن كل فضيلة وذلك أنهم يصبرون عن الشهوات كلها ويصبرون على عقوبات السلطان وضرب السياط وتقطيع الأعضاء والجراحات التي للرؤوس منها وينتهون فيه إلى أقصى الصبر حتى للطلب وسمل العيون وقطع الأوصال وضروب التمثيل طلباً للاسم وذكراً بين قوم في مثل حالهم من سوء الاختيار ونقصان الفضائل وقد يعمل عمل الشجعان من يخاف لأئمة عشيرته أو عقوبة سلطان أو سقوط جاه وما أشبه ذلك، وقد يعمل عمل الشجعان من أتفق له أن يغلب أقرانه مراراً كثيرة فهو يقدم ثقة منه بالعادة الجارية وجهلاً بمواقع الاتفاقات وقد يعمل عمل الشجعان العشاق وذلك أنهم يركبون الأهوال في طلب المعشوق لرغبتهم في الفجور وحرصهم على متعة العين منه لا طلباً للفضيلة ولا اختيار الموت الجميل على الحياة الرذيلة كما يفعل الشجاع بالحقيقة.

وإن شجاعة الأسد والفيل وأشباههما من الحيوان فإنها تشبه الشجاعة

(١) تهذيب الأخلاق: ص ٤٣١.

وليست بشجاعة حقيقة وذلك أنها قد وثقت بقوتها وأنها تفوق غيرها فهي تقدم لا بطبيعة الشجاعة بل لتمام القدرة وثقة النفس بالغلبة وما كان منها سبباً فهو مع هذه الحال مزاح العلة في السلاح الذي عنده فهو كصاحب السلاح إذا أقدم على الأعزل وليست هذه شجاعة مع عدم الاختيار الذي استعمله الشجاع وذلك أن الشجاع خوفه من الأسر أشد من خوفه من الموت لذلك يختار الموت الجميل على الحياة القبيحة على أن لذة الشجاع ليست تكون في مبادي أموره فإن مبادي الأمور تكون مؤذية لكنها تكون في عواقب الأمور وتكون أيضاً باقية مدة عمره وبعد عمره لا سيما إذا حامى عن دينه وعن اعتقاداته الصحيحة ووحدانية الله عز وجل الشريفة التي هي سياسة الله وسنته العادلة التي بها مصالح العباد في الأولى والآخرة، فإن مثل هذا إذا فكر في قصر عمره وعلم أنه لا محالة سيموت بعد أيام ثم كان محباً للجميل ثابتاً على الرأي الصحيح فهو لا محالة يحامي عن دينه ويمنع العدو من استباحة حريمه والتغلب على مدينته وأنف من الفرار ويعلم أن الجبان إذا اختار الفرار فإنما يستبقي شيئاً هو لا محالة فإنه زائل وإن تأخر أياماً معدودة ثم هو في هذه الحياة اليسيرة ممقوت مكدر الحياة بالذل وضروب الصغار، وهذه حال الشجاع مع قوة نفسه أعني مفارقة شهواته وأستسلامه فإن حاله تلك الحالة الأولى بعينها.

ومن جميع كلام الإمام «صلوات الله عليه» مع صدوره عن حقيقة الشجاعة إذا قال لأصحابه: أيها الناس! إن لم تُقتلوا تموتوا والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف على الرأس أهون من ميتة على فراش، تبين له أن جميع ما أحصيناه للإنسان ليس بمصدر دين وإن كان يشبهه في الصورة وذلك أنه ليس كل من يقدم على الأهوال فهو شجاع ولا كل من يخاف من الفضائح فهو شجاع وذلك أن من لا يفرغ من ذهاب شرفه وفضيحة حرمه أو عند حدوث الرجفان والزلازل والصواعق والزمانات والأمراض أو عدم الأعوان والأصدقاء أو عند اضطراب البحر وهول الأمواج وهواء هائج فهو بأن يوصف بالجنون أولى من أن يوصف بالشجاعة، وكذلك من خاطر بنفسه في وقت الأمن والطمأنينة بأن يثب من سطح عال أو يصعد مرتقياً صعباً أو يحمل نفسه على خوض ماء غزير وهو لا يحسن السباحة أو يثاور جملاً هائجاً أو ثوراً صعباً أو فرساً لم يرض من غير ضرورة تدعوه إلى ذلك بل مراده الشجاعة وإظهار مرتبة الشجعان فهو بأن يسمى مطرماً مائقاً أولى منه بأن يسمى شجاعاً.

وأما من خنق نفسه خوفاً من الفقر أو الذل فأهلكها بالسم أو شبهه من باب الضيم فهو بأن يوصف بالجبن أولى منه بأن يوصف بالشجاعة وذلك أن الإقدام وقع منه بطبيعة الجبن لا بطبيعة الشجاعة فإن الشجاع يصير على ما يرد عليه من الشدائد صبراً جميلاً ويعمل أعمالاً تليق بتلك الحالة ولذا يجب أن يعظم الشجاع ويشح بنفسه وحقيق على السلطان خاصة والقيم بأمر الدين والملك أن ينافس فيه ويجل قدره ويعلي خطره ويميزه من سائر من يشبه به ممن ذكرنا .

وقد تبين من جميع ذلك أن الشجاع هو الذي يستهين بالشدائد في الأمور الجميلة ويصبر على الأمور الهائلة ويستخف بما يستعظمه عوام الناس حتى الموت بالاختيار والأمر الأفضل ولا يحزن على ما لا درك فيه ولا يضطرب عندما يفدحه من المصائب ويكون غضبه إذا غضب بمقدار ما يجب وفي الوقت الذي يجب وكذلك يكون أنتقامه على هذه الشرائط فإن الحكماء قالوا : (إن من لا ينتقم يلحق قلبه ذبول) ، فإذا انتقم عاد إلى حالته من النشاط وهذا الانتقام إذا كان بحسب الشجاعة كان محموداً وإذا لم يكن كذلك كان مذموماً فقد نقل إلينا في الأخبار الماثورة عمن أقدم على سلطان قوي ورام أن ينتقم منه فيهلك نفسه من غير أن يضر سلطانه روايات كثيرة وكذلك حال من أقدم على قرن قوي أو خصم ألد لا يستطيع مقاومته فإن الانتقام منه يعود وبالأعلى عليه وزيادة في الذل فإذا لم تستطع شرائط الشجاعة والعفة إلا للحكيم الذي يستعمل كل شيء في موضعه الخاص به ويقدر أقساط العقل له فكل شجاع عفيف حكيم وكل حكيم شجاع عفيف ، انتهى كلامه (رحمه الله) .

نقد كلام ابن مسكويه

في كلام هذا الفيلسوف مجال للنظر واسع النطاق لأنه على قوله ينبغي أن لا يكون من طبعه الجرأة والإقدام شجاعاً حتى تحصل له ملكة التميز كالسباع وأن يكون على ثقة من الانتصار والغلبة وعلى يقين من المنعة وهو مخالف لما عليه العقلاء وفيه خرق للرأي العام من عدة وجوه : من حيث أتفاقهم على شجاعة الأسد وقد وصفوه بالشجاعة كقول بعضهم في ممدوحه :

وكذاك مجزأة بن ثور كان أشجع من أسامه

وهو كثير في شعر العرب .

ومن حيث أنهم صرحوا بأن الشجاعة من الغرائز النفسية في الحيوان ومن

الطبائع المرتكزة في أصل خلقة الإنسان وقد تقدم قول عمرو بن عبد ود العامري فارس قریش الذي قتله أمير المؤمنين «عليه السلام» يوم الخندق .
 وذكر المبرد في الكامل في أخبار الأزارقة ما لفظه^(١) : قال مصعب للمهلب : أشر عليّ برجل أجعله بيني وبين عبد الملك ، قال : أذكر لك واحداً من ثلاث : محمد بن عمير بن عطار الدارمي ، أو زياد بن عمرو بن الأشرف العتكي أو داود ابن قحذم ، قال : أو تكفيني ؟ قال : أكفيك إن شاء الله ، فولاه الموصل فشحص إليها المهلب وصار مصعب إلى البصرة فقال : من يكفيني أمر الخوارج ويفد إلى أخيه ؟ فأختلف الناس ، فقال قوم : ول عبيد الله بن أبي بكرة ، وقال قوم : ول عمر بن عبيد الله بن معمر ، وقال قوم ليس لهم إلا المهلب فأردده إليهم ، وبلغت المشورة الخوارج فإداروا الأمر بينهم فقال قطري بن الفجاءة المازني : إن جاءكم عبيد الله بن أبي بكرة أتاكم سيد سمح جواد كريم مضيع لعسكره ، وإن أتاكم عمر بن عبيد الله أتاكم شجاع بطل فارس جاد يقاتل لدينه وملكه وبطبيعة لم أر مثلها لأحد قد شهدته في وقائع فما نودي في القوم الحرب إلا كان أول فارس يطلع حتى يشد على قرنه فيضربه ، وإن رجع المهلب فهو من قد عرفتموه إن أخذتم بطرف ثوب أخذ بطرفه الآخر يمدّه إذا أرسلتموه ويرسله إذا مددتموه ولا يبدءكم ألا أن تبدؤوه إلى أن يرفسه فينتهزها فهو الليث المبير والشعلب الرواغ والبلاء المقيم ، فولي عليهم عمر بن عبيد الله الخ وهو كثير وفي أستيفائه شذوذ عن المقصود .

ومن حيث أن الغضب بزعمه ينفي حقيقة الشجاعة وهذا بديهي البطلان للاتفاق على أن حمزة بن عبد المطلب كان من أشجع العرب وكان لا يبصر ما بين يديه إذا غضب في الحروب ولهذا السبب اختار وحشي قتله يوم أحد دون النبي ﷺ ودون علي «عليه السلام» .

ومن حيث زعمه أن الواثق بالغلبة والقدرة لا يسمى شجاعاً وبهذه العلة نفى شجاعة الأسد والفيل وهذا في غاية السقوط للقطع بأن رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين «عليه السلام» أشجع الخلق وهما واثقان من أنفسهما بالغلبة لكل مبارز والمنعة من كل قرن وكيف لا يكون واثقاً بالغلبة من يعلم أنه كيف يموت ، قال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾^(٢) ، وقال له : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِيكَ مِنَ النَّاسِ ﴾^(٣) .

(٢) الزمر : ٣٠ .

(١) الكامل للمبرد : ١٨٥ / ٣ .

(٣) المائدة : ٦٧ .

وأما أمير المؤمنين «عليه السلام» فقد أخبره النبي ﷺ بكيفية قتله، ذكر ابن الأثير في أسد الغابة وابن عبد البر في الاستيعاب والعسقلاني في الإصابة والمحب الطبري في الرياض النضرة وذخائر العقبى^(١) وغيرهم ولفظه^(٢): عن فضالة بن أبي فضالة قال: خرجت مع أبي إلى ينبع عائداً لعلّي «عليه السلام» وكان مريضاً فقال له أبي: ما يسكنك بمثل هذا المنزل لو هلكت لم يلك إلا الأعراب أعراب جهينة فأحتمل إلى المدينة فإن أصابك بها قدر وليك أصحابك وصلوا عليك وكان أبو فضالة من أهل بدر، فقال له «عليه السلام»: لست بميت من وجهي هذا إن رسول الله ﷺ عهد إلى أن لا أموت حتى أضرب ثم تخضب هذه - يعني لحيته - من هذه - يعني هامته - فقتل أبو فضالة معه بصفين؛ خرجه ابن الضحاك، إنتهى.

وهذا الحديث مع الأحاديث الواردة أن قاتله أشقى الآخرين وهو ابن ملجم المرادي «لعنه الله» يحصل القطع بأنه واثق بالمنعة والغلبة وهو أشجع الشجعان وقد قال في صفين لابنه محمد وقد أراد مبارزة عبيد الله بن عمر: إنك ترجو أن تقتله ولا آمن أن يقتلك وأما أنا لو بارزته لقتلته.

ومن حيث زعمه أن من ثبت حمية وأنفة وقاتل تعصباً أو بقصد السلب والنهب لا تديناً واعتقاداً لا يعد شجاعاً وهذا أيضاً يخالف مذهب العقلاء قاطبة فقد ثبت عندهم شجاعة قوم كثيرين ليسوا بأصحاب دين وأعتقاد مثل فرسان العرب في الجاهلية وقواد الأمم الفاتحين وقد قاتل مع النبي ﷺ جماعة من الشجعان مقاتلة الاستماتة وهم مع ذلك منافقون مثل قزمان الظفري من الأوس قاتل يوم أحد وقتل عدة من فرسان قريش وكان شجاعاً مشهوراً وكانت له نكاية في أعداء النبي ﷺ من المشركين وأصابته جراحات شديدة قتالة، ف قيل له: أبشر يا قزمان بالجنة، فقال: أجنة من حرمل والله ما قاتلنا إلا على الأحساب ثم ضرب نفسه بمشقص كان في يده فقتلها، فقال رسول الله ﷺ: إن الله يؤيد دينه بالرجل المنافق، هكذا أوردها علماء السيرة وفي الإكثار من هذا تطويل.

ثمرة الشجاعة وفوائدها

هي نوعان: دينية ودنيوية، ولكل واحدة منهما ثمرة وفائدة.

(١) هؤلاء من علماء السنة الشافعية إلا ابن عبد البر فإنه مالكي.

(٢) الرياض النضرة ٢/٢٢٣.

فالدينية ثمرتها إشادة الدين وإظهار الحق ونشر العدل وإبطال الجور والأظاليل التي تنتجها بدع المجرمين .
وأما الدنيوية ففائدتها حفظ شؤونه وبلوغ غاياته ونيل مقاصده وبهما معاً حمايته الشرف والجاه وصيانة العرض .

مظاهر الشجاعة وأسبابها المهيجة لها والمثيرة لعواطف الفرسان:

أما مظاهرها فكثيرة، أشهرها الثبات عند أنفضاض الجمع وتقوض الصف هزيمة وهرباً، والإقدام عند إحجام الباقيين والإسراع إلى إجابة الداعي للمصاولة وتلبية طالب النزال والمبارزة .

قال الأبشيهي في المستطرف^(١): والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه:

الأول: إذا التقى الصفان وتزاحف العسكران وتكالحت الأحداق بالأحداق برز من الصف إلى وسط المعترك يحمل ويكر وينادي هل من مبارز .

والثاني: إذا شب القوم وأختلطوا ولم يدري أحدهم من أين يأتيه الموت يكون رابط الجاش ساكن القلب حاضر اللب لم يخالطه الدهش ولا تأخذه الحيرة فيتقلب تقلب الملك لأموره القائم على نفسه .

الثالث: إذا أنهزم أصحابه يلزم الساقة ويضرب في وجوه القوم يحول بينهم وبين عدوهم يقوي قلوب أصحابه ويرجي الضعيف ويمدهم بالكلام الجميل ويشجع نفوسهم فمن وقع أقامه، ومن وقف حملة، ومن كبا فرسه حماه حتى يئأس العدو منهم وهذا أحمدهم شجاعة، إنتهى كلامه .

بل هذا مفقود إلا أن يكون أمير المؤمنين علي بين أبي طالب «عليه السلام» فإن أبا الحسن جمع هذه المزايا الثلاثة:

أما في التقاء الجمعين فقد شهدت به بدر وغيرها من غزوات رسول الله ﷺ فإنه يتقدم الصف ويجيب الداعي، فقد أباد قريشاً وأفنى جماعتها يوم بدر وقتل أبطالها مثل الوليد بن عتبة وحنظلة بن أبي سفيان والعاص بن سعيد وطعيمة ابن عدي ونوفل بن خويلد وهو ابن العدوية وهو من شياطين قريش وجبابرتها، وهو الذي قرن بين أبي بكر بن أبي قحافة وابن عمه طلحة بن عبيد الله بحبل شدهما فيه معاً وسحبهما ولذلك سميا بالقرينين وغير هؤلاء من الأبطال سل عنهم التاريخ .

وقتل يوم أحد أصحاب اللواء وهم ثلاثة عشر من آل عبد الدار فيهم كبش

الكتيبة، وقتل غيرهم من قريش، وقتل عمرو بن عبد ود العامري بطل الأحزاب وفارس قريش وهو فارس يليل حمى أصحابه من ألف فارس من بني بكر، وقتل مرحباً بطل اليهود وأبا جروول فارس هوازن يوم حنين كل ذلك مبارزة.

أما المقام الثاني فشواهد كثيرة؛ طلب «عليه السلام» يوم البصرة شراباً فجاءه بعض ولد أخيه جعفر الطيار بعسل فذاقه فقال: إن عسلك هذا طائفي، فقال: العجب منك يا عم في مثل هذا اليوم تعرف الطائفي من غيره، فقال: يا ابن أخي! ما ملأ صدر عمك من هذا الجمع شيء، وقد ورد أنه «عليه السلام» إذا اشتد القتال ينام، فقد ذكروا أن أصحابه يوم البصرة جاؤه بأحد أولاد بديل بن ورقاء الخزاعي قتيلاً فوجده يخفق نعاساً، ووجد في بعض أيام صفين يصلي وسط المعركة، وذكروا أنه لما أنهزمت ميمنته يوم صفين وأنهزم القلب أيضاً وثبتت الميسرة مشى إليها على تؤدة يستثبتهم ومعه أولاده وبعض أصحابه والسهم كأنها رش المطر عليهم، فقال له قائل: يا أمير المؤمنين! لو أسرعت في مشيتك حتى تصل إلى من ثبت من أصحابك، فقال: لعلي يوم لن يعدوه، وأمثال هذه الأمور مشهورة.

أما المقام الثالث فشاهده يوم أحد وحنين فر الناس عن رسول الله ﷺ فثبت يوم أحد يكافح الأعداء من الجهتين يحميهم من الطلب ويحامي عن رسول الله ﷺ وإن بعض المنهزمين وصل هزيمته إلى المدينة وبعضهم ذهب على وجهه وهو عثمان بن عفان كما نص عليه الحلبي الشافعي وغيره أنه جاء بعد اليوم الثالث من الواقعة فقال له النبي ﷺ: ذهبت فيها عريضة، وعيره ابن عوف بذلك كما رواه البخاري، وغيره، وتسلق أبو بكر وعمر وآخرون الجبل فأعتصموا به، ويوم حنين أنهزم ذلك الجيش الضخم ولم يثبت إلا تسعة نفر كلهم من بني هاشم وتاسعهم من الأنصار فقتل الأنصاري وحف السبعة بالنبي ﷺ وأمير المؤمنين «عليه السلام» يحميهم جميعاً بسيفه يجالد الأعداء فرد هوازن على أعقابهم حتى تراجع المنهزمون من المسلمين.

الأسباب والدواعي للشجاعة

والموجبة لثبات الشجاع حتى يقتل أو يظفر كثيرة أظهرها نصره الدين وحمية النفس تفادياً من المذلة وأنفة من عار الفرار وخوفاً من وصمة الجبن وترفعاً عن هوان الأسر؛ فالحياء من الناس والخوف من الله تعالى لما وعد المنهزم الفار من

الزحف من العذاب الخالد أوجبا للشجاع الثبات في الحومة والصبر في هول المعترك وخوض الغمرات الطامية في المعارك الطاحنة.

قال الراغب الأصبهاني في المحاضرات^(١): الأسباب المشجعة: قال الجاحظ: الأسباب المشجعة قد تكون من الغضب والشراب والهوج والغيرة والحمية وقد تكون من قوة الدفاع وحب الإقدام وربما كان طبعاً كطبع الرحيم والسخي والبخيل والجزوع والصبور، وربما كان للدين لكن لا بدافع الرجل للدين ما لم يشيعه بعض ما تقدم لأن الدين مجتلب مكتسب ولا يكاد يبلغ ما بالطبع وقيل لا يصدق القتال إلا ثلاث: متدين وغيران وممتعض من ذل، إنتهى.

نقد المؤلف للجاحظ

قد خبط الجاحظ تخبط العشواء وسار سير المتعسف في مجهلة بيداء فخلط بين التشجع والشجاعة فإن صاحب الشراب والأهوج والمغضب في حال غضبه ليسوا بشجعان وإنما هم متشجعون وجعله بقية العناوين قسمة للطبع غلط محض لأن الشجاعة من الطبائع في سائر الحيوان فضلاً عن البشر، فالباري تعالى لما خلق الحيوانات أودع في طبائعها ما لو أرادت غيره لم تقدر عليه كالشجاعة في السباع وكواسر الطيور حتى قيل أن النمر إذا فاتته الفريسة قتل نفسه، والجبن في القردة والأغنام وما شاكلها، وجبن الصفرد يضرب به المثل، وكذلك الإنسان إلا أن الله تعالى أودع فيه قوة التمييز والإدراك ليتقي بها الأخطار المحيطة به، وركب فيه قوة قاهرة لسائر القوى إذا أراد أستعمالها وهي قوة العقل وجعلها في الإنسان دون سائر الحيوان فلما تسلطت هذه القوة القهارة على تلك الطبائع وصرفت كيف شاءت بعد أن راضتها وساستها أكسبتها سلاسة وانقادت لها أصبحت تلك الغرائز بفضل تلك القوة تشبه الملكات المكتسبة فلذلك تقوى بالممارسة وتضعف بضدها، وسر ذلك أنه جلّ وعلا بحكمته وعلمه بأنه سيكلف الإنسان بتكاليف يقوم بها تكون سبباً لاستحقاق الثواب والعقاب في حالي الموافقة والمخالفة أودع فيه قوة تكون قاهرة لطباعه قادراً على تصريفها كيف شاء فلذلك خاطب من كلفهم بفرض الجهاد بالصبر والثبات، والحيوان لما لم يكن من الحكمة تكليفه وتوجيه الأوامر والنواهي إليه جعل في طبيعته قوة قاهرة له لم يقدر على اكتساب معاشه إلا بها ولولا ذلك لجبن عن تحصيل قوته وهلك جوعاً.

وما قاله في الشجاعة الدينية وأن الشجاعة للدين ما لم تكن مصحوبة ببعض

الأسباب المتقدمة الخ فكلام لا حقيقة له ولا مصداق، نعم تتوقف حماية الدين وحياطة الملة في المتدين على كونه شجاعاً بالطبع، وزادت المتدين ديانتة رسوخاً في الثبات فحسن العقيدة موجب له عدم الفرار عن موقف الزحف فيكون أحد الدواعي لعدم الانهزام الديانة كما يكون الداعي الآخر هو الحمية؛ فالموقف الذي توجب الحمية فيه الثبات ويحرمه الدين كما في محاربة المسلم للمسلم لا يرى المتدين ذلك الثبات فيه لازماً وتراه الحمية حتماً وإلى هذا يشير قول سيد الشهداء أبو عبد الله الحسين بن علي «عليهما السلام»:

الموت أولى من ركوب العار والعار أولى من دخول النار
فالبصيرة في الدين والحمية في النفس كل واحد منهما سبب تام على أفرادهم ومظهراً من مظاهر الشجاعة لا نظير له.

سئل بعض العرب عن سبب تفاني العرب أيام صفين بحيث كانوا لا شامي ولا عراقي يولي الدبر حتى وقع البوار وكاد يعمهم الدمار، فأجاب بما معناه أنهم التقوا وعند بعضهم بصيرة الدين وعند بعضهم حمية النفس لأنهم قاربوا عهد بالجاهلية فتفانوا لذلك.

فمحض الديانة لا يكفي ولو أنضمت إليه أكثر الأسباب التي ذكرها كالغضب الذي يطفئ جمرته الخوف والرعب، فكم من متدين لا يشك في تدينه شديد الغضب والغيط على الكافرين قد أسلم نفسه للأسر طمعاً في الحياة ورجاء للسلامة، وآخر أشد منه بأساً ونجدة وأقوى عزماً ومضاء وأعظم شجاعة لم تخذعه بوارق الأطماع في الحياة الفانية، وحسبك شاهداً سرية الرجيع وملخصها أن الصحابة الذين بعثهم النبي ﷺ دعاة لأهل البادية إلى دين الإسلام ومبشرين به ومعلمين لأحكامه وكانوا ستة نفر يرأسهم عاصم بن أبي الأقلح الأنصاري (رحمه الله) حمي الدبر فغدرت بهم هذيل وطلبوا منهم أن يستأسروا فأمتنع من ذلك أربعة وأختاروا القتل على الأسر وهم عاصم زعيم السرية، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب، وخالد بن البكير هؤلاء الثلاثة جابهوا القوم بالامتناع من الأسر وعاصم يرتجز:

ما علتي أنا جلد نابل والقوس فيها وتر عنابل
تزل عن صفحتها المعابل الموت حق والحياة باطل
وكلما حم الإله نازل بالمرء والمرء إليه آيل
إن لم أقاتلكم فإني هابل

وكان عاصم قتل رجلين من آل عبد الدار يوم أحد فنذرت أمهما وهي سلافة امرأة من الأنصار كانت متزوجة في قريش إن ظفرت برأس عاصم أن تشرب في قحفه الخمر، فلما قتل أرادوا أخذ رأسه لبييعوه منها فإنها بذلت فيه أموالاً طائلة فحماه الله منهم بالدبر وهي الزنابير فكان يسمى لذلك حمي الدبر وكان نذر الله أن لا يمس مشركاً ولا يمسّه مشرك فوفى الله له حتى بعد موته فإنه أرسل سيلاً احتمله فألقاه في البحر، وخضع الثلاثة الباقون ورغبوا في الحياة فأسأسروا وهم عبد الله بن طارق وزيد بن الدثنة وحبیب بن عدي بليع الأرض، والثلاثة من الأنصار فلانوا وورقوا ورغبوا في الحياة فأعطوا بأيديهم فأسروا ثم إن عبد الله بن طارق اختار سبيل أصحابه المقتولين فأجذب يده من الوثاق وأخترط سيفه فقاتل حتى قتل، وأخذت هذيل صاحبيه زيداً وخبيباً فباعتهما بمكة من قريش فقتلوهما رشقاً بالنبال رضوان الله عليهما، ولهما قصة مشجية وساء رسول الله ﷺ مصابهما لأنهم جعلوهما هدفاً للنبال وتركوهما من غير دفن، فأرسل عمرو بن أمية الضميري فأحتمل خشبة خبيب ولما أحس به الحرس رمى بها في بعض الشعاب فابتلعت الأرض بخشبتة فسمي بليع الأرض ولا يشك أحد فضلها وصلابتهما في دينهما مع شجاعتهما فكانت موة أصحابهما أفخر وأذكر.

نعم، الشجاع المتدين يأنف أن يعتذر مما يعتذر منه الشجاع المنافق لأنه يثق بحمد العاقبة وسعادة الأبد بنيل الجزاء المضاعف والحباء الجزيل الذي لا يرتجيه الشجاع الفاسق لذلك يفر ويعتذر، هرب الحارث بن هشام المخزومي يوم بدر عن أخيه أبي جهل «لعنه الله» وعن عشيرته فغيرته قريش فأعتذر عن ذلك بقوله:

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى علو كرشي بأسمر مزبد
وشممت ريح الموت من تلقاءهم أقتل ولا يضرر عدوي مشهدي
ففرت عنهم والأحبة فيهم طمعاً لهم بإياب يوم مفسد
ولما سمع كسرى هذه الأبيات قال: قاتل الله العرب لقد حسنت كل شيء حتى الفرار، وأنهزم بعض قواد عبيد الله بن زياد من الخوارج فغضب عليه فقبل له: قد غضب عليك الأمير، فقال: يغضب وأنا حي خير من أن يرضى وأنا ميت، وهذا الباب واسع جداً.

الشجاعة مفخرة للعرب

الشجاعة مفخرة من مفاخر العرب ورداء مجد من أروية الإسلام وقد ندب إليها الشارع المقدس وأكد عليها في سبيل نصرة الدين وإحياء الحق، وفي آيات

القرآن ما يغني عن إيراد متون الأحاديث الحاضرة على الثبات والصبر في وجوه أعداء الدين والمحرضة على الإقدام والإقحام في لقاء المشركين فإنه تعالى يقول: ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾^(١)، ويقول: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾^(٢) ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾^(٣) أراد بالغلظة الشدة وقوة القلب لا شراسة الأخلاق وفضاضة الطباع لقوله تعالى في صفة المؤمنين: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(٤).

ثم نهى تعالى عن الفرار بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْبَارَ﴾^(٥) وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَ ذُنُوبِهِ إِلَّا مُنْجَرِفًا يُقَالُ أَوْ مُتَحَرِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِقَضَبٍ مِنَ اللَّهِ^(٥). ثم إنه تعالى أخبر عن محبته لأهل الثبات على مراكزهم مصطفىين متراصين تراص البناء فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَنٌ مَرْصُورٌ﴾^(٦).

فالشجمان في الجهاد إذا لزموا مراكزهم وتراصوا تراص البنيان ولم يتركوا فرجة يقتحمها العدو أدركوا من عدوهم ما طلبوا ولم يدرك منهم عدوهم ما طلب فلذلك كان الله تعالى يحبهم، وقد أستوفينا هذا البحث في كتابنا «السياسة العلوية» في فصل الحرب والجيوش والقيادة والتنظيمات فراجعه فإنه مسهب.

ما قيل في الشجاعة والشجمان

عن محاضرات الراغب الأصبهاني^(٧): قيل: الشجاعة صبر ساعة. أحسب أن هذا القائل الذي حكى عنه الراغب أخذ كلامه هذا من قول مالك الأشتر يوم صفين لأهل العراق: أعيروني جماجمكم ساعة فقد بلغ الحق مقطعه. قال الراغب: كتب زياد إلى ابن عباس: صف لي الشجاعة والجبن والجود والبخل؟ فقال: الشجاع من يقاتل عمن لا يعرفه، والجبان يفر عن عرسه، والجواد يعطي من لا يلومه حقه، والبخل يمنع من نفسه. شاعر:

يفر جبان القوم عن أم نفسه ويحمي شجاع القوم من لا يناسبه

(٢) الأنفال: ٤٥.

(٤) الفتح: ٢٩.

(٦) الصف: ٤.

(١) آل عمران: ٢٠٠.

(٣) التوبة: ١٢٣.

(٥) الأنفال: ١٦، ١٥.

(٧) المحاضرات ٥٧/٢.

وسئل فيلسوف عن الشجاعة فقال: جيلة نفس أبيه.

وقيل: الرجال ثلاثة: فارس وشجاع وبطل؛ فالفارس الذي يشد إذا شدوا، والشجاع الداعي إلى البراز والمجيب له، والبطل الحامي لظهورهم إذا أنهزموا إلخ.

وللشجاع مراتب عند العرب؛ قال الجاحظ في البيان والتبيين^(١): قال أبو عبيدة: يقال للفارس شجاع فإذا تقدم ذلك قيل بطل فإذا قدم شيئاً قيل بهمة فإذا صار للغاية قيل أليس، العجاج:

أليس عن حوبائه سخي

أشعار العرب في الشجاعة كثيرة منها قول بعضهم:

إذا استلب الخوف الرجال قلوبها صبرن على الموت النفوس الغوالي
حذار الأحاديث التي غب يومها عقدن بأعناق الرجال المخازيا
وقال أعشى بن قيس بن ثعلبة الأعشى الأكبر:

جعل الإله طعامنا في مالنا رزقاً تضمنه لنا لن ينفدا
ضمنت برزق عيالنا أرماحنا ملأ المراجل والصريح الأجردا
وقال أبو فراس الحمداني:

صبور وإن لم تبق مني بقية قؤول ولو أن السيوف جواب
وقور وأحداث الليالي تنوشني وللموت حولي جيئة وذهاب
وقال السلامي:

إذا فاجئته الخيل لم ينتظر بها لحوق رجال وأجتماع مقانب
قد أنبأتنا الآثار التاريخية المعتمدة بصدور هذه الفعلة الكريمة لرجال والقبيلة؛
أما الرجل فهو مسلم بن عوسجة الأسدي الشهيد مع الحسين «عليه السلام» حسبما
ذكرنا في ترجمته من كتابنا (أعلام النهضة الحسينية) وقد قال شيث بن ربعي: رأيت
ونحن بسلق آذربيجان قتل ستة من المشركين قبل أن تلتئم خيول المسلمين.

وأما القبيلة فهم بنو تميم فقد فعلوا ذلك يوم الكلاب الثاني وهو يوم الصفقة
وقصة هذا اليوم من أطول القصص وأفضعها هولاً قتل فيها ملوك اليمن الأربعة
وسائر قوادهم.

والشاهد من القصة برواية المبرد: قال ضمرة بن لبيد الحماسي: أنظروا إذا سقتم النعم فإن أتكتم الخيل عصباً العصبه تنتظر الأخرى حتى تلحق بها فإن أمر القوم هين، وإن لحق بكم القوم ولم ينتظر بعضهم بعضاً حتى يردوا وجوه النعم فإن أمرهم شديد وتقدمت سعد والرباب في أوائل الخيل وألتقوا بالقوم فلم يلتفتوا إليهم وأستقبلوا النعم ولم ينتظر بعضهم بعضاً ورئيس الرباب النعمان بن الحسحاس ورئيس بني سعد قيس بن عاصم، وأجمع العلماء أن قيس بن عاصم رئيس بني تميم إلى آخر القصة^(١).

غايات الشجمان ومقاصدهم

وقد استبان لك مع جميع ما ذكرنا أن لكل شجاع غاية ينحوها وهدف يرمي إليه إما قصد تأسيس مملكة وإشادة سلطنة أو دفاع عن وطن أو تخلص عن ذل واستبعاد أو اكتساب رفعة ووجاهة أو نيل مرتبة سامية وما شاكل ذلك من المقاصد العقلانية وأنبأها المحاماة عن الإعراض والكفاح على الدين والمحاماة عن عظيم من العظماء الروحانيين كل هذه الغايات من مقاصد الشرف ومناحي المجد والسؤدد وهي مقدرة عند جميع ذوي العقول ومحترمة لدى كافة النبلاء وأقربها للمحامد وأحراها بالتبجيل والاحترام من كان دفاعه نصرة للحق والعدل وتشيداً للدين ومكافحة للاستبداد الممقوت والجور الصارم والمدافعة عن نفس يجب حفظها بكل ما يمكن الوصول إليه (كنفس النبي والإمام) المعصوم المفترضة طاعتهما على الخلق أجمعين وجميع هذه الغايات النبيلة.

من مقاصد أبي الفضل العباس بن أمير المؤمنين علي «عليهما السلام»:

فإن غرضه الأقصى الذي ينحوه وهدفه الأبعد الذي يسدد الرمية إليه هو نصرة الدين وحماية الإمام الحسين «عليه السلام» إمام الحق والعدل الذي قام يكافح استبداد ولادة الجور من آل حرب ورعاة النفاق والفجور ومأحي الإسلام ومأحي السنة ومحبي البدعة والأضاليل من بني أمية وقد صرح أبو الفضل «عليه السلام» ببعض مقاصده كقوله:

أذب عن دين النبي أحمد

وكقوله:

إني أحامي أبداً عن ديني وعن إمام صادق اليقين

(١) أنظر: العقد الفريد ٣/٣٦٣.

وكقوله :

نفسي لنفس السيد الطهر وقا

صرحت كل هذه الأشعار التي لا شبهة أنه قائلها بأن أقصى غاياته المدافعة عن إمامه الحسين «عليه السلام» ونصرة دين الله الذي قهرته سلطة بني أمية وأذله أستبدادهم الجبار ومحفته أثرتهم الفاجرة.

شجاعة العباس الأكبر

أما شجاعته «عليه السلام» فهي المثل الأعلى ووصفها الأكمل ونعتها الأتم وهي عظمة الأثر في صفوف أهل الكوفة شديدة النكاية فيهم وقد تفنن الشعراء في نعتة بالشجاعة فنوناً سنتلوا عليك بعضها هنا وفي فصل تأيينه.

حضور العباس «عليه السلام» صفين

قد شهد قبل كربلاء صفين وفي بعض الكتب الفارسية أنه كان محارباً ويشهد له ما ذكره الخطيب الخوارزمي الحنفي في كتاب المناقب أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» لبس ثياب ابنه العباس في بعض أيام صفين لما برز لقتال كريب فارس أهل الشام وحيث أن هذه القصة تشبه بقصة العباس بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب لزمنا نقل القصتين ليرتفع الإشكال ويزول الشك فإنه ذكرهما معاً لفظه: ثم خرج من عسكر معاوية كريب بن أبرهة من آل ذي يزن وكان مهيباً قوياً يأخذ الدرهم فيغمره بإبهامه فتذب كتابته، فقال له معاوية: إن علياً يبرز بنفسه وكل أحد لا يتجاسر على مبارزته وقتاله، فقال كريب: أنا أبرز إليه فخرج إلى صف أهل العراق ونادى: ليبرز إلي علي، فبرز إليه مرتفع بن وضاح الزبيدي فسأله: من أنت؟ فعرفه بنفسه فقال: كفؤ كريم ثم تكافحا فسبقه كريب بالضربة فقتله ونادى: ليبرز إلي اشجعكم أو علي، فبرز إليه شرحبيل بن بكر وقال لكريب: يا شقي! ألا تفكر في لقاء الله ورسوله يوم الحساب من سفك الدم الحرام؟ فقال كريب، إن صاحب الباطل من آوى قتلة عثمان وهو صاحبكم ثم تكافحا ملياً فقتله كريب، ثم برز إليه الحارث بن اللجلاج الشيباني وكان زاهداً صواماً قواماً وهو يقول:

هذا علي والهدى حقاً معه نحن نصرناه على من نازعه

ثم تكافحا فقتله كريب فدعا علي «عليه السلام» ابنه العباس وكان تاماً كاملاً

من الرجال فإمره أن ينزل عن فرسه وينزع ثيابه ففعل فلبس علي «عليه السلام» ثيابه وركب فرسه ولبس ابنه العباس «عليه السلام» ثيابه وركب فرسه لثلاثين كريب عن مبارزته، فلما هم علي «عليه السلام» بذلك جاء عبد الله بن عدي الحارثي وقال: يا أمير المؤمنين! بحق إمامتك أئذن لي في مبارزته فإن قتلته وإلا قتلت شهيداً بين يديك، فأذن له علي «عليه السلام» فتقدم إلى كريب وهو يقول:

هذا علي والهدى يقوده من خير عيدان قريش عوده
لا يسأم الدهر ولا يروده وعلمه معاجز وجوده

فتصاولا ساعة ثم صرعه كريب ثم برز إليه علياً «عليه السلام» متنكراً وحذره الله وسخطه فقال كريب: أترى سيفي هذا؟ قد قتلته به كثيراً مثلك، ثم حمل علي علي «عليه السلام» بسيفه فأتقاه بجحفته ثم ضربه علي «عليه السلام» على رأسه فشقه حتى سقط نصفين وأنشأ علي «عليه السلام» يقول:

النفس بالنفس والجروح قصاص ليس للقرن بالضراب خلاص

إلى آخر القصة، وفيها يذكر أن أمير المؤمنين علياً «عليه السلام» أمر ابنه محمد بن الحنفية بملازمة مصرع كريب لأجل منازلة من يثور طالباً بدمه وذكر أن محمداً قتل في هذا الموقف سبعة أبطال من الثائرين يطلبون بدم كريب، وقد ذكرنا القصة بطولها في كتاب «الميزان الراجح».

ثم ذكر قصة العباس بن ربيعة بما لفظه^(١) قال: برز اليوم التاسع عشر من حرب صفين من أصحاب معاوية عثمان بن وائل الحميري وسماه المسعودي وغيره غرار بن أدهم وكان يعد بمائة فارس وله أخ يسمى حمزة يعدهما معاوية للشدائد فجعل عثمان يلعب برمحه وسيفه والعباس بن الحارث^(٢) بن عبد المطلب ينظر إليه من ناحية مع سليمان بن صرد الخزاعي فقال له العباس^(٣): أبرز إليه وقد نهاني أمير المؤمنين «عليه السلام» وفي نفسي أنني أقتله فبرز إليه العباس وهو يقول:

بطل إذا غشي الحروب بنفسه حصد الرؤوس كحصد زرع مثمر

فتكافحا ملياً فلم يظفر أحدهما بصحابه، فقال سليمان للعباس: ألا تجد فرصة فقال فيه شجاعة ثم أنشئ عليه فضربه فرمى رأسه ووقف مكانه فبرز إليه أخوه

(١) المناقب للخوارزمي: ص ١٤٩.

(٢) العباس بن ربيعة بن الحارث ففي النسخة سقط.

(٣) في النسخة سقط ولعلها كما ذكر المؤرخون أنه دعاه إلى البراز فقال: أبرز وقد نهاني علي عليه السلام.

حمزة فأرسل إليه علي «عليه السلام» ونهاه عن مبارزته وقال له: إنزع ثيابك وناولني سلاحك وقف مكاني وأنا أخرج إليه فتكر علي «عليه السلام» وخرج إلى حمزة فظن حمزة أنه العباس الذي قتل أخاه فضربه علي «عليه السلام» فقطع أبطه وكتفه ونصف وجهه ورأسه فعجب اليمانيون وهابوا العباس وبرز إلى علي «عليه السلام» عمرو بن عبس الجمحي وكان شجاعاً فجعل يلعب برمحه وسيفه، فقال علي «عليه السلام» هلم للمكافحة فليس هذا وقت للعب، فحمل عمرو على علي «عليه السلام» حملة منكرة فاتقاه علي «عليه السلام» بجحفته ثم ضربه علي «عليه السلام» على وسطه فأبان نصفه وبقي نصفه على فرسه، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: ما هذه إلا ضربة علي «عليه السلام» فكذبه معاوية قال: قل للخيل تحمل عليه فإن ثبت مكانه فهو علي فحملوا عليه فثبت لهم ولم يتزعزع وجعل يقتل فيهم حتى قتل منهم ثلاثة وثلاثين رجلاً إلخ.

وهذا صريح أن العباس الأكبر كان فارساً بصفين كامل الأهبة والعدة يقف في صف المجالدين فيستعير أمير المؤمنين «عليه السلام» آله ولباسه فلا يفرق بينهما وقد صرح الكربلائي في معالي السبطين بأنه كان محارباً^(١) وقال: قال الطريحي: إن العباس «عليه السلام» كان مع أبيه أمير المؤمنين «عليه السلام» في الحروب والغزوات ويحارب شجعان العرب ويجالدهم كالأسد الضاري حتى يجدلهم صرعى، وفي يوم صفين كان «عليه السلام» عوناً وعضداً لأخيه الحسين «عليه السلام» وإن الحسين «عليه السلام» في فتح الفرات وأخذ الماء من أصحاب معاوية وهزم أبا الأعور عن الماء.

ثم قال: قال الحاج شيخ محمد باقر البرجندي القائي في كتابه المسمى الكبريت الأحمر: قال بعض من يوثق به بأن يوماً من أيام صفين خرج شاب من عسكر أمير المؤمنين «عليه السلام» وعليه لثام وقد ظهر منه من آثار الشجاعة والهيبة والسطوة بحيث أن أهل الشام قد تقاعدوا عن حربه وجلسوا ينظرون إليه وغلب عليهم الخوف والخشية فما برز إليه أحد، فدعا معاوية برجل من أصحابه يقال له ابن شعثاء وكان يعد بعشرة آلاف فارس فقال له معاوية: أخرج إلى هذا الشاب فبارزه، فقال: يا أمير المؤمنين! إن الناس يعدونني بعشرة آلاف فارس فكيف تأمرني بمبارزة هذا الفتى؟ فقال معاوية: فما تصنع؟ فقال: يا أمير! إن لي سبعة بنين أبعث إليه واحداً منهم ليقتله، فقال له: إفعل، فبعث إليه بأحد أولاده

فقتله الشاب ثم بعث إليه بآخر فقتله الشاب حتى بعث جميع أولاده فقتلهم الشاب فعند ذلك خرج ابن شعناء وهو يقول: أيها الشاب! قتلت جميع أولادي والله لأثكلنك أباك وأمك ثم حمل اللعين وحمل عليه الشاب فدارت بينهما ضربات فضربه الشاب ضربة قده نصفين فألحقه بأولاده فعجب الحاضرون من شجاعته عند ذلك صاح أمير المؤمنين «عليه السلام» ودعاه وقال: إرجع يا بني لثلاث تصيبك عيون الأعداء، فرجع وتقدم أمير المؤمنين «عليه السلام» وأرخى اللثام عنه وقبله بين عينيه فنظروا إليه فإذا هو قمر بني هاشم العباس بن أمير المؤمنين^(١)، الخ.

اعتذار المؤلف عن التواريخ العجمية

وكأنني أسمع بعض القراء لكتابنا هذا من منتحلي الثقافة ومدعي التنوير وزمرة من المتجددين الذين لا يريدون إثبات فضيلة لأهل هذا البيت النبوي المفخم وفئة من المتفقيين بلا معرفة وتمييز وهناك فئام يضرعون لأوهام وخيالات يسمونها بالعقول، والعقول بريئة من كل فكر سطحي وخيال وهمي سيقولون إذا مروا بهذه الحكايات: كيف أعتمد مؤلف «كتاب بطل العلقمي» في نقل هذه الحكايات على الكتب الفارسية والتواريخ الأعجمية ومؤلفوها يتمسكون بالواهيات ويعتمدون المراسيل ولو شهد العباس بن علي «عليهما السلام» صفيين وكان في صف المحاربين لذكره المؤرخون أساتذة فن التاريخ كالطبري والجزري والمسعودي وأضرابهم؟!!

فيظن من لا معرفة له ولا إلمام بحقائق الأشياء أن هذه المقالة مبتنية على أساس محكم وبناء مرصف في ركن وثيق وهي لدى التحقيق على جرف منهار قد جرفه السيل، وعلى رأس منار متداعي الأركان قد زعزعت العواصف وهده القواصف.

المؤرخون الذين لهم شهرة لم يضبطوا كل حادثة ولم يقفوا على كل قضية من القضايا التاريخية فبعض الوقائع قد وصل إليهم نبؤه وبعضها لم يصل والذي لم يصلهم أكثر مما وصل إليهم، وقد فات الطبري ما أستدركه عليه الجزري، وذكر المسعودي ما لم يذكره اليعقوبي، وهكذا فما وصل إليهم فقد ذكروه، وما لم يصل إليهم لم يبق في طي الخفاء المظلم بل برقت بارقة من ذلك العلم فأضاء لطالبيه وأسفر لرائديه فأقتضبوا منه شارده وأحتبلوا قنيصه فكان كالمستدرك على من فاته

(١) انظر ما نقله عن الكبريت الأحمر الفارسي المطبوع في إيران ٢ / ٢٤.

العلم به، وقد أستدرك الحاكم النيسابوري على صحيحي مسلم والبخاري من الأحاديث الصحيحة على شرطهما ما ساوى حجم الكتابين معاً، والصحاح الباقية الأربعة أو الثمانية بناء على جعل الصحاح عشرة عندهم كالأستدراك أيضاً على الصحيحين هذا من ناحية أهل السنة والجماعة.

وأما من ناحية أهل التشيع فقد أستدرك المرزا النوري على وسائل الشيعة للحر العاملي ما ساوى حجمها فليكن ما رواه هؤلاء العلماء من الأعاجم كالمستدرك على التواريخ المشهورة وليست بأقل من متفردات الأغاني لأبي الفرج.

على أن المؤرخين الشهيرين الطبري والجزري ذكرا أشهر رجال الإسلام شجاعة وتقدماً فيمن حضر صفين القعقاع بن عمرو التميمي فارس العرب وهو الذي كتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر يطلب منه أن يمدّه بجيش فأمدّه بالقعقاع وحده، فقال عمر بن الخطاب: أتمده برجل واحد؟ فقال أبو بكر: لا يهزم جيش فيه هذا ولم يضبطا له قصة تدل على نباهة ذكره في تلك الحرب التي تسابق فيها أبطال الإسلام على إحياء الذكر الخالد مع منافسة الشرف بين القطرين المتقابلين على أنهما في حرب الجمل ذكر له في صف علي «عليه السلام» صوتاً وملئاً تاريخيهما من آثاره في المغازي والفتوحات الإسلامية في مجالدة الفرس والرومان فأوردا له ما يدهش الألباب ويحير الفكر، وفي حربه مع علي «عليه السلام» بصفين ذكرا للخاملين من العرب أثراً ولم يذكرا له ولنظيره في الشجاعة عبيد الله بن الحر الجعفي مع زعمهما أنه شهد مع معاوية صفين وكذلك نظيره في الشهرة مالك بن مسمع البكري مع شهرة هذين الرجلين وسير أثرهما في الحروب الإسلامية فإذا جاز أن يقال أهمل ذكر هؤلاء الأبطال لعدم علمهما بما صدر منهما في ذلك الموقف جاز مثل ذلك في العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» وإذا جاز أن يقال إنهما لم يدونا كلما كان من الوقائع لأن في أستيفائها ما يربي على حجم الكتابين بالضعف قلنا أن موقف العباس الأكبر مما لم يدونه ودونه علماء الفرس.

وأما الاستبعاد لصغر السن وأن الممارسة للحروب مظهر الشجاعة فمسلم في غير أهل البيت «عليهم السلام» فإنهم أهل بيت الشجاعة والبطولة وإن صغر السن لا يحول بينهم وبين الشجاعة وعدم مباشرة الحروب لا يقصر بهم عن البطولة والفروسية.

هذا أبوه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» قد شهد بدرًا ولم يمارس حرباً قبلها وكانت سنة دون العشرين سنة وقد علمت ما جرى منه على صناديد قريش طواغيت العرب وجبابرتها حتى أفنى شجعانهم وأباد أبطالهم وفر منه أبطال لا يخطر ببال أحدهم إنهم يفرون ولا يتخيل متخيل إنهم ينهزمون مثل عمرو بن عبد ود العامري الذي قتله يوم الخندق وهو قائد الأحزاب، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي وهو صهره أحد من أقتحم الخندق مع عمرو بن عبد ود، والحرث بن هشام المخزومي شقيق أبي جهل وغيرهم.

وهذا أخوه محمد بن الأكبر المعروف بابن الحنفية ولد في آخر خلافة عمر بن الخطاب شهد البصرة مع أبيه وهو صغير السن ولم يشهد قبلها حرباً فأبدى من الفروسية ما أبهر الفرسان الماهرين وتعجب له أبطال العرب، فقد كان أبطال الصحابة من الأنصار كخزيمة بن ثابت ذي الشهادتين وغيره من كمات الأنصار يفضلونه بالشجاعة على كل أحد سوى أبيه وأخويه الحسن والحسين «عليهما السلام» فهو في تلك الحرب الطاحنة حامل لواء أبيه الأعظم ولا يحمل اللواء إلا الممتاز في الشجاعة.

وهذا مسلم بن عقيل بن أبي طالب «عليه السلام» كان صغيراً وعلمت ما فعل بأهل الكوفة قام يجالّد بلدة كالكوفة أعظم بلد في ذاك العصر ولم يعنه فيها أحد وكلها عليه مقاتلة وخاذلة حتى كانت النساء والصبيان يرمونه بالحجارة وأطنان القصب فيها النيران من أعالي السطوح ومع ذلك كله وشدة العطش والجوع يبىد كل جيش يلقاه حتى اضطرب اللعين ابن زياد وغضب على قائده ابن الأشعث وقال: رجل واحد يثلم فيكم هذه الثلثة العظيمة فكيف لو لقيتم الأعظم منه بأساً الأشد مراساً يعني الحسين «عليه السلام»، فكان جواب ابن الأشعث وفق ما نقول من أنه لم يكن بقالاً ولا جرمقناً بل هو أحد أسياف عبد المطلب يعني أن شجاعتهم غريزية وبالطبع لا لزوم لها بالممارسة والاختبار.

وهؤلاء فتیان بني أبي طالب الذين قتلوا يوم الطف فقد ظهر لهم من الشجاعة ما لم يظهر لكماة الأبطال على صغر السن وعدم مباشرة الحروب فإن علي بن الحسين الأكبر «عليهما السلام» سنة يوم الطف ثمانية عشر سنة - على المشهور - وقيل أقل وقيل أكثر، والقاسم بن الحسن «عليهما السلام» سنة خمسة عشر سنة وقيل أقل وقيل أكثر، وكل واحد منهما كان قبل حرب الطفوف ربيب ترف وأليف نعمة وكذلك عبد الله ابن مسلم بن عقيل كان سنة أحد عشر سنة وقيل أكثر.

وأما كون الفارس الذي قتله العباس «عليه السلام» يعد بعشرة آلاف فقد يجوز مثل ذلك ويصدر فقد ادعى عمران بن حطان السدوسي الخارجي الصفري أن مجزأة بن ثور البكري السدوسي فتح بلدة وحده فيما ذكر المبرد في الكامل ولفظه^(١):

وحدثت أن امرأة عمران بن حطان السدوسي قالت له: أما حلفت أنك لا تكذب في شعر؟ فقال لها: أو كان ذلك؟ قالت: نعم، قلت: فكذلك مجزأة بن ثور كان أشجع من أسامه أيكون رجل أشجع من أسد؟ فقال لها: ما رأينا أسداً فتح مدينة قط ومجزأة بن ثورة فتح مدينة ألخ وفتح مدينة واحدة يقابل عشرة آلاف. وأيضاً قد ذكر المؤرخون جميعاً في مقتله أنه هو والبراء بن مالك الأنصاري أخو أنس بن مالك قتل كل واحد منهما على باب تستر مائة رجل من الأعاجم وأقتحما الباب فقتلا وكان ذلك سبب فتح المدينة وقد ذكروا أن فيها جيشاً عظيماً حشدة الهرمزان لصدهجمات العرب المسلمين فغير عجيب أن يقابل الرجل عشرة آلاف.

ونحن لا نذكر أمير المؤمنين علياً «عليه السلام» لأنه أعظم من أن يقاس به أحد وإلا فقد كان جيش النبي ﷺ اثني عشر ألفاً فهزمته هوازن فيجب أن يكون جمع هوازن مكافئاً لجيش النبي ﷺ إن لم يكن أكثر وردهم أمير المؤمنين علي «عليه السلام» وحده بسيفه فقد قابل أكثر من عشرة آلاف ولكن لا يقاس بعلي «عليه السلام» إنسان ولكن حسبك بالأشتر النخعي وأمثاله ما يكون لك شاهداً على وجود أشخاص يعدون بالألوف.

إثبات شجاعة العباس بن علي «عليهما السلام»

ويكفي لإثبات شجاعته «عليه السلام» ما كان منه يوم كربلاء: أما عدد من قتلهم فمختلف فيه: ففخر الدين الطريحي (رحمه الله) ومن وافقه من العلماء «رضوان الله عليهم» فيقولون قتل ثمانين بطلاً، وصاحب الكبريت الأحمر وصاحب أسرار الشهادة وصاحب نور العين الشافعي فيقولون: ثمانمائة فارس، والجمع بين القولين سهل بحمل الثمانين على المشاهير من الأبطال وباقي العدد على ما دونهم، وبين هذين القولين أقوال بالزيادة والنقصان وأنا أذكر القولين وأترك ما عداهما.

قال فخر الدين الطريحي (رحمه الله) في المنتخب^(١): روي أن العباس بن علي «عليهما السلام» كان حامل لواء أخيه الحسين «عليه السلام» فلما رأى جمع عسكر الحسين «عليه السلام» قتلوا وإخوته وبني عمه بكى وإلى لقاء ربه اشتاق وحن فحمل الراية وجاء نحو أخيه الحسين «عليه السلام» وقال: يا أخي! هل من رخصة؟ فبكى الحسين «عليه السلام» بكاء شديداً حتى أبتلت لحيته بالدموع ثم قال: يا أخي كنت العلامة من عسكري ومجمع عددي فإذا أنت قتلت يؤل جمعنا إلى الشتات وعمارتنا تنبعث إلى الخراب، فقال العباس «عليه السلام»: فذاك روح أخيك ياسيدي قد ضاق صدري من حياة الدنيا وأريد أن آخذ الثار من هؤلاء المنافقين، فقال الحسين «عليه السلام»: إذا غدوت إلى الجهاد فأطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء.

فلما أجاز الحسين «عليه السلام» أخاه العباس برز كالجبل العظيم وقلبه كالطود الجسيم لأنه كان فارساً هماماً وبطلاً ضرغاماً وكان جسوراً على الطعن والضرب في ميدان الكفاح والحرب، فلما توسط الميدان وقف وقال: يا عمر بن سعد! هذا الحسين ابن بنت رسول الله ﷺ يقول لكم: قتلتم أصحابه وإخوته وبني عمه وبقي وحيداً فريداً مع أولاده وعباله وهم عطاشى قد أحرق الظمأ قلوبهم فأسقوه شربة من الماء فإن أطفاله وعباله وصلوا إلى الهلاك وهو يقول لكم: دعوني أذهب إلى طرف الروم والهند وأخلي لكم الحجاز والعراق وأشرط لكم أني غداً في القيامة لأخاصمكم عند الله حتى يفعل الله بكم ما يريد.

فلما أوصل إليهم العباس «عليه السلام» الكلام عن أخيه الحسين «عليه السلام» فمنهم من سكت ولم يرد جواباً، ومنهم من جعل يبكي، فخرج الشمر وشبث بن ربعي «لعهما الله» فجاء نحو العباس «عليه السلام» وقال: يا ابن أبي تراب! لو كان وجه الأرض ماء وهو تحت أيدينا ما سقيناكم منه قطرة إلا أن تدخلوا في بيعة يزيد، فتبسم العباس ومضى إلى أخيه الحسين «عليه السلام» وعرض عليه ما قالوا فطأ رأسه إلى الأرض وبكى حتى بل أزيافه فسمع الحسين «عليه السلام» الأطفال وهم ينادون: العطش العطش.

فلما سمع العباس «عليه السلام» رمى بطرفه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي! أريد أن أعتد بعدتي وأملأ لهؤلاء الأطفال قربة من الماء، فركب فرسه وأخذ رمحه والقربة في كتفه وكان قد جعل عمر بن سعد لعنه الله أربعة آلاف

(١) منتخب الطريحي ١/ ٢٧ مجلس ٤.

خارجي موكلين على الماء لا يدعون أحداً من أصحاب الحسين «عليه السلام» يشرب منه، فلما رأوا العباس «عليه السلام» قاصداً إلى الفرات أحاطوا به من كل جانب ومكان، فقال لهم: يا قوم! أنتم كفرة أم مسلمون؟ هل يجوز في مذهبكم ودينكم أن تمنعوا الحسين وعياله شرب الماء والكلاب والخنازير يشربون منه والحسين «عليه السلام» مع أطفاله وأهل بيته يموتون من العطش أما تذكرون عطش القيامة؟

فلما سمعوا كلام العباس «عليه السلام» وقف خمسمائة رجل فرموه بالنبال والسهم فحمل عليهم فتفرقوا هاربين كما يتفرق عن الذئب الغنم وغاص في أوساطهم حتى قتل منهم على ما نقل ثمانين فارساً فهمز فرسه إلى الماء وأراد أن يشرب فذكر عطش الحسين «عليه السلام» وعياله وأطفاله فرمى الماء من يده وقال: والله لا أشربه وأخي الحسين «عليه السلام» وعياله وأطفاله عطاشى، لا كان ذلك أبداً، ثم ملأ القربة وحملها على كتفه الأيمن وهمز فرسه وأراد أن يوصل الماء إلى الخيمة فأجتمع عليه القوم فحمل عليهم فتفرقوا عنه وسار نحو الخيمة فقطعوا عليه الطريق فحارهم محاربة عظيمة فصادفه نوفل الأزرق فضربه على يمينه فبراها، فحمل العباس «عليه السلام» القربة على كتفه الأيسر فضربه نوفل على كتفه الأيسر فقطعها من الزند، فحمل القربة بأسنانه فجاء سهم فأصاب القربة فأنفرت وأريق الماء، ثم جاء سهم آخر فوقع في صدره فقلب عن فرسه إلى الأرض فصاح بأخيه الحسين «عليه السلام»: أدركني، فساق الريح كلامه إلى الخيمة فلما سمع كلامه أتاه فرآه طريحاً فصاح: وا أخاه! وا عباساه! وا قرّة عيناه! وا قلة ناصراه! ثم بكى بكاء شديداً وحمل العباس «عليه السلام» إلى الخيمة، إنتهى.

وهذا حديث كتبناه كما وجدناه وهو يخالف المشهور من وجوه:

أحدهما: كون الذي قطع يديه نوف الأزرق والمشهور عند المؤرخين أن الذي قطع يديه زيد بن رقاد الجنبي من مذحج وحكيم بن الطفيل السنبسي من طي.

ثانيهما: إن الحسين «عليه السلام» حمله إلى الخيمة يعني خيمة الشهداء والمشهور أنه بقي في مكانه.

ثالثهما: إن الحسين «عليه السلام» تنازل لأهل الكوفة عن مخاصمتهم عند الله بدل سماحهم له بالأنصراف حيث شاء وهذا لا يصح بعد أن قتل أصحابه

وأهل بيته ولكن الطريحي فقيه معتمد وهو أعرف بمسلكه وعلينا نحن بيان العلل المانعة.

وأما القائلون بأن العباس «عليه السلام» قتل ثمانمائة فارس فنص الدربندي في أسرار الشهادة^(١): وفي رواية عبد الله الأهوازي عن جده قال: قال إسحاق بن حيوة «لعه الله» لما أقبل العباس «عليه السلام» بالجواد فثرنا عليه كالجراد الطائر فصيرنا جلده كالقنفذ.

قال: فحمل عليهم العباس ففترقوا عنه هاربين كما يتفرق عن الذئب الغنم وغاص في أوساطهم فقتل على ما نقل ثمانمائة فارس الخ والحديث مطول.

ترجيح قول الطريحي (رحمه الله):

هذا أمر لا يحتاج إلى البيان في اختيار أي الأقوال أقرب إلى المعقولة وإن كان لا منافاة بينهما لما ذكرنا ولكني أجد في مدرك التفكير أن العباس «عليه السلام» لا يجسر كل أحد على الدنو منه لشهرته بالشجاعة فلا يدنوا منه إلا الجريء المقدام ولا أجد من تهون عليه نفسه إلا عدد الثمانين فما دون وقد سمعنا من بعض المطلعين على سبيل المذاكرة أن الأشر النخعي يوم صفين كان يقتل العدد الذي يقتله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» عرف ذلك من تكبيره لأنه لم يقتل بطلاً إلا كبر فيعد الأشر التكبير فيجد ما قتله هو بعدد ذلك التكبير والسرف في هذا هو ما ذكرنا من أن المقدم على أمير المؤمنين علي «عليه السلام» أقل ممن يقدم على الأشر، وكان الناس يوصي بعضهم بعضاً بعدم مبارزته.

فقد قال معاوية بن أبي سفيان لحريث مولاه وكان فارس أهل الشام: أتق علياً وضع رمحك حيث شئت وقال لعمر بن العاص وقد أشار عليه بمبارزة أمير المؤمنين «عليه السلام» ياعمرو! إنما أردت قتلي لتصفو لك الشام، أما علمت أن ابن أبي طالب ما بارزه أحد إلا وسقى الأرض من دمه وكان عبيد الله بن عمر بن الخطاب من أشجع العرب مع معاوية يوم صفين دعا محمد بن الحنفية إلى المبارزة فأجابه محمد ونهاه أمير المؤمنين «عليه السلام» وقال: أنا أبرز إليه، فلما رآه ابن عمر مقبلاً ولى منصرفاً وقال: لا حاجة لي في مبارزتك، القصة بطولها.

فالشجاعة العباسية فرع الشجاعة العلوية قدت منها قدماً وهذا الشبل من ذاك الأسد، قد قيل فيه:

بطل تورث من أبيه شجاعة فيها أنوف ذوي الضلالة ترغم

وكان أبو الفضل العباس «عليه السلام» يوم كربلاء إذا استلحم أحد من أنصار أخيه الحسين «عليه السلام» شد على القوم وأستنقذه وليست المحاماة عن الأصحاب وأستنقاذ من أحاطت به الجيوش يوم كربلاء إلا له ولأخيه الحسين «عليه السلام» وهو حامي الكل، نعم ذكر المؤرخون ومنهم أبو جعفر الطبري في التاريخ^(١) قال: فأما الصيداوي عمر بن خالد وجابر بن الحارث السلماني وسعد مولى عمر بن خالد ومجمع بن عبد الله العائذي فإنهم قاتلوا في أول القتال فشدوا مقدمين بأسيا فهم على الناس فلما غلوا عطف عليهم الناس فأخذوا يحوزونهم وقطعوهم من أصحابهم غير بعيد فشد عليهم العباس بن علي فأستنقذهم فجاؤوا وقد جرحوا فلما دنا منهم عدوهم شدوا بأسيا فهم فقاتلوا في أول الأمر حتى قتلوا في مكان واحد، إنتهى.

للمؤلف:

أفديك يا قمر العشيرة منجداً
ما زلت تنجد في الحروب من اغتدى
أنجدت صحبك ضارباً ثبج العدى
وتركت جند المارقين جزائراً
فرقت جمع بني الخنا فتفرقوا
أنقذت صحبك والمنية أهدقت
لكن رأوا رفض الحياة غنيمة
علماً بأن الفوز بعد فراقها
وقد أكثر الشعراء من نعت العباس الأكبر «عليه السلام» بالشجاعة ويأتي في تأييده ذكر ذلك ومنه قول بعضهم:

هو العباس ليث بني نزار
هزبر أغلب تخذ أشتباك الر
فمدت فوقه العقبان ظلاً
أبي عند مس الضيم يمضي
ومن قد كان للأجي عصاما
ماح بحومة الهيجا أجاما
ليقربها جسومهموا طعاما
بعزم يقطع العضب الحساما

وفاء العباس الأكبر «عليه السلام»

ومن صفات العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» الوفاء، وهذا الخلق من أظهر أخلاقه الفاضلة وأشهر سجايه الكريمة فقد كان «عليه السلام» وفياً كريماً والوفاء شيمة موروثة له من أسلافه الكرام وسجية طبع عليها وهو غلام، والوفاء من أكرم خصال العرب ومن الصفات المحمودة التي حرص الشارع المقدس عليها وأكد الالتزام بها ونهى عن ترك التخلق بها.

مظاهر الوفاء:

كثيرة منها الثبات على البيعة وإمضاء العهد والوعد وإخلاص الطاعة للنبي والإمام المفروضة طاعته من الله تعالى نصاً ونحن قد كتبنا في كتابنا «السياسة العلوية» فصلاً مطولاً في الوفاء نقتضب منه موضع الحاجة هنا ليعرف على التحقيق ما هو الوفاء وما ثمراته وما فوائده.

معنى الوفاء لغة:

قال الفيروزآبادي في القاموس: وفى بالعهد كوعى وفاء ضد غدر كأوفى، والشيء وفى كصلى ثم وكثر.

وقال ابن الأثير في النهاية^(١): أوفى الله ذمتك أي أتمها ووفت ذمتك أي تمت، وأستوفيت حقي أخذته تماماً.

وقال الفيومي في المصباح المنير^(٢): وفيت بالعهد والوعد أفي به وفاء، والفاعل وفى، والجمع أوفياء وأوفيت به إيفاء وقد جمعهما الشاعر فقال:

أما ابن طوق فقد أوفى بذمته كما وفى لقلاص النجم حاديها

قال أبو زيد: أوفى نذره أحسن الإيفاء به، ثم قال كلام: وفى الشيء بنفسه يفي إذا تم، إنتهى.

وقد استبان من جميع هذه الفقرات أن الوفاء هو التمام والإتمام ومما لا شك فيه أن العباس الأكبر شهيد الطف قد تم على بيعة الحسين «عليه السلام» وأتم وعده له بالنصرة فلم يغير ولم يبدل.

معنى الوفاء عرفاً وعقلاً:

أما معناه العرفي فهو كاللغوي لا يختلف عنه وهو معناه الشرعي، وأما معناه العقلي فقد قال الشريف الجرجاني في التعريفات^(١): الوفاء هو ملازمة طريق المواساة ومحافظة عهد الخلطاء، إنتهى.

والوفاء من نتائج العفة عند الفلاسفة لأنهم قالوا: أصول الفضائل أربعة: الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة.

مدح الوفاء وتوكيد الالتزام به:

آيات القرآن لا خفاء فيها على القارئ وهي كثيرة كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾^(٢)، وكقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾^(٣)، وكقوله في مقام المدح: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾^(٤)، وكقوله في مقام النهي: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾^(٥)، وكقوله في مقام الوعد والوعيد: ﴿فَمَنْ نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسْئُورِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٦)، وهي كثيرة، وكذلك الأحاديث مشهورة ومستفيضة وقد أوردنا كثيراً من الروايات في الوفاء في كتابنا «السياسة العلوية» وذكرنا فيه كثيراً من أشعار العرب وحكاياتهم ونورد هنا جملة من حكايات الأوفياء لينتفع بها الناظر ويقتدي بأهلها من أحب الوفاء وأشتاق إلى هذا الخلق الكريم والصفة الفاضلة مع كونها ذات معنى شريف فقد تشتمل على ما يروق النفس ويزيدها بسطة وأنشراحاً.

ثمرة الوفاء وفوائده:

فأطمئنان النفس وثقتها به ولولا الوفاء ما أطمأن شخص بشخص، ولا وثق إنسان بإنسان، وبالوفاء جرت المعاملات على نظام العدل وقطعت جرائم التعديات، وبه أنتظمت أمور الراعي والرعية إلى غير ذلك من الثمرات التي لا تجهل.

قال فخر الدين الطقطقي في الفخري^(٧): ووفاء الملوك وهو الأصل في تسكين القلوب وطمأنينة النفس ووثوق الرعية بالملك إذا طلب الأمان منه خائف

(١) التعريفات: ص ١٧٤.

(٢) المائدة: ١.

(٣) الإسراء: ٣٤.

(٤) المؤمنون: ٨.

(٥) النحل: ٩١.

(٦) الفتح: ١٠.

(٧) الفخري: ص ٢١.

أو أراد المعاهدة منه معاهد، إنتهى.

وليس وجوب الوفاء خاصاً بالعهد بل يجب الوفاء بالوعد أيضاً وبالنذر وبالبيعة وللجار والنزيل وبالطاعات كلها؛ لأن الله تعالى أخذ العهد والميثاق على العباد وهم في الأصلاب حين قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾^(١) وأشهدهم بذلك على أنفسهم وقد ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة أن الحجر الأسود يشهد من أستلمه من العباد بالموافاة للحج وإذا وجب ذلك بحسب الميثاق المأخوذ على العباد وجب الوفاء به على الإنسان ويجب قيام كل عضو من الإنسان في الوفاء بتكليفه الخاص به.

وذلك إن الباري تعالى بحكمته وبديع صنعه جعل لهذا النوع البشري عقلاً وجعله به يعي الخطاب ويفهم المراد ثم خلق له خمسة حواس جعلها خادمة للعقل ونزلها منزلة ألواسيس للملك يتجسسون له الأخبار ويحفظونها في محفظة وثيقة كمحفظة لواسيس الملك السياسي فيعرضونها عليه وأولئك الواسيس الذين يعرفون بالحواس الخمسة وهي السامعة والباصرة والشامة والذائقة واللامسة وحيث أن الملك السياسي منذ الطفولية يحتاج إلى تثقيف وتهذيب وتربية عالية ليحسن السياسة وتدير الملك فلا بد له من مهذبين أساتذة فنيين ومعلمين جهابذة ماهرين يدرسونه كتب السياسة ويمرنونه على تفننات عظماء الرجال ليصبح ماهراً في السياسة خريئاً في الكياسة.

فهذا الملك الروحاني الذي هو العقل يحتاج إلى التهذيب العلمي والتثقيف العملي لأن صفة الكمال لله تعالى وحده وكل مخلوق له محتاج إليه أبتعث الله الأنبياء وارسل وأنزل الكتب السماوية عليهم وتتابع الوحي والإيحاء من قلبه إليهم على أيدي السفارة الكرام من الملائكة البررة والغرض من ذلك تهذيب هذا الملك الروحاني الذي هو العقل والملكة الكيسة السيدة المحترمة التي هي النفس الإنسانية.

فالأنبياء «عليهم السلام» هم المصلحون للبشر فحددوا الحدود وبينوا الأحكام عن الله تعالى التي هي سياسة الخالق للمخلوق وجعلوها نوعين: جعلوا نوعاً منها موظفاً على الملك والملكة وهما العقل والنفس وهذا هو اعتقاد وحدانية الله تعالى واعتقاد صفاته الكمالية والجلالية ونفي الضد والند والشريك عنه إلى آخر ما قرره العلماء في علم الكلام وفن الحكمة.

واعتماد النبوات وأنه لا بد منها لتتميم النقص العقلي وسد خلله وتشديد

الأركان الكمالية فإن النبي مرشد للعقل والعقلاء وحاكم عليهما ومبين لما جهلا ومظهر لما خفي عليهما .

واعتقاد الإمامة وأنها منصب ديني بفرض إلهي وتعيين رباني وهي تبع للنبوّة في الفرض العالي إلا أن النبوّة للتأسيس والتشريع ، والإمامة للمحافظة عن زيغ التحريف والتبديل لئلا يقال كان على عهد النبي ﷺ كذا وأنا أرى كذا فإن في ذلك إبطال للنبوّة وهدم لمؤسساتها .

واعتقاد أن هناك داراً غير هذه الدار يجب فيها أستيفاء أجر العمل الذي يوجب المجازات طاعة وعصياناً كما أن هنا دائرة كبرى تعرض فيها أعمال الموظفين تنظر في الأعمال الجنائية ودائرة أخرى لأستيفاء رواتب الموظفين والعمال وتسليم المقرر مقابل عملهم ودائرة أستيفاء الراتب غير دائرة الجنایات فالجندي والشرطي يخدمان ويستحقان أجر العمل إن أحسنه ولهما الترفيع في الرتبة وإن أساء أستحقا العقوبة بالسجن أو الطرد أو انحطاط الرتبة على مقدار الجنایة يكون الجزاء إلى آخر ما هو معروف في القوانين المدنية .

النوع الثاني ما وظف على أعوان الملك وأتباع الملكة وهي الجوارح والأعضاء وهذا النوع يقسم أقساماً :

منها فروض بالفعل كالصلاة والصوم .

ومنها فروض بالترك كالغيبة والسعاية والبهتان .

ومنها للتهذيب فقط ويشبه في السياسة تمرين الجندي والتلميذ في الفنون الحربية والرياضية وهذا أيضاً في نوعين أفعال ويقال لها مستحبة ، وتترك يقال لها مكروهة ويلزم الجمع اسم السنن ومثال ذلك الصلاة في المسجد مستحبة وفي الحمام مكروهة .

ومنها غير فروض بل أحكام وحدود كالقطع في السرقة ، والرجم والجلد في الزنا ، والقصاص في القتل وما شابهها من الحدود والأحكام تجري في المعاملات والمصاهرات وما شابه ذلك وعلى منهاجها شرعت القوانين المدنية وجميع ذلك مشروح تفصيلاً في الكتب الفقهية فمن ترك شيئاً من هذه الواجبات الأصلية والفرعية فقد خالف الوفاء بالعهد المؤكد والميثاق الذي واثق الله تعالى به عباده حين قال : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾^(١) .

وقد كتبنا في كتابنا «السياسة العلوية» فصلاً مطولاً بينا فيه بسط التكاليف على جميع الأعضاء مثال ذلك اللسان وتكليفه الشرعي الذكر والشكر والقراءة

والصدق وقول كلمة العدل وغير ذلك من الأفعال المذكورة هناك، ومن تكليفه في التروك ترك الغيبة والبهتان والكذب بأنواعه وذوق المحرمات كالأشربة المذهبة للعقل وغير ذلك وليس هذا الكتاب موضع ذكر ذلك وإن كان عظيم الفائدة كثير النفع.

الوافون من العرب:

أما الأوفياء من العرب فكثيرون ونحن نورد بعض الأقايصص المحكية من وفاءهم وندع الكثير لطالبه.

قال صلاح الدين الصفدي الشافعي في شرح لامية العجم^(١): وأما الوافون فكثير منهم أوفى بن مطر المازني كان جاوره رجل ومعه امرأة فأعجبت أخا أوفى وكان لا يصل إليها مع زوجها فوثبت عليه فقتله فبلغ ذلك أوفى فقتل أخاه وقال: سعت على قيس بذمة جاره لأمنع عرضي إن عرضي ممنوع والحارث بن عباد أسر عدي بن ربيعة وهو مهلهل وكان طلبته وهو لا يعرفه فقال له: إن دلتك عليه - يعني مهلهلاً - فأنا أمن؟ فأعطاه ذلك، فقال: أنا عدي بن ربيعة، فخلي سبيله.

والسمؤل بن عادي اليهودي ذبح ابنه وهو ينظر إليه من الحصن ولم يدفع لقاتله دروع أمرئ القيس التي عنده وقصته مشهورة.

وعوف بن محلم الشيباني وكان من وفاء مروان بن زنباع العبسي قد وتر عمرو بن هند اللخمي فجعل على نفسه إن لا يؤمنه حتى يضع يده في يده، ثم إن مروان غزى بكر بن وائل فأسره رجل من بني تيم الله ولم يكن عرفه فخاف مروان أن يبلغ عمرو بن هند مكانه فيبعث إليه من يأخذه منه فسمع أم آسره تقول لابنها: كأنك أسرت مروان، فقال مروان: وما تأملين من مروان؟ فقالت: مائة بغير، قال: هي لك إن أدبتموني إلى عوف بن محلم، قالت: ومن لي بالوفاء؟ فأخذ مروان عوداً من الأرض وقال: هذا لك بالوفاء فحمله ابنها إلى قبة عوف بن ملحلم فلم يجده فأجارته أبنته خماعة وبلغ عمرو بن هند مكانه فبعث في طلبه فأبى عوف أن يسلمه إلا أن يؤمنه، فقال: آليت أن لا أؤمنه حتى يضع يده في يدي، فقال له عوف: إني أبر قسمك على أن أجعل يدي بين يدك ويده ففعل وآمن مروان، ثم إن مروان وفي بوعده للعجوز بمائة ناقة.

(١) شرح لامية العجم ٢/٢٠٦.

وتشبه هذه القصة قصة حاجب بن زرارة كان قد تدير هو وأهله أرض العراق فأنكر ذلك والي الحيرة فكتب إلى كسرى ذلك، فكتب إليه كسرى: إن أرادوا أن يرعوا بأرضنا فليقدم علينا وفدهم ويعطونا رهائن منهم، فقدم حاجب بن زرارة فلما وافقه على ما يريده طلب منه الرهائن، فقال حاجب: ليس معي سوى قوسي فخذها، فضحك منه أصحاب كسرى فقال لهم الملك: خذوها منه فإنه لن يسلمها وذهب فوفى بما وعد وذلك معدود في مآثر بني تميم الخ.

وهذه قصص أختصرها الصفدي فاختلت.

قال المبرد في الكامل^(١): عن أبي عبيدة قال: كانت السواقط - أي الثمارة بلسان عوام البصريين اليوم - ترد اليمامة في الأشهر الحرم لطلب التمر فإن وافقت ذلك وإلا أقامت بالبلد إلى أوانه ثم خرج في شهر حرام فكان الرجل منهم إذا قدم يأتي رجلاً من بني حنيفة وهم أهل اليمامة فيكتب له على سهم أو غيره فلان جار فلان، والسواقط من ورد اليمامة من غير أهلها وقد كان النعمان بن المنذر أراد أن يجلبهم منها فأجارهم مرارة بن سلمى الحنفي فسوغه الملك ذلك فقال أوس بن حجر يحض النعمان عليه:

زعم ابن سلمى مرارة أنه مولى السواقط دون آل المنذر
منع اليمامة سهلها وحزونها من كل ذي تاج كريم المفخر

وذكر أبو عبيدة أن رجلاً من السواقط من بني أبي بكر بن كلاب قدم اليمامة ومعه أخ له فكتب له عمير بن سلمى أنه له جار وكان أخو هذا الكلابي جميلاً، فقال قرين أخو عمير: لا تردن أبياتنا بأخيك هذا فرآه بعد بين أبياتهم فقتله، وأما المولى فذكر أن قريناً أخو عمير يتحدث إلى امرأة أخي الكلابي فعثر عليه وزوجها فخاصمه عمير عليها فقتله وكان عمير غائباً، فأتى الكلابي قبر سلمى أبي عمير وقرين فاستجار به وقال:

وإذا أستجرت من اليمامة فاستجر زيد بن يربوع وآل مجمع
وأئت سلمياً فعذت بقبره وأخو الزمانة عائد بالأمنع

أقرين أنك لو رأيت فوارسي بعمادتين إلى جوانب سلفع
حدثت نفسك بالوفاء ولم تكن للغدر خائنة مغل الأصبع

فأتى قرين إلى قتادة بن مسلمة بن عبيد فحمل قتادة إلى الكلابي ديات

متضاعفة وفعلت وجوه بني حنيفة مثل ذلك فأبى الكلابي أن يقبل، فلما قدم عمير قالت له أمه وهي أم قرين: لا تقتل أخاك وسق للكلابي جميع ماله، فأبى الكلابي أن يقبل وقد لجأ قرين إلى خاله السمين بن عبد الله فلم يمنع عميراً منه فأخذه عمير فمضى به حتى قطع الوادي فربطه إلى نخلة وقال للكلابي: أما إذا أبيت إلا قتله فأمهل حتى أقطع الوادي وأرتحل من جوارى فلا خير لك فيه، فقتله الكلابي، ففي ذلك يقول عمير:

قتلنا أخانا للوفاء بجارنا وكان أبونا قد تجير مقابره
وقالت أم عمير:

تعد معاذراً لا عذر فيها ومن يقتل أخاه فقد ألما

انتهى، وقد جرى نظير هذه القصة في عصرنا في قبيلة آل ظفير البدوية الشهيرة وكانت تفي للجار على عادة العرب القدماء وكانت مشيختهم لآل سويط فجاور جعيلان السويط وحمود السويط جار من حرب وكانا هما الرئيسان فعدا ولد لجعيلان على ولد الحربي فقتله فغضب الحربي وأراد الانتقال عن جوارهم فمنعاه وصار عزم الرئيسين على ذبح ابنهما فذبّحاه بجارهما وفاء بالجوار، هذه كانت شيمة العرب والوفاء معدود في مفاخرها.

قال الخفاجي في سر الفصاحة: وأما الوفاء فمن دينهم الذي كانوا يرونه لازماً ومذهبهم الذي كانوا يعتقدونه حقاً حتى صار من تمسك بجوارهم أو تعلق ببعض أطنابهم تبذل النفوس دونه وتراق الدماء في المنع منه، فكم قتل الرجل منهم أقرب الناس إليه نسباً وأمسهم به رحماً، وكم من وقعة عظيمة وحرب جلييلة طويلة جرّها ضيم نزيل أو التعرض لسب جار كالحال في حرب البسوس التي ساقها ما علم من قتل كليب لناقة جارة جسّاس وأستفحلت لذلك وتمادت حتى شهدت الأجنة شيباً، فأما السمؤل ورضاه بقتل ابنه دون الدروع التي كانت وديعة عنده وأبو داود الأيادي في قوده بجاره فمما هو متداول لا خفاء بتقصير جميع الأمم عنه، إنتهى.

ومن هنا تعرف أن أهل الكوفة ليسوا من أحرار العرب ولا من نجباءهم فليست فيهم شيم الأحرار ولا سجايا الكرام بل هم أجلاف الأجلاف وأنذال الأنذال لم يقوموا بواجب الوفاء الإسلامي الذي أوجبه شريعة الإسلام للحسين «عليه السلام» وهو الطاعة التي لزمته من الجهة التي ذكرنا في التكليف، ولا وفوا بالوعد لأنهم وعدوه بالنصرة حين كاتبوه، ولا وفوا بالعهد لأنهم عاهدوه إن

قدم عليهم أخرجوا عمال بني أمية، ولا وفوا له بالبيعة لأنهم بايعوه، فهذه أمور أربعة أوجب الشرع الوفاء بها وغدر بها أهل الكوفة ولم يقوموا بواجب الوفاء العربي الجاهلي الذي أوجبه شرف النفس والنجابة العربية من الوفاء للجار والنزول لأنه أصبح جارهم بكرىلاء ونزيراً لها بعراض الطفوف وما وفوا له بمنته عليهم فكافؤه بيده عندهم حيث سقى منهم ألف فارس قد أشرفوا على التلف ولولاه لقطع العطش أعناقهم فخالفوا جميع هذه الأصول المقدسة في الشرع، المحترمة في الجاهلية فجذوا في حربه وأجتهدوا وما قصرُوا عن فعل كل قبيح ممجوج ولا وقفوا عن ارتكاب كل ذميم ممقوت فأرتكبوا عظام الأمور ومستفظعات الأفعال من ذبح الأطفال وقتل النساء وهتك الأستار إلى آخر ما هو مذكور في قصة مقتله «عليه السلام».

والعرب كانت تشكر المنة اليسيرة حتى النساء فقد كان دريد بن الصمة الجشمي فارس هوازن أعار ربيعة بن مكرم الكناني رمحاً في بعض الوقائع ثم إن كنانة أسرت دريداً فلما نظرتة امرأة ربيعة وهي ابنة جذل الطعان نادت: يامعشر كنانة! قد فضحتكم في مجدكم، إن أسيركم هذا قد أعار فارسكم يوم الظعن رمحاً، فقاموا إليه وحلوا وثاقه وأطلقوه مكافئة له باليد اليسيرة التي أسداها لربيعة بن مكرم، والحسين «عليه السلام» مع تلك اليد البيضاء التي أحيا بها ألف فارس وألف فرس كافئته أجلاف أهل الكوفة بتحريم الماء عليه وعلى عياله.

وقصة مروان القرظ العبسي الذي أجاره عوف بن محلم الشيباني إنما كان مكافئة له لأنه أجار أبنته خماعة فأجاره عوف مكافئة بيده وسنعيد القصة بنصها لتعرف مقدرة العرب على المكافئة ووفاءها باليد وسقوط أهل الكوفة في حفرة الندالة وهوة الجلفية.

قال الميداني في مجمع الأمثال^(١): أوفى من عوف بن محلم كان من وفاءه أن مروان القرظ بن زنباع غزى بكر بن وائل فقصوا أثر جيشه فأسره رجل منهم وهو لا يعرفه فأتى به أمه فلما دخل عليها قالت له أمه: أنك تختال بأسيرك كأنك جئت بمروان القرظ، فقال لها مروان: ما ترتجين من مروان؟ قالت: عظم فدائه، قال: وكم ترجين من فدائه؟ قالت: مائة بعير، قال: ذلك لك علي أن تؤديني إلى خماعة بنت عوف بن محلم، وكان السبب في ذلك أن ليث بن مالك المسمى بالمنزوف ضرطاً لما مات أخذت بنو عبس فرسه وسلبه ثم مالوا إلى خبائه فأخذوا

أهله وسلبوا أمراته خماعة بنت عوف بن محلم وكان أصابها عمرو بن قارب وذوآب بن أسماء فسألها مروان القرظ من أنت؟ فقال: أنا خماعة بنت عوف بن محلم فأنزعها من عمرو وذوآب لأنه كان رئيس القوم وقال لها: غطي وجهك^(١) والله لا ينظر إليه عربي حتى أردك إلى أبيك، ووقع بينه وبين بني عبس شر بسببها. ويقال: إن مروان قال لعمرو وذوآب: حكمانني في خماعة، قالوا: قد حكمناك يا أبا صبهان، قال: فإني أشتريتها منكما بمائة من الإبل وضمها إلى أهله حتى إذا دخل الشهر الحرام أحسن كسوتها وأخدمها وأكرمها وحملها إلى عكاظ فلما إنتهى بها إلى منازل بني شيبان قال لها: تعرفين منازل قومك ومنزل أبيك؟ فقالت: هذه منازل قومي وهذه قبة أبي، قال: فانطلقي إلى أبيك فانطلقت وخبرت بصنيع مروان، فقال مروان فيما كان بينه وبين قومه في أمر خماعة وردها إلى أبيها.

رددت على عوف خماعة بعدما خلاها ذوآب غير خلوة خاطب ولو غيرها كانت سبية رمحه ولكنه ألقى عليها حجابها فدافعت عنها ناشباً وقبيله ففاديتها لما تبين نصفها صهابية حمر العتائين والذرى

رجاء ثواب أو حذار العواقب وفارس يعبوب وعمرو بن قارب بكوم المتالي والعشار الضوارب مهاريس أمثال الصخور مصاعب

لجاء بها مقرونة بالذوائب

في أبيات مع هذه فكانت هذه يد مروان عند خماعة وذكر باقي القصة كما نقلناها عن الصفدي.

هكذا كانت شيم الأحرار وشهامة العرب الأماجد فإنهم بأنفون لابنه الرئيس أن تؤسر أو تسلب أو يجرى عليها بعض الهوان لذلك أنف هذا العربي الكريم لأبنة زعيم ربيعة وإن كان عدواً له ولقومه وأستاء لأنكسارها فأختار مبادعة قومه على هوان هذه الكريمة فرأى من واجب الشرف العربي الغيرة على هذه العقيلة لتحفظ من الهوان فأشترها من قومه بماله بعد خصام شديد وكساها فاخر الكسوة وعين لها خادمة تخدمها مناسبة لقدرها ثم حملها فأوصلها إلى قومها.

أن العروبة الصميمة تريك في أبناءها رونق الشهامة والمجد لا كلفيف

(١) هذه القصة ترغم أنف من يزعم أن العرب أهل سفور لأنها صريحة بلزوم الحجاب للحرائر والمسبية تعتبر جارية لذلك تسفر.

الأوباش وحثالة الأمم أهل الكوفة الزاعمين التأصل في العروبة، كلا والله هم أبعد منها بعد الثرى عن الثريا، فلو كانت عربيتهم خالصة من شوب الاختلاط وعروبتهم محضة صافية من كدورة سوء الانتساب لفعلوا فعل الأحرار وتنافسوا في مآثر المجد العربي يوم طف كربلاء فمنعنا من أسر عقيلة سادات البشر وأنفوا من سبي مخدرة الوحي المحجوبة بحجاب الجلال الحوراء زينب بنت أمير المؤمنين «عليه السلام» التي هي أشرف من خماعة جداً وأباً وأماً وأخاً وعمّاً وخالاً فأصبحت بين أولئك العلوج الأجلاف كما قيل:

تمسك باليسرى حشا قلبها وتعقد باليمنى مكان الخمار
يقول ذلك العربي الحر لخماعة: غطي وجهك والله لا يراك عربي، وبنت رسول الله ﷺ بين هؤلاء الفجرة اللثام كما قيل:

تتصفح البلدان صورة سبيها أشكال بارزة بذل المثل
ومن عجيب وفاء العرب ما ذكره الميداني في مجمع الأمثال من قصة الحارث ابن ظالم المري^(١): من وفاء الحارث أن عياض بن ديهث مر برعاء الحارث بن ظالم وهم يسقون فسقى فقصر رشائه فأستعار من أرشية الحارث فوصل رشائه فأروى إبله فأغار عليه بعض حشم النعمان فأطردوا إبله فصاح عياض: يا جاراه! يا جاراه! فقال الحارث: متى كنت جارك؟ فقال: أما وصلت رشائي برشاءك فسقيت إبلي فأغير عليها والماء في بطونها، قال: جوار ورب الكعبة، فأتى النعمان فقال: أبيت اللعن أغار حشمك على جاري عياض بن ديهث فأخذوا إبله وماله فأردده عليه، فقال النعمان: أفلا تشد ما وهي من أديمك؟ يريد أن الحارث قتل خالد بن جعفر بن كلاب في جوار الأسود بن المنذر، فقال الحارث: هل تعدون الحلبة إلى نفسي فأرسلها مثلاً، فتدبر النعمان كلمته فرد على عياض ماله وأهله.

وقال الميداني في قولهم «أوفى من أبي حنبل» هو أبو حنبل الطائي ومن حديثه أن أمراً القيس نزل به ومعه أهله وماله وسلاحه ولأبي حنبل امرأتان جدلية وتغلبية فقالت الجدلية: رزق أباك الله به ولا ذمة له عليك ولا عقد ولا جوار فأرى لك أن تأكله وتطعمه قومك، وقالت التغلبية: رجل تحرم بك وأستجارك وأختارك فأرى لك أن تحفظه وتفي له، فقام أبو حنبل إلى جذعة من الغنم فأحتلبها وشرب

لبنها ومسح بطنه وحجل ثم قال:

لقد أليت أغدر في جداع وإن منيت أمات الرباع
لأن الغدر في الأقوام عار وإن الحر يجزي بالكراع
فقلت الجدلية وقد رأت ساقيه حميشتين: ما رأيت كاليوم ساقى واف، فقال
أبو حنبل: هما ساقا غادر شر، إنتهى.

أبو حنبل هذا من رجال العرب المشهورين وكان عزيزاً منيعاً حمي الأنف
أجار الجراد لما وقع بجواره فحماءه من أن يصاد فما قدر أحد أن يصيده حتى طار
عن جواره وبه يفتخر شاعر طي حيث يقول:

ومنا ابن مر أبو حنبل أجار من الناس رجل الجراد
وزيد لنا ولنا حاتم غياث الورى في السنين الشداد

في أبيات، والأوفياء كثيرون ولا أزيدك على أن العرب تفي بأكثر مما ذكرت
وأنها تتمسك للوفاء بأضعف سبب كوصل الرشاء بالرشاء، ورهن قوس لا يساوي
درهمين، وربما أعطى الرجل منهم الرجل عوداً لا قيمة له فيفي ولا يغدر، هذه
كانت شمائل العرب الأحرار وسجايا الكرام الأماجد لا كأهل الكوفة الغدرة الذين
لوثوا تاريخ العرب بدنس أعمالهم ودنسوا عرض المجد العربي النقي فأصبحوا لا
تمسكهم الأيمان المغلظة ولا العهود المؤكدة ولم يأنفوا لجار يضام ولا لنزول
يهتضم فهم أدنياء الأدنياء وحثالة العرب اختلطت عربيتهم بالنبطية والفارسية
فأصبحوا من هذا وذاك لفيماً ونتجوا نتاج البغل من الحمار والبرذون فلا هم عرب
ولا هم أعجام كما أن البغل لا فرس ولا حمار؛ فالهياكل البدنية والأشكال
الصورية عربية منظرًا وملمحًا، والأفعال نبطية، والأعمال فارسية مخبرًا وتجربة لا
يفون بعهد ولا يثبتون على وعد ولا يشكرون النعمة ولا يرون أثرًا للصنيعة العظيمة
ويقابلون الإحسان بالإساءة كما جاء في المثل العامي «جزاء الإحسان بكان»
هؤلاء السفلة قابلوا الحسين «عليه السلام» مقابلة من لم يعرق جبينه حياء ولم يبال
بأقتراف ما شوه سمعة الكرام فيقولون له بكل صلافة قحة ووقاحة بشعة: إنزل على
حكم الأمير.

من ذلك الأمير ينزل على حكمه ياسفلة الأمة وأوباش العرب؟ هو ابن
العاهرة الفاجرة وسليل الدعي المفتضح الذي هو ساقط بين المهديين، ويا للأسف
ينزل ابن رسول الله ﷺ وسيد شباب أهل الجنة على حكمه! تلك والله نزول منها

الرواسي وتندك الرواسخ وتزلزل الأرض بقطريها.
للمؤلف:

دعوا يارعايا السوء ما لوث المجدا أحكمتموا في سيد السادة العبد
فهل لحسين في البرية مشبه أباً فاق في أخلاقه الغر أوجدا
وإن لواء الحمد في الحشر خافق على رأسه فاستوجب الشكر والحمدا
أسيان من أحيى الشريعة والهدى ومن خاض في الأشرار بدء ومرتدا
أمية تهدي للضلال غواتها وآل علي المرتضى تهديك الرشدا

وفاء العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» والنص عليه

لا برهان على إثبات وفاء العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» من شهادة الإمام جفر ابن محمد الصادق «عليهما السلام» في زيارته التي رواها شيخ الشيعة ورئيسهم أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه القمي في كتاب كامل الزيارة^(١) بسند معتبر وفيها: «أشهد لك بالتسليم والتصديق والوفاء والنصيحة لخلف النبي المرسل والسبط المنتجب والدليل العالم والوصي المبلغ والمظلوم المهتضم» الخ، وفيها عند الدخول إلى الحرم يقول: «فجزاك الله أفضل الجزاء وأكثر الجزاء وأوفى جزاء أحد ممن وفى ببيعته وأستجاب له دعوته وأطاع ولاة أمره» إلى آخر الزيارة المباركة.

وهذا ظاهرة لأن جميع أفعال العباس بن علي «عليهما السلام» يوم الغاضرية وفاء منه بحق الطاعة المأخوذة في الميثاق على البشر والوفاء برعاية حق الإمام «عليه السلام» والوفاء بالبيعة، والوفاء بالوعد له بالنصرة، والوفاء برعاية حق الصحبة والجوار إلى غير ذلك من أنواع الوفاء المحمود الذي أداه أبو الفضل «عليه السلام».

للمؤلف:

أوفى الأماجد في عهد وفي عدة وفي ذمام وفاء غير منكور
شبل الوصي وفي للسبط بيعته إذ أخلفت وعده أهل المعاذير
فقام بالطف والهندي في يده كشعلة النار في ظلماء ديجور
يستحصد القوم حصد الزرع مجتهداً بذى الفقار فسائل يوم عاشور

إباء العباس الأكبر «عليه السلام»

ومن صفات العباس الأكبر النفسية الإباء، هذا الخلق النفسي من أميز أخلاقه وأشهر صفاته، ولا تقصر شهرته عن شهرة الشجاعة، والإباء هو من شيم الأحرار وشماثل الكرام ومن إمارات المجد ودلائل النجاة وعزة النفس وأحد نتائج الشجاعة التي هي إحدى فضائل النفس وأصولها الأربعة، فإن النفس العزيزة يحدث لها امتناع عن قبول الضيم والرضوخ لذل الاستعباد فمتى ما سميت ضيماً أو أريد بها هواناً نفرت نفرة المهرة العربية عند صلصلة اللجام، ومثلت هذه النفس الحرة والروح الكريمة الموتيتين اللتين ستلاقيهما لا محالة ولا بد لها من أحدهما الموتة الحميدة على حدود السيوف المسلولة والموتة الذميمة على فراش المذلة والهوان، فتختار أحمد الموتيتين.

وليس لامة من الأمم ولا لشعب من الشعوب ما للعرب في سبيل الإباء، وليس بنفوس سائر الأمم ما بنفوس العرب من الأنفة عن ذل الاهتضام، فقد يضحى العربي العريق في السؤدد الصميم في المحتد نفسه النفيسة ويلقح حرباً شعواء مهولة كثيرة الأخطار ذات تهاويل وشدائد في قبال كلمة لا تحتملها النفس العربية لما فيها من الوصمة لشرفه والاهتضام لمجده عند نفسه أو على ناقة تؤخذ منه قهراً أو تطرد عن المرعى وما شاكل ذلك، كما هو سبب أكثر حروب الجاهلية.

أما الإباء المحبوب لكل نفس حرة في كل دور من أدوار حياة البشر وهو الذي أكدته الشرائع السماوية والكتب المقدسة وندبت إليه الأسفار المنزلة من عند الله تعالى فهو الإباء الذي يكون في سبيل دفع الاستعباد الجائر ومقاومة الاستعمار الجبار، ذاك هو الإباء الحر وهو مر المذاق كربه الطعم إلا في فم من أستعذبه على مجاجة مذاقه ومرارة طعمه ولا نعلم مؤسساً لهذا الإباء غير الحسين بن علي «عليهما السلام» وأقتفى أثره أهل بيته الأحرار الأماجد أباء الضيم وحماة الأنوف فأقتدى به وبهم سائر من عاف الذل وترفع عن الرضوخ للهوان، ولذلك يقول قائلهم وقد صمم على الموت مستدفعاً به ضيم الحياة ومؤثراً عز المنية على ذل

العيشة الدنية:

وإن الأولى بالطف من آل هاشم تأسوا فسنوا للكرام التأسيا

معنى الإباء لغةً وعقلاً

معنى الإباء لغةً:

قال في القاموس: أبى الشيء يأباه إباء وإبابة بكسرهما كرهه، والأبىة التي تعاف والتي لا تريد عشاء، وأبيت الطعام كرهته، ورجل أبيعاً محرّكة أمتنع فهو آب وآبي.

وقال في المصباح: أبى الرجل يأبى إباء بالكسر والمد إبابة أمتنع فهو آب وآبي.

وقال في النهاية: الإباء أشد الامتناع.

معنى الإباء العقلي:

هو كالمعنى اللغوي وهو الامتناع من المذلة وهو كما علمت نتيجة الشجاعة.

قال في سلوك المالك^(١): الانفة وهي نبو النفس عن الأمور الدنية. وقال^(٢): وأن يحدث عن تركيب الشجاعة مع العفة الغيرة على الحرم وإنكار الفواحش.

وقال ابن مسكويه في تهذيب الأخلاق^(٣): وأما الشجاعة فإن صاحبها يسمى آنفاً وغيوراً، الخ.

وما ذكره هذا الفيلسوف مقتبس من كلام العرب فإنهم يرون تضحية النفس في سبيل حفظ الشرف وعدم الانقياد للسلطة الجائرة الجبارة متجاوزاً حد الشجاعة ويسمون الاتصاف بها إباء وأنفة وحمية فيقولون للمتصف بها: حمي الأنف وأبي الضيم، ويقولون: فلان غيور فخور أنف، وفلان ذو أنفة كل هذه الألفاظ تطلق على من تجاوز وصف الشجاعة إلى وصف أرقى منها وأنبل وكانت هذه الصفات من مميزات بني هاشم وشعار الحماة من آل عبد المطلب لذلك يقول راثي الحسين «عليه السلام»:

قل بقوم بهمو يحمي الطريد واستقام الكون فيهم والوجود

(١) سلوك المالك في تدبير الممالك: ص ٢٦.

(٢) نفسه: ص ٣٣. (٣) تهذيب الأخلاق: ص ٣٧٩.

أبرغم منكموا ساد يزيد يا أباة الضيم ما هذا القعود
والموالي اليوم سادتها العبيد

واختص بها الحسين بن علي «عليهما السلام» وأهل بيته دون سائر العرب،
فإذا قيل أبي الضيم لا يتبادر منه إلا الحسين «عليه السلام» والتبادر علاة الحقيقة
فإن موقف الحسين «عليه السلام» في كربلاء بإزاء تيار العدو المتلاطم وثباته في
ذلك الموطن الحرج الذي تزل فيه أقدام الشجعان مما أدهش العقول وحير الأفكار
وأذهل الألباب حتى أصبح ذلك السيد العظيم نحيرة المجد والشرف وضحية
الفخر والسؤدد، وما ضحى تلك النفس الكريمة التي لا ثمن لها في هذا العالم إلا
في سبيل إحياء الدين وإشادة المجد ولذلك أصبح أسوة الأشراف وقدوة العظماء
المتأثرين بعده كما تمثل بعضهم وقد ليم على الإقدام: وإن الأولى بالطف، البيت
المتقدم.

وقال المقتدر الخليفة العباسي لأمه حين صمم على لقاء مؤنس المظفر وقد
لاحت أمارات الخذلان على جيشه: سلام عليك أنه يوم الحسين.
وتمثل مروان بن محمد بن مروان المنبوز بالحمار آخر ملوك بني أمية لما
أستقتل بشعر سأتي ذكره.

أسباب الإباء وثمراته

وهي كثيرة أهمها في النظر من حيث السببية هي عزة النفس فإن النفس متى
كانت عزيزة أمتنعت عن كل وصمة تمس الشرف وعافت كل دني محتقر يندس
المجد والسؤدد وهان عليها الموت مع العز، وأهم الثمرات في الإباء هو التخلص
مما يلحق المجد من عار الأبد وخزي الدهر فإن الراضخ لله وإن المحتمل لأهتضام
سيعيش قليلاً وينتقل إلى الفناء ذميماً ممقوتاً مع تحمله عناء الذل الطويل والخزي
الوبيل، والأبي يعيش قليلاً عزيزاً ويموت كريماً حميداً، ما ذكره حر إلا وأثنى
عليه، ولا نعت عند شهم إلا قرظه وأطراه، ولا ثار ثائر في طلب مكرمة أو تفادياً
من جور أو تخلصاً من ذل إلا هتف بأسمه ونوه فيه تنويه مخلص مقتدياً به اقتداء
المأموم بإمامه العادل.

الإباء من خصائص العرب:

أما كون الإباء من طباع العرب وشيم أرباب اللسان الفصيح خاصة دون
سائر الأمم فهذا أثر ظاهر للعيان وقد اسفرت الصحف التاريخية والأسفار الأثرية
الصحيحة عن ضبط وقائع العرب التي طحنت رحا حروبها بشراً كثيراً والتهمت

خلقاً عظيماً فدارت معاركها الشديدة على أقطاب الإباء زمناً طويلاً حيث كانت العربية حرة والعروبة محضة لم تختلط بلفيف روما ولا أخلاط فرنجة ولا أوزاع الكيانية فما حرب البسوس الطاحنة وحرب داحس والغبراء الماحقة إلا نزعة من نزعات الإباء ونفثة من نفثات الأنفة من تهور المتعاضمين كليب بن ربيعة وحذيفة ابن بدر.

قال الخفاجي في سر الفصاحة^(١): وأما الغيرة والأنفة والصبر والجلد فمعلوم منهم حتى نسبوا إلى الفظاظلة وذكروا بالقساوة وعلل ذلك بإكثارهم أكل لحوم الإبل وإدمانهم التقوت بها وزعموا أن في طباعها قساوة القلوب^(٢) ومن عاداتها غلظ الأكباد وهذا وهم متى هب في أحدهم نسيم الصبابة ودبت في مفاصلة نشوة الهوى لانت تلك المعاطف ورقت تلك الشمائل وعاد ذلك العز ذلاً وفرقاً وصارت تلك النخوة توسلاً وخضوعاً لكنه مع العفاف من الريب والبعد من التهم والمساوات بين الظاهر والباطن والاتفاق بين الغائب والبادي، إنتهى.

وقال جميل مدور في حضارة الإسلام في دار السلام بعد أن وصف شقاوة أهالي مرسيليا من أروبا^(٣) قال: فأين هذا من حضارة العرب وصلاح أمرهم واتساع المعاش بين أيديهم وأحتدائهم أشرف السنن العادلة فكأن الله تعالى قد أختص أمته من الفضل والنعمة ما حرم منه أمم الغرب فإنما العرب أحلى منهم وأحلم وأعلى وأعلم وأقوى وأقوم وأعطى وأعطف وأحصى وأحصف وأشرى للفرار وأشرى وأنقى للعار وأنف وكفاهم من نعم الله السابغة ما ركب في طباعهم من الأنفة وكبر النفس فأذكر أنك لو رأيتهم يتظلمون إلى الخلفاء من العمال الجائرين ويبذلون نفوسهم دون احتمال الضيم ولو طرفه عين، الخ ما ذكر مما شاهده في الغربيين من السفور المنافي للغيرة وأصول الديانة.

أشعار العرب في الإباء

أما حالة العرب في الإباء والأنفة فسنورد لك نبذة من أشعارهم يجعلها الآنفون أنموذجاً فعلياً وشذرة من أخبارهم يتخذها الأيون دستوراً عملياً.

أما الأشعار فكثيرة جداً منها قول خطيب الشعراء وحكيم الأدباء عبد العزيز

(١) سر الفصاحة: ص ٥١.

(٢) يدل عليه قول شاعرهم:

بيكي علينا ولا نبك على أحد

(٣) حضارة الإسلام في دار الإسلام: ص ٢٩٦.

لنحن أعظم أكباداً من الإبل

بن نباة السعدي في الحسين «عليه السلام» :

والحسين الذي رأى الموت في العز
وقال أبو الحسن التهامي :

من فاته نيل العلا بعلومه
فموت الفتى في العز مثل حياته
وقال عمر بن برامة الهمداني :

وكيف ينام الليل من جلّ ماله
كذبتهم وبيت الله لا تأخذونها
ومن يطلب المال الممنع بالقنا
وقال الحارث بن الأرقم :

وما ضاق صدري يا سليمي بشخصكم
تروك لدار الضيم والخسف منكر
إذا سامني السلطان ذلاًّ أبيته
وقال العباس بن مرداس السلمي :

يأبى فوارس لا يعرى صواهلها
لا والسيوف بأيدينا مجردة
وقال المسيب بن علس الضبي :

أبلغ ضبيعة أن البلاد
وقد يقعد القوم في دارهم
ويرتحل القوم عند الهوان
وقد كان سامية في قومه
فساموه خسفاً فلم يرضه
وقال شاعر أسدي :

إنني أمرئ من بني خزيمة لا
لست بمعط ظلامه أبداً
أطعم خسفاً لناعب نعبا
عجماً ولا أتقي بها عربا

وقال يزيد بن مفرغ الحميري وتمثل بها الحسين بن علي «عليهما السلام» :

ز حياة والعيش في الذل قتلا

وأقلامه فليبغها بحسامه
وعيشته في الذل مثل حمامه

حسام كلون الملح أبيض صارم
مراغمة ما دام للسيف قائم
يعش ماجداً أو تخترمه المخارم

ولكنني في الحادثات صليب
بصير بفعل المكرمات أريب
ولم أعط خسفاً ما أقام عسيب

أن يقبلوا الخسف من ملك وإن عظما
لا كان منا غداة الروع منهزما

فيها لذي قوة مغضب
إذا لم يضاموا وإن أجذبوا
عن دراهم بعد ما أخصبوا
له مطعم وله مشرب
وفي الأرض عن ضيمهم مهرب

لا ذعرت السوام في فلق الصب
يوم أعطى من المخافة ضيماً
وقال آخر:

إني أنا المرء لا يغضي على ترة
ألقى المنية خوفاً أن يقال فتى
وقال آخر:

كرهوا الموت فاستبيح حماهم
إمن الموت تهربون فإن المو
وقال الحصين بن الحمام المري:

ولست بمبتاع الحياة بسبته
تأخرت أستبق الحياة فلم أجد
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا
نفلق هاماً من رجال أعزة
أبى لابن سلمى أنه غير خالد
وقال يحيى بن منصور الحنفي:

ولما نأت عنا العشيرة كلها
فما أسلمتنا عند يوم كريهة

وقال الشريف الرضي أبو الحسين
سأَمْضِي لِلتِي لَا عَيْبَ فِيهَا
وَأَطْلُبُ غَايَةَ إِنْ طُوْحَتْ بِي
فَإِنِّي مِنْ أُبَاةِ الضَّيْمِ أَب
وَمَنَا كُلُّ أَغْلَبٍ مُسْتَمِيتٍ
إِذَا مَا ضَيْمٍ نَمَرَ صَفْحَتِيهِ

وقال الشداخ الكناني:

أبيناً فلا نعطي مليكاً ظلامه
والأحساماً يبهر العين لمحاه

ح مغيراً ولا دعوت يزيدا
والمنايا يرصدنني أن أحيدا

ولا يقر على ضيم إذا غشما
أمسى وقد ثبت الصفان منهزما

وأقاموا فعل اللئيم الذليل
ت موت الذليل غير جميل

ولا مرتق بمن خشية الموت سلما
لنفسي حياة مثل أن تتقدما
ولكن على أقدامنا تقطر الدما
علينا وهم كانوا أعق وأظلما
يلاقي المنايا أي ضرب تيمما

أنخنا فحالفنا السيوف على الدهر
فلا نحن أغضينا الجفون على وتر

الموسوي:

وإن لم أستفد إلا عناء
أصابت بي الحمام أو العلاء
أفاض علي تلك الكبرياء
إذا أنت لدته بالذل قاء
وقام على برائنه إباء

ولا سوقة إلا الوشيح المقوما
كصاعقة في عارض قد تبسما

قال الراغب الأصبهاني الشافعي في محاضرات الأدباء^(١): لما وقعت الهزيمة على مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية، أهاب الناس أن يرجعوا فلم يلوا فأنقضى سيفه وقاتل قتال مستقل فقيل له: لا تهلك نفسك ولك الأمان، فتمثل بأبيات قالها الحسين بن علي «عليهما السلام» يوم قتل وهي:

أذل الحياة وذل الممات وكلا أراه طعماً وبيلاً
فإن كان لا بد إحداهما فسيراً إلى الموت سيراً جميلاً

انتهى، فالحسين «عليه السلام» المثال الحقيقي للإباء، والمثال الأعلى لكل أجدوة مجد يتحدث بها كريم نفس وحمي أنف، فقد أصبح بما سنه من الإباء وعزة النفس وامتناعها من الرضوخ للمذلة والهوان أسوة كل ذي نفس عربية شماء، وقدوة كل ذي همة قعساء لم يتأسى به مروان الحمار فقط بل قد سمعت ما قاله المقتدر العباسي ومصعب بن الزبير.

الآبون من العرب والأنفون من زعمائهم

هم أقسام: قسم يأنف لاهتضام جار أو نزيل وفي طليعة هذا القسم جساس بن مرة الشيباني المعروف بحامي الذمار ومانع الجار ويلحق به آخرون سلكوا مسلكه.

وقسم يأنف من هوان يمر به يسومه إياه ذو رفعة وأقترار، ومن هذا القسم عمرو بن كلثوم التغلبي وقيس بن زهير العبسي.

وقسم يأنف من هتك عرض وهذا كثير في العرب.

وقسم وهو أشرف هذه الأقسام وأذكرها وأفخرها وهو الذي يأنف من الرضوخ لإمرة جبار وضيع وسلطة أثيم معتدي يروم أستعباد الأحرار ويحاول السيطرة على الكبراء بسلطته الجبارة الجائرة ويجهد في إذلالهم بقوته القاهرة، وعند العرب شمم وشموخ وعزة نفس وكبرياء متمنعة بمجدها السامي وفخرها الشامخ والإباء الذي سن لقمع ولالة الجور وردع أئمة الفجور وحكام الجبروتية هو الذي أسسه أبو الأئمة شهيد كربلاء سبط رسول الله ﷺ أبو عبد الله الحسين بن علي «عليهما السلام» حين نهض تلك النهضة الكريمة وثار تلك الثورة المقدسة المقدرة المحترمة عند جميع الأحرار إلى يومنا هذا وهي التي يتمسك بها أرباب الغيرة والحمية على القوميات الحرة ونصراء العنصرية والمجد القومي كي يحرر

شعبه وقومه من ذل الاستعمار كما حرر الحسين «عليه السلام» العروبة والإسلام من استعباد الجلفية الأموية القاسية وطغام الأمة السفلة الأندال.

القسم الأول: من أباة العرب وأحرارها؛

جساس بن مرة بن ذهل الشيباني حامي الذمار ومانع الجار من سادات بكر بن وائل من ربيعة قتل كليب بن ربيعة كليب وائل الذي يقال له أعز من كليب وحمى كليب وهو سيد ربيعة قتله جساس وهو صهره فظن العرب أنه قتله بناقة قيمتها مائة درهم وذلك أنها كسرت بيضاً في حماه وقيل بل رعت في حماه مختلطة بإبل جساس وأخطأوا إنما قتله لأنه قد ضامه وأهتضمه بأعتدائه على جاره ونحن نذكر من القصة المطولة ما هو السبب في قتل كليب يستفيد القارئ منه ويعرف الناس عزة العرب وطماحها الشرفي ونزقها المجدي.

قال الجواليقي الجنبلي في شرح أدب الكاتب^(١): كان سبب ذلك أن كليباً خرج يوماً يدور في حماه فإذا هو بحمرة على بيض لها فلما نظرت إليه صرصرت وخفقت بجناحها، فقال لها: أمن روعك أنت وبيضك في ذمتي، ثم دخلت ناقة البسوس الحمى فكسرت البيض فرماها كليب في ضرعها فأستغاثت البسوس بجارها جساس وكان كليب زوج أخت جساس فعدى عليه جساس ومعه عمرو ابن الحارث^(٢) ابن عمه فقتلاه فوقعت الحرب بين بكر وتغلب أربعين سنة ولم تسكن الحرب حتى قتل جساس الخ.

هذا ما ذكره الجواليقي والمشهور عند علماء السيرة أنها كانت تختلط بإبل جساس فترعى في حماه وإن اختلفوا بين من يقول أن الناقة المعروفة بسراب هي للبسوس نفسها وبين من يقول أنها لرجل جرمي كان جار للبسوس خالة جساس.

قال ابن عبد ربه المالكي في العقد الفريد^(٣) في كليب: أجمعت عليه معد كلها وجعلوا له قسم الملك وتاجه ومحبه وطاعته فغير بذلك حيناً من دهره ثم دخله زهو شديد وبغى على قومه لما هو فيه من عزة وأنقياد معد له حتى بلغ من بغيه إنه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه ويجير على الدهر فلا تخفر ذمته ويقول وحش أرض كذا في جوارى فلا يهاج ولا تورد إبل أحد مع إبله، ولا

(١) شرح أدب الكاتب: ص ٢٦١.

(٢) عمر بن الحارث يسمى المزدلف ويقال له ذو العمامة الفردة وهو شيباني وفيه قيل: المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضا إلى النار

(٣) العقد الفريد ٣/ ٣٣٥.

توقد نار مع ناره حتى قالت العرب: أعز من كليب وائل، وكانت بنو جشم وبنو شيبان في دار واحدة بتهامة وكان كليب قد تزوج جلييلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان وأخوها جساس بن مرة وكانت مرة بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة نازلة في بني شيبان مجاورة لجساس وكان لها ناقة يقال لها سراب ولها تقول العرب «أشأم من سراب» و«أشأم من البسوس» فمرت إبل لكليب بناية البسوس وهي معقولة بفناء بيتها جوار جساس بن مرة فلما رأت سراب الإبل نازعت عقالها حتى قطعته وتبعت الإبل فأختلطت بها حتى أنتهت إلى كليب وهو على الحوض معه قوسه وكنانته فلما رآها أنكرها فأشتد عليها بسهم فخرم ضرعها فنفرت الناقة وهي ترغو فلما رأتها البسوس قلعت خمارها عن رأسها وصاحت: وا ذلاه! وا جاراه! وخرجت فأحمست جساساً الخ.

هكذا قال ووافقه جماعة، وقال آخرون: الناقة لجار البسوس ومنهم الميداني الحنفي ونصه في مجمع الأمثال^(١): هي بسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان قاتل كليب وكان من حديثه أنه كان لبسوس جار من جرم يقال له سعد بن شمر وكان له ناقة يقال لها سراب وكان كليب قد حمى أرضاً من أرض العالية في أنف الربيع فلم يكن يرعاه أحد إلا إبل جساس لمصاهرة بينهما وذلك أن جلييلة بنت مرة أخت جساس كانت تحت كليب فخرجت سراب ناقة الجرمي في إبل جساس ترعى في حمى كليب فنظر إليها كليب فأنكرها فرماها بسهم فشل ضرعها فولت ترغو حتى بركت بفناء صاحبها وضرعها يشخب دماً، فلما نظر إليها صرخ بالذل فخرجت جارتها البسوس ونظرت إلى الناقة فلما رأت ما بها ضربت يدها على رأسها ونادت: وا ذلاه! ثم أنشأت تقول:

لعمرك لو أصبحت في دار منقذ لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي
ولكنني أصبحت في دار غربة متى يعدو فيها الذئب يعدو على شاتي
فيا سعد لا تغرر بنفسك وأرتحل فإنك في قوم عن الجار أموات
ودونك أذواذي فإنني عنهموا لراحلة لا يفقدوني بنياتي

زاد في سيرة بني شيبان في هذه الأبيات:

فسر نحو جرم إن جرماً أعزة ولا تك فيهم لاهياً بين نبواتي
إذا لم يقوموا لي بشاري ويصدقوا طعانهموا والضرب في كل غارات

فلا آب ساعِيهم ولا سد ثغرهم ولا زال في الدنيا لهم شر نكبات
قال الميداني: فلما سمع جساس قولها سكنها وقال لها: أيتها المرأة ليقتلن
غداً جمل هو أعظم عقراً من ناقة جارك، ولم يزل جساس يتوقع غرة كليب حتى
خرج كليب لا يخاف شيئاً وكان إذا خرج تباعد عن الحي الخ.

وقال ياقوت الحموي الخارجي في معجم البلدان^(١): إن كليباً قال يوماً
لأمرأته وهي جليلة بنت مرة أخت جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان وأم جساس
هبله بنت منقذ بن سلمان بن كعب بن عمرو بن سعد بن زيد مناة بن تميم وكانت
أختها البسوس نازلة على ابن أختها جساس، قال لها: أتعرفين في العرب من هو
أعز مني؟ قالت: أخوأي جساس وهمام، وقيل: قالت: نعم أخي جساس وندمانه
عمرو المزدلف بن ربيعة بن الحارث بن ذهل بن شيبان، فأخذ قوسه فخرج فمر
بفصيل لناقة البسوس فعقره وضرب ضرع ناقتها حتى اختلط لبنها ودمها وكانا قد
قاربا حماه فأغمضوا له على ذلك فاستغاثت البسوس ونادت بويلها، فقال
جساس: كفي فسأعقر غداً جملأ هو أعظم من عقر ناقة، فبلغ ذلك كليباً فقال:
دون عليان خرط القتاد فذهبت مثلاً، وعليان فحل إبل كليب ثم أصابتهم سماء
فمرا بنهر يقال له شيبث فأراد جساس نزوله فأمتنع كليب قصداً للمخالفة، ثم مروا
بالأحص فأراد جساس نزوله فخالفه كليب، ثم مروا ببطن الجريب فجرى أمره
على ذلك حتى نزلوا الذنائب وقد كلوا وأعيوا وعطشوا فإغضب ذلك جساساً فجاء
وعمرو والمزدلف معه وقال: يا وائل! - هو اسم كليب - طردت أهلنا من المياه
حتى كدت تقتلهم، فقال كليب: ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون، فقال
له: هذا كفعلك بناقة خالتي، قال: أو ذكرتها؟ أما إني لو وجدتها في غير إبل مرة
- يعني أبا جساس - لا ستحللت تلك الإبل، فعطف عليه جساس فرسه وطعنه
بالرمح فأنفذه فيه، فلما أحس بالموت قال: ياعمرو! اسقني ماء، يقول ذلك
لعمرو المزدلف، فقال له: تجاوزت الأحص وشيبث، ثم كانت حرب بني وائل
وهي حرب البسوس أربعين سنة وهي حروب يضرب بها المثل، الخ.

أما الميداني بعد قوله: إذا خرج تباعد عن الحي فبلغ جساساً خروجه فخرج
على فرسه وأخذ رمحه وأتبعه عمرو بن الحارث فليم يدركه حتى طعن كليباً فقال:
يا جساس! أغثني بشربة ماء، فقال جساس: تركت الماء وراءك وأنصرف عنه
ولحقه عمرو فقال: ياعمرو أغثني بشربة ماء، فنزل إليه وأجهز عليه فضرب به

المثل، فقيل:

المستجير بعمره عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار
إلى هنا، وتشبه هذه القساوة البدوية قساوة اللعين شمر بن ذي الجوشن
الضبابي سمع الحسين «عليه السلام» يستغيث بشربة ماء فأغاثه بالذبح عاجلاً وفرق
بين القصتين أن كليلاً كان طاغوتاً متجبراً كثير العنت والإذلال على قومه يتحرى
إذلالهم بكل ما وجد إليه سبيلاً، والحسين «عليه السلام» كان رؤوفاً رحيماً باراً
مشفقاً عظيم الإحسان، وصولاً للأمة، منعماً على الرعية، وجميع أياديه على
العرب بيضاء ولكن الشمر ونظراؤه أجلاف جفاة أراذل سفلة.

قال الميداني: وأقبل جساس يركض وركبته بادية، فقال أبوه لمن حوله: قد
أتاكم جساس بداهية، قالوا: ومن أين تعرف ذلك؟ فقال: لظهور ركبتيه فإنني لا
إعلم أنها بدت قبل يومها، ثم قال: ما ورائك يا جساس؟ فقال: والله لقد طعنت
طعنة لتجمعن منها عجائز وائل رفضاً، فقال: وما هي ثكلتك أمك؟ قال قتلت
كليلاً، فقال أبوه: بش لعمر الله ما جنيت على قومك، فقال جساس:

تأهب عنك أهبة ذي امتناع فإن الأمر جلّ عن التلاحي
فإنني قد جنيت عليك حزناً تغص الشيخ بالماء القراح
فأجابه أبوه:

فإن تك قد جنيت عليّ حرباً فلا وإن ولا رث السلاح
سألبس ثوبها وأذب عني بها يوم المذلة والفضاح

قال: ثم قوضوا الأبنية وجمعوا النعم والخيول وأزمعوا الرحيل، وكان همام
بن مرة أخو جساس نديماً لمهلل بن ربيعة أخي كليب فبعثوا جاريتهم إلى همام
لتعلمه الخبر وأمروها أن تسره من مهلهل فأتتهما الجارية وهما على شرابهما
فسارت هماماً بالذي كان من الأمر، فلما رأى ذلك مهلهل سأل هماماً عما قالت
الجارية وكان بينهما عهد أن لا يكتم أحدهما صاحبه شيئاً، فقال: أخبرتني أن
أخي قتل أخاك، قال مهلهل: أخوك أضيّق أستا من ذلك، وسكت همام وأقبلا
على شرابهما، فجعل مهلهل يشرب شرب الآمن وهمام يشرب شرب الخائف،
فلم تلبث الخمر مهلهلاً حتى صرعه فأنسل همام فرأى قومه قد تحملوا فتحمل
معهم وظهر أمر كليب ونشب الشر بين بكر وتغلب أربعين سنة الخ.

فهذه الأنفة كان سببها اهتضام الجار والنزير والعرب تأنف وتحمي في

الجوار لما دون الناقة فإن بعضهم أنف أن يصاد الجراد في جواره، وبعضهم حمى الحيوانات المفترسة لأنها دخلت في جواره.

قال الميداني الحنفي في مجمع الأمثال^(١): ذكر ابن الأعرابي عن ابن الكلبي أن مدلج بن سويد الطائي خلي ذات يوم في خيمته فإذا هو بقوم من طي معهم أوعيتهم، فقال: ما خطبكم؟ فقالوا: جراد وقع بفناءك فجئنا لناخذه، فركب فرسه وأخذ رمحه وقال: لا والله لا يعرضن له أحد منكم إلا قتلته، إنكم رأيتموه في جوارى ثم تريدون أخذه، فلم يزل يحرسه حتى حميت الشمس وطار فقال: شأنكم الآن فقد تحول عن جوارى، ويقال إن المجير للجراد كان حارثه بن مر أبو حنبل.

وذكر البيهقي الشافعي في المحاسن والمساوي^(٢) أن جماعة من الأعراب أثاروا ضبعاً فدخلت خباء شيخ منهم فقالوا: أخرجها، فقال: ما كنت لأفعل قد أستجارت بي، فانصرفوا وكانت هزيراً فأحضر لها لقاحاً فجعل يسقيها حتى عاشت فقام الشيخ ذات يوم فوثبت عليه فقتلته، فقال شاعرهم في ذلك:

ومن يصنع المعروف في غير أهله يلاقي الذي لاقى مجير أم عامر
أعد لها لما استجارت بقربه غداء من ألبان اللقاح الغزائر
وأسمنها حتى إذا ما تملأت فرته بأنياب لها وأظافر
فقل لذوي المعروف هذا جزاء من يجود بمعروف على غير شاكر

انتهى، فقد بلغ من تهالك العرب على إكرام الجار الغاية التي لا يوصل إليها، فقد كان عدي بن حاتم الطائي يفت الخبز للنمل ويقول: إنهن جارات، وقصة الحولاء شبيهة بالسوس في بني سعد بن تميم أطلبها من مجمع الأمثال^(٣).

القسم الثاني: الأنفين من الهوان:

للضيم والمذلة لاهتضام أنفسهم عند شموخ ذي سلطة عليهم وتطاوله بعظمة الملك وكبرياء الزعامة مع كونهم أشراف قبائلهم وسادات قومهم وهم عند أنفسهم من أعز العرب وأمنعها وأدفعها للضيم وهؤلاء منهم قيس بن زهير العبسي فإنه اعتدى عليه حذيفة بن بدر الفزاري في الرهان الواقع بينهما وكان حذيفة سيد غطفان عموماً وزادت رياسته على كل رياسة انتشاراً وشهرة ولضخامة رياسته

(٢) المحاسن والمساوي ٩٥/٢.

(١) مجمع الأمثال ١٤٩/١.

(٣) مجمع الأمثال ٢٥٨/١.

وعظمتها لقبته العرب رب غطفان وكان فيه جبروتية وطغيان، وفيه زهو وخيلاء، نحى منحى كليب ونهج منهجه في ظلم العشيرة وإذلال سراتها وسامها الخسف، وبلغ من تجبره وعتوه إنه أراد أن يبني في بلاد غطفان بيتاً يضاهي به الكعبة المشرفة ويصرف إليه حاج العرب فأبى العرب عليه ذلك وحاربته ومنعته من مقصوده وكان زهير بن جناب الكلبي أحد الواثيين عليه في ذلك هدموا البيت الذي بناه وقيل منعه عن بناءه.

فلما وجب الرهان بين قيس وحذيفة تمرد تمرد من لا يرى له نظيراً وعتى عتو من لا يحسب أن له كفوءاً، فكان أحد من قتله بغية وصرعه ظلمة وأودى به تجبره وهذه الحرب المعروفة بحرب داحس والغبراء دامت أيضاً أربعين سنة وهي كحرب البسوس مطولة نذكر منها السبب الذي أثارها وهاجها بين أبني غطفان عيس وذبيان.

قال الميداني الحنفي في مجمع الأمثال^(١): حرب داحس والغبراء، قال المفضل: داحس فرس قيس بن زهير بن جذيمة العبسي والغبراء^(٢) فرس حذيفة ابن بدر الفزاري وكان يقال لحذيفة رب معد في الجاهلية وكان من حديثهما أن رجلاً من بني عيس يقال له قرواش بن هني كان يماري حمل بن بدر أخا حذيفة في داحس والغبراء، فقال حمل: الغبراء أجود، وقال قرواش: داحس أجود فتراهما عليهما عشراً في عشر فأبى قرواش قيس بن زهير فأخبره فقال قيس: راهن من أحببت وجنبي بني بدر فإنهم قوم يظلمون لقدرتهم على الناس في أنفسهم وأنا نكد إباء، فقال قرواش: فإني قد أوجبت الرهان، فقال قيس: ويلك ما أردت إلا أشام أهل بيت والله لتشعلن علينا شراً.

ثم إن قيساً أتى حمل بن بدر فقال: أتيتك لأوضحك الرهان عن صاحبي، فقال لا أوضحك أو تجيء بالعشر فإن أخذتها أخذت سبقي وإن تركتها رددت حقاً قد عرفته لي العرب وعرفته لنفسه فأحفظ قيساً، فقال: هي عشرون فقال حمل: هي ثلاثون، فتلاحيا وتزايدتا حتى بلغ قيس به مائة ووضع السبق على يد علاق أو ابن علاق أحد بني ثعلبة بن سعد.

ثم قال قيس: وأخيرك بين ثلاث فإن بدأت واخترت فلي خصلتان، قال

(١) مجمع الأمثال ٣٨/١.

(٢) داحس والغبراء كلاهما لقيس بن زهير وقد وهم المفضل ولحذيفة الحنفاء والخطار وعلى هذه الأربعة كان الرهان.

حمل: فابداً، قال قيس: فإن الغاية مائة غلوة وإليك المضمار والميطان أي حيث يوطن الخيل للسبق، قال حرز لهم رجل من محارب فقال: وقع البأس بين أبنني بغيض فضمروهما أربعين ليلة ثم أستقبل الذي ذرع لهم الغاية من ذات الآصاد وهي ردهة وسط هضب القلب فانتهى الذرع إلى مكان ليس له إسم^(١) فقادوا الفرسين إلى الغاية وقد عطشوهما وجعلوا السابق الذي يرد ذات الآصاد وهي مليء من الماء ولم يلائم قصة ولا غيرها ووضع حمل حيساً في دلاء وجعله في شعب من شعاب هضب القلب على طريق الفرسين فسمي شعب الحيس لهذا وكمن معه فتیاناً فيهم رجل يقال له زهير بن عبد عمرو وأمرهم إن جاء داحس سابقاً أن يردوا وجهه عن الغاية وارسلوهما من منتهى الذرع فلما طلعا قال حمل: سبقت يا قيس، فقال قيس: بعد أطلاع إيناس فذهبت مثلاً، ثم أجدا فقال حمل: سبقتك يا قيس، فقال: رويداً يعدون الجدد أي يتعدينه إلى الوعث والخباز فذهبت مثلاً، فلما دنوا وقد برز داحس فقال قيس: المذكيات غلاب - في رواية - غلاء - فذهبت مثلاً، فلما دنوا من الفتية وثب زهير فلطم وجه داحس فرده عن الغاية ففي ذلك يقول قيس بن زهير:

كما لاقيت من حمل بن بدر وإخوته على ذات الآصاد
فهم فخروا علي بغير فخر وردوا دون غايته جوادي
فقال قيس: يا حذيفة! أعطوني سبقي، قال حذيفة: خدعتك، فقال قيس:
ترك الخداع من أجرى من مائة، فذهبت مثلاً، وقال الذي وضع الرهن على يده
أن قيساً قد سبق وإنما أردت أن يقال سبق حذيفة وقد قيل فأدع إليه سبقه، قال:
نعم فدفع إليه الثعلبي السابق.

ثم إن غري بن عميرة وابن عم له من بني فزارة ندما حذيفة وقالوا له: قد رأى الناس سبق جوادك وليس كل الناس رأى أن جوادهم لطم فدفعك السابق تحقيق لدعواهم فأصابهم السابق فإنه أقصر باعاً وكل أحد لن يردك، قال لهما: ويحكما أراجع فيها متندماً على ما فرط عجز والله، فما زال به حتى ندم فنهى حميص بن عمرو وحذيفة وقال: إن قيساً لم يسبقك إلى مكرمة لنفسه وإنما سبقت دابة دابة فما في هذا حتى تدعى في العرب ظلوماً، فقال: أما إذا تكلمت فلا بد من أخذها، ثم بعث حذيفة ابنه أبا قرفة إلى قيس يطلب السابق فلم يصادفه فقالت

(١) المشهور أن الغاية كانت من واردات إلى ذات الآصاد.

له أمراته هر بنت كعب: ما أحب أن صادفت قيساً فرجع أبو قرفة إلى أبيه فأخبره بما قالت، فقال: والله لتعودن إليه ورجع قيس فأخبرته أمراته الخبر فأخذت قيساً زفرات فأقبل متقلبا فليم ينشب أبو قرفة أن رجع إلى قيس فقال له: يقول أبي: أعطني سبقي فتناول قيس الرمح فطعنه فدق صلبه ورجعت فرسه غائرة فأجتمع الناس فأحتملوا دية أبي قرفة مائة عشراء فقبضها حذيفة وسكن الناس فأنزلها على النقرة حتى أنتجها ما في بطونها.

ثم إن مالك بن زهير نزل اللقطة وهي قريب من الحاجر وكان نكح من فزارة امرأة فأتاها فبنى بها وأخبر حذيفة بمكانه فعدى عليه فقتله، ففي ذلك يقول عنتره:

فلله عيناً من رأى مثل مالك عقيمة قوم إن جرى فرسان
فليتهما لم يجريا نصف غلوة وليتهما لم يرسلأ لرهان
فأتت بنو جذيمة حذيفة فقالت: مالك بن زهير بمالك بن حذيفة ردوا علينا
مالنا، فأشار سنان بن أبي حارثة المري على حذيفة أن لا يرد أولادها معها وأن
يرد المائة بأعيانها، فقال حذيفة: نرد الإبل بأعيانها ولا نرد النسل، فأبوا أن يقبلوا
ذلك، فقال قيس بن زهير:

يود سنان أن نحارب قومنا وفي الحرب تفريق الجماعة والأزل
يدب ولا يخفى ليفسد بيننا ديباً كما دبّت إلى جحرها النمل
فيا بني بغيض راجعا السلم تسلما ولا تشمتا الأعدا ويفترق الشمل
وإن سبيل الحرب وعر مضلة وإن سبيل السلم آمنة سهل
ثم ساق القصة في نشوب الحرب الطاحنة بين عبس وذبيان والمعلوم أن
الخطار كان على الحنفاء^(١) والخطار وهما لآل بدر، وداحس والغبراء وهما لآل
جذيمة والرهان وقع على هذه الأربعة.

ومن الأنفة وقع الصلح بينهما كما وقعت الحرب بينهما.

قال الميداني: فلم تزل عبس مع بني عامر حتى غزى غزي من بني عامر يوم
شواحت بني ذبيان فأسر منهم أناس أحدهم أخو حنبص الضبابي أسره رجل من
بني ذبيان فلما أنقضت أيام عكاظ أستودعه يهودياً خماراً من أهل تيماء فوجده

(١) الحنفاء هي التي عناها أبو فراس الحمداني بقوله:

كما جرت الحنفاء حتف حذيفة وكان يراها عدة للشدائد

اليهودي يخلفه في أهله فأجب مذاكيره فمات فوثب حنبص على بني عيس فقال: إن غطفان قتلت أخي فدوه، فقال: قيس إن يدي مع أيديكم على غطفان ومع هذا فإنما وجده اليهودي على امرأته فقال حنبص: والله لو قتلتها الريح لوديتموه، فقال قيس لقومه: دوه والحقوا بقومكم فإن الموت في غطفان خير من الحياة مع بني عامر، وقال:

لحي الله قوماً أرشوا الحرب بيننا سقونا بها مرأً من الماء آجنا
وكايد ذا الخصيين إن كان ظالماً وإن كان مظلوماً وإن كان شاطنا
فهلا بني ذبيان أمك هابل رهنـت بفيف الريح إن كنت راهنا
الخ، وليس للهوان حد في نفوس أهل الجاهلية ولا للأنفة منتهى فقد يأنف من كلمة كما يأنف من ظلامة إذا ظن أن فيها إسقاط شرفه وإن كانت في شيء تافه لا تقدير له عند العقلاء وعرب الجاهلية تعده عاراً وتراه سبة ومخزاة فلا تجد إلى الإغضاء عليه سبيلاً وهنا قصص ذكرناها أولاً وحذفناها أخيراً للاختصار كقصة ضمضم اليربوعي وابنه غر بن ثعلبة وقتله إياه، وكقصة معاذ بن صرم الخزاعي وجحيش بن سودة، وقصة الجحاف السلمي وأنفته من كلمة الأخطل وحديث وقعة بنات قين بين فزارة وكلب، ووقعة طخفة بين بني يربوع والنعمان بن المنذر، ووقعة ذي قار بين بني شيباني وكسرى.

القسم الثالث: الأنفون لاهتضام الحرم؛

ومن هؤلاء عمرو بن كلثوم التغلبي فارس ربيعة وشاعرها وزعيم تغلب بن وائل وهو أحد أصحاب القصائد السبعة المعروفة بالمعلقات ومطلع معلقته:

إلا هبي بصحنك فأصبحينا ولا تبـق خمـور الأندرينا
ذكر فيها مآثر قومه، قال ابن قتيبة في الشعر والشعراء^(١): عمرو بن كلثوم جاهلي قديم وهو قاتل عمرو بن هند^(٢) قال ذات يوم: هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أُمي؟ قالوا: لا نعلمها إلا ليلي أم عمرو بن كلثوم، قال: ولم ذاك؟ قالوا: لأن أباهـا مهلهل بن ربيعة وعمها كليب وائل أعز العرب وبعـلها كلثوم بن عتاب فارس العرب وابنها عمرو بن كلثوم سيد من هو منه، فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستنـريـره ويسأله أن يـزيـر أمه فـأقبل عمرو بن كلثوم من الجزيرة في جماعة من بني تغلب وأقبلت ليلي في ظعن من بني

(١) الشعر والشعراء: ص ٦٦.

(٢) يسمى محرقات، ويعرف بمضطرط الحجارة.

تغلب وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب ما بين الحيرة والفرات وأرسل إلى وجوه أهل مملكة فحضرُوا ودخل عمرو بن كلثوم رواقه ودخلت أم عمرو بن كلثوم علي هند قبتها وهند أم عمرو بن هند عمة أمري القيس الشاعر، وليلى بنت مهلهل أم عمرو بن كلثوم أخت فاطمة بنت ربيعة أم أمري القيس، فدعا عمرو بن هند بمائدة فنصبها ثم دعا بالطرف فقالت هند: يا ليلي! ناوليني ذاك الطبق، فقالت: لتقم صاحبة الحاجة لحاجتها، فأعادت عليها، فلما ألحت صاحت ليلي: واذلاه يا آل تغلب! فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه، فقام إلى سيف لعمرو بن هند معلق في الرواق وليس سيف هناك غيره فضرب به رأس عمرو بن هند حتى قتله ونادى في بني تغلب: فأنتهبوا جميع ما في الرواق وأستاقوا نجائبه وساروا نحو الجزيرة وابنه عتاب بن عمرو بن كلثوم قاتل بشر بن عدس وأخوه مرة بن كلثوم قاتل المنذر بن النعمان بن المنذر، ولذلك قال الأخطل:

أبني كليب إن عمي لذا قتل الموك وفككا الأغلالا

يعني بعميه مرة وعمراً ابني كلثوم، وعمرو بن كلثوم هو القاتل:

الأهبي بصحنك فأصبحينا

وكان قام بها خطيباً فيما كان بينه وبين عمرو بن هند وهي من جيد شعر العرب وإحدى السبع المعلقات ولشغف تغلب بها قال بعض الشعراء:

إلهي بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفأخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لفخر غير مسؤول

ومنهم قيس بن عاصم المنقري التميمي السعدي:

سيد أهل الوبر وهو فارس بني تميم وبطلها وزعيمها وأنفة قيس بن عاصم للعرض من وجوه عديدة ولها طرق كثيرة يطول أستيفؤها منها قصة المجنونة التي أسرها الحوفزان بن شريك الشيباني فأستخلص قيس منه السبي ونجا بتلك الحمقاء فآلح عليه قيس حتى حفزه بالرمح وأستنقذها منه، وتقدمت قصتها.

وبلغ قيس من الأنفة في العصر الجاهلي إلى حد سن للعرب دفن البنات أحياء وهو الوند وتلك المؤودة التي قال الله تعالى عنها: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾^(١) إلى أن أشرق نور الشريعة المحمدية فغير تلك السنة القاسية.

قال الميداني في مجمع الأمثال^(٢): كان السبب في ذلك أنهم كانوا منعوا

الملك ضربيته وهي الأتاوة التي كانت عليهم فجرد النعمان إليهم أخاه الريان مع دوسر أحد كتائبه وكان أكثر رجالها من بكر بن وائل فأستاق نعمهم وسبى ذراريهم فوفدت وفود بني تميم على النعمان بن المنذر في الذراري وحكم النعمان في ذلك أن يجعل الخيار في ذلك إلى النساء فأى امرأة أختارت زوجها ردت عليه، فاختلفن في الخيار وكان فيهن بنت لقيس بن عاصم فأختارت سابيها على زوجها فنذر قيس بن عاصم أن يدس كل بنت له في التراب فوآد بضعة عشر بنتاً، الخ.

هكذا جاءت هذه الرواية ولم يتفرد بها الميداني بل عليها كثير من نقلة الأثر، ويظهر من تصريح آخرين أن سبب وأده للبنات خوف السبة بتزويج غير الأكفاء لا أن أبنته سبيت وذلك ظاهر في جوابه لأبي بكر بن أبي قحافة لما سأله في حياة النبي ﷺ: لم تئد البنات يا قيس؟ فقال له قيس: مخافة أن يتزوجن مثلك وهذا أقرب إلى ذوق هذا الزعيم إذ لا قدرة للنعمان على بني تميم حاربه بطن منهم يوم طخفة فكسره تلك الكسرة الفاضحة وأخذوا ليطة كسرى سيد النعمان وما منعها النعمان منهم ولا حماها وبسببها كانت وقعة الكلاب الثاني المعروفة بيوم الصفقة لما تنحوا عن مستعمرة كسرى إلى حدود اليمن فغزتهم ملوك اليمن فكانوا غنيمتهم الباردة.

ومنهم خالد بن جعفر العامري الكلابي:

قتل زهير بن جذيمة العبسي لأجل امرأة من هوازن كما سبق في ترجمته.

ومنهم آكل المرار الكندي الملك:

وهو حجر بن الحارث بن عمرو المقصور غزاه ابن مندلة ملك سليح من قضاة وأسر زوجته هند الهنود وكان غائباً فلما رجع وعلم الخبر آكل المرار غضباً وهو شجر مر لا تسيفه البهائم.

قال الميداني في مجمع الأمثال^(١): قولهم: «لا غزو إلا التعقيب» أول من قال ذلك حجر بن الحارث بن عمرو آكل المرار وذلك أن الحارث بن مندلة ملك الشام كان من ملوك سليح من ملوك الضجاعم وهو الذي ذكره ابن جوين الطائي في شعره فقال:

هنالك لا أعطي رئيساً مقادة ولا ملكاً حتى يؤب بن مندله
وكان قد أغار على أرض نجد وهي أرض حجر بن الحارث وذلك على عهد

بهرام جور وكان بها أهل حجر فوحد القوم خلوفاً ووجد حجراً قد غزى أهل نجران فأستاق ابن مندلة مال حجر وأهله وأخذ امرأته هند الهنود ووقع بها فإعجبها وكان آكل المرار شيخاً كبيراً وابن مندلة شاباً جميلاً فقالت له: النجاء فإن وراءك طالباً حثيثاً وجمعاً كثيراً ورأياً صليباً وحزماً وكيداً، فخرج ابن مندلة مغذاً إلى الشام وجعل يقسم المربع نهاره أجمع فإذا كان الليل أسرجت له السرج يقسم عليها، فلما رجع حجر وجد ماله قد أستيق ووجد هنداً قد أخذت فقال: من أغار عليكم؟ قالوا: ابن مندلة، فقال: منذكم؟ فقالوا: بعد ثمان ليالي، فقال حجر: «لا غزو إلا التعقيب» فأرسلها مثلاً يعني غزوه الأول والثاني، وقوله «ثمان في ثمان» يعني سبقه بثمان وسيلحقه في ثمان أخرى.

ثم أقبل يجد في طلب ابن مندلة حتى دفع إلى واد دون منزل ابن مندلة فكمّن فيه وبعث سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة وكان من مناكير العرب فقال حجر: إذهب متنكراً إلى القوم حتى تعلم لنا علمهم، فانطلق سدوس حتى إنتهى إلى ابن مندلة وقد نزل في سفح الجبل وقد أوقد ناراً وأقبل يقسم المربع ونثر تمرأً وقال: من جاء بحزمة حطب؟ فذهب سدوس وأتى بحزمة حطب وألقاها على النار وأخذ قبضة من تمر فألقاها في كنانته وجلس مع القوم يستمع إلى ما يقولون وهند خلف ابن مندلة تحدثه، فقال ابن مندلة: يا هند! ما ظنك الآن بحجر؟ قالت: إني أراه ضارباً بجوشنه على واسطة رحله وهو يقول: سيروا سيروا لا غزو إلا التعقيب وذلك مثلما قال زوجها سواء.

ثم قالت هند لابن مندلة: والله ما نام حجر إلا وعضو منه حي، فقال ابن مندلة: وما علمك بذلك وأنهرها، قالت: إني كنت له فاركاً فبينما هو ذات يوم في منزل قد خرج إليه رابعاً فضربت له قبة من قبابه ثم أمر بجزر فنحرت وبشاء فذبحت فصنع ذلك ثم أرسل إلى الناس فدعاهم فأطعمهم فلما طعموا خرجوا فنام كما هو مكانه وأنا جالسة عند باب القبة فأقبلت حية وهو نائم باسط رجله فذهبت الحية تنهشه فقبض رجله ثم تحولت من قبل يده تنهشه فقبض يده إليه ثم تحولت من قبل رأسه فلما دنت منه وهو يغط قعد جالساً فنظر إلى الحية فقال: ما هذه يا هند؟ فقلت: ما فطنت لها حتى جلست، فقال: لا والله، وذلك كله بمسمع سدوس، فلما سمع الحديث رجع إلى حجر فنثر التمر من الكنانة بين يديه وقال:

أتاك المرجفون بأمر غيب على دهش وجئتك باليقين

فلما حدث بحديث امرأته مع ابن مندلة عرف أنه قد صدقه فضرب بيده على

المرار وهي شجرة مرة إذا أكلت منها الإبل قلصت مشافرها فأكل منها من الغضب فلم يضره فسمته العرب آكل الممرار ثم خرج حتى أغار على ابن مندلة فنذر به ابن مندلة فوثب على فرسه ووقف فقال له آكل الممرار: هل لك في المبارزة فأينا قتل صاحبه أنقاد له جند المقتول؟ قال له ابن مندلة: أنصفت وذلك بعين هند، فاختلفا بينهما طعنتين فطعنه آكل الممرار طعنة جندله بها عن فرسه فوثبت هند إلى ابن مندلة تفديه وأنتزعت الرمح من نحره وخرجت نفسه فظفر آكل الممرار بجنده وأستنقذ جميع ما كان ذهب به من ماله ومال أهل بلاده وأخذ هنداً فقتلها بمكانه وأنشأ يقول:

لمن النار أوقدت بحفير لم ينم غير مصطل مقرر
إن من يأمن النساء بشيء بعد هند لجاهل مقرر
كل أنثى وإن بدا لك منها آية الحب حبها خيتور
إنتهى .

ولسيت أنفة العرب تخص هذا النوع من الغيرة على الحرم بل يأنفون من الرجل يتحدث إلى نسائهم وقد كان كليب وائل يلقب أخاه مهلهلاً زير نساء لأنه كان كثير التحدث مع النساء ولذلك يقول مهلهل لما أخذ بثار كليب:

فلو نشر المقابر عن كليب لخبر بالذنائب أي زير
وفعلت بنو عقيل بجعفر بن علبة الحارثي ما فعلت حتى شهرته لأنه كان يتحدث إلى بعض نسائهم .

فالعرب ليسوا كالأفرنج الذين سلبوا الغيرة وعدموا الحمية والذين تختلط نساؤهم برجالهم فلا يعرف بعل المرأة من صديقها وهذه الملاعب الرياضية الألمبية والمسارح والسينما وغيرها من المجتمعات العامة وبالأخص الملاهي يحصل فيها ما لا يصبر على أدناه من دبت نشوة الغيرة في مسارب صماخه وتسربت الحمية متوغلة في دماغه فإن ملعب الدنص ولكلاب الذي تطفأ فيه الأنوار الكهربائية ويمد كل رجل من الحضور يده إلى المرأة التي تقع في يده فهي حصته ونصيبه كائنة من كانت فيخلوا بها بدون إنكار ولا تحاش فلا بعلها يأنف ولا حميمها يغضب هذا يسمونه مدنية وحرية .

إن هذا مما يشوه المدنية الحرة ويهجن راقية الحضارة ويمت بها ساقطة إلى الحضيض الأسفل، ومما تأباه أيضاً شهامة الأحرار وتمجه نفوس النبلاء الإغيار

ما شاهدته النظر من أختلاط نساء الإفرنج برجالهم في المغاطس (المسابح) فإن النساء والرجال يسبحون جميعاً عراة ليس على أبدانهم سوى ما يستر العورتين من لباس اللاستيق وفي أنف العروبة شمم عن مثل هذا وشموخ، إن العربي المحض ليأنف من المحادثة الساذجة ويغار من الأختلاط البسيط مع الحشمة والوقار والمحافظة على الستر ومع ذلك ليرتفع بهم مجدهم عن مثل هذه الدنيئة ويتعالى عن أشباه هذه السواقط فهم يرجعون إلى شرف لم يدنس بأداني الأفعال ومجد لم يلوث بذييمات الخصال ففي رؤوسهم نخوة شديدة، وفي أنوفهم شمم غير مستعار فيعطسون بإباء منيع ويرعفون بأنفة عصماء، ويرجعون إلى أنفس حرة وأصول كريمة وعناصر مبررة من كل وصمة ودنيئة وعار ومذمة.

قال أبو هلال العسكري في جمهرة الأمثال بهامش مجمع الأمثال للميداني^(١): روى بعض العلماء أن عمرا ذا الكلب الهذلي كان عشيقاً لأم خليجة امرأة من قيس فأتاها ليلة فنذر به قومها فهرب فأتبعوه فمر حتى رفعت له نار فأتاها فوجد عندها رجلاً فسأله طعاماً فدفع إليه تمرات فقال: تمرات تتبعها عبرات من نساء خفريات ومضى فدخل غاراً فجاء القوم يقصون أثره حتى أتوا الغار فقالوا: أخرج إلينا، قال: فلمه دخلته إذن؟! فقالوا لغلام لهم: أدخل فأقتله وأنت حر، فقال عمرو للغلام: ويحك ما ينفعك أن تعتق بعد أن تموت، فدخل فقتله عمرو وقال: معي أربعة أسهم كأنياب أم خليجة هي لأربعة منكم، فقتل منهم أربعة فنقبوا عليه من وراء الغار فقتلوه وأتوا بشيابه أم خليجة فوقعت عليها تصرخ وتقول: عطر وريح عمرو، ثم قالت: والله لئن قتلتهموه فما وجدت عانته وافية، ولا حجزته جافية، ولرب ضب منكم قد أحترشه وثدي قد أفترشه ومال أفترشه، ثم أنشأت تقول:

كل أمرء بطول العيش مكذوب	وكل من غالب الأيام مغلوب
وكل حي وإن طالت سلامته	يوماً طريقهموا للشر دعوب
أبلغ هذيلاً وأبلغ من يبلغها	عني مقالاً وبعض القول تشريب
بأن ذا الكلب عمراً خيرهم نسباً	بطن شريان ^(٢) يعوي حوله الذيب
التارك القرن تحت النقع منجداً	كأنه من دم الأجواف مخضوب

(١) جمهرة الأمثال بهامش مجمع الأمثال ٨٥ / ٢.

(٢) شريان بئر معروفة إلى اليوم قرب بلدة الزبير الحالية من محافظة البصرة..

والطاعن الطعنة النجلاء يتبعها مشعنجر من نجيع الجوف أسكوب
والمخرج الكاعب الحسناء مذعنة في السبي ينفع من أردانها الطيب
تمشي النسور إليه وهي لاهية مشي العذارى عليهن الجلابيب
فلن تروا عمرو ما مشت قدم وما أستحنت إلى أعطانها النيب
إنتهى ، والمشهور أن هذه الأبيات لأخته تراثيه بها ، وقصة جعفر بن علبة
الحارثي معروفة وذكرها الحموي في معجم البلدان^(١) .

القسم الرابع : الأنفون من الاستعباد الناهضون بالإصلاح

وغيرهم مقاومة الاستعمار الصارم ومكافحة الاستبداد الغاشم ولا نعرف
هذا لأحد من رجال الجاهلية وإنما حدث في الإسلام وأول الناهضين به
المؤسسين له من كبار المصلحين وعظماء الرجال الذين أنهضتهم الغيرة والحمية
على صيانة الشرف وحفظ الدين معاً :

هو سيد الشهداء :

سيد شباب أهل الجنة سبط سيد الأنبياء وشبل سيد الأوصياء إمام أهل الإباء
الحسين بن علي «عليهما السلام» فإنما نهضته الإصلاحية وثورته الخطيرة المشهورة
في التاريخ الشهيرة في ديوان الإصلاح البشري لم تكن مسببة عن هوان يلحقه في
نفسه ولا من أنتقاص في مجده وشرفه فإن الحسين «عليه السلام» وإن كانت
السلطنة لمن دونه في المجد والسلطة للوضعاء لكنه عند المسلمين قاطبة في أسمى
رتبة وأعلى مكان وله عند الأمراء مكانة مكيئة ومحل سامي .

فقد كان «عليه السلام» يأخذ الأموال من عمال معاوية من غير أن يراجع
معاوية أو يستأذنه ، فلو أقام والحال هذه لم ينقص شرفه ولم يثلم مجده فقد أقام
جده وأبوه وأخوه «صلوات الله عليهم أجمعين» زمناً طويلاً والسلطة والسلطنة
لغيرهم ، وأقام هو «عليه السلام» قبل نهضته والقوم له محترمون يبجلونه غاية
التبجيل ولكنه رأى وعاین ما لا يصبر على مثله الحر الكريم ، ولا يتحمل أدناه ذو
النفس الأبية ، والذي يغار على الإسلام والشريعة ويروم الإصلاح في الأمة التي
قهرها الاستبداد وأثر فيها نكد الاستعباد ، فقد صدرت من عمال بني أمية وملوكهم
من الفظائع الشنيعة والأعمال المنكرة الماحقة لعامة أحكام الشريعة المحمدية

الناشرة روح المدنية على العالم بأسره فكم دم يراق وحرمة تهتك وأموال تؤخذ جبروتية وغلبة، وفروج تستباح قهراً وتستحل فجوراً إلى غير ذلك من الأمور التي كانت تعملها جبابرة الأمم وفراعنة الملوك الذين أرسل الله إليهم الرسل وأبتعث الأنبياء المصلحين وأمرهم بمقاومة الاستبداد الجبروتي وأوجب عليهم تغييره ولو بتضحية نفوسهم.

وعلى مثل ذلك نهض الحسين «عليه السلام» نهضته المشهورة وقد صرح بذلك في كلام له «عليه السلام» في جواب من نهاه عن الخروج وخوفه أعتداء الأمويين: إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ﷺ لآمر بينهم بالمعروف وأنهى عن المنكر، فأختار تلك القتلة الحميدة والتضحية الكريمة في سبيل الإصلاح وتغييراً للبدع وإنكاراً للجور المسلط على أمة محمد ﷺ والعدوان الموجه من اللعين الفاجر على عامة المسلمين في أقطار الأرض وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان عظيماً معظماً في قريش يتحاكمون إليه ويرضون بحكمه ويسمون الصديق الأمين حتى نهض تلك النهضة الإصلاحية التي أوجبت تهذيب العالم من رذائل الأخلاق والعادات الفظة وتقديسه وتطهيره من الأدناس والمنكرات فقاوم الشرك والمنكرات الجاهلية قولاً وفعلاً فعادوه وأظهروا البغض له وتعاونوا في البغي عليه وأصروا على العناد والتعنت وتمادوا في اللجاج حتى أصبحوا صرعى بغيهم وظلالهم.

وكذلك سبيل كل من قام من المصلحين العظام بنهضة يروم بها قمع الأباطيل وكبح جمحات الأضاليل فإنه يلاقي عراقيلاً شديدة ويجابه أفظع النكبات التي يوجهها ضده أنصار الجور وبغاة العدوان والمصلح العظيم لا يقف عند عروض العراقيل في سبيل دعايته ولا تهمة الأخطار التي تحف بمقصده المقدس وغايته الشريفة فلا يرتجف قلبه عند ملاقات المحن والشدائد ولا يكثرث بالكوارث الطارقة، ولا يهتم لقلّة الأنصار والمساعدين له على دعايته ونشر دعوته، ولا يهن قوي العزم عن السير في تلك الخطة القويمة وإن تكبد ما تكبد من المصاعب الشاقة ولاقى من الأهوال المزعجة.

نعم، قل لي أين يوجد مثل الحسين بن علي «عليهما السلام»؟ هيهات أن يوجد مثله في هذا النوع البشري، إنها كلمة حق لا مغالاة فيها ولا شطح، إن رجلاً قام يخطب في أنصاره وأعوانه وقد أحاطت به الأخطار من كل ناحية وأكتنفته الأهوال من كل جهة ويأمرهم بالتفرق عنه لكيلا يصابوا بمثل ما يصاب

به من التضحية لنفسه التي صمم على تضحيتها وأختارها مذ رأت عينه وسمعت أذنه ما حل بالإسلام والمسلمين من الويلات من إراقة الدماء وذبح الأطفال وقتل النساء وشق بطون الحوامل عن الأجنة وهتك الأستار وإباحة الفروج وما لا يسعني إحصاؤه في مثل هذه العجالة فعاهد الحسين «عليه السلام» الأبى الغيور والشهم الحر نفسه أن لا يترث عن مقاومتهم خطوة، ولا يتوانى عن مناواتهم لحظة حتى يصلح ما أفسدوا، ويداوي كالم ما أجترحوا أو يفتدي الدين بنفسه، ومن كان هذا اعتقاده وإليه جلّ سعيه وأجتهاده فجدير أن يمض بعزم ثابت وجاش رابط منفرداً بتلك النفس العظيمة العديمة المثل، وحري به أن يقول لمن أكتنفه من أفذاذ الرجال ومساكير الحروب المصاليات الذين أنهضتهم حمية الدين معه وأثارتهم عواطف الشعور العربي: هذا الليل قد غشيكم فأتخذوه جملاً وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي وتفرقوا في سوادكم فإن القوم ليس لهم طلبة غيري فإذا ظفرو بي لهوا عن طلب سواي.

السبب في أمر الحسين «عليه السلام» أصحابه بالتفرق

وإنما أمرهم بالتفرق في مثل هذه الساعة الحرجة والموقف الرهيب مع كونه أحوج ما يكون إلى تكثير المساعدين بدلاً عن تفريق الحاضرين وصرف المدافعين عنه لأمرين:

أحدهما: أن الأمر معه وصل إلى الغاية التي لا يرجو معها البلوغ إلى الغرض الذي يرمي إليه وهو تغيير سنن الجائرين وكبح جماح المتمردين وإنما المتيقن عنده في تلك الساعة هو القتل لا غير والشهادة ليس إلا وأنه مقتول وجد له ناصراً أم لم يجد، وأن مطلوب عدوه قتله دون من تبعه من الناس فأحب أن يتمتعوا بالحياة إلى وقت ويتهنؤوا بالعيش إلى حين ولكن الكرام أبوها ورفضوها قائلين لم نفعل ذلك لنبق بعدك لا أرانا الله ذلك، وقالت طائفة أخرى منهم: لو كانت الدنيا لنا باقية وكنا فيها مخلصين لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها.

ثانيهما: أنه «عليه السلام» أحب مع علمه بثبات أصحابه وقوة عزائمهم ونفوذ بصائرهم وأن نهضتهم دينية أن يكشفها للأمة كشفاً ظاهراً حتى لا يطعن طاعن أو يقدر قاذح في سياسته «عليه السلام» فيزعم أن نهضته غير دينية وإنه كان يحاول سلطاناً فأغتر بذلك جماعة من الناس وأخذتهم فتوهموا أنه سينال سلطنة ويصيب ملكاً حتى أوقعهم في الخطة التي إنتهت بهم إلى القتل والقوم عرب

يأنفون عن التسلل عنه فراراً ويستهنون أن يقال لهم تركتم صاحبكم وأسلمتموه عند معترك المنايا للمنون وهربتم ناجين بأنفسكم فأظهر «عليه السلام» للناس بترخيصه لهم في مفارقتة ما أجنته نفوسهم وأنطوت عليه ضمائرهم من الإخلاص الصادق والمحبة العظيمة للتضحية معه وأنهم ما تبعوه إلا على الشهادة ولا لا زموه إلا لأجل القتل معه ولم يتبعوه على ملك ولا سلطان.

رفض أصحابه الرخصة في الانصراف عنه؛

وإنما رفضوا الرخصة في النجاة من الموت وأختاروا القتل معه على الحياة لأمرين:

أحدهما: حفظ رسول الله ﷺ فيه لقوله ﷺ: أيها الناس! إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وهذا صريح قول بعض خطباءهم لأهل الكوفة: بشما خلفتهم محمداً في أهل بيته.

وثانيهما: إنهم يطلبون مثل الذي يطلب من مقاومة الجور والعدوان والتضحية في سبيل إحياء الدين وتقويم الإسلام وإظهار كلمة الحق ونشر العدل والأمن أمة محمد ﷺ لأنهم كلهم من الزهاد وعباد الناس وصلحاءهم وقد قال بعض الكوفيين عقيب الواقعة بزمن يوبخ رجلاً كان مع عمر بن سعد: ويلك! قتلت ابن رسول الله ﷺ والعباد الصالحين معه، فقال: ثارت علينا عصابة أيديها على مقابض سيوفها لو ونيينا عنها ساعة لأتت على الجمع بحذافيره الخ.

فصلاحهم وزهدهم مما لا شك فيه، فأخبروا الحسين «عليه السلام» بما عرفه التاريخ من قولهم وفعلهم، فألجم فم كل قاذح بأنهم لم يكن لهم غرض ولا حاجة في هذه الحياة الفانية والعيشة الزائلة فهم لا يطلبون الدنيا التي تركوها ولا يريدون الحياة التي سئموها وإنما رفضوها لأجل هذه الغاية الشريفة فقالوا معلنين: إنما طلقنا حلائلنا وفارقنا ديارنا وأهالينا وأعرضنا عن زهرة دنيانا إلا لكي نفديك بأرواحنا، قال رائيهم:

جادوا بأنفسهم عن نفس سيدهم وقد رأوا لبثهم من بعده عارا
فالحسين «عليه السلام» هو أول من سن الإباء أنفة من الرضوخ للاستبداد الجائر وأسس نهضة الفخر في مقاومة سلطة الاستعباد الصارم.

قال ابن أبي الحديد الكاتب الحنفي المعتزلي في شرح نهج البلاغة^(١): سيد

أهل الإباء الذي علم الناس الحمية والموت تحت ظلال السيوف اختياراً له على الدنيا أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب «عليهما السلام»، عُرض عليه الأمان هو وأصحابه فأنف من الذل وخاف ابن زياد أن يناله بنوع من الهوان مع أنه لا يقتله فأختار الموت على ذلك، وسمعت النقيب أبا زيد يحيى بن زيد العلوي البصري يقول: كأن أبيات أبي تمام في محمد بن حميد الطائي ما قلت إلا في الحسين «عليه السلام»:

وقد كان فوت الموت سهلاً فرده إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف الضيم حتى كأنه هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من دون أخمصك الحشر
تردى ثياب الموت حمراً فما بدا لها الليل إلا وهي من سندس خضر
لما فر أصحاب مصعب عنه وتخلف في نفر يسير من أصحابه كسر جفن
سيفه وأنشد:

وإن الأولى بالطف من آل هاشم تأسوا فسنوا للكرام التأسيا
فعلم أصحابه أنه أستقتل، ومن كلام الحسين «عليه السلام» يوم الطف
المنقول عنه نقله زين العابدين علي ابنه «عليهما السلام»: ألا إن الدعي ابن الدعي
قد خيرنا بين اثنتين: بين السلة والذلة وهيهات من الذلة يأبى الله ذلك لنا ورسوله
والمؤمنون وحججور طابت وحججور طهرت وأنوف حمية ونفوس أبية، وهذا نحو
قول أبيه «عليه السلام»: إن أمرء أمكن عدوه من نفسه يعرق لحمه ويفري جلده
ويهشم عظمه لعظيم عجزه، ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره، أنت فكن ذاك
إن شئت وأما أنا فدون أن أعطي ذلك ضرب بالمشرفية تطير منه فراش إلهام وتطيح
السواعد والأقدام الخ.

نقد المؤلف لابن أبي الحديد في إباء الحسين «عليه السلام»

ليس كل مؤلف وإن نبيل ولا كل كاتب وإن نبغ يعرف الحقيقة وينكشف له واقع الأمر، فهذا الكاتب البليغ لم يعرف حقيقة الحسين «عليه السلام» ولا مقدار أثر نهضته في سبيل الإصلاح، ما سيم الحسين «عليه السلام» الهوان إلا في آخر خطوة خطاها إلى الموت وقالوا له بعد أن قرعهم بقوارع الوعظ اللاذع يوم العاشر من المحرم وأخبرهم بخيانتهم ونكثهم فقالوا: ما ندري ما تقول ولكن أنزل على حكم بني عمك، ومتى قالوا هذه المقالة بعد مجيء الشمر «لعنه الله» بكتاب ابن

زيادة لعنه الله عصر التاسع «من المحرم» بأن لا يقبل عمر بن سعد «لعنه الله» من الحسين «عليه السلام» إلا النزول على حكمه والأستسلام أو الحرب وكان الشمر هو الذي أشار على ابن زياد بهذا الرأي على ما رواه ثقة المؤرخين فكان جواب هؤلاء ما سمعت، فقال الحسين «عليه السلام»: هيهات لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر لكم إقرار العبيد، وإليه أشار السيد حيدر الحلبي (رحمه الله) في رثاءه:

فسامته يركب إحدى اثنتين وقد صرت الحرب أسنانها
فإما يرى مذعنأ أو تموت نفس أبي العز إذعانها
فقال لها اعتصمي بالإبا فنفس الأبى وما زانها
إذا لم نجد غير ليس الهوان فبالموت تنزع جثمانها

فأين منتهى الغاية من مبدأ المدى ومحل الهدف من موقف الرامي أن مبادئ النهضة الحسينية منذ عهد معاوية إلى ابتداء بيعة يزيد البيعة العامة وحتى مسيره إلى العراق لم يسم هواناً ولم يرد به الإذلال والخضوع وإنما كان غنيمتهم سكوته عنهم وعدم تعرضه لهم فلو حصل منه ذلك لبني أمية لكانت عندهم الفائدة التي لا تدانيها فائدة ولكنه أبى ذلك نظراً لمصلحة الدين وحماية للإسلام والشريعة فأظهر مناواتهم ومباعدتهم والتنديد لأعمالهم وإعابة أفعالهم القبيحة، هذا ديدن الحسين «عليه السلام» وأمية تأخذ باللين والإرفاق وهذه العصور الأموية التي عاش بها الحسين «عليه السلام» هي ترجمان حقيقة ما قرناها:

أما عصر معاوية بن أبي سفيان فقد كان معاوية يرى أن في الحسين «عليه السلام» نخوة إباء متغلغلة في دماغه الكريم وبمعطسه شمم متوغل في خيشومه الأشم ويعرف أن الغطرسة الأموية ذات النزوة الجبروتية مملوءة بالتمويهات والنيرنجة السياسة الخلافة التي يخدعون بها ضعفاء العقول ليست برائحة على الحسين «عليه السلام» ولا مؤثرة فيه حتى ينخدع فينقاد فلذلك كان معاوية مع شدته وغلظته على سلالة علي «عليه السلام» وتذكره لأحقاد بدر وأحد وغيرها وما هو بالناسي لمعركة صفين التي دارت رحاها طاحنة لجيشه بيد مديرها صاحب الصولة الهاشمية أبي الحسن القرم «عليه السلام» فقد كان ينخدع للحسين «عليه السلام» ويلين له جانبه ولا يعامله إلا بالرفق والأناة حيث كان هو «عليه السلام» يخطو بقدم المنعة والعز ويمد يد القدرة والتمكين إلى الأموال المحمولة إلى معاوية بغير مراجعة له ولا استئذان منه وهو ملك ذلك العصر المنفرد وسلطان

الوقت المسلط، وإذا كاتب معاوية كاتبه بكل جواب لاذع ووجه إليه كل خطاب نافذ بما هو أمضى من حدود الأسنة.

أما يزيد بن معاوية فكان على عداوته لأهل البيت «عليهم السلام» وشدة بغضه للحسين «عليه السلام» كان في أشد ما يكون من مراعات جانب الحسين «عليه السلام» خوفاً منه أن يقوم بنهضة دينية أو ثورة تزعزع عرش سلطنته فكان يتوصل إلى إرضاء الحسين وإقناعه بكل ما وجد إليه سبيلاً وأعظم الوسائل عنده أن يعاتبه ويعاتب أشراف قومه فلما علم أن الحق يمنع الحسين «عليه السلام» من الانقياد إليه والأتباع له وأن الدين يوجب عليه النهوض لمكافحة الاستبداد مال إلى العنف والشدة قولاً ولان فعلاً وبذل له الأمانى والمرغبات وقتل في الذروة والغارب وتوصل إلى ذلك بكل وسيلة حتى أنه أستغاث بقريش وأستعدهم على الحسين «عليه السلام» وخوف بني هاشم عاقبة الحرب حيث يقول في كلمة يرويها الطبري المؤرخ في أخبار الدولة العباسية وابن كثير المؤرخ الشافعي الدمشقي وسبط ابن الجوزي الحنفي وآخرون ونصها:

يا أيها الراكب الغادي لطيته	على عذافرة في سيرها قحم
أبلغ قريشاً على نأي المزار لها	بيني وبين الحسين الله والرحم
وموقف بفناء البيت أنشده	عهد الإله غداً توفى به الذمم
هنأتموا قومكم فخراً بأكموا	أم لعمري حصان عفة كرم
وهي التي لا يداني فضلها أحد	بنت الرسول وخير الناس قد علموا
إني لأعلم أو ظناً لعالمه	والظن يصدق أحياناً فينتظم
أن سوف يترككم ما تدعون به	قتلى تهاداكم العقبان والرخم
يا قومنا لا تشبو الحرب إذ سكنت	وأمسكو بحبال السلم واعتصموا
قد غرت الحرب من قد كان قبلكموا	من القرون وقد بادت بها الأمم
فانصفوا قومكم لا تهلكوا بذخاً	فرب ذي بذخ زلت به القدم

وقد كان الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وهو والي المدينة ليزيد بن معاوية يعظم الحسين «عليه السلام» وهو الذي كتب إلى ابن زياد ينهائه عن حرب الحسين «عليه السلام» وقد كان أيضاً عمرو بن سعيد الأشدق الأموي الذي خلف الوليد على ولاية المدينة وهو جبار بني أمية قد بذل للحسين «عليه السلام» الأمان مع ضمانه له الحباء والتبجيل والاحترام وبعث أخاه يحيى بن سعيد إليه وأستقبله في

الطريق قاصداً إلى العراق ومعه عبد الله الجواد ابن جعفر الطيار ولكن الحسين «عليه السلام» رفض كل سلم لبني أمية وأبى كل مصالحة لهم حيث أنه يرى في مسالمتهم تقوية للجور الذي أرتكبوه وإضعافاً للعدل الذي قهره وخطبه «عليه السلام» مملوءة بهذا كقوله «عليه السلام»: أفلا ترون إلى الحق لا يُعمل به، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء ربه محققاً، وإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً.

نعم، إنه نزل كربلاء وأحاطوا به وحصلوه بتلك الفلاة بغير مادة ولا مدد وظهرت لهم علامات الغلبة ساموه تلك الخطة الذميمة فرفضتها نفسه الأبية وشمخت عن قبولها أنفه السماء كما قال شاعر الأنصار^(١):

أبت لي عفتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيع
وإعظامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
بذي شطب كلون الماء صاف ونفس ما تفر على القبيح
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمي بعد عن عرض صحيح
وقد تمثل الحسين «عليه السلام» بقوله شاعر الأنصار من الصحابة وقد ليم
على الجهاد مع النبي ﷺ وخوف بالموت:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلماً
وواسى الرجال الصالحين بنفسه وجاهد مثبوراً وفارق مجرماً
فالنهضة الحسينية لها مبادئ تشتمل على غايات شريفة وهي ما ذكرنا من نشر
العدل والأمن في الأمة والتسوية والمساوات في القسم ونشر الأحكام كلها التي
فرضتها شريعة الإسلام، ولها خواتم تشتمل على فضائل شتى وهي ما ذكرنا من
اختيار القتلة الحميدة على الحياة الذميمة وعدم الانقياد للوضعاء الأذنياء وسعادة
سرمدية بإحياء الذكر في الأجيال المتعاقبة وهي حياة خالدة أبد الدهر.

ولم ينهض أحد من أعيان المسلمين على نهج النهضة الحسينية ولا سلك
مسلكه الأباء الذين ذكرهم ابن الحديد الكاتب المعتزلي الحنفي في شرح نهج
البلاغة كقتيبة بن مسلم الباهلي ويزيد بن المهلب الأزدي وابني الزبير عبد الله
ومصعب.

(١) قائلها: عمرو بن الإطنابة الأوسي جاهلي وفيها:

أقول لها وقد جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

نقد المؤلف لابن أبي الحديد في عده آل الزبير وغيرهم كالحسين «عليه السلام»

قبل كل مهم ينبغي التنبيه على مطلب ترى له أهمية في بادئ النظر فإن الغبي ربما يتوهم من تعداد هؤلاء هنا أنهم في المحل الأرقى والمكان الأرفع من الشرف حتى أنهم ذكروا هنا في سلسلة الإباء الحسيني والفرق متضح أن من كان مثل الحسين «عليه السلام» الذي هو أشرف الناس بعد جده وأبيه وأخيه «عليهم السلام» بكل معنى من معاني الشريف فلا شك أن في خضوعه ذلة وهوان إذ لا أجل منه ولا أشرف فمهما كان تابعاً لأي متبوع تصورت كان في ذلك نقص وهوان وإن بجله المتبوع وأجله وعظمه كما ينبغي وكما يراد.

ومن ذكر من الباهلي والأزدي فما هذان والشرف لولا الأنقياد لأهل السلطة والتبعية لأهل السلطنة؛ أما الأسرة والرهط فلو لم أسرته مشهور في العرب وضاعتهم تضرب بها الأمثال، ومسلم أبو قتيبة كان خادماً وبريداً ليزيد وابن زياد يقف في صف العبيد على أبوابهم، وأما قتيبة فكان خادماً للحجاج بن يوسف ونبيل بتوليته له قيادة الجيوش ولا يخفى هذا على كل عارف بالأثر من له أقل إمام بالتاريخ، وأما آل المهلب فمع كونهم من أزد عمان يعابون بالملاحاة ثم من العتيك أذل أزد عما ينبزون بالحيابة ومع ذلك هم أدعياء في الأزد كما ذكرنا ذلك في كتابنا «الأمالي المنتخبة» في فصل الأدعياء والدخلاء، فنبل آل المهلب وعظموا بخدمة آل الزبير وآل مروان فشهد المهلب وبنوه في حروب الفتنة وأظهرتهم القيادة والإمرة فما دام أميراً وقائداً فهو من العظماء وإن عزل عنها فهو كأفراد الناس ويطلق عليهم المزون ذماً وتهجيناً فما هؤلاء لو خضعوا لسلطان الوقت والهوان، نعم هؤلاء ما نهضوا أنفة وخوفاً من الوصمة بل نهضوا طمعاً في الإمرة وحرصاً على القيادة.

أما ابن المهلب فيعلم أن يزيد بن عاتكة بن عبد الملك بن مروان لا يولي مهلبياً لانحرافه عنهم وبغضه إياهم فأراد ابن المهلب أن يريه قدرته فقاد تلك الجماهير وما ساعدته الأقدار فأحل بنفسه وأهله الدمار وأنزلهم دار البوار وهكذا حال قتيبة مع سليمان بن عبد الملك ومن عرف التاريخ وأطلع على كتبه المعتمدة علم أن ما قلناه هو الواقع.

وأما آل الزبير فأولاً ليست أسد بن عبد العزى من قبائل قريش الرئيسة

وخصوصاً آل العوام حتى قيل أنهم أدعياء في قريش وإنهم من القبط وأن خويلداً قد تبني العوام القبطي، راجع كتابنا «الأمالي المنتخبة» في الأدعياء والدخلاء وإنما شرفوا بصفية بنت عبد المطلب وخديجة بنت خويلد وهذا الشروق إنما هو بإشراق فضل بني هاشم عليهم.

وثانياً: لم يزل عبد الله بن الزبير يتطلب رضا معاوية ويطمع في بره ويحتمل منه أمض الكلام الخشن الحجب عن الدخول عليه والتكذيب له مواجهة ثم آل الزبير أي هوان لفظوه وقد مشواهم وأبوهم تحت راية امرأة وحضروا حرباً كانوا فيها أذنباً والرأس فيها امرأة من بني تيم أمثل هؤلاء يقال إنهم أباة ضيم ويعدوا في عداد سيد الشهداء الحسين «عليه السلام» وأهل بيته لا والله حتى يساوي الثرى الثريا والأوج الحضيض فإن تخيل متخيل أن الذين ذكرهم شارح النهج إنهم نهضوا إنكاراً للمنكر ورغبة في نشر المعروف كلا لا يمكن إلا أن يدعي وإن كان باطلاً أنهم قاتلوا إباء للذل وأنفة من المهانة على عادة رجال الجاهلية.

وإلا فكيف يكون من رجال الإصلاح من كان من عظماء الجبابرة وكبار مرتكبي الأوزار ورؤوس أرباب الجرائم؟! هذا مصعب بن الزبير قتل من أصحاب المختار ستة آلاف رجل صبراً بعد أن أعطاهم الأمان وكلهم من خيار المسلمين وصلحاء أمة محمد ﷺ حتى قال له عبد الله بن عمر بن الخطاب: إنك لو قتلت عدتهم من غنم أبيك لكان إسرافاً ولم يكلمه بعدها كلمة واحدة، وقتل امرأة المختار وهي عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصاري وعذبها عذاباً لو كان بحيوان مفترس لم يجز ذلك وفعله بأمر أخيه عبد الله الملحد والملحد لقب عبد الله بن الزبير عند المسلمين وفيها يقول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

إن من أعجب العجائب عندي	قتل بيضاء حرة عطبول
قتلت هكذا على غير جرم	إن لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا	وعلى الغانيات جر الذبول
وفيها يقول سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري من كلمة له:	
أتاني بأن الملحدين توافقا	على قتلها لا أحسنوا القتل والسلب
فلا هنأت آل الزبير معيشة	وذاقوا لباس الخوف والذل والحرب
كأنهموا إذ أبرزوها وقطعت	بأسيافهم فازوا بمملكة العرب
ألم يعجب الأقيام من قتل حرة	من المحصنات الدين محمودة الأدب

في أبيات بقيتها في تاريخ الطبري وابن الأثير.

أما عبد الله بن الزبير وهو الخليفة عندهم فقد قطع الصلاة على رسول الله ﷺ في خطبه أربعين جمعة لم يصل عليه ولم يذكره بالنبوة وجمع بني هاشم وأراد إحراقهم بالنار حتى أستنقذهم أبو عبد الله الجدلي صاحب المختار وقتل أخاه عمرو بن الزبير ضرباً بالسياط وقتل محمد بن عمار بن ياسر وجماعة من أخيار أهل المدينة ضرباً بالسياط حتى ماتوا لأنهم ما بايعوه وأعماله وأعمال أخيه مصعب لا تقل عن أعمال يزيد بن معاوية إن لم تزد عليها وكلها مشهورة وأحصيناها في كتابنا «السياسة العلوية» غير أنهم لا يشربون الخمر ولا يقامرون ويتظاهرون بإكثار الصلاة والصيام خديعةً ومكرًا وجعلوهما مصيدة لعقول الضعفاء من الناس وقد كشف ذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب فإن عبد الله بن الزبير توصل إلى صفية بنت أبي عبيد أخت المختار زوجة ابن عمر وطلب منها أن تكلم زوجها عبد الله بن عمر في أن يبايع له فكلمته وذكرت صلاة ابن الزبير وصومه فقال لها زوجها ابن عمر: رأيت البغلات الشهب التي كان يحج عليها معاوية؟ قالت: نعم، فقال إياها يريد ابن الزبير بصلاته وصومه.

وأما يزيد بن المهلب وقتيبة بن مسلم فأمرهما في الجور والعدوان وارتكاب فظائع الأمور مما أشتمل عليه التاريخ المعتمد ما كفانا كلفة التطويل بأخبارهما وهما كانا من عمال الحجاج وحسبك بعامل الحجاج جوراً وتعدياً.

نعم، ربما يكون نهوض رجال العلويين الثائرين بعد الحسين «عليه السلام» لطلب الإصلاح ونشر العدل في الأمة كزيد بن علي ويحيى بن زيد قتيل الجوزجان ومحمد بن عبد الله ذي النفس الزكية قتيل أحجار الزيت وأخيه إبراهيم أحمر العينين قيل إنه سمع طنبوراً في بعض نواحي عسكره فبكى وقال: كيف يفلح جيش فيه مثل هذا، ويحيى بن عمر قتيل شاهي، والحسين بن علي قتيل فخ وغيرهم أضربنا عن تفاصيل أخبارهم حذر التطويل وكان من واجب ابن أبي الحديد أن يذكر المختار بن أبي عبيد الثقفي في أهل الإباء لأنه خرج إنكاراً للجور وغضباً لابن رسول الله ﷺ وأعطى الأمان فعافه خوف المذلة والصغار ومشى إلى الموت مصلاً بسيفه وكذلك إبراهيم الأستر.

إِيَاءُ أَبِي الْفَضْلِ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ «عَلَيْهِمَا السَّلَامُ»

قد بذل له الأمان ولإخوته الأشقاء خاصة غير الأمان الذي أعطي للحسين

«عليه السلام» ولأصحابه عموماً قد قام بطلب الأمان من ابن زياد للعباس «عليه السلام» وإخوته رجلاً من أخوالهم وهما عبد الله ابن أبي أنجل الكلابي خاله شقيق أمه أم البنين والشمر بن ذي الجوشن الكلابي الضبابي وكانت له منزلة عند ابن زياد ومكانة مكيمة فقاما إليه لما صمم على قتل الحسين «عليه السلام» وطلبا منه الأمان لبني أختهم العباس وإخوته.

ذكر ابن الأثير في تاريخ الكامل^(١) والطبري في تاريخ الأمم والملوك ولفظه^(٢) أبو مخنف عن الحارث بن حصيرة عن عبد الله بن شريك العامري قال: قبض شمر بن ذي الجوشن الكتاب - يعني بقتل الحسين «عليه السلام» - قام هو وعبد الله بن أبي المحل وكانت عمته أم البنين ابنة حزام عند علي بن أبي طالب «عليه السلام» فولدت له العباس وعبد الله وجعفر وعثمان وقال عبد الله بن أبي المحل بن حزان بن خالد بن ربيعة بن الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب: أصلح الله الأمير إن بني أختنا مع الحسين، قال: رأيت أن تكتب لهم أماناً فعلت؟ قال: نعم ونعمة عين، فأمر كاتبه فكتب لهم أماناً فبعث به عبد الله بن أبي المحل مع مولى له يقال له كزمان فلما قدم عليهم دعاهم فقال: هذا أمان بعث به خالكُم، فقال الفتية: إقرأ خالنا السلام وقل له: لا حاجة لنا في أمانكم أمان الله خير من أمان ابن سمية.

قال: فأقبل شمر بن ذي الجوشن بكتاب عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد فلما قدم عليه فقرأه فقال له عمر: مالك ويلك لا قرب الله دارك وقبح ما أقدمت به علي والله إني أضنك أنت نهيتك أن يقبل ما كتبت به إليه فأفسدت علينا أمر كنا رجونا أن يصلح، لا يستسلم والله حسين إن نفس أبيه بين جنبيه، فقال له شمر: وما أنت فاعل؟ أتمض لأمر أميرك وتقتل عدوه وإلا فخل بيني وبين الجند والعسكر، فقال: ولا كرامة لك وأنا أتولى ذلك منهم، قال: فدونك أنت فكن على الرجال.

قال: فنهض إليه عشية الخميس لتسع مضين من المحرم، قال: وجاء شمر حتى وقف على أصحاب الحسين «عليه السلام» وقال: أين بنوا أختنا؟ فخرج إليه العباس وجعفر وعثمان بنو علي فقالوا له: مالك وما تريد؟ فقال: أنتم يابني أختي آمنون، فقال الفتية: لعنك الله ولعن أمانك وإن كنت خالنا أتؤمننا وابن رسول الله ﷺ لا أمان له، إنتهى.

(١) الكامل في التاريخ ٤/ ٣٣.

(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٢٣٦.

وفي العبارة غلط واضح وقوله «عمته عند علي» والظن أن الأصل أخته كما هو صريح آخر العبارة وقد صرح الطبري وغيره أن حزام والد عبد الله وأم البنين يكنى بأبي المحل ذكره في خلافة أمير المؤمنين ولكن سبط ابن الجوزي في التذكرة^(١) ذكر عن الطبري أن جرير بن عبد الله بن أبي المحل كانت أم البنين عمته فأخذ لهم أماناً هو وشمر وعليه تسقيم العبارة، وإن في النسخة المطبوعة سقط، وقولهم في آخر العبارة «أبلغ خالنا» إن ذلك يقال لسائر عشيرة الأم.

أما الشيخ المفيد فذكر أمان الشمر خاصة والسيد ابن طاوس وابن نما كذلك ونص السيد (رحمه الله) في الملهوف^(٢): ورد كتاب عبيد الله بن زياد على عمر بن سعد يحثه على تعجيل القتال ويحذره من التأخير والإمهال فركبوا نحو الحسين «عليه السلام» وأقبل شمر بن ذي الجوشن ونادى: أين بنو أختي عبد الله وجعفر والعباس وعثمان؟ فقال الحسين «عليه السلام»: أجيئوه ولو كان فاسقاً فإنه بعض أخوالكم، فقالوا له: ما شأنك؟ فقال: يا بني أختي! أنتم آمنون فلا تقتلوا أنفسكم مع أخيكم الحسين والزموا طاعة أمير المؤمنين يزيد، فقال له العباس بن علي: تبت يداك وبئس ما جئت به من أمانك ياعدو الله، أتأمرنا أن نترك أخانا وسيدنا الحسين بن فاطمة وندخل في طاعة اللعناء وأولاد اللعناء؟! فرجع الشمر إلى عسكره مغضباً، إنتهى.

ومثله ذكر ابن نما في مثير الأحزان^(٣).

وهذا أمر مشهور عند أرباب المقاتل فلا يتطرقه شك ولا يطرأ عليه أرتياب وهذا هو الإباء الحر وهذه هي الحمية الخالصة والأنفة العربية المحضة فإن عد ابن المهلب وابن الزبير من الأباة الأنفين من المذلة وقد بذل لهما الأمان مرة واحدة وقد تكرر بذل الأمان للعباس وإخوته فكان أربع مرات مرتان له بالأشتراك مع أخيه الحسين «عليه السلام» في أمان عمرو بن سعيد وأمان عبيد الله بن زياد للحسين وأصحابه وقد رفض أبو عبد الله الحسين الأثنين وأبو الفضل معه، ومرتان كانتا له خاصة كما سمعت فرفضهما أيضاً أبو الفضل وقد أحسن مؤبته بقوله:

أبا الفضل يامن أسس الفضل والإباء أبا الفضل إلا أن تكون له أبا

وقال الشيخ محمد رضا الأزري البغدادي من قصيدة:

وأشم لا يحتل دار هزيمة أو يستقل على النجوم رغامها

(٢) الملهوف: ص ٧٧.

(١) تذكرة الخواص: ص ١٤٢.

(٣) مثير الأحزان: ص ٣١.

وللمؤلف:

أبو الفضل رد أمان العدى
وقال اخسؤوا يا عبيد الورى
أنخضع للذل لا والحفاظ
وطعم المنية عند الحفاظ
ألا حبذا الموت موت الكرام
وللحر نفس تعاف الهوان
فهيهات نذعن لابن الدعي
وهاذي السيوف بأيماننا
فلسنا نغادر أرض الطفوف
وقد تبعتنا طيور السما
سنشبعها من لحوم العدا
وقد صدق القول منه الفعال
وللمؤلف أيضاً:

أليس أبو الفضل الذي أسس الإبا
فكم مرة أعطي الأمان فعافه
تردى ثياب الفخر بيضاً نقية
فنفسي الفدا للمكتسي الحمد والثنا
فما حدثته النفس إن حياته
وما حدثته النفس أن يحيى ساعة
وسن لنا شرع الحفاظ جديدا
وخير فأختار الممات حميدا
أجدن المعالي نسجهن برودا
ومستطعم مر الحفاظ برودا
الذّ وأحلى أن يموت سعيديا
يرى حاكماً في المسلمين يزيدا

ومن صفات العباس بن علي «عليه السلام» النفسية المواسات:

والمواسات ربما أشبهت بالإيثار كما أختلط ذلك على بعض من لا تحقيق

عنده.

الفرق بين المواسات والإيثار

هي: أن الإيثار معناه تقديم من أثرته على نفسك وإن أضربك، والمواسات هي المساهمة بين نفسك وغيرك ولا يلزم من المواسات تقديم من واسيت على

نفسك بل يكفي في تحقيقها أن تشاركه في السراء والضراء إذا كانت المواسات في النفس، وفي العسر واليسر إذا كانت المواسات بالمال، والمواسات من الكرم والجود بكلا قسميها أي المواسات بالنفس وبالمال، والتحقيق في ذلك أن المواسات والإيثار وإن كانا شعبة من شعب الكرم الذي هو نتيجة العفة ومن أكمل أخلاق النفس وأجل فضائلها إلا أنهما يفترقان من حيث المورد والسبب.

أما المورد فإن الإيثار مورده حيث يمتنع الاشتراك لحصول المانع كتعذر الوصول إليه أو عدم كفايته للجميع وما شابه ذلك، والمواسات حيث يمكن الاشتراك.

وأما السبب فالإيثار سببه علو الهمة وعظم النفس، والمواسات سببها دماثة الأخلاق ولطافة الشرائع وحسن الثقة بالله تعالى والأعتماد عليه في العسر واليسر.

معنى المواسات لغة؛

قال ابن الأثير في النهاية^(١): الأسوة والمواسات وهي بكسر الهمزة وفتحها القدوة، والمواسات المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق وأصلها الهمزة فقلبت واواً تخفيفاً.

وقال الفيروزآبادي في القاموس: والإسوة بالكسر ولا يكون ذلك إلا من كفاف فإن كان من فضل فليس بمواسات.

وقال الفيومي في المصباح المنير^(٢): الأسوة بالكسر والضم القدوة، وتأسيت به وتئسيت اقتديت، وآسيته بنفسي بالمد سويته، ويجوز إبدال الهمزة واواً في لغة اليمن فيقال: وآسيته.

معنى المواسات العقلي؛

قال ابن مسكويه الخازن في تهذيب الأخلاق^(٣): وأما المواسات فهي معاونة الأصدقاء والمستحقين ومشاركتهم في الأموال والأقوات.

وقال أحمد بن أبي الربيع في سلوك المالك^(٤): والمواسات هي معاونة الأصدقاء والمستحقين وهي تنقسم إلى أقسام: أحدها بالمال كمواسات أهل الحاجة بماله والبر بهم ومراعاتهم، والثاني بالبدن وذلك كنصرة المرء صاحبه

(٢) المصباح المنير ١/ ١٢.

(١) النهاية ٣/ ١٣.

(٣) تهذيب الأخلاق: ص ٣٨١.

(٤) سلوك المالك في تدبير الممالك: ص ٢٩.

بالمضاربة دونه، والثالث بالعلم وذلك كتأديب الرجل صاحبه ومداواته بعلمه، والرابع في الكلام وذلك مناضلة المرء عن صاحبه بالخصومة عنه، إنتهى.
وقد أكثر العرب من التمدح بالمواسات، فقال زهير بن أبي سلمى:
على مكثريهم حق من يعتريهموا وعند المقلين السماحة والبذل
وعطاء المقل مواسات إذ لا فضل عنده.

وقال رجل من بني عبد الله بن غطفان وقد جاور في طي وهو خائف:
جزى الله خيراً طيئاً من عشيرة ومن صاحب تلقاهموا كل مجمع
وهموا خلطوني بالنفوس ودافعوا ورائي بركن ذي مناكب مدفع
وقالوا أتعلم أن مالك إن يصب نكدك وإن تحبس نذك وننفع
وقال المفضل بن المهلب بن أبي صفرة يتندم إذ لم يواسي إخوته إذ قتلوا
وقد كان مصمماً على الموت فخدعه أحد إخوته وقال له: أنصرف إن الأمير يزيد
يعني أخاه قد انصرف لأنه خاف أن يعلمه بقتله فيستقتل فلما علم بقتل إخوته قال:
فضحني عبد الملك أراد أن يقول الناس شيخ أعور مهزوم وكانت عينه ذهبت في
الحروب وكان من أبطال العرب فقال يتذكر موقف إخوته المقتولين ويتأسف أن لا
يكون قد واساهم:

هل الجود إلا أن نجود بأنفس على كل ماضي الشفرتين قضيب
وما خير عيش بعد قتل محمد وبعد يزيد والحرون^(١) حبيب
ومن هز أطراف القنا خشية الردا فليس لمجد صالح بكسوب
وما هي إلا رقدة تورث العلا لرهطك ما حنت روائم نيب

ثم استقتل في الواقعة الثانية فقتل هو ومن بقي من إخوته.

وترقى بعض العرب إلى مواسات الحيوان فكان عدي بن حاتم يفت الخبز
للنمل ويقول: إنهن جارات.

وقال الفرزدق وقد نزل به ذئب فأشركه في طعامه:

وأطلس عسال وما كان صاحباً رفعت لناري موهناً فأتاني
فلما دنا قلت أدن زورك إنني وإياك في زادي لمشتركان
فبثُّ أقد الزاد بيني وبينه على ضوء نار مرة ودخان

(١) حبيب بن المهلب بن ابن أبي صفرة الأزدي يلقب الحرون لصبره في الحرب.

الخ، وشعر العرب في المواسات كثير منه قول عروة بن الورد العبسي المعروف بعروة الصعاليك:

أقسم نفسي في نفوس كثيرة وأحسو زلال الماء والماء بارد

المواسات عند العرب

وأما أمثال العرب في المواسات:

فمنها قولهم «إن أخاك من آساك» قال الميداني في مجمع الأمثال^(١): يقال: آسيت فلاناً بمالي وغيره إذا جعلته إسوة لك وواسيت لغة فيه ضعيفة بنوها على يواسي ومعنى المثل أن أخاك حقيقة من قدمك وأثرك على نفسه يضرب في الحث على مراعاة الإخوان، وأول من قال ذلك خزيم بن نوفل الهمداني وذلك أن النعمان ابن ثواب العبدي ثم الشني كان له بنون ثلاثة: سعد وسعيد وساعدة وكان أبوهم ذا شرف وحكمة وكان يوصي بنيه ويحملهم على آدابه؛ أما ابنه سعد فكان شجاعاً بطلاً من شياطين العرب لا يقام لسبيله ولم تفته طلبته ولم يفر عن قرن، وأما سعيد فكان يشبه أباغاه في شرفه وسؤدده، وأما ساعدة فكان صاحب شراب وندامي وإخوان.

فلما رأى الشيخ بنيه دعى سعداً وكان صاحب حرب فقال: يابني! إن الصارم ينو والجواد يكبو والأثر يعفو فإذا شهدت حرباً فرأيت نارها تسعر وبطلها يخطر وبحرها يزخر وضعيفها ينصر وجبانها يجسر فاقلل المكث والانتظار فإن الفرار غير عار إذا لم تكن طالب ثار فإنما ينصرونهم وإياك أن تكون صدر رماحها ونطيح نطاحها.

وقال لابنه سعيد وكان جواداً: يابني! لا يبخل الجواد فأبذل الطارف والتلاد وأقلل التلاح تذكر عن السماح، وأبلي إخوانك فإن وفيهم قليل وأصنع المعروف عند محتمله.

وقال لابنه ساعدة وكان صاحب شراب: يابني! إن كثرة الشراب تفسد القلب وتقلل الكسب وتجدر اللعب فأبصر نديمك وأحمي حريمك وأعن غريمك وأعلم أن الظماً القامح خير من الري الفاضح، وعليك بالقصد فإن فيه بلاغاً. ثم إن أباهم النعمان بن ثواب توفي، فقال ابنه سعيد وكان جواداً سيداً:

لأخذن بوصية أبي ولأبلون إخواني وثقتاتي في نفسي فعمد إلى كبش فذبحه ثم وضعه في ناحية خبائه وغشاه ثم دعى بعض ثقاته فقال: يا فلان! إن أباك من وفي لك بعهدك وجاد لك برفده ونصرك بوده، قال: صدقت فهل حدث أمر؟ قال: نعم إني قتلت فلاناً وهو الذي تراه في ناحية الخبأ ولا بد من التعاون عليه حتى يوارى فما عندك؟ قال: إنها سؤة وقعت فيها، قال: فإني أريد أن تعينني عليه حتى أغيبه، فقال: لست لك في هذا بصاحب فتركه وخرج، فبعث إلى آخر من ثقاته فأخبره بذلك وسأله معونته فرد عليه مثل ذلك حتى بعث إلى عدة منهم كلهم يرد عليه مثل جواب الأول، ثم بعث إلى رجل من إخوانه يقال له خزيم بن نوفل فلما أتاه قال له: يا خزيم! مالي عندك؟ قال: ما يسرك وما ذاك؟ قال: إني قتلت فلاناً وهو الذي تراه مسجاً، قال: أيسر خطب فتريد ماذا؟ قال: أريد أن تعينني حتى أغيبه، فقال: هان ما فزعت فيه إلى أخيك: و غلام لسعيد قائم معهما، فقال خزيم: هل أطلع على هذا الأمر أحد غير غلامك هذا؟ قال: لا، قال: أنظر ما تقول، قال: ما قلت إلا حقاً، فأهوى خزيم إلى غلامه فضربه بالسيف فقتله وقال: ليس عبد بأخ لك فأرسلها مثلاً، وأرتاع سعيد وفزع لقتل غلامه وقال: ويحك ما صنعت وجعل يلومه، فقال خزيم: إن أخاك من آسأك، فأرسلها مثلاً، فقال سعيد: إني أردت تجربتك ثم كشف له عن الكبش وخبره بما لقي من إخوانه وما قد ردوا عليه، فقال خزيم: سبق السيف العذل.

وقالوا: «حميم الرجل وأصله» قال الميداني أيضاً^(١): أول من قال ذلك الخنابس بن المقنع وكان سيداً في زمانه وإن رجلاً من قومه يقال له كلاب ابن فارغ وكان في غنم له يحميها فوق وقع فيها ليث ضاري وجعل يحطمها فأنبرى له كلاب يذب عنها فحمل عليه الأسد فخبطه بمخالبه خبطة فأنكب كلاب وجثم عليه الأسد فوافق ذلك من حاله رجلان الخنابر بن مرة وآخر يقال له حوشب وكان الخنابر حميم كلاب فاستغاث بهما كلاب فحاد عنه حميمه وخذله وأعانه حوشب فحمل على الأسد وهو يقول:

أعننته إذ خذل الخنابر وقد علاه مكفهر خادر
هرامس جهم له زماجر ونابه حرد عليه كاسر
أبرز فلاني ذو حسام حاسر إني بهذا إن قتلت ثائر

فعارضه الأسد وأمكن سيفه من حضينه فمر بين الأضلاع والكتفين فخر صريعاً وقام كلاب إلى حوشب وقال: أنت حميمي دون الخنابر وانطلق كلاب بحوشب حتى أتى قومه وهو أخذ بيد حوشب يقول: هذا حميمي دون الخنابر ثم هلك كلاب بعد ذلك فأختصم الخنابر وحوشب في تركته فقال حوشب: أنا حميمه وقريبه فقد خذلتة ونصرتة وقطعته ووصلته وصممت عنه وأجبتة فأحتكما إلى الخنابس، فقال: وما كان من نصرتك إياه؟ فقال:

أجبت كلاباً حين عرد أنفه علاه عبوس مكفهر غضنفر
فلما دعاني مستغيثاً أجبتة وخلاه مكبوباً على الأرض خنبر
مشيت إليه مشي ذي العز إذ غدا وأقبل مختال الخطا يتبختر
فلما دنى من غرب سيفي حبوته بأبيض مصقول الطرائق يزهر
فقطع ما بين الضلوع وحضنه إلى حضنه الثاني صفيح مذكر
فخر صريعاً في التراب معفراً وقد زار منه الأرض أنف ومشفر
فشهد القوم أن الرجل قال هذا حميمي دون الخنابر، فقال الخنابس عند ذلك: حميم الرجل وأصله وقضى لحوشب بتركته وسارت كلمته مثلاً.

وقالوا: «إن أخا العزاء من كان معك» قال الميداني أيضاً^(١): العزاء السنة الشديدة أي إن أخاك من لا يخذلك في الحالة الشديدة، إنتهى، وفي معناه قول الشاعر:

إن أخاك الصدق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك شئت فيه شمله ليجمعك
ولهذه الأبيات حكاية ظريفة وقعت للمأمون العباسي فأطلبها، ولآخر في معناه:

وإن وابن عم المرء من شد أزره ومن كان يحمي عنه من حيث لا يدري
فالمواسات عند العرب من أجل مآثرهم التي يمتدحون بها ويفتخرون فيها جاهلية وإسلاماً.

وقد أكدها الشارع المقدس وحث عليها والأحاديث في الحث عليها كثيرة منها ما رواه الحر العاملي في كتاب وسائل الشيعة^(٢) عن الإمام أبي عبد الله جعفر

بن محمد الصادق «عليهما السلام»: لم يدع أحد معونة أخيه المسلم حتى يسمع فيها ويواسيه إلا أبلّى بمعونة من يأثم به ولا يؤجر.

وعن معلى بن خنيس قال: خرج أبو عبد الله الصادق «عليه السلام» في ليلة وقد رشت السماء وهو يريد ظلة بني ساعدة فأتبعته فإذا هو قد سقط منه شيء فقال: بسم الله اللهم رد علينا، فأتيته فسلمت عليه فقال: أنت معلى؟ قلت: نعم جعلت فداك، قال: ألمس بيدك فما وجدت من شيء فأدفعه إلي، فإذا بخبز منتشر فجعلت أدفع إليه ما وجدت فإذا أنا بجراب من خبز فقلت: جعلت فداك! أحمله عنك، فقال: لا أنا أولى به منك ولكن أمض معي فأتينا ظلة بني ساعدة فإذا نحن بقوم نيام فجعل يدس الرغيف والرغيفين تحت ثوب كل واحد منهم حتى أتى على آخره ثم أنصرفنا فقلت: جعلت فداك! يعرف هؤلاء الحق؟ فقال: لو عرفوا لواسيناهم بالدقة والدقة هي الملح، إلى آخر ما رواه في الوسائل.

ومن طريق أهل السنة ما في حلية الأولياء^(١) للحافظ أبي نعيم الأصبهاني الشافعي عن الحسين بن علي عن أبيه علي «عليهما السلام» قال: أشد الأعمال ثلاثة: إعطاء الحق من نفسك، وذكر الله على كل حال، ومواسات الأخ في المال، إنتهى، والأحاديث كثيرة.

وإذا عرفت معنى المواسات وحقيقتها وأنواعها الأربعة بقي معرفة ثمرتها وفائدتها.

فائدة المواسات وثمرتها:

ولها فائدتان مهمتان دنيوية وأخروية:

أما الفائدة الدنيوية فأكتساب الحمد والثناء وهو أول مطلوب للأشراف يشترونه بأغلى الأثمان فالمواسي يجمع أنواع الأربعة وخاصة المواسات بالنفس والمواسات بالمال فإنهما يكسبان المتصف بهما مجداً وسؤداً ويورثانه فخراً وعزاً ويوجبان له الثناء المؤبد والمدح الخالد ما دام النوع البشري يدب على وجه الكرة الحدياء.

وأما الفائدة الأخروية إن كان الداعي للمواسات هي التقوى وسببه الصلاح لا كما يفعله أهل الجاهلية من إرادة المدح والتقريظ فالأجر المضاعف والحباء الجزيل في جنات عدن التي أعدت للمتقين.

(١) حلية الأولياء ١/ ٨٥.

مواسات العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام»

وكانت مواسات العباس لأخيه الحسين «عليهما السلام» بثلاثة أنواع من المواسات بالنفس والمال والكلام فإن أحتجاجة على أهل الكوفة معروف شعراً ونثراً وقد نقلته المقاتل والتواريخ، وكانت مواساته له ديانة وتقوى لم يرد بذلك إلا وجه الله وصلة رسوله محمد ﷺ وصلة الرحم لم يرد ذكراً ولا فخراً ولكن الله تعالى إذا علم من شخص حسن نية وإخلاص نشر فضائله وسير ذكره في الخافقين وقد مدح العباس بن علي «عليهما السلام» بهذه المواسات أئمة أهل البيت «عليهم السلام»:

فقد قال الإمام جعفر بن محمد الصادق «عليهما السلام» للعباس «عليه السلام» في زيارته المروية في كامل الزيارة لابن قولويه «رحمه الله تعالى»: «أشهد لقد نصحت لله ولرسوله ولأخيك فنعم الأخ المواسي لأخيه».

وقال مولانا الإمام صاحب الزمان المهدي المنتظر «عجل الله فرجه» في الزيارة المعروفة بزيارة الناحية: «السلام على أبي الفضل العباس بن أمير المؤمنين المواسي أخاه بنفسه، الآخذ لغده من أمسه، الفادي له، الواقي الساعي إليه بمائه، المقطوعة يده، لعن الله قاتله يزيد بن الرقاد الجنبى وحكيم بن الطفيل الطائي».

أما الشعراء فأكثرُوا مدحه بالمواسات، قال بعضهم:

أحق الناس أن يُبكى عليه فتى أبكى الحسين بكربلاء
أخوه وابن والده علي أبو الفضل المضرج بالدماء
ومن واساه لا يثنيه شيء وجاد له على ظمأ بماء

وقال الشيخ جعفر بن نما الحلبي (رحمه الله):

حقيق بالبكاء عليه حزناً أبو الفضل الذي واسا أخاه
وجاهد كل كفار ظلوم وقابل من ضلالهموا هداه
فداه بنفسه لله حتى تفرّق من شجاعته عداه
وجاد له على ظمأ بماء وكان رضا أخيه مبتغاه

وللمؤلف من أبيات:

نعم المواسي للحسين بنفسه وبسيفه للدين نعم الآسي

وللسيد محسن العاملِي :

لا تنسى للعباس حسن بلائه بالطف عند الغارة الشعواء
واسى أخاه بها وجاد بنفسه في سقي أطفال له ونساء
رد الألوْف على الألوْف معارضاً حد السيوف بجبهة غراء
وله أيضاً :

واذكر أبا الفضل هل تنسى فضائله في كربلاء حين جد الأمر فالتبسا
واسى أخاه وفاداه بمهجته وخاض في غمرات الموت منغمسا
وللمؤلف أيضاً :

إن المواسات من أخلاق أسرته في العسر واليسر والبأساء والبأس
فالمستجير بهم يأوي إلى حرم سامي الذرى لاذ فيه سائر الناس
وكلما كان فيهم من مكارمهم تجمعت لمواسي السبط عباس

من صفات العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» المناصحة للعسرين «عليه السلام»

وإمامه، فإنه «عليه السلام» بذل تمام الجهد في نصيحة أخيه الحسين «عليه السلام» وظهرت مناصحته له في الجهاد بين يديه والقيام بواجب الإخلاص والطاعة له .

والنصيحة والمناصحة معناهما واحد ولكن اختلفا بالإضافة إلى ما نُسبَا إليه من المضافات إليهما فإن كان المورد مورد مشورة وإبداء رأي أو مدافعة قولية فقط فتلك النصيحة، وإن كان مورد مجالدة لا مجادلة بمقال بل بأجتذاب مشرفية وأعتقال يزنية فتلك المناصحة والمعنى واحد وهو الإخلاص قولاً وفعلًا .

والنصحية أفضل صفة في النوع البشري كما أن نقيضها وهو الغش أقبح خصلة في الإنسان، والنصيحة تجب لعامة المسلمين إعانة وإرشاداً بحق وإلى حق كما يحرم نقيضها وهو الغش لقوله ﷺ : من غشنا فليس منا يعني المسلمين .

فإن كانت النصحية للمعصوم كالنبي والإمام كانت أعظم في الوجوب درجة وأبلغ تأكيداً وتطرف بعضهم فقال : هي واجبة لكل من أعتمد عليك ووثق بك وقد كان في طبع جماعة من الأشراف النصحية حتى للأعداء والأدلة العقلية والنقلية على لزوم النصيحة والالتزام بالمناصحة كثيرة .

معنى النصيحة والمناصحة لغة:

قال الفيروزآبادي في القاموس: نصحه وله نصحاً بالضم نصيحة ونصاحية وهو ناصح ونصيح من نصح ونصاح والأسم النصيحة ونصح خلص.

وقال ابن الأثير في النهاية^(١): في الحديث: «إن الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» والنصيحة كلمة يعبر بها عن جملة هي إرادة الخير المنصوح له وليس يمكن أن هذا المعنى بكلمة واحدة جمع معناه غيرها، وأصل النصيحة في اللغة الخلوص يقال نصحته ونصحت له ومعنى نصيحة الله صحة الاعتقاد في وحدانية الله وإخلاص النية في عبادته، والنصيحة لكتاب الله هو التصديق به والعمل بما فيه، ونصيحة رسوله التصديق بنبوته ورسالته والأنقياد لما أمر به ونهى عنه، ونصيحة الأئمة أن يطيعهم في الحق ولا يرى الخروج عليهم إذا جاروا، ونصيحة عامة المسلمين إرشادهم إلى مصالحهم، إنتهى.

هذا مذهب أهل السنة ومعتقدهم في صحة إمامة الجائر وبئس الاعتقاد لا كرامة لفاجر ولا لجائر إذ الباري سبحانه أوجب مقاومة الجائر وردع الفاجر وكبح جماحه وردّه عن الجور إلى العدل فإذا لم يتمكن فلا يركن إليه ولا يخالطه وليس هذا الكتاب موضع بيان ما ورد في الجائرين فلا تظن أن النبي ﷺ أمر بمناصحة هؤلاء الفجرة الذين عناهم ابن الأثير وأهل مذهبه وإنما الذين تجب لهم المناصحة من الأئمة هم أئمة أهل البيت النبوي الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، والنصيحة لهم معناها التصديق بإمامتهم وأنها فريضة من الله ونص من رسوله ﷺ والأنقياد لأوامرهم ونواهيهم، نعم ينصح من لا يجور من الخلفاء معونة للعدل ومساعدة للمساوات.

وقال الميداني الحنفي في مجمع الأمثال^(٢) في تفسير هذا الحديث: الأصل في النصيحة التلقيق بين الناس من النصح وهو الخياطة وذلك أن تلفق بين التفاريق وهذا من حديث يروى عن رسول الله ﷺ وتمامه: قالوا: لمن يارسول الله؟ فقال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

قالت العلماء: النصيحة لله أن يخلص العبد العمل لله، والنصحية لرسوله ﷺ أن يصفو قلبه في قبول دعوة النبوة ولا يظهر خلافها، والنصيحة للمسلمين أن لا يميزوا عنه في حال من الأحوال، وقيل: النصيحة لأئمة المسلمين أن لا يشق

عصاهم ولا يعق فتواهم.

وقال الشريف الجرجاني في التعريفات^(١): النصيح إخلاص العمل عن شوائب الفساد والنصيحة هي الدعاء إلى ما فيه الصلاح والنهي عما فيه الفساد، إنتهى.

مظاهر النصيحة وأسبابها وثمراتها

للنصيحة مظاهر وأسباب وثمرات:

أما مظاهرها:

فالمشورة فإن المستشار يظهر نصيح المستشير وإذا لم يستشره وعلم مصلحة له وكان مسلماً أظهرها كما سنذكره في بعض الحكايات، والمحامات بجد وأجتهاد وبذل الجهد في ما تلزم فيه المحامات والإرشاد للمتعلم والسائل ببذل الجهد في تعليمهما ما ينفعهما وإرشادهما إلى ما فيه مصلحتهما والمحافظة على الطاعات والمواظبة عليها وبث الدعاية إلى دين الإسلام والإرشاد إلى إمامة من فرض الله إمامتهم من أئمة أهل البيت الأثنى عشر.

أسباب المناصحة:

هي كثيرة منها: العفة فإن العفيف يأنف من الغش حتى لعدوه. ومنها الديانة فإن المتدين يرى من واجبه الديني المبالغة في مصالح المسلمين وفي أي عمل كان وقام به من أعمال وأقوال ترض الله ورسوله ﷺ. ومنها: الحياء فإن الحي لا يغش وإنما ينصح أستحياء من نسبة الغش إليه. ومنها: الصدق فإن الصادق لا يكذب فيقول له قد نصحتك وهو له غاش. ومنها: سلامة الذات والفطرة فإن سليم الذات لا يغش ولا يرى النصيح إلا لازماً وما ذاك إلا لسلامة نفسه وفطرته على هذا الخلق الحسن.

ثمرات المناصحة:

وأهمها أنها تفيد الاجتماع ويكون داعياً إلى الأنفة وموجباً للثقة والأطمئنان ومن ثمراتها عند المتدين الفوز بما وعد الله من كرامة أرباب العمل الصالح من المخلصين لدينهم.

ومن ثمراتها اكتساب الحمد فإن الناصح ممدوح وله القبول حتى عند الأعداء فإن الناصح له وقع في القلوب وأثر في النفوس كبير.

(١) التعريفات: ص ١٦٦.

الأدلة على فضيلة المناصحة:

ففي الكتاب المجيد آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(١)، وقد حكى النصيح عن كثير من أنبيائه كقوله: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾^(٢)، وقوله حكاية عن نوح «عليه السلام»: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾^(٣)، وقوله حكاية عن صالح: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾^(٤).

وأما الأحاديث فهي أيضاً كثيرة منها ما روته الشيعة: روى ثقة الإسلام محمد ابن يعقوب الكليني (رحمه الله) في أصول الكافي^(٥) عن الإمام الباقر محمد بن علي «عليهما السلام» قال: قال رسول الله ﷺ: لينصح الرجل منكم أخاه كنصيحته لنفسه.

وعن الإمام الصادق «عليه السلام» قال: قال رسول الله ﷺ: إن أعظم الناس عند الله منزلة يوم القيامة أمشاهم في أرضه بالنصيحة لخلقه.

ومما روته أهل السنة روى النووي الشافعي في رياض الصالحين^(٦) عن جرير ابن عبد الله قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم، متفق عليه.

وروى غير هذا الحديث أحاديثاً ولكن راوي هذا الحديث وهو جرير بن عبد الله البجلي لم يناصر أمير المؤمنين وإمام المسلمين علي بن أبي طالب «عليه السلام» أرسله إلى معاوية وأهل الشام فأقام عندهم مدة متغافلاً عما أرسل إليه حتى أحكم معاوية أمره ثم ترك أمير المؤمنين علياً «عليه السلام» ولحق بمعاوية رغبة في الحطام الفاني فهدم علي «عليه السلام» داره بالكوفة فلم يفي لرسول الله ﷺ بما بايع عليه.

الحث على قبول النصيحة

نحن قد أستوفينا الأحاديث في كتابنا «السياسة العلوية» ونذكر هاهنا بعضها: روى الكليني في الكافي^(٧) عن أبي العديس قال: قال أبو جعفر «عليه السلام»: يا صالح! اتبع من يبكيك وهو لك ناصح ولا تتبع من يضحكك وهو لك غاش،

(١) التوبة: ٩١. (٢) الأعراف: ٦٨. (٣) هود: ٣٤. (٤) الأعراف: ٧٩. (٥) أصول الكافي: ص ٣١٣. (٦) رياض الصالحين: ص ٥٨. (٧) الكافي: ص ٥٣.

وستردون جميعاً إلى الله، إنتهى، وفي معنى هذا الحديث الشريف ورد المثل العربي قولهم: أمر مبكياتك لا مضحكاتك.

صعوبة قبول النصيحة:

أمر قبول النصيحة صعب لذلك لا يقبله إلا أفذاذ العقلاء ونوادر العلماء. قال في المستطرف^(١): واعلم أن جرعة النصيحة مرة لا يقبلها إلا أولوا العزم.

وقال الراغب في المحاضرات^(٢): الحث على قبول النصيح وإن كان مُرّاً قيل: من أحبك نهاك ومن أبغضك أغراك، وقال بعض الحكماء: ومن أوجرك المرّ لتبرء أشفق عليك ممن أوجرك الحلو لتسقم، وقيل: النصيحة آمن من الفضيحة، إنتهى.

والأنسب للعاقل إبداء النصيحة وإبرازها صادفت قبولاً أم لا فإنها إن صادفت قبولاً فقد نال حمداً وأجراً، وإن لم تصادف قبولاً فقد أكتسب أجراً وعُذراً، وخرج عن صفة الغش المذمومة.

قال ورقة بن نوفل الأسدي أسد قریش:

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم أنا النذير فلا يغرركموا أحد
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته إلا الإله ويودي المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه والخلد قد حاوت عاد فما خلدوا
وقال أوس بن حجر التميمي:

إن قال لي ماذا ترى يستشيرني فلم يك عندي غير نصيح وإرشاد

وقال الخبز أرزي البصري:

إن كان حمدي ضاع في نصحك فإن أجري ليس بالضائع
وقال آخر:

النصح أرخص ما باع الرجال فلا تردد على ناصح نصحاً ولا تلم
إن النصائح لا تخفى منافعها على الرجال ذوي الأبواب والهمم

وقال معاذ بن مسلم الفراء النحوي:

نصحتك والنصيحة إن تعدت هوى المنصوح عز لها القبول

(١) المستطرف ٧٦/١.

(٢) المحاضرات ٦٠/١.

فخالفت الذي لك فيه حظ فغالك دون ما أملت غول

رد النصيحة مقرون بالنكبة

من رد النصيحة فنكب وأصيب بضرر الدنيا أو في الدين، شهدت الوقائع التاريخية على تارك النصيحة بالعطب الديني والدنيوي.

أما من رد نصيحة الناصح ونكب في دنياه فكثير منهم يزيد بن المهلب الأزدي، قال في المستطرف^(١) قيل: أشار فيروز حصين على يزيد بن المهلب أن لا يضع يده في يد الحجاج فلم يقبل منه فسار إليه فحبسه وحبس أهله، فقال فيروز بن حصين:

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني فأصبحت مسلوب الإمارة نادماً
أمرتك بالحجاج إذ أنت قادر فنفسك أولي اللوم إن كنت لائماً
فما أنا بالباكي عليك صباية وما أنا بالداعي لترجع سالماً

ومنهم عبد الله بن الصمة فارس هوازن وهو أخو دريد البطل المشهور، قال ابن عبد ربه في العقد الفريد^(٢): قال أبو عبيدة: غزى عبد الله بن الصمة وأسم الصمة معاوية الأصغر من بني غزية بن جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن وكان لعبد الله ثلاثة أسماء وثلاث كنى؛ فأسماءه عبد الله وخالد ومعبد، وكناه أبو فرغان وأبو دفاقة وأبو وفاء، وهو أخو دريد ابن الصمة لأبيه وأمه فأغار على غطفان فأصاب منهم إبلاً عظيمة فأطردها فقال له أخوه دريد: النجاء فقد ظفرت، فأبى عليه وقال: لا أبرح حتى أنتقع نقيعتي، والنقيعة ناقة ينحرها من وسط الإبل فيصنع منها طعاماً لأصحابه ويقسم ما أصاب على أصحابه، فأقام وعصى أخاه فتبعه فزارة فقاتلوه لأصحابه ويقسم ما أصاب على أصحابه، فأقام وعصى أخاه فتبعه فزارة فقاتلوه وهو بمكان يقال له اللوى فقتل عبد الله وأرث دريد فبقي في القتلى، فلما كان في نصف الليل أتاه فارسان فقال أحدهما لصاحبه: إني أرى عينه تبص فإنزل فأنظر إلى نفسه فنزل فكشف ثوبه فإذا هي تزمز فطعنه فخرج دم قد كان أحتقن، قال دريد: فأفقت عندها فلما جاوزوني نهضت، قال: فما شعرت إلا وأنا عند عرقوبي جمل امرأة من هوازن فقالت: من أنت أعوذ بالله من شرك؟ فقلت: بل من أنت ويلك؟ قالت: امرأة من هوازن سيارة، قلت: وأنا من هوازن

(١) المستطرف ١/٧٦.

(٢) العقد الفريد ٣/٣٣٠.

وأنا دريد بن الصمة، قال: وكانت في قوم مجتازين لا يشعرون بالوقعة فضمته وعالجته حتى أفاق، قال دريد يرثي عبد الله أخاه:

أعاذل إن الرزء في مثل خالد ولا رزء فيما أهلك المرء من يد
وقلت لعارض وأصحاب عارض ورهط بني السوداء والقوم أشهدي
علانية ظنوا بألفي مدجج سراتهموا في السابري المسرد
محضتهموا نصحي بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى غوايتهم أو إنني غير مهتد
وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد
فإن تعقب الأيام والدهر تعلموا بني غالب إنا غضاب لمعبد
تنادوا وقالوا أردت الخيل فارساً فقلت أعبد الله ذلكم الردي
فإن يك عبد الله خلا مكانه فما كان وقافا ولا طائش اليد
ولا برماً إذا الرياح تناوحت برطب الغضا والضرع مع المتنضد
كميش الأزار خارج نصف ساقه صبور على الضراء طلاع أنجد
قليل التشكي للمصائب حافظ عليم بأعقاب الأحاديث في غد
وهون وجدي أنني لم أقل له كذبت ولم أبخل بما ملكت يدي

ومنهم معاوية بن عمرو بن الشريد السلمي فارس بني سليم وهو أخو صخر البطل المشهور وأخو الخنساء الشاعرة لأبيها وأُمها.

قال في العقد الفريد^(١): قال أبو عبيدة: كان بين معاوية بن عمرو بن الشريد وبين هاشم بن حرملة أحد بني مرة بن غطفان كلام بعكاظ، فقال معاوية: لوددت والله أن قد سمعت بضعائن يندبنات، فقال هاشم: والله لوددت أن قد برت الرطبة وهي عمة معاوية وكانت الدهر تنظف ماء ودهناً فلما كان بعد تهيب معاوية ليغزو هاشماً فهناه أخوه صخر فقال: كأني بك إن غزوتهم علق حمتك حسك العرفط، قال: فأبى معاوية فغزاهم يوم حوزة فرآه هاشم بن حرملة قبل أن يراه معاوية وكان هاشم ناقها من مرض أصابه فقال لأخيه دريد بن حرملة: إن هذا إن رأي لم آمن أن يشد علي وأنا حديث عهد بشكية فاستطرد له حتى جعله بيني وبينك، ففعل، فحمل عليه معاوية وأردفه هاشم فاختلفا طعتين فأردى معاوية هاشماً عن فرسه

السماء وأنفذ هاشم سنانه من عانة معاوية، قال: وكر عليه دريد فظنه قد أوردى هاشماً فضرب معاوية بالسيف فقتله وشد خفاف بن عمرو وهو ابن ندبة على مالك بن حمار الفزاري فقتله وغارت فرس هاشم السماء حتى دخلت في جيش بني سليم فأخذوها وظنوها فرس الفزاري الذي قتله خفاف ورجع الجيش حتى دنوا من صخر أخي معاوية فقالوا: أنعم صباحاً أبا حسان، فقال: حييتم بذلك، ما صنع معاوية؟ قالوا: قُتل، قال: فما هذا الفرس؟ قالوا قتلنا صاحبها، قال: إذا أدركتم ثأركم، هذه فرس هاشم بن حرملة.

قال: فلما دخل رجب ركب صخر بن عمرو ابن الشريد السماء صبيحة يوم حرام فأتى بني مرة فلما رأوه قال لهم هاشم: هذا صخر فحيوه وقولوا له خيراً، وهاشم مريض من الطعنة التي طعنه إياها معاوية فقال: من قتل أخي؟ فسكتوا، فقال: لمن هذه الفرس التي تحتي؟ فسكتوا، فقال هاشم: هلم أبا حسان إلى من يخبرك، قال: من قتل أخي؟ فقال هاشم: إن أصبتي أو دريداً فقد أصبت ثارك، قال: فهل كفنتموه؟ قالوا: نعم في بردين أحدهما بخمسة وعشرين بكرة، قال: فأروني قبره، فأروه إياه، فلما رأى القبر جزع عنده ثم قال: كأنكم قد أنكرتم ما رأيتم من جزعي فوالله ما بتُّ منذ عقلت إلا وائراً أو موتوراً أو طالباً أو مطلوباً حتى قتل معاوية فما ذقت طعم النوم بعده، الخ.

وليس قصدنا سياقة القصة فإنهم أدركوا ثأرهم قتل خفاف مالك بن حمار سيد بني شمع من فزارة وقتل صخر دريد بن حرملة أخي هاشم وقتل عمرو بن قيس الجشمي هاشم بن حرملة، ومن شعر صخر في أخيه معاوية يرثيه وقيل له أهجوا بني مرة، فقال: ما بيننا وبينهم أجلّ من القذع.

ثم أنشأ يقول:

وعاذلة هبت بليل تلومني	ألا لا تلوميني كفى اللوم ما بيا
تقول ألا تهجو فوارس هاشم	وما بي أن أهجو هموا ثم ما بيا
أبى الذم إنني قد أصابوا كريمتي	وأن ليس إهداء الخنا من سماتيا
إذا ما أمرئ أهدى لميت تحية	فحياك رب الناس عني معاويا
وهون وجدي إنني لم أقل له	كذبت ولم أبخل عليه بماليا
وذئ إخوة قطعت أقران بيتهم	كما تركوني واحداً لا أخاً ليا

ولهذه الحكايات نظائر وأشباه.

هلاک من رد النصيحة

أما من رد النصيحة فأهلك نفسه وأتلف دينه وأذهب مروته فكثير وأشهر من لبس هذا الجلباب المخزي وتردى بهذا الرداء الفاضح عمر بن سعد بن أبي وقاص الزهري قاتل الحسين بن علي «عليهما السلام».

قال الطبري في التاريخ^(١): لما كان من أمر الحسين ما كان، دعا عبيد الله بن زياد عمر بن سعد فقال: سر إلى الحسين فإذا فرغنا مما بيننا وبينه سرت إلى عملك، فقال عمر بن سعد: إن رأيت أن تعفيني فأفعل، فقال له عبيد الله نعم على أن ترد لنا عهدنا، قال: فلما قال له ذلك قال له عمر بن سعد: أمهلني اليوم حتى أنظر، قال: فمضى عمر يستشير نصحاء فلم يكن يستشير أحد إلا نهاه، قال: وجاء حمزة بن المغيرة بن شعبة وهو ابن أخته فقال: أنشدك الله يا خال أن تسير إلى الحسين فتأثم بربك وتقطع رحمك فو الله لئن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كلها لو كان لك خير لك أن تلقى الله بدم الحسين، فقال له عمر: أفعل إن شاء الله.

وعن عمار بن عبد الله الجهنني، عن أبيه قال: دخلت على عمر بن سعد وقد أمر بالمسير إلى الحسين، فقال لي: إن الأمير أمرني بالمسير إلى الحسين فأبيت ذلك عليه، فقلت له: أصاب الله بك مرشدك، أجل فلا تفعل ولا تسر إليه، قال: فخرجت من عنده فأتاني آت وقال: هذا عمر بن سعد يندب الناس إلى الحسين، قال: فأتيت فإذا هو جالس فلما رأيته أعرض عني بوجهه فعرفت أنه قد عزم على المسير إليه فخرجت من عنده، إنتهى.

وذكر فخر الدين الطريحي في المنتخب^(٢) والفاضل المجلسي في البحار^(٣) ما لفظه: ثم إن ابن زياد نادى في عسكره: معاشر الناس! من يأتيني برأس الحسين وله الجائزة العظمى وأعطه ولاية الري سبع سنين، فقام إليه عمر بن سعد وقال: أصلح الله الأمير! أنا أمضي إليه وأمنعه من شرب الماء وأتي برأسه ثم مضى من وقته وساعته ودخل منزله، فدخل عليه أولاد المهاجرين والأنصار وقالوا: يا ابن سعد! تخرج إلى حرب الحسين وأبوك سادس الإسلام^(٤)؟! فقال: لست أفعل ذلك ثم جعل يفكر في ملك الري وقتل الحسين فأضله الشيطان وأعمى

(١) تاريخ الطبري ٢٣/٦.

(٢) المنتخب ٩٣ / ٢.

(٣) بحار الأنوار ١٩٦/١٠.

(٤) هذا مشهور وهو غير صحيح وكثيراً ما يشتهر شيء وهو خلاف الواقع، سادس الإسلام هو خباب ابن الارت لا سعد بن أبي وقاص.

قلبه فأختار قتل الحسين «عليه السلام».

ولفظ المجلسي (رحمه الله) لما جمع ابن زياد قومه لحرب الحسين كانوا سبعين ألف فارس، فقال ابن زياد: أيكم يتولى قتل الحسين وله ولاية أي بلد شاء؟ فلم يجبه أحد منهم فأستدعى بعمر بن سعد «لعنه الله» وقال: يا عمر أريد أن تتولى حرب الحسين بنفسك، فقال له: أعفيني من ذلك، فقال ابن زياد: قد أعفيتك فأردد علينا عهدنا الذي كتبنا لك بولاية الري، فقال عمر: أمهلني الليلة، فقال قد أمهلتك، فأنصرف عمر بن سعد إلى منزله وجعل يستشير قومه وإخوانه ومن يثق به من أصحابه فلم يشر عليه أحد بذلك.

وكان عند عمر بن سعد رجل من أهل الخير يقال له كامل وكان كاملاً كأسمه ذا رأي وعقل ودين كامل، وكان صديقاً لأبيه من قبله، فقال له: يا عمر! مالي أراك بهيئة وحركة فيما الذي أنت عازم عليه؟ فقال عمر: إني قد وُلِّيتُ أمر هذا الجيش في حرب الحسين وإنما قتله عندي وأهل بيته كأكلة آكل أو كشربة ماء وإذا قتلته خرجت إلى ملك الري، فقال له كامل: أف لك يا عمر بن سعد تريد أن تقتل الحسين ابن بنت رسول الله أف لك ولدينك يا عمر أسفحت الحق وضللت عن الهدى، أما تعلم إلى حرب من تخرج؟ ولمن تقاتل؟ إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لو أعطيت الدنيا بما فيها على قتل رجل واحد من أمة محمد ﷺ لما فعلت فكيف تريد تقتل الحسين ابن بنت رسول الله ﷺ؟ وما الذي تقول غداً لرسول الله ﷺ إذا وردت عليه وقد قتلت ولده وقرّة عينه وثمرّة فؤاده وابن سيدة نساء العالمين وابن سيد الوصيين وهو سيد شباب أهل الجنة من الخلق أجمعين وإنه في زماننا هذا بمنزلة جده في زمانه وطاعته علينا كطاعته وإنه باب الجنة والنار فأختر لنفسك ما أنت مختار فإني أشهدت بالله إن حاربتَه وقتلته أو أعنت عليه أو على قتله لا تلبث بعده في الدنيا إلا قليلاً.

فقال له عمر: فبالموت تخوّفني وإني إذا فرغت من قتله أكون أميراً على سبعين ألف وأتولى ملك الري؟!!

فقال كامل: إني أحدثك بحديث صحيح أرجو لك فيه النجاة إن وفقت للقبول: أعلم أنني سافرت مع أبيك سعد إلى الشام فإنقطعت بي مطيتي عن أصحابي وتهت وعطشت فلاح لي دير راهب فملت إليه ونزلت عن فرسي وأتيت إلى باب الدير لأشرب الماء فأشرف عليّ راهب من ذلك الدير وقال: ما تريد؟ فقلت: إني عطشان، فقال: أنت من أمة هذا النبي الذي يقتل بعضهم بعضاً على

حب الدنيا مكالبة ويتنافسون فيها على حطامها؟ فقلت له: أنا من الأمة المرحومة أمة محمد ﷺ، فقال: لا إنكم شر أمة فالويل لكم يوم القيامة وقد غدرتم عترة نبيكم تقتلون رجالهم وتسبون نسائهم وتنهبون أموالهم، فقلت له: ياراهب! نحن نفعل ذلك؟ قال: نعم وإنكم إذا فعلتم ذلك عجت السماوات والأرضون والجبال والبحار والوحوش والأطيار باللعنة على قاتلهم ثم لا يلبث قاتله إلا قليلاً ثم يظهر رجل يطلب بثاره فلا يدع أحداً شرك في دمه إلا قتله وعجل الله بروحه إلى النار، ثم قال لي الراهب: إني لأرى لك قرابة من قاتل هذا الأبن الطيب والله إني لو أدركت أيامه لوقيته بنفسي من حد السيوف، فقلت: ياراهب! إني أعيد نفسي أن أكون ممن يقاتل ابن بنت رسول الله ﷺ، قال: إن لم تكن أنت فرجل قريب منك وإن قاتله عليه نصف عذاب أهل النار وإن عذابه أشد من عذاب فرعون وهامان، ثم ردم الباب في وجهي ودخل يعبد الله وأبى أن يسقيني الماء.

قال كامل: فركبت فرسي ولحقت بأصحابي فقال لي أبوك سعد: ما أبطأ بك عنا يا كامل؟ فحدثته بما سمعت من الراهب فقال لي: صدقت ثم إن سعداً أخبرني أنه نزل بدير هذا الراهب مرة قبلها فأخبره أنه هو الذي يقتل ابن بنت رسول الله ﷺ فخاف أبوك سعد من ذلك وما خشي إلا أن تكون أنت قاتله فأبعدك عنه وأقصاك فأحذر يا عمر أن تخرج عليه فيكون عليك نصف عذاب أهل النار.

قال: فبلغ الخبر ابن زياد فاستدعى بكامل فقطع لسانه فعاش يوماً أو بعض يوم ومات (رحمه الله)، انتهى.

رد أهل الكوفة نصيحة الناصحين

والناصحون لهم كثيرون منهم برير بن حضير الهمداني المشرقي، قال الشلبنجي الشافعي في نور الأبصار^(١) في حديث كربلاء: فحالوا بين الحسين «عليه السلام» وبين الماء فعند ذلك ضاق الأمر على الحسين «عليه السلام» وعلى أصحابه وأشتد بهم العطش وكان مع الحسين رجل من أهل الزهد والورع يقال له يزيد بن حصين الهمداني^(٢) فقال للحسين «عليه السلام»: أئذن لي يا ابن رسول الله آتي عمر بن سعد وأكلمه في الماء لعله أن يرتدع، فأذن له، فجاء الهمداني إلى عمر بن سعد وكلمه في الماء فأمتنع ولم يجبه إلى ذلك، فقال له: هذا ماء الفرات

(١) نور الأبصار: ص ١١٧.

(٢) يزيد بن حصين تصحيف برير بن حضير.

يشرب منه الكلاب والدواب وتمنع منه ابن بنت رسول الله ﷺ وأولاده وأهل بيته العترة الطاهرة يموتون عطشاً وقد حلت بينهم وبين ماء الفرات وتزعم أنك تعرف الله ورسوله؟! فأطرق عمر بن سعد وقال: يا أخا همدان! إني لأعلم ما تقول وأنشأ يقول:

دعاني عبيد الله من دون أهله إلى خصلة فيها خرجت لحيني
فوالله ما أدري وإنني لواقف على خطر لا أرتضيه ومين
آخذ ملك الري والري بغيتي أو أرجع مأثوماً بقتل حسين
وفي قتله النار التي ليس دونها حجاب وملك الري قرة عيني
ثم قال: يا أخا همدان! ما أجد نفسي تجيبني إلى ترك ملك الري لغيري،
فرجع يزيد بن حصين الهمداني إلى الحسين «عليه السلام» وأخبره بمقالة ابن
سعد، إنتهى.

أما ابن طلحة الشافعي في مطالب السئول فذكر أن الهمداني لم يسلم على
ابن سعد فقال ابن سعد: يا أخا همدان! ما منعك من السلام علي؟ ألسنت مسلماً
أعرف الله ورسوله؟ فقال الهمداني: لو كنت مسلماً كما تقول لما خرجت إلى عترة
رسول الله ﷺ تريد قتلهم، وبعد فهذا ماء الفرات وذكر مثلما تقدم^(١).

ومنهم زهير بن القين البجلي، ذكر أبو جعفر الطبري في التاريخ^(٢) عن كثير
بن عبد الله الشعبي قال: لما زحفنا قبل الحسين «عليه السلام» خرج إلينا زهير بن
القين على فرس له ذنوب شاك في السلاح فقال: يا أهل الكوفة! نذاراً لكم من
عذاب الله نذار، إن حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم ونحن حتى الآن إخوة
على دين واحد وملة واحدة مالم يقع بيننا وبينكم السيف وأنتم للنصيحة منا أهل
فإذا وقع السيف أنقطعت العصمة وكنا أمة وكنتم أمة، إن الله قد أبتلانا وإياكم
بذرية نبيه محمد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنا لندعوكم إلى نصرهم
وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد فإنكم لا تدركون منهما إلا بسوء عمر سلطانهما
كله ليسملان أعينكم ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم ويرفعانكم على
جذوع النخل ويقتلان أمثالكم وقراءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه وهاني بن
عروة وأشباهه.

قال: فسبوه وأثنوا على عبيد الله بن زياد ودعوا له وقالوا: لا نبرح حتى

(١) مطالب السئول: ص ٧٦.

(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٢٤٣.

نقتل صاحبك ومن معه أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلماً .
فقال: عباد الله! إن ولد فاطمة «عليها السلام» لأحق بالود والنصر من ولد
سمية فإن لم تنصروهم فأعيذكُم بالله أن تقتلوهم فخلوا بين هذا الرجل وبين ابن
عمه يزيد بن معاوية فلعمري إن يزيد ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين «عليه
السلام» .

فرماه شمر بن ذي الجوشن بسهم وقال: أسكت أسكت الله نامتك أبرمتنا
بكثرة كلامك .

فقال له زهير: يا بن البوّال على عقبه ما إياك أخاطب إنما أنت بهيمة والله
وما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم .
فقال له شمر: أما والله إن الله قاتلك وقاتل صاحبك عن ساعة .

فقال زهير: أفيالموت تخوفني فوالله للموت معه أحب إليّ من الخلد معكم،
ثم أقبل على الناس رافعاً صوته فقال: عباد الله! لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف
الجافي وأشباهه فوالله لا تنال شفاعه محمد قوماً أهرقوا دماء ذريته وأهل بيته
وقتلوا من نصرهم وذبح عن حريمهم، قال: فناداه رجل فقال: إن أبا عبد الله يقول
لك: فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه فأبلغ في الدعاء لقد نصحت
لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ، إنتهى .

وقد أكثر أصحاب الحسين «عليه السلام» من نصح أهل الكوفة فغلبت عليهم
شقوتهم فاطاعوا الشيطان المغوي وأتبعوا الهوى المردى .

المناصحة للإمام المعصوم «عليه السلام»

إن أصحاب علي والحسين «عليهم السلام» مثال الإخلاص الحقيقي
والتفادي الواقعي وهم أهل الفناء في ولائهم أحياء وأمواتاً .

قال السيد ابن طاوس في كتاب الملهوف^(١): قيل لمحمد بن بشر الحضرمي
في تلك الحال: أسر أبناك بشجر الري، فقال: عند الله أحسبه ونفسي، ما كنت
أحب أن يؤسر وأنا أبقي بعده، فسمع الحسين «عليه السلام» قوله فقال: رحمك
الله أنت في حل من بيعتي فأعمل في فكاك أبناك، فقال: أكلتني السباع حياً إن
فارقتك، قال: فأعط أبناك هذه الأثواب البرود يستعين بها في فداء أخيه، فأعطاه

خمسة أثواب قيمتها ألف دينار، إنتهى.

والمشهور أن المأسور هو محمد بن بشر وهذه القصة لابنه بشر كما يذكر جماعة من المؤرخين كالطبري.

وقصة مسلم بن عوسجة لما مشى إليه الحسين «عليه السلام» وحبيب مشهورة في وصيته لحبيب بالمناصحة للحسين «عليه السلام» ولم يوصه بأمر من أموره ولهذا قال الشاعر:

نصروه أحياء وبعد مماتهم يوصي بنصرتة الشفيق شفيقا
أوصى ابن عوسجة حبيباً قال قاتل دونه حتى الحمام تذوقا
ومن أصحاب أمير المؤمنين علي «عليه السلام» من لم تشغلهم أنفسهم عن
المناصحة له في ساعة النزاع والاحتضار.

قال نصر بن مزاحم في كتاب صفين^(١): عن عبد خير الهمداني قال: قال
هاشم ابن عتبة - يعني المرقال -: أيها الناس! إنني رجل ضخم فلا يهولنكم
مسقطي إذا أنا سقطت فإنه لا يفرغ مني أقل من نحر جزور حتى يفرغ الجزار من
جزرها، ثم حمل فصرع فمر عليه رجل وهو صريع بين القتلى فقال له: إقرأ أمير
المؤمنين السلام ورحمة الله وقل له: أنشدك الله إلا أصبحت وقد ربطت مقاود
خيلك بأرجل القتلى فإن الدبرة تصبح لمن غلب على القتلى، فأخبر الرجل علياً
«عليه السلام» بذلك، فسار علي «عليه السلام» في بعض الليل حتى جعل القتلى
خلف ظهره فكانت الدبرة له عليهم.

وقال^(٢): عن عبد الرحمن بن حاطب قال: خرجت ألتمس أخي سويداً في
القتلى فإذا برجل قد أخذ بثوبي صريع فالتفت فإذا هو عبد الرحمن بن كلفة فقلت:
إنّا لله وإنّا إليه راجعون هل لك بالماء؟ قال: لا حاجة لي في الماء قد أنفذني
السلاح وحرقتني ولست أقدر على الشرب فهل أنت مبلغ عني أمير المؤمنين رسالة
فأرسلك بها؟ قلت: نعم، قال: إذا رأيته فأقرأ عليه السلام وقل له: يا أمير
المؤمنين! إحمل جرحاك إلى عسكري حتى تجعلهم من وراء القتلى فإن الغلبة لمن
فعل ذلك، ثم لم أبرح حتى مات، فخرجت حتى أتيت علياً «عليه السلام» فدخلت
عليه فقلت: إن عبد الرحمن بن كلفة يقرأ عليك السلام، قال: وعليه: أين هو؟
قلت: قد والله يا أمير المؤمنين أنفذه السلاح وحرقه فلم أبرح حتى توفي،

(١) وقعة صفين: ص ١٨٤.

(٢) وقعة صفين: ص ٣٠٣.

فأسترجع، فقلت له: أرسلني إليك برسالة، قال: وما هي؟ قلت: قال: يا أمير المؤمنين! إحمل جرحاك إلى معسكرك حتى تجعلهم من وراء القتلى فإن الغلبة لمن فعل ذلك، قال: صدق والذي نفسي بيده، فنادى مناديه في العسكر أن أحملوا جرحاكم إلى معسكركم، ففعلوا، إنتهى.

للمؤلف:

نصروا أثمتهم وأدوا حقهم	في الحالتين دعاية وجلادا
قوم قد اعتادوا المكارم عادة	والمرء يألف طبعه ما اعتادا
أولئك الأحرار نوه وأطهرهم	في كل ناد يجمع الأمجادا
والله شرفهم بحسن صنيعهم	وحباهم الغرف التي قد شادا
محياهموا محي الكرام وموتهم	موت الأفاضل محشراً ومعادا
أولئك الأحياء في جناتها	والأرض لا تبلي لهم أجسادا

نصيحة صادفت قبولاً:

إن مدار قبول النصيحة على أمرين: إن كانت دينية فيجري قبولها على محور التوفيق ويدور على قطب التسديد، وإن كانت دنيوية فعلى صحة العقل وسلامة الحواس.

قال نصر بن مزاحم في كتاب صفين^(١) وحديث هاشم المرقال: عن أبي سلمة: إن هاشم بن عتبة دعا في الناس عند المساء: إلا من كان يريد الله والدار الآخرة فليقبل، فأقبل إليه ناس فشد في عصابة من أصحابه على أهل الشام مراراً فليس من وجه يحمل عليهم إلا صبروا له وقوتل فيه قتالاً شديداً، فقال لأصحابه: لا يهولنكم ما ترون من صبرهم فوالله ما ترون منهم إلا حمية العرب وصبرها تحت راياتها وعند مراكزها وإنهم لعلى الضلال وإنكم لعلى الحق، يا قوم! أصبروا وصابروا وأذكروا والله ولا يسلم رجل أخاه ولا تكثروا الالتفات وأصمدوا صمدهم وجالدوهم محتسبين حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين.

قال أبو سلمة: فمضى في عصابة من القراء فقاتل قتالاً هو وأصحابه حتى رأى بعض ما يسرون به إذ خرج عليهم فتى شاب يقول:

أنا ابن أرباب الملوك غسان الدائن اليوم بدين عثمان

(١) وقعة صفين: ص ١٦٤.

أنبئنا أسيافنا بما كان إن علياً قتل ابن عفان
ثم شد فلا ينشني يضرب بسيفه ثم يلعن ويشتم ويكثر الكلام، فقال له هاشم
ابن عتبة: إن هذا الكلام بعده الخصام وإن هذا القتال بعده الحساب فأتق الله
فإنك راجع إليه فسائلك عن هذا الموقف وما أردت به .
فقال: إني أقاتلكم لأن صاحبكم لا يصلي كما ذكر لي وإنكم لا تصلون!
وأقاتلكم إن صاحبكم قتل خليفتنا وأنتم وازرتموه على قتله .

فقال هاشم: وما أنت وابن عفان إنما قتله أصحاب محمد ﷺ وقراء الناس
حين أحدث أحداثاً وخالف حكم الكتاب، وأصحاب محمد ﷺ هم أهل الدين
وأولى بالنظر في أمور المسلمين وما أظن أن أمر هذه الأمة ولا أمر الدين عنك
طرفة عين قط .

قال الفتى: أجل أجل والله لا أكذبه فإن الكذب يضر ولا ينفع ويشين ولا
يزين .

فقال هاشم: هذا أمر لا علم لك به فخله وأهل العلم به .

قال: أظنك والله قد نصحتني .

وقال له هاشم: أما قولك إن صاحبنا لا يصلي فهو أول من صلى مع رسول
الله ﷺ وأفقهه في دين الله وأولاه برسول الله ﷺ، وأما من تر معه فكلهم قارئ
لكتاب الله لا ينام الليل تهجداً فلا يغرك عن دينك الأشقياء المغرورون .

فقال الفتى: يا عبد الله! إني لأظنك أمرئ صالحاً أخبرني هل تجد لي من
توبة؟

قال: نعم تُب إلى الله يتب عليك فإنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن
السيئات ويحب التوابين .

قال: فذهب الفتى الشامي راجعاً، فقال له رجل من أهل الشام: خدعك
العراقي؟! قال: لا ولكن نصحني العراقي، إنتهى .

مناصحة أبي الفضل ابن أمير المؤمنين لأخيه الحسين «عليهم السلام»

فقد كانت قولية وفعلية:

أما القولية فقد مر عليك من أقواله وأشعاره ما يكفيك، ومن مناصحته

القولية ما مر آنفاً من قوله لإخوته: حاموا عن سيدكم وإمامكم الحسين «عليه السلام»، وقوله «عليه السلام» لأشقائه: تقدموا يا بني أُمي حتى أعلم أنكم قد نصحتم لله ولرسوله الخ.

أما المناصحة الفعلية:

فأثرها ظاهر قطعت يمينه وشماله وهو واقف في خطة الحرب ثابت في ساحة القتال لم يطلب لنفسه ملجأ ولا مأمناً ولم يعد لأخيه الحسين «عليه السلام» يحتمي به من الأعداء حاذر أن يغتم لأجله الحسين «عليه السلام» فثبت في مركزه بعد قطع يديه ووقف من غير يدين يذب بهما عن نفسه فكأنه قطعة جبل صلد لا يتزعزع أو زبرة حديد لم تتحلحل وإن هيبته تمنع العدو من الاقتراب إليه حتى أغتاله بعضهم مستتراً بنخلة ففضخ هامته بعامود الحديد فأنجدل صريعاً على وجه الثرى فهذه من أعظم المناصحة وأجلها.

وقد مدح بهذه المناصحة وإثنى بها عليه الأئمة المعصومون «عليهم السلام»: قال الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق «عليهما السلام» في زيارته التي رواها ابن قولويه في كامل الزيارة: «أشهد لك بالتسليم والتصديق والوفاء والنصيحة لخلف النبي المرسل والسبط المنتجب والوصي المبلغ والمظلوم المهتضم» الخ.

وفي محل آخر: «أشهد أنك قد بالغت في النصيحة وأعطيت غاية المجهود».

وفي محل آخر منها: «أشهد أنك قد نصحت لله ولرسوله ولأخيك».

وفي محل آخر: «أشهد أنك قد بالغت في النصيحة وأديت الأمانة وجاهدت عدوك وعدو أخيك فصلوات الله على روحك الطيبة وجزاك الله من أخ خيراً ورحمة الله وبركاته».

وقوله «عليه السلام» «أديت الأمانة» يحتمل ثلاثة وجوه:

أحدها: إن الإمامة منصب إلهي ووظيفة ربانية قد أخذ عهدها في الميثاق الأول وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) الآية فكانت هذه الأمانة هي الإمامة كما أشار إليها ابن أبي الحديد الكاتب الحنفي المعتزلي في خطاب أمير المؤمنين علي «عليه السلام»:

أنت الأمانة لا يقوم بحملها خلقاءها بطة وأطلس أرفع
تأبى الجبال الشم عن تقليدها وتضج تيهاء ويشفق برقع
وعرضها عبارة عن التعهد والالتزام بواجب طاعة الإمام التي أفترضها الله
على عامة البشر فكان هذا العرض على المخلوقات عرض اختبار لا عرض اختيار
إذ لا خيرة لمخلوق مع إرادة الخالق وإباء السماوات والأرض ومن معناها ليست
إبابة امتناع ومعصية بل إبابة عدم تكليف فحملها الإنسان الذي هو أظهر أفراد
الأنواع المكلفة من الحيوانات لأنه محسوس بخلاف الملك والجن فإنها أجسام
غير مرئية ولهذا جحدتها الجاهلون من الفلاسفة فكان الإنسان ظلوماً بحملها في
العهد السابق واللاحق فيقول: بخ بخ مرة ويقول مرة أخرى: وسعوها في قریش
تتسع، وكل من قام بطاعة الإمام ونصره فقد أدى الأمانة وأبو الفضل من أعظم
أفراد هذا القسم.

ثانيهما: إن الحسين «عليه السلام» من العترة التي هي أحد الثقلين الذين
أوصى رسول الله ﷺ أمته في التمسك بهما وبحفظهما والأقتداء بهما وجعلهما
أمانة عند أمته وأبو الفضل العباس «عليه السلام» من الأعيان الأوفياء بتأدية هذه
الأمانة وإيصالها لرسول الله ﷺ محترمة معظمة بذل دون حفظها نفسه النفيسة
وجعل يتلقى السلاح بوجهه وصدره ونحره لئلا يصل إلى وديعة رسول الله منه شيء
وضحى إخوته وولده لفداء الحسين «عليه السلام».

ثالثهما: البيعة للحسين «عليه السلام» والبيعة أمانة عند المبايع وإن التزامه
بشرائطها تأدية لها والقتل من أظهر مصاديق الوفاء وأجلى مظاهر التأدية للأمانة
ولهذا كل من أراد الشهادة من أصحاب الحسين «عليه السلام» يقف أمامه ويستأذن
للبراز ويقول: السلام عليك يا أبا عبد الله أوفيت يا ابن رسول الله؟ فيقول «عليه
السلام»: نعم أنت أمامي في الجنة فاقراً جدي وأبي وأمي غني السلام وقل لهم:
تركت حسيناً وحيداً فريداً لا ناصر له ولا معين.

ويحتمل في تأدية الأمانة وجهاً رابعاً: وهو ما رواه بعض أرباب المقاتل من
أن مولانا أمير المؤمنين «عليه السلام» أوصى ولده العباس الأكبر «عليه السلام»
بنصرة أخيه الحسين «عليه السلام» فكانت هذه التوصية أمانة عنده من أبيه «عليه
السلام» فقد أداها وسقط عنه فرض التكليف بها وكل هذه الوجوه صالحة للحمل
عليه ولا مانع من إرادة الجميع وإن كان الحمل على الإمانة أظهر لمصير أكثر
المفسرين إلى أن المراد الأمانة هي الإمامة.

أما الشعر في مدح العباس «عليه السلام» بالمناصحة:

فهو كثير ومنه قول الإمام السبط سيد الشهداء الحسين «عليه السلام» فيما رواه الفاضل الدربندي في أسرار الشهادة^(١) ولفظه قال: فلما أتاه الحسين «عليه السلام» رآه صريعاً على شاطئ الفرات بكى ثم قال: وا أخاه وا عباساه! الآن أنكسر ظهري وقلت حيلتي، ثم قال: جزاك الله عني يا أخي يا أبا الفضل العباس خيراً، قيل: ثم أنشأ:

أخي يا نور عيني يا شقيقي فلي قد كنت كالركن الوثيق
أيا ابن أبي نصحت أخاك حتى سقاك الله من كأس رحيق
أيا قمراً منيراً كنت عونى على كل النوائب في المضيق
فبعدك لا تطيب لنا حياة سنجمع في الغداة على الحقيق
ألا لله شكوائى وصبري وما ألقاه من ظمأ وضيق
وقال الأزري البغدادي الحاج محمد رضا:

وأخ كريم لم يخنه بمشهد حيث السراة كبابها إقدامها
للمؤلف:

فديت أبا الفضل من ناصح لسبط الرسول ونعم النصيح
فداه فدته نفوس الأنام بكل نفيس وغال ربيع
وحرص أبي الفضل في حفظه بما يستطيع كحرص الشحيح

ومن صفات العباس الأكبر ابن أمير المؤمنين «عليهما السلام» الإيثار

وإيثار أبي الفضل العباس لأخيه الحسين «عليهما السلام» يوم كربلاء مما لا شك فيه ولا أرتباب، والإيثار خصلة حميدة وسجية فاضلة من سجايا الكرام وأخلاق أهل العفة والديانة وأرباب المجد والسؤدد، وكونها من صفات المدح فمما لا يرتاب فيه إلا أعوج السليقة أو جاهل محض لا إمام له بسير العقلاء ولا معرفة عنده بأدلة الأحكام.

معنى الإيثار لغة:

قال الفيومي في المصباح المنير: أثرته بالمد فضلته.

(١) أسرار الشهادة: ص ٣٢٢.

وقال فخر الدين الطريحي (رحمه الله) في مجمع البحرين: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾^(١) أي يقدمون على أنفسهم من قولهم آثره على نفسه أي قدمه وفضله .
وقال ابن الأثير في النهاية: ويستأثر عليكم أي يفضل عليكم غيركم في الشيء .

وبهذا يظهر غلط صاحب القاموس في قوله: آثره أكرمه، وكان الواجب عليه أن يقول: قدمه في الكرامة .

معنى الإيثار العرفاني والفرق بينه وبين المواسات

قال الشريف الجرجاني في التعريفات^(٢): المواسات أن ينزل غيره منزلة نفسه في النفع له والدفع عنه والإيثار أن يقدم غيره على نفسه فيهما وهو النهاية في الأخوة، إنتهى .

والإيثار نتيجة العفة التي هي من فضائل النفس الأربعة الكمالية وشعبة من شعب الجود الذي هو أفضل خلق وسجية وأجل غريزة من الغرائز الإنسانية ومن أحسن ما تحلى به هذا النوع البشري المتسلط على عامة الأنواع .

قال أحمد بن أبي الربيع في سلوك المالك^(٣): والإيثار هو كف الإنسان عن بعض حوائجه وبذلها لمستحقها، و^(٤) أن يحدث من تركيب السخاء مع العفة الإيثار على النفس .

وقال ابن مسكويه الخازن في تهذيب الأخلاق^(٥): الفضائل التي تحت السخاء: الكرم، الإيثار، النيل، المواسات، السماحة، المسامحة .

أما الإيثار فهو فضيلة للنفس بها يكف الإنسان عن بعض حاجاته التي تخصه حتى يبذله لمن يستحقه .

وقال الغزالي الشافعي في الإحياء^(٦): إعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات فأرفع درجات السخاء الإيثار وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه وإنما السخاء عبارة عن بذل ما يحتاج إليه المحتاج أو لغير المحتاج والبذل له مع الحاجة أشد، وكما أن السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع

(١) الحشر: ٩. (٢) التعريفات: ١٦٣.

(٣) سلوك المالك في تدبير الممالك: ص ٢٩.

(٤) نفسه: ص ٣٣. (٥) تهذيب الأخلاق: ص ٣٨١.

(٦) إحياء علوم الدين ٢/ ٢٢٢.

الحاجة فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة، فكم من بخيل يمسك المال فيمرض فلا يتداوى ويشتهي الشهوة فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن ولو وجدها مجاناً أكلها فهذا بخل على نفسه مع الحاجة وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج إليه فأنظر ما بين الرجلين فإن الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء، وليس بعد الإيثار درجة في السخاء، إلى آخر كلامه المطول.

وقال رشيد الوطواط في غرر النصائح الواضحة^(١): ويقال مراتب العطاء ثلاثة: سخاء وجود وإيثار؛ والسخاء إعطاء الأقل وإمساك الأكثر، والجود إعطاء الأكثر وإمسالك الأقل، والإيثار إعطاء الكل من غير إمساك لشيء وهذه أشرف المراتب وأعلاها وأحقها بالمدح فإن إيثار المرء غيره على نفسه أفضل من إيثار نفسه على غيره وكفى بهذه الخلعة شرفاً مدح الله تعالى أهلها بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(٢) الخ.

فالإيثار مرتبة هي أعلا مرتبة في السخاء ودرجة هي أرقى درجة في الجود وإذا كان كذلك فمراتب الإيثار لا تضبط لأنها نسبية وتختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ويتميز منها مرتبتان بالإضافة إلى ما أثر به وبذله لغيره وهي مرتبة بذلك النفس والإيثار بها وهي أعلا مراتب الإيثار ولا نعرفها في عرب الجاهلية إلا لكعب بن مامة الأيادي وحاتم بن عبد الله الطائي، وفي عرب الإسلام لإمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» فإنه أثر النبي ﷺ بنفسه حين بات على فراشه ليلة الهجرة وبذل نفسه له في الحروب الطاحنة التي فرت فيها أبطال الصحابة.

ولولده العباس الأكبر «عليه السلام» حين أثر أخاه الحسين «عليه السلام» بنفسه وفداه بروحه وعلى سبيله سلك شهداء كربلاء فإن الجميع أثروا الحسين «عليه السلام» بنفوسهم وباقي الشهداء في سائر الحروب الدينية ليسوا كذلك لأن الشهداء مع رسول الله ﷺ لم يظهر منهم ما ظهر من أولئك من الإقدام على المنية والاقترحام على الموت مع علمهم أنهم لو تركوا لكانوا في مأمن ومنعة وموقفهم في صف الحسين «عليه السلام» لا يمنيهم بالسلامة ولا يبشرهم بالحيات أبداً، وأصحاب النبي ﷺ دلائل الظفر عندهم لائحة وأمارات الغلب بهم واضحة والقرآن يخبرهم بذلك كما في بدر وخيبر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا

(١) غرر النصائح الواضحة: ص ٢٣٤.

(٢) الحشر: ٩.

لَكُمْ^(١)، وَوَعَدَكُمُ اللَّهُ مَفَازَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُونَهَا^(٢) والنبي ﷺ يخبرهم بحسن العاقبة وسلامة النفس والظفر ومع ذلك يقولون: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(٣) فأين هؤلاء ممن أذن لهم الحسين «عليه السلام» بالأنصراف وأخبرهم أنهم يقتلون جميعاً فيقولون لو كانت الدنيا لنا باقية وكنا فيها مخلدين لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها، هؤلاء وأبيك جوهر الرجال ولباب الفضيلة.

المرتبة الثانية:

الإيثار بالقوت وهذا كثير جاهلية وإسلاماً، فقد أثر حاتم الطائي بقوته وبات طاوياً وصنع غيره مثل صنعه من عرب الجاهلية.

أما في الإسلام فقد أثر أهل بيت الرسول بأقواتهم وباتوا طاوين ثلاثاً فنزلت سورة «هل أتى» مدحاً وآية ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾^(٤)، وأثر أمير المؤمنين «عليه السلام» أصحابه مراراً عديدة كالمقداد وعمار وغيرهما، وأثر أبو ذر رسول الله ﷺ بالماء العذب مع شدة عطشه، وأثر جماعة من الصحابة بعضهم بعضاً وهم صرعى بالماء مع شدة العطش حتى ماتوا كلهم عطاشى، وحديث صاع التمر مشهور عند المحدثين فإنه طاف أربعين بيتاً ورجع إلى صاحبه كل واحد يؤثر به صديقه.

وأثر أبو الفضل العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» أخاه الحسين «عليه السلام» بالماء فلم يشربه مع كونه شديد الظمأ فمات عطشاناً.

ولكل إنسان دليان هاديان يرشدانه إلى الفضائل ويدلانه على المحاسن والكمالات وهما العلم والعقل:

وأما العلم فدليل إلى كل ما ثبت في الشريعة الإسلامية حسنة وحث الشارع المقدس على فعله ورغب على الإتيان به ترغيباً مؤكداً ودل عليه دلالة واضحة وهذا ما تسميه المشرعة بالمستحب المؤكد.

وأما العقل فدليله إلى ما أستحسنه العقلاء وترجح عند النبلاء ارتكابه وفضل العقل الإتيان به على الترك تفضيلاً محسوساً يدركه كل عاقل بأدنى التفات وأقل فكرة ورؤية لما يراه من تمادح العقلاء وتنويههم فيه وإطراء المتصف به إطراء بليغا وبالغا أقصى درجة الاستحسان وهذا من الشعور العربي والأحاساس المختص بأهل اللسان الفصيح دون سائر الأمم والشعوب وإن لم ينكروا فضيلته ولم يشكوا في رجحانه وقد عبر الأصوليون عنه بالحسن العقلي.

(٢) الفتح: ٢٠

(٤) الحشر: ٩

(١) الأنفال: ٧

(٣) الأحزاب: ١٢

وحيث تكامل لأبي الفضل العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» دليلاً وتوافق عنده مرشداه هجما به على الفضيلة النبيلة وأرشداه إلى اختيار الفعلة الحميدة وهي الإيثار بنفسه وعلى نفسه وهذه الفضيلة المعروفة في فضائل أسلافه السادات الأماجد الذين آثروا بنفوسهم وعلى نفوسهم مراراً عديدة وقد نزل القرآن المجيد في مدحهم آيات وسور تتلى في المحاريب وعلى الأعواد وتذاع في المسارح والأندية والمجتمعات وحيث أن بعض مؤلفي الرسائل ممن عاصرناه قد غاب عنه دليلاً ظل به مرشداه اللذان هما العلم والعقل تخيل أن ذلك الإيثار الذي وقع من أبي الفضل العباس «عليه السلام» في كربلاء كان قبيحاً وظنه نقصاً بل حراماً في سليقته العوجاء وقد قيل:

فكم من عائب قولاً صحيحاً وأفته من الفهم السقيم

ولنا رسالة في الرد عليه مخطوطة^(١).

الدلالة على رجحان الإيثار

لا شك في رجحانه الشرعي لقوله تعالى في معرض المدح للمؤثرين: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢) فأثبت سبحانه الإيثار مع الخصاصة وهي شدة الحاجة ثم قرن الفلاح بترك الشح الذي هو ضد الإيثار ومعلوم أن النفس تشح فيما لا تحتاج إليه كثيراً فكيف لا تشح بما تشد حاجتها إليه، ومن توقي هذا الشح في الخصاصة وهو الإيثار فقد أفلح عند الله وهذه الآية نزلت في أهل البيت «عليهم السلام» وهم أهل الكساء علي وفاطمة والحسن والحسين رغم ما زعمه بعض أهل الحديث أنها نزلت في الأنصار فال محمد ﷺ نزل بهم ضيف وليس عندهم غير ما يكفيه فقدموه له وأطفئوا السراج لثلاثي يراهم ولا شيء عندهم وباتوا طاوين.

وقال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾^(٣) إلى آخر السورة وهي مع اتفاق المفسرين أنها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين «عليهم السلام» ظاهرة في مدح الإيثار لاتفاقهم أنهم باتوا ثلاثاً طاوين وأطعموا هذه الأصناف الثلاثة وذلك في نذر الحسن والحسين «عليهما السلام» لما مرضا.

(١) هذه الرسالة عنوانها: «ردع الناكب عن فضيلة المواكب، أو التنبيه على خطأ رسالة التنزيه» - الناشر -.

(٢) الحشر: ٩.

(٣) الإنسان: ٨.

أما الأحاديث فكثيرة جداً منها من طريق الشيعة ما رواه الصدوق القمي (رحمه الله) في الفقيه^(١) قال: قال الصادق «عليه السلام»: خياركم سمحائكم، وشراركم بخلائكم، ومن خالص الإيمان البر بالإخوان والسعي في حوائجهم، وإن البار بالإخوان ليحبه الرحمن وفي ذلك مرغمة للشيطان وتزحزح عن النيران ودخول الجنان.

ثم قال لجميل^(٢): أخبر بهذا غرر أصحابك، قلت: جعلت فداك! من غرر أصحابي؟ قال: هم البارون بالإخوان في العسر واليسر.

ثم قال: يا جميل! أما إن صاحب الكثير يهون عليه ذلك وقد مدح الله عز وجل في كتابه صاحب القليل فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣) إنتهى وهو كثير.

ومن طرق أهل السنة ما رواه الغزالي الشافعي في إحياء العلوم^(٤): قال النبي ﷺ: أيما امرئ أشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر الله له، إنتهى وهو كثير أيضاً والإكثار من النقل تطويل.

القسم الأول من الإيثار:

وهو الإيثار بالنفس وهو أفضل قسمي الإيثار، وقال أبو تمام الطائي: يجود بالنفس إذ ظن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود فمن الذين آثروا أنفسهم حاتم بن عبد الله الطائي وذلك أنه مر في بلاد عنزة وهو لا يعرف فعرفه أسير في أيديهم فناده: يا أبا سفانة قتلني الأسر والقمل فتصدق عليّ، فقال: ويحك! قد أسأت إلي إذ نوهت بي في غير بلاد قومي، ثم جاء إلى العنزيين فقال: ضعوا رجلي مكان رجله في القيد وأطلقوه، ففعلوا فبقي حاتم مدة أسيراً في أيديهم حتى بلغ قومه الخبر فبعثوا بفدائه إلى العنزيين فأطلقوه وقصته مشهورة في التاريخ وهي فعلة كريمة لها عظمتها في عالم الإنسانية إلا أنها دون بذل النفس كما فعل غيره من العرب.

كعب بن مامة الأيادي أشهر العرب في الإيثار بالنفس:

قصته بلفظ الميداني في مجمع الأمثال^(٥) قال: ومن حديثه إنه خرج في

(١) من لا يحضره الفقيه: ص ١٣٢.

(٢) هو جميل بن دراج من ثقات أصحاب الصادق عليه السلام.

(٣) الحشر: ٩. (٤) إحياء العلوم ٢/ ٢٢٣.

(٥) مجمع الأمثال ١/ ١٢٣.

ركب فيهم رجل من النمر بن قاسط فظللوا فتصافنوا ماءهم وهو أن يطرح في القعب حصاه ثم يصب فيه الماء بقدر ما يغمس الحصاة وتلك الحصاة هي المقلة فيشرب كل إنسان بقدر واحد فقعدوا للشرب فأنتهى إلى كعب فأبصر النمري يحد النظر إليه فآثره بمائه وقال للساقي: إسق أخاك النمري فشرب النمري نصيب كعب ذلك اليوم من الماء ثم نزلوا من الغد المنزل الآخر فتصافنوا بقية مائهم فنظر النمري كنهه أمس وأرتحل القوم وقالوا لكعب: أرتحل فلم تكن له قوة للنهوض وكانوا قد قربوا من الماء، فقليل له: رد كعب إنك وارد فعجز عن الجواب فلما أيسوا منه خيلوا عليه بثوب يمنعه من السبع أن يأكله وتركوه في مكانه، فقال أبوه مامة يرثيه:

ما كان من سوقة أشفى على ظمأ خمراً بماء إذا ناجودها بردا
من ابن مامة كعب حين عي به رد المنيّة إلا حرة وقدا
أوفى على الماء كعب ثم قيل له رد كعب إنك وارد فما وردا
إنتهى.

وفيه قال أبو تمام بيته المتقدم، وقال فيه وفي حاتم الطائي:
كعب وحاتم اللذان تقاسما خطط العلا من طارف وتليد
هذا الذي خلف السحاب ومات ذا في الجهد ميتة خضرم صنديد
إلا يكن فيها الشهيد فقومه لا يسمحون به بألف شهيد
للمؤلف يفند رأي أبي تمام:

فرب شهيد فاق كعب بن مامة بأفعال مشكور الفعال حميد
وأصبح في الإيثار بالنفس مفرداً فهل مثل هذا كائن بوجود
فدع ذكر كعب واذكرن شبل حيدر أبا الفضل من يدعى بصاحب جود
لقد ورد الماء الفرات فعافه وقال لنفسي الموت خير ورود
إذا لم يذق سبط النبي معينه وأطعمه لم أرع حق عهودي

سماك بن عمرو العاملي

قصته عن الميداني^(١) في قولهم: (أتطلب أثراً بعد عين) قال الباهلي: أول من قال ذلك مالك بن عمرو العاملي وذلك أن بعض ملوك غسان كان يطلب في

(١) مجمع الأمثال ٨٥/١.

عاملة ذحلاً فأخذ منهم رجلين يقال لهما مالك وسماك أبنا عمرو فأحتبسهما عنده زماناً ثم دعاهما وقال: إني قاتل أحدكما فأيكما أقتل؟ فجعل كل واحد منهما يقول: أقتلني مكان أخي، فلما رأى ذلك قتل سماكاً وخلي سبيل مالك، فقال سماك حين ظن أنه مقتول:

ألا من شجت ليلة عامده كما أبد ليلة واحده
فابلغ قضاة إن جئتهم وخص سرات بني ساعده
وأبلغ نزاراً على نأيها بأن الرماح هي العائده
وأقسم لو قتلوا مالكا لكنت لهم حية راصده
برأس سبيل على مرقب ويوماً على طرق وارده
فأم سماك فلا تجزعي فللموت ما تلد الوالده

فانصرف مالك إلى قومه فلبث فيهم زماناً ثم إن ركباً مروا وأحدهم يتغنى:
فأقسم لو قتلوا مالكا لكنت لهم حية راصده
فسمعت أم سماك فقالت: يا مالك! قبح الله الحياة بعد سماك، أخرج في الطلب بأخيك فخرج في الطلب فلقي قاتل أخيه يسير في ناس من قومه فقال: من أحسن لي الجمل الأحمر؟ فقالوا له وقد عرفوه: يا مالك! لك مائة من الإبل وكف، فقال: لا أطلب أثراً بعد عين، فذهب مثلاً، ثم حمل على قاتل أخيه فقتله فقال في ذلك:

يا راكباً بلغن ولا تدعا بني قمير وإن هموا جزعوا
فليجدوا مثلما وجدت فقد كنت حزيناً ومسني جزع
لا أسمع اللهو في الحديث ولا ينفعني في الفراش مضطجع
لأوجد ثكلي كما وجدت ولا وجد عجل أضلها ربع
ولا كبير أضل ناقته يوم توافي الحجيج واجتمعوا
ينظر في أوجه الركاب فلا يعرف شيئاً والوجه ملتئم
جللته صارم الحديد كاللمح وفيه سفاسق لتمع
بين ضمير وباب جلق في ثوبه من دمائه رقع
أضربه بادياً نواجذه يدعو صده والرأس منصع
بني قمير قتلت سيدكم فالיום لا رنة ولا جزع

فاليوم قمنا على السواء فإن تجروا فدهري ودهركم جرع إنتهى .

وتشبه هذه القصة ذبح ولدي مسلم بن عقيل وقد ذكرناها في كتابنا «المستدرك على مقاتل الطالبين» وفي كتابنا «أعلام النهضة الحسينية» ولكنهما ذبحا معاً بخلاف هذين فإنه نجى واحد منهما .

مبيت أمير المؤمنين «عليه السلام» على فراش النبي ﷺ

المؤثرون بأنفسهم في الإسلام:

سيدهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» فإنه أثر رسول الله ﷺ بحياته وفداه بنفسه وإيثاره أفضل كل إيثار في الدنيا فلا كعب ولا غيره نظيره لأن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» باهى الله به ملائكته وأنزل فيه قرآناً يُتلى في المحارب قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾^(١) وقصة مبيت أمير المؤمنين «عليه السلام» على فراش رسول الله ﷺ ليلة الهجرة مشهورة عند علماء التاريخ فقد رواها من علماء أهل السنة مفتى الشافعية دحلان في سيرته على هامش الحلبية^(٢) والبرهان الحلبي الشافعي في سيرته «إنسان العيون»^(٣) وأبو جعفر الطبري أحد أئمة المذاهب في التاريخ^(٤) وعبد الملك بن هشام المالكي في سيرته^(٥) ، والسمهودي الشافعي في وفاء الوفا تاريخ المدينة المنورة^(٦) ، وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة^(٧) ، وابن طلحة الشافعي في مطالب السؤل^(٨) ، وسبط ابن الجوزي الحنفي في تذكرة خواص الأمة^(٩) وأبو حامد الغزالي الشافعي بحجة الإسلام وغيرهم كثير .

ولفظ الغزالي في إحياء علوم الدين^(١٠): وبات علي على فراش رسول الله ﷺ يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة فأوحى الله إلى جبرئيل وميكائيل «عليهما السلام»: إني قد آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فأختار كلاهما الحياة وأحباها فأوحى إليهما: أفلا كنتما مثل

(١) البقرة: ٢٠٧.

(٢) سيرة زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية ١/ ٣٥٥.

(٣) السيرة الحلبية ٢/ ٢٨.

(٤) تاريخ الطبري ٢/ ٢٤٣.

(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٧٦.

(٦) وفاء الوفا ١/ ١٦٨.

(٧) الفصول المهمة: ص ٣٢.

(٨) مطالب السؤل: ص ٣٥.

(٩) تذكرة الخواص: ٢١.

(١٠) إحياء علوم الدين ٢/ ٢٢٣.

علي بن أبي طالب «عليه السلام» أخيت بينه وبين نبيي محمد ﷺ فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، إهبطا إلى الأرض فأحفظاه من عدوه، فكان جبرئيل «عليه السلام» عند رأسه وميكائيل عند رجله وجبرئيل «عليه السلام» يقول: بخ بخ من مثلك يا ابن أبي طالب والله تعالى يباهي بك الملائكة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١).

قال السبط بعد أن نقل مثل هذا بعينه: عن تفسير الثعلبي عن ابن عباس قال: أول من شرى نفسه أبتغاء مرضاة الله علي بن أبي طالب «عليه السلام». قال ابن عباس: وأنشدني أمير المؤمنين «عليه السلام» شعراً قاله تلك الليلة: وقيت بنفسي خير من وطأ الثرى ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر وبات رسول الله في الغار آمناً فنجاه ذو الطول العلي من المكر وبث أراعيهم وما يثبتونني وقد وطنت نفسي على القتل والأسر إنتهى.

وللمأمون الخليفة العباسي احتجاج على المخالفين يفضل فيه مولانا أمير المؤمنين «عليه السلام» ولا نذكر المحاجة بطولها وإنما نذكر هذا المقام الخاص ورواها لنا من الشيعة الصدوق القمي في عيون أخبار الرضا، ومن السنة ابن عبد ربه المالكي القرطبي في العقد الفريد وعنه نقل لأنه أبلغ في الحجة على الخصم. قال^(٢) في احتجاج المأمون على إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل بن حماد بن زيد قال: يا إسحاق! من أفضل من كان معه في الغار أم من نام على فراشه ووقاه بنفسه حتى تم لرسول الله ﷺ ما أراد من الهجرة وإن الله تبارك وتعالى أمر رسوله أن يأمر علياً بالنوم على فراشه وبأن يقي رسول الله بنفسه فأمره رسول الله ﷺ بذلك فبكى علي، فقال له رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا علي أجزعا من الموت؟ قال: لا والذي بعثك بالحق يا رسول الله ولكن خوفاً عليك أفتسلم يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال: سمعاً وطاعة وطيبة نفس بالفداء لك يا رسول الله ثم أتى مضجعه فأضطجع وتسجى بثوبه وجاء المشركون من قريش فخفوا به لا يشكون أنه رسول الله ﷺ وقد أجمعوا أن يضربه من كل بطن من بطون قريش رجل ضربة بالسيف لئلا يطلب الهاشميون بطناً من البطون بدمه وعلي «عليه السلام» يسمع ما القوم فيه من إتلاف نفسه ولم يدعه ذلك إلى الجزع كما جزع

صاحبه في الغار ولم يزل علي «عليه السلام» صابراً محتسباً فبعث الله ملائكته فمنعته من قريش حتى أصبح فلما أصبح قام فنظروا إليه فقالوا: أين محمد؟ قال: وما علمي بمحمد أين هو! قالوا: فلا نراك إلا مغروراً بنفسك منذ ليلتنا فلم يزل علي أفضل ما بدأ به يزيد ولا ينقص حتى قبضه الله إليه الخ.

وحديث المبيت على الفراش من أشهر الأحاديث وهو متواتر بمعناه وقد بات أمير المؤمنين «عليه السلام» على فراش النبي ﷺ يقيه بنفسه مرتين: مرة في الشعب في حياة أبي طالب ومرة ليلة الهجرة، وانظر القصتين تفصيلاً في مختار العيون والمحاسن تأليف الشيخ المفيد واختيار السيد المرتضى وتداول الشعراء نقل المبيت على الفراش فأكثرُوا من النظم فراجع مناقب ابن شهر آشوب. وللمؤلف:

أمن بات مثلوج الفؤاد مكانه	عليه قريش الغدر سلت مواضيها
فنام قرير العين في الدار هادئاً	وضوضاً قريش تستجيش حواليتها
كمن بات في الغار المنيع عيونه	من الخوف قرحن الدموع مآقيها
يقول له خير النبيين لا تخف	ولا تخش إن الله ذي العرش كافيها
فلم تطمئن النفس عن جيشانها	ولا القلب عن دقاته هادئاً فيها
ولو كان من أهل الشجاعة والتقى	لواسى رسول الله أحمد هاديها

نادرة عجيبة في الإيثار:

ذكر الأبشيهي في المستطرف^(١) قال: حكى أبو محمد الأزدي قال: لما أحرقت المسجد بمرو ظن المسلمون أن النصارى أحرقوه فأحرقوا خاناتهم فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات وكتب رقاعاً فيها الجلد والقطع والقتل ونثرها عليهم فمن وقع عليه رقعته فعل به ما فيها فوقع رقعة فيها القتل في يد رجل، فقال: والله ما كنت أبالي لولا أم لي، قال: وكان بجنبه بعض الفتيان فقال له: في رقعتي الجلد فليس لي أم فخذ أنت رقعتي وأعطني رقعتك، ففعل، فقتل ذلك الفتى وتخلص الرجل، إنتهى.

وأوردها الوطواط في غرر النصائح الواضحة^(٢) وقال: إن القصة كانت بمصر ولعله الأقرب.

وذكر قصة ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وذكرها الجهشيارى في كتاب

(١) المستطرف ١/ ١٥٧.

(٢) غرر النصائح الواضحة: ص ٢٦.

الوزراء وأن كل واحد منهما أثر صاحبه بالقتل فقتل عبد الحميد وهذه القصص إنما نذكرها أستثناساً للقارئ وليست من موضع بحثنا فخذها من مصادرها.

إيثار أنصار الحسين بن علي «عليه السلام» له

هو الإيثار المحمود وكل واحد منهم قد أثر الحسين «عليه السلام» بنفسه وفداه بروحه لو نفع الإيثار وقبلت الفدية فهذا سعيد بن عبد الله الحنفي وقف هدفاً للسلاح دونه وهو يصلي ببقية أصحابه صلاة الخوف والحنفي يتلقى كل طعنة ب صدره وكل ضربة بنحره حتى قتل.

قال أبو جعفر الطبري في التاريخ^(١): ثم صلوا الظهر صلى بهم الحسين صلاة الخوف ثم أقتلوا بعد الظهر فأشد قتالهم ووصل إلى الحسين فأستقدم الحنفي أمامه فأستهدف لهم وهم يرمونه بالنبل يميناً وشمالاً قائماً بين يديه فما زال يرمي حتى سقط الخ.

وقال السيد ابن طاوس في الملهوف^(٢): وجد فيه ثلاثة عشر سهماً سوى ما به من ضرب السيوف وطعن الرماح، الخ.

قال أبو جعفر الطبري^(٣): فلما رأى أصحاب الحسين إنهم قد كثروا وإنهم لا يقدر أن يمنعوا حسيناً ولا أنفسهم تنافسوا في أن يقتلوا بين يديه فجاء عبد الله وعبد الرحمن أبنا عزرة الفغاريان فقالا: يا أبا عبد الله! عليك السلام، حازنا العدو إليك فأحببنا أن نُقتل بين يديك نمنعك وندفع عنك، فقال: مرحباً بكما أدنوا مني، فدنوا منه فجعلوا يقاتلان قريباً منه واحدهما يقول:

قد علمت حقاً بنو غفار وخندف بعد بني نزار
لنضربن معشر الفجار بكل غضب صارم بتار
يا قوم ذودوا عن بني الأحرار بالمشرفي والقنا الخطار

قال: وجاء الفتيان الجابريان سيف بن الحارث بن سريع ومالك بن عبد بن سريع وهما أبنا عم وأخوان لأُم فأتيا حسيناً فدنوا منه وهما يبكيان، فقال: أي أبنائي أخيه ما يبكيكما فوالله إني لأرجو أن تكونا بعد ساعة قريري عين، فقالا: جعلنا الله فداك لا والله ما أنفسنا نبكي ولكن نبكي عليك نراك قد أحيط بك ولا نقدر على أن نمنعك، فقال: جزاكم الله أحسن جزاء المتقين.

(١) تاريخ الطبري ٢٥٢/٦.

(٢) الملهوف: ص ٩١.

(٣) تاريخ الطبري ٢٥٣/٦.

وقال^(١): قال عابس بن أبي شبيب الشاكري: يا أبا عبد الله! أما والله ما أمسى على ظهر الأرض قريب أو بعيد أعز عليّ ولا أحب إليّ منك ولو قدرت أن أدفع عنك الضيم والقتل بشيء أعز عليّ من نفسي ودمي لفعلته، السلام عليك يا أبا عبد الله أشهدك أنني على هداك وهدى أبيك، ثم مشى بالسيف مصلاً نحوهم وبه ضربة على جبينه الخ..

فهؤلاء الأعلام من العلماء والفطاحل العظماء من الفقهاء قد أحبوا أن يجمعوا إلى فضيلة الشهادة فضيلة زيارة الحسين «عليه السلام» وفضيلة البكاء عليه وفضيلة الأهتمام له فقد ورد في الحديث عن المعصومين «عليهم السلام» أن نفس المهموم لنا أهل البيت عبادة أو ما هذا معناه..

القسم الثاني من الإيثار:

وهو من أثر على نفسه لا بنفسه وهذا كثير في عرب الجاهلية وهو من شعار سمحائهم وكانوا يمتدحون به ويفتخرون كما قال عروة الصعاليك وهو عروة بن الورد العبسي قاله المبرد، وفي قول ابن عبد ربه أن رجلاً من عبس خاطبه بهذا الشعر ولعله أثبت:

لا تشتمني يا بن ورد فإنني تعود على مالي الحقوق العوائد
ومن يؤثر الحق الدؤوب تكن له خصاصة جسم وهو طيان ماجد
وإني أمرئ عافي إنائي شركة وأنت أمرئ عافي إنائك واحد
أقسم نفسي في نفوس كثيرة وأحسو زلال الماء والماء بارد
ويعني بتقسيم نفسه في النفوس الكثيرة تقسيم زاده على الناس ويبيت طاوياً
لإيثاره لهم بزاده ويستطعم الماء البارد.

وقل حبال الكلبي وذكره الآمدي في المؤتلف والمختلف:

لا تعذليني في نفضي وفي فرشي إن تعذليني تشكيني وتؤذي
فساهميني في مالي ولا تدعي خلقاً يريبك إن الله يغنيني
حسبي إذا احتملوا أن يحملوا ثقلي وملؤ كفي عند الجهد يكفيني
إن مات هزلاً عدي من سماحته أو خلد الغس في قومي فلوميني

قال: الغس اللثيم وعدي في بني كلب كان يذبح كل يوم خميس شاة يطعمها من يرد عليه.

وقال عنترة الفوارس العبسي في معلقته :

ولقد أبیت علی الطوی وأضلّه حتی أنال به کریم المطعم

وقال آخر :

لولا أتقاء الردا نزهت أنملتي عن أن تهم بمطعموم ومشروب

حاتم بن عبد الله الطائي :

ذكر الميداني في مجمع الأمثال^(١) بعد قصة الأسير عند العنزيين قال : ومن حديثه أن ماوية امرأة حاتم حدثت أن الناس أصابتهم سنة أذهبت الخف والخلف فبتنا ليلة بأشد الجوع وأخذ حاتم عدياً وأخذت سفانة فعللناهما حتى ناما فأخذ يعللني بالحديث لأنام فرقت له لما به من الجهد فأمسكت عن كلامه لينام ويظن أنني نائمة، فقال لي : أنمت مراراً فلم أجبه فسكت ونظر من وراء الخباء فإذا شيء قد أقبل فرفع رأسه فإذا امرأة فقالت : يا أبا سفانة! أتيتك من عند صبية جياع، فقال : أحضريني صبيانك فوالله لأشبعهنم، قالت : فقامت مسرعة فقلت : بماذا يا حاتم فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل فقام إلى فرسه ثم أجج ناراً ودفع إليها شفرة وقال : أشتوي وكلني وأطعمي صبيانك وقال لي : أيقظي صبيك فأيقظتهما ثم قال : والله أن هذا للؤم وإن أهل الصرم حالهم كحالكم فجعل يأتي الصرم بيتاً وبيتاً ويقول : عليكم النار فأجتعوا وأكلوا وتقنع بكسائه وقعد ناحية حتى لم يوجد من الفرس على الأرض قليل ولا كثير ولم يذق منه شيئاً، إنتهى .

وغير الميداني يقول هذه القصة عن النوار زوجة حاتم أم أبنيه عدي وسفانة وماوية بنت عفزر أم ابنه عبد الله وكانت كل واحدة منهن تلومه في الجود فيقول للنوار :

مهلا نوار أقلي اللوم والعدلا ولا تقولي لشيء فات ما فعلا

يرى البخيل سبيل الجود واحدة إن الكريم يرى في ماله سبلا

ويقول لماوية من قصيدة رنانة :

أماوي إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر

أماوي إما مانع فمبين وإما عطاء لا ينهنه الزجر

وحكايات الجاهلية كثيرة .

المؤثرون في الإسلام:

إن الإسلام استنار أفقه بكل فضيلة وأشرق سماؤه بكل خلة كريمة وذلك أن عصر الجاهلية المظلم لم تكن العرب فيه تعرف ما تأتي وما تذر من محاسن الأخلاق ومساوئها إلا ما جذبها إليه الطبع وقادتها له الفطرة فهي طوع ما جبلت عليه نفوسها من السجاييا وما أرتكز في طبائعها فهي تفعل ما تفعل وتذر ما تذر رضوخاً للسجية وأنقياداً للغريزة ولها من المعرفة مقدار ما دلته عليه العقول السليمة وأرشدتها إليه الأفكار التي لها بعض الإصابة في عالم العقل النظري وليست لها ميزة العلم ولا معرفة الاستدلال وليس لها علم بما يترتب عليه الثواب من صالح الأعمال والعقوبة على مساوئها وكانت لا تدين بالجزاء ولا تقر بالمعاد لأنها عاشت في فيافيها العميقة ودرجت في فجاجها السحيقة تحترش الضباب واليرابيع جاهلة بكل ما توحيه إرادة جبار السماوات من الإصلاح لأهل الأرض وتفيضه من إفاضات رضوانه على العالم البشري من أنواع الوحي لإصلاح هذا النوع الإنساني وتشريعه مواد قوانينه المدنية وقضايا دستوره الاجتماعية الكافلة بصلاح المعاد والمعاش جميعاً وهم كانوا أيضاً بمعزل عن كافة العلوم العقلية التي بها سعادة البشر في الحياة الاجتماعية لاهين بحديث الغول والسعلاة، مشغولين بذبح الضب واليربوع والعضاة همتهم شن الغارات والظعن والتنقل في فيافي الفلوات فلذلك تجد أكثرهم بعيداً عن الرحمن لأهل جنسه شديد التعدي عليهم فالقسوة والغلظة مرتكزة في طباعهم فيتبجح قائلهم بقوله:

يبكي علينا ولا نبك على أحد لنحن أغلظ إبادة من الإبل

فذبح إنسان عندهم وذبح يربوع سواء إلا القليل من عقلائهم الناطقين بالحكمة من أهل التمييز والمعرفة أمثال قيس بن ساعدة وعامر بن الضرب وأكثم ابن صيفي وغيرهم فلم يزالوا كذلك ونفوسهم الحرة ترشدتهم إلى الخصال الحميدة وعقولهم السليمة تدلهم على اختيار محاسن الشيم والأخلاق كما حكينا لك بعض ذلك.

إلى أن شرق نور الملة المحمدية وأضاء فجر الشريعة الأحمدية للماع وملئت أشعته المتألقة آفاق الجزيرة العربية بل آفاق العالم كله وطبق نوره الكون بأسره فسن نبينا محمد ﷺ أنظمة التهذيب وشرع قوانين التأديب النفسي الحي وقرر التعاليم الحرة التي هي أسس المدنية المختارة في هذه العصور والأزمنة عصور الثقافة والتهذيب الملقبة بعصور النور.

ولا يجهل فضيلة الإسلام وفضله على المدنية الحديثة وحقه العظيم على الإنسانية إلا معاند عظيم التمرد شديد التعنت أو أعوج السليقة أو لا معرفة عنده بما شرعه شارع الإسلام فكان مع نص القرآن على مدح الإيثار أول من ندب إليه قولاً وفعلاً ورغب فيه سيدنا ونبينا محمد ﷺ وأهل بيته: أما القول فما حررناه سابقاً بكفيك، وأما الفعل فقد أفتق العلماء أن رسول الله ﷺ كان يقسم ما عنده من الأقوات بين الفقراء من أهل الصفة وأهل الخصاصة من غيرهم وبيت طاوياً وكثيراً ما كان يربط حَجَرَ المجاعة على بطنه وقد نعتت في الكتب السماوية المنزلة على غيره بالإيثار.

قال الغزالي في الإحياء^(١): قال سهل بن عبد الله: قال موسى «عليه السلام»: يارب أرني بعض درجات محمد وأُمته. فقال: ياموسى! إنك لا تطيق ولكن أريك منزلة من منازل جليلة عظيمة فضلتها بها عليك وعلى جميع خلقي، قال: فكشف له عن ملكوت السماوات فنظر إلى منزلة كادت أن تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى، فقال: يارب! بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة؟ فقال: بخلق أختصصته به من بينهم وهو الإيثار، ياموسى! لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتاً من عمره إلا أستحييت من محاسبته وبوأتة من جنتي حيث يشاء.

إيثار أهل البيت «عليهم السلام»، ونزول «هل أتى»

أما إيثار أهل بيته فكثير:

ومنه ما كان سبباً لنزول سورة هل أتى، روى الكنجي الشافعي في كفاية الطالب^(٢) والشبلنجي الشافعي في نور الأبصار^(٣) نقلاً عن مسامرات الشيخ الأكبر وهي كذلك عند الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي في محاضرات الأبرار ومسامرات الأخيار^(٤) وسبط ابن الجوزي الحنفي في تذكرة خواص الأمة وغيرهم من أهل السنة ورواها الشيعة أيضاً والألفاظ وإن تقاربت لكنها لسبط ابن الجوزي لاشتماله على فائدة وهي الرد على من زعم أن الحديث موضوع قال بعد أن ذكر له طريقين عن أبي صالح عن ابن عباس وعن مجاهد عن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ بِالَّذَرِّ﴾^(٥) الآية قال: مرض الحسن والحسين «عليهما السلام»

(٢) كفاية الطالب: ص ٢٠١.

(١) إحياء العلوم ٢/ ٢٢٣.

(٣) نور الأبصار: ص ١٠١.

(٤) محاضرات الأبرار ومسامرات الأخيار ١/ ٨٣.

(٥) الإنسان: ٧.

فعادهما رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعادهما عامة العرب فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك نذرا فكل نذر لا يكون له وفاء فليس بشيء، فقال علي «عليه السلام»: لله عَليّ إن برأ ولداي مما بهما صمت لله ثلاثة أيام وقالت فاطمة «عليها السلام» كذلك وقالت جارية يقال لها فضة كذلك فألبس الله الغلامين العافية وليس عند آل محمد ﷺ قليل ولا كثير، فأنطلق علي «عليه السلام» إلى شمعون بن حانا اليهودي فاستقرض منه ثلاثة أصع من شعير فجاء بها إلى فاطمة «عليها السلام» فقامت إلى صاع فطحنته وخبزته خمسة أقراص لكل واحد منهم قرص وصلى علي «عليه السلام» المغرب مع النبي ﷺ ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم فجاء سائل أو مسكين فوقف على الباب وقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمد، مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة فسمعه علي «عليه السلام» فقال:

فاطم فيك المجد واليقين يا بنت طاهها وهو الأمين
هذا الفقير البائس المسكين قد قام بالباب له حنين
يشكو إلى الله ويستكين يشكو إلينا الهائم الحزين
كل أمرئ بكسبه رهين وفاعل الخيرات يستبين
وللبخيل موقف مهين تهوي به لقعرها سجين
شرابه الحميم والغسلين

فقال فاطمة «عليها السلام»:

أطعمه ولا أبالي الساعة أرجو إذا أشبعت ذا مجاعة
أن الحق الأخيار والجماعة وأسكن الخلد ولي شفاع
قال: فأعطوه الطعام ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا إلا الماء القراح،
ولما كان اليوم الثاني طحنت فاطمة «عليها السلام» صاعاً من الشعير وصنعت منه
خمسة أقراص وصلى علي «عليه السلام» المغرب مع النبي ﷺ وجاء إلى المنزل،
فأتى يتيم فوقف على الباب فقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمد يتيم من أولاد
المهاجرين أؤشهد والذي فاطعموني مما رزقكم الله أطعمكم الله من موائد الجنة،
فقال علي «عليه السلام»:

فاطم بنت السيد الكريم بنت نبي ماجد رحيم
قد جاءنا الله بذا اليتيم قد حرم الخلد على اللثيم

يحمل في الحشر إلى الجحيم يسقى من الصديد والحميم
ومن يجود اليوم في نعيم يسقى من الرحيم والتسنيم
فقلت فاطمة «عليها السلام»:

إني لأعطيه ولا أبالي وأؤثر الله على عيالي
أمسوا جوعاً وهموا أشبالي

فرفعوا الطعام وناولوه إياه ثم أصبحوا في الثالث كذلك، فلما كان اليوم الثالث طحنت فاطمة «عليها السلام» باقي الشعير وصنعتة وجاء علي «عليه السلام» بعد المغرب فجاء أسير فوقف على الباب وقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمد أسير محتاج تأسرونا ولا تطعمونا، أطعمونا من فضل ما رزقكم الله، فسمعه علي «عليه السلام» فقال:

فاطم يا بنت النبي أحمد بنت نبي سيد مسود
مُني على أسيرنا المقيّد من يطعم اليوم يجده في غد
عند العلي الماجد الممجد من يزرع الخير فسوف يحصد
فقلت فاطمة «عليها السلام»:

لم يبق عندي اليوم غير صاع قد مجلت كفي مع الذراع
وإيناي والله من الجوع أبوهما للخير ذو أطمنا
ثم رفعوا الطعام فأعطوه الأسير فلما كان اليوم الرابع دخل علي «عليه السلام» على النبي ﷺ يحمل أبنيه كالفرخين فلما رآهما رسول الله ﷺ قال: واين أبنتي؟ قال: في محرابها، فقام رسول الله ﷺ فدخل عليها فرآها قد لصق بطنها بظهرها وغازت عيناها من شدة الجوع، فقال النبي ﷺ: واغوثاه! يا الله آل محمد يموتون جوعاً، فهبط الأمين جبرئيل وهو يقول: (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ)^(١) الآية.

فإن قيل: قد أخرج جدك هذا الحديث في الموضوعات ثم ذكر إسناده عند جده وقال: قال جدك قد نزه الله ذينك الفصيحين عن هذا الشعر الركيك فهذا على عادة العرب في الرجز والخب كقول القائل:

والله لولا الله ما اهتدينا

ونحو ذلك، وقد تمثل به النبي ﷺ، وأما قوله عن الأصبغ بن نباتة فنحن ما رويناه عن الأصبغ ولا له ذكر في إسناده حديثنا وإنما أخذوا على الأصبغ زيادة

زادها والعجب من جدي وإنكاره وقد قال في كتاب المنتخب: يا علماء الشرع! أعلمتم لما أرادوا ترك الطفلين عليهما أثر الجوع أتراهما خفي عنهما سرّاً بدأ بمن تعول؟ ما ذاك إلا لأنهما علما قوة صبر الصبيين وإنهما غصنان من شجرة الظل عند ربي وبعض من جملة فاطمة بضعة مني وفرخ البط سائح، إنتهى.

وذكر ابن عبد ربه المالكي في العقد الفريد احتجاج المأمون على إسحاق تقدم بعض الحكاية ونصها هنا^(١) قال: يا إسحاق! أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: أتقرأ ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾^(٢)؟ فقرأت منها حتى بلغت إلى قوله: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾^(٣) قال: على رسلك، فيمن أنزلت هذه الآيات؟ قلت: في علي «عليه السلام»، قال: فهل بلغك أن علياً حين أطعم المسكين واليتيم والأسير قال: إنما نطعمكم لوجه الله؟ وهل سمعت الله وصف في كتابه أحداً بمثل ما وصف به علياً؟ قلت: لا، قال: صدقت لأن الله عرف سريره، إنتهى.

ورواها أيضاً من علماء أهل السنة الزمخشري الحنفي المعتزلي في الكشف وأعترف الفخر الرازي الشافعي الأشعري في تفسيره أن الزمخشري من المعتزلة رواها ورؤاها آخرون من أصحابه الأشاعرة الواحدى الشافعى فى تفسيره الوسىط ورؤاها آخرون من أهل السنة وعليها إجماع الشيعة وإجماعهم حجة، والأصبع ثقة وقدح أعدائه فيه غير ضائر وتداولها أعيان الشعراء كالناشى والحميرى وابن رزىك وابن عباد فى نظرائهم ولطيف قول بعضهم:

وسائل هل أتى نص بحق على أجبتة هل أتى نص بحق على
وأحسن الصاحب بن عباد بقوله:

إذا قرأنا هل أتى قرئت وجوههم عبس

وساهم المؤلف فى نظم هذه الحادثة الخطيرة التى تبيض لذكرها وجوه الأولياء وتسود وجوه الأعداء فقال:

تمسك فى محبة آل طاها ولا ترتاب إن جحد الخصوم

سماء الحق صاحبة أضواء بها شمس الهداية والنجوم

فإن الشمس أحمد ليس يخفى وبدر التم حيدرة العظيم

(١) العقد الفريدة ٣/ ٢٨٨.

(٢) الإنسان: ١.

(٣) الإنسان: ٨.

وفاطمة الثريا فرقداها هم السبطان والتسع النجوم
ويكفي هل أتى في الذكر مدحاً لأهل البيت إن لج الخصوم
وخير المدح ما في ذاك شك مديح الله لا الشعر النظيم
أجل الخلق مرتبة أناس ينوه فيهم الذكر الحكيم
وفوا في نذرهم فأتى فقير ومأسور ومبتئس يتيم
فقال لهم علي آثروهم ب زادكم المهياً ثم صوموا
فأعطوهم وقد صاموا ثلاثاً بلا زاد وذا أمر عظيم
وليس يضيع الرحمن فعلاً يكون لوجهه وهو الكريم

إيثار أبي ذر الغفاري

ومن نوادر الإيثار الإسلامي حادثة أبي ذر الغفاري الصحابي «رضوان الله عليه»: روى الثقة الجليل علي بن إبراهيم القمي «رحمه الله» في تفسيره لسورة التوبة في واقعة تبوك قال: كان أبو ذر تخلف عن رسول الله ﷺ ثلاثة أيام وذلك أن جملة أعجف فلحق بعد ثلاثة أيام ووقف عليه جملة في الطريق فتركه وحمل ثيابه على ظهره فلما ارتفع النهار نظر المسلمون إلى شخص مقبل، فقال رسول الله ﷺ: أدركوه بالماء ووافى أبو ذر رسول الله ﷺ ومعه أدوات فيها ماء، فقال رسول الله ﷺ: يا أباذر! معك الماء وعطشت؟ فقال: نعم يا رسول الله بأبي أنت وأمي أنتهيت إلى صخرة فيها ماء فذقته فإذا هو عذب بارد فقلت: لا أشربه حتى يشربه حبيبي رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: رحمك الله يا أباذر! تعيش وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك وتدخل الجنة وحدك الخ، تركنا قصصاً كثيرة حذر التطويل.

إيثار العباس الأكبر ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليهما السلام»

إيثار العباس للحسين «عليهما السلام» بالنوعين معاً فإنه أثره بنفسه وعلى نفسه:
أما إيثاره بنفسه فمستبين من تضحية نفسه أمامه وقد صرحت بهذا أشعاره التي منها:

نفسي لنفس الطاهر الطهر وقا

وأما إيثاره للحسين «عليه السلام» على نفسه فذاك حين رمى الماء من يده وقال: لا ذقت الماء وابن رسول الله عطشان مع كونه قد أشرف على التلف من الظمأ وقد نطقت بذلك أشعاره كقوله:

يا نفس من بعد الحسين هوني وبعده لا كنت أن تكوني
هذا حسين شارب المنون وتشربين بارد المعين
قد صرح «عليه السلام» في هذا الشعر أنه أثر أخاه الحسين «عليه السلام» ليس على سبيل الارتكاز الجبلي لا بداعي الطبع الفطري ولا طواع فيه الخلق الغريزي وإنما كان ذلك عن فقه في الدين وعلم بما للمؤثر على نفسه من عظيم الأجر وبالأخص إذا كان الإيثار للإمام المفترض الطاعة وذلك حيث يقول فيه:

وليس هذا من شعار ديني ولا فعال صادق اليقين
لأن شعائر هذا الدين المواسات والإيثار حسبما سمعت من مدح القرآن للمؤثرين وما ورد من إيثار رسول الله ﷺ وأهل بيته وفضلاء الصحابة والصادق اليقين في أن الله يجزي بالعمل الصالح ويشيب على الإحسان فإنه يحصل له القطع بأن من أثر الحسين «عليه السلام» بنفسه أو على نفسه كان كمن أثر رسول الله ﷺ وقد قال في الحديث المتفق عليه: حسين مني وأنا من حسين.

فالموالي له ينال أعظم درجة الأجر عند الله فإذا حاد عن سنن الإيثار له وأنحرف عن جادة المواسات فلا يشبه فعله فعل الصادق اليقين بأن إيثار العترة الطاهرة ومواسات السلالة المطهرة من أفضل الطاعات وأجل المقربات عند الله بل هي مما أفترض الله تعالى على الأمة القيام بها بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَتْلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(١) وقوله ﷺ في حديث الثقلين: أحفظوني في أهل بيتي؛ فأبو الفضل أدى هذه الفريضة كما قد أدى سائر الفرائض.

قال فخر الدين الطريحي (رحمه الله) في المنتخب^(٢): لما أشد العطش بالحسين «عليه السلام» وأصحابه دعى بأخيه العباس وقال له: أجمع أهل بيتك وأحفروا بئر، ففعلوا ذلك فطموها ثم حفروا أخرى فطموها فتزايد العطش عليهم، فقال العباس لأخيه الحسين «عليهما السلام»: يا أخي! أما ترى ما حل بنا من العطش وأشد الأشياء علينا عطش الأطفال والحرم، فقال الإمام «عليه السلام»: أمض إلى الفرات وأتنا بشيء من الماء، فقال: سمعاً وطاعة، فضم إليه رجالاً وسار حتى أشرفوا على الشريعة فتواثب عليهم الرجال وقالوا: ممن القوم؟ فقالوا:

نحن من أصحاب الحسين «عليه السلام»، فقالوا: ما تصنعون؟ قالوا: قد كضنا العطش وأشد من ذلك علينا عطش الحرم والأطفال، فلما سمعوا ذلك منهم هجموا عليهم ومنعواهم، فحمل عليهم العباس «عليه السلام» فقتل منهم رجالاً وجدل أبطالاً حتى كشفهم عن المشرعة ونزل فملاً قربته ومد يده ليشرب فذكر عطش الحسين «عليه السلام» فنفض يده وقال: والله لا ذقت الماء وسيدي الحسين «عليه السلام» عطشان ثم صعد المشرعة فأخذه النبل من كل مكان حتى صار جلده كالقنفذ من كثرتة فحمل عليه رجل من القوم فضربه ضربة قطع بها يمينه فأخذ السيف بشماله فحمل عليه آخر فقطعها فأنكب وأخذ السيف بقمه فحمل عليه رجل فضربه بعمود من حديد على أم رأسه ففلق هامته ووقع على الأرض وهو ينادي: يا أبا عبد الله! عليك مني السلام، فلما رأى الحسين «عليه السلام» أخاه قد صرع نادى: وا أخاه! وا عباساه! وا مهجة قلباه! عز عَلَيَّ والله فراقك، ثم حمل على القوم وكشفهم عنه ثم نزل إليه وهو يبكي حتى أغمى عليه، الخ.

وذكره في مقتل العوالم^(١) وفي مصائب المعصومين^(٢) وفي أسرار الشهادة^(٣) وفي البحار^(٤)، وقد ذكر مدحه بهذا الإيثار فقال الحاج محمد رضا الأزري البغدادي من قصيدة تأتي في مراثيه:

وأبت نقيبته الزكية ريتها وحشا ابن فاطمة يشب ضرامها

وقال الحاج هاشم الكعبي من قصيدة:

حتى حوى بحرهما الطامي فراثهما الجاري ببحر من الهندي ملتطم
فكف كفاً من الورد المباح وفي أحشائه ضرم ناهيك من ضرم
وهل ترى صادقاً دعوى إخوته روى حشاً وأخوه في الهجير ظمي
حتى ملا مطمئن الجاش قربته ثم أنثنى مستهلاً قاصد الحرم
وللمؤلف:

يا ابن الوصي جزاك الله صالحة ياطيب النفس والأعراق والشيم
أثرت سبط رسول الله محتسباً بذاك ترجو رضا الرحمن ذي الكرم
فعن يقين بلا شك يخالطه بأن إيثاره من أفضل النعم
والعقل والشرع في الإيثار متفق في أن رتبته العليا من الكرم

(٢) مصائب المعصومين: ص ٢٥٩.

(٤) بحار الأنوار ١٠/٦٢١.

(١) عوالم العلوم: ص ٩٢.

(٣) أسرار الشهادة: ص ٣٢١.

لما ملكت الفرات العذب رمت بأن تطفئ أوار فؤاد صار ذا ضرم
 فلم تذق قطرة من ماءه أبداً والسبط ظام مع الأطفال في الخيم
 هذي المواسات والإيثار يشكره رب البرية والأحرار في الأمم
 لقد مضيت حميداً نلت مرتبة في حملك العلم بل في حملك العلم
 يكفيكم مدح رب العالمين لكم عن مدحة الناس في بسط من الكلم

كُتبت في هذه العصور وريقات شحنت بالواهيات وملئت بالتجاسر العظيم
 على أكابر أهل البيت دُعيت بأسم التنزيه وكتبنا رداً عليها في رسالة مفردة^(١) تركنا
 النقل عنها ومن مواضيعها المموجة قوله في هذه المسألة أن نفص العباس من
 يده الماء فهو حرام ولا حجة فيه لعدم العصمة وفي الحقيقة إن كل من جهل شيئاً
 فإنه الصواب فيه ولا شك أن الفقيه لا يسمى فقيهاً حتى يدرس الحقائق درساً متقناً
 والوقوف على التاريخ وأخبار الناس لا قيمة له عند التحقيق فيجب على المؤلف
 عند الخوض في الأحكام وتحري الإفتاء أن يعرف قواعد الإفتاء إجتهداً لا تقليداً
 وقد فات مؤلف التنزيه أدلة الحكم في الإيثار:

أولاً: الأدلة السمعية الواردة في رجحانه كما ذكرنا ذلك من الآيات
 والروايات الواردة عن أهل الشرع ومؤسسيه محمد المصطفى وأهل بيته «عليهم
 السلام» فإن الإيثار يكون بها راجحاً بل من المستحبات المؤكدة وفعل المعصوم
 وتقريره كقوله حجة.

ثانياً: ذهاب المشهور من الفقهاء إلى إن المسنون يثبت بالضعيف والمرسل
 للتسامح في أدلة السُنن وهذه المسألة عليها اعتماد صاحب التنزيه بإلغاء الأحاديث
 الصحيحة بل المتفق عليها عند الشيعة المتضمنة لفعل المعصوم وتقريره تجاسر
 ورفع اليد عن ظواهر الآيات الصريحة غباوة.

نعم، إن جمود الطبع ويبوسة الدماغ حكمت في نفسه اعتقاد أن كل عمل
 ضاهى أعمال عرب الجاهلية فهو مما يجب أن تمحقه شريعة الإسلام وتمحو
 رسومه ومعالمه وهذا هو الظن الخاطئ والأجتهد مقابل النص فإن الدور الجاهلي
 له أعمال تنقسم بمجموعها إلى قسمين: قسم مخل عند العقل وماسّ بكرامة
 الإنسانية ومخالف للنواميس الإلهية وقوانين النظام الرباني الذي هو أساس الحرية

(١) وهي ردع الناكب عن فضيلة المواكب أو التنبيه على خطأ رسالة التنزيه (مخطوطة) كما
 عرفت سابقاً. الناشر..

ومبدأ المدنية فمن ذلك الظلم والكفر وإستباحة الفروج والأموال وأستعباد الأحرار وأمثال ذلك فهذا الذي قاومته الشريعة الإسلامية ومحت معاملته ورسومه .

وقسم كان على جانب عظيم من مراعاة الحقوق الأنسانية وتقرير الحالة الاجتماعية في احترام الحرم والأشهر الحرم ومقاومة الأستعباد الجبروتي والتسلط الجبار والمحامات عن الشرف وبذل الأموال للوفد والأضياف وهذا ما يسمى سخاء وشجاعة فذاك وشبهه من الأمور التي أكدتها الشريعة الإسلامية وقررت العمل به ودعت إليه وحثت عليه لما فيه من المصالح الكبرى للإنسان إما من حيث الشجاعة فإن بها تحفظ الأوطان والأموال وتمنع الأعراض ، وبها يقاوم الأستعباد الصارم والأستعمار الجائر وينتشر العدل في البسيطة وتحقق الدماء وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّ سُلُوكُهُمْ وَتَافَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَكَانَ بَرْدٌ كَالْهَرَمِ ﴾ (١) .

وأما من حيث السخاء فأمر لا يحوجنا إلى بيان ولأنه من أوكد الأسباب الاجتماعية وأعلا السخاء درجة هو الإيثار كما عرفته وقد كان رسول الله ﷺ عظيم الإيثار فقد كان يؤثر بقوته على نفسه ويطوي ويربط حجر المجاعة على بطنه الشريفة وإن أنكره صاحب التنزيه .

وليست حكمة ربط حجر المجاعة وفلسفتها تحمل مشقة الجوع بل الحكمة الواقعية والفلسفة الحقيقية لربط حجر المجاعة ستتجلى لك وترسم على صحيفة خاطرك حتى تعلم علماً يقيناً أن المقاصد العلية في الفلسفة الدينية لا تنالها سفاسف الآراء الواهية ولا خواسئ الأفكار الداحضة في أستنباطاتها الواهية ، بل إن الرسول المقدس شرعاً وسنة بعث مصلحاً للعوالم الحائدة عن سلوك مناهج الصفات المحموددة متقهقرة في حضيض رذائلها الأخلاقية الخسيسة ولما كان هو المصلح الأكبر للأمم المبعوث إليها بالإصلاح الديني وكان هو الطبيب الأعظم الخبير الماهر والحاذاق العارف بعلاجات النفوس السقيمة بالأخلاق الذميمة من الأستيثار بما حصل في أيديهم مستبدين بمصالحهم الذاتية وأغراضهم الشخصية حائدين عن طريق المواسات والإيثار المحمودين ، متهافتين على التأنق في المطعم والمشرب والملبس وأمثال ذلك مما جبلت عليه النفوس البشرية من حب الإثرة ونفرة الطباع الإنسانية عن اكتساب حميد الإيثار وكان دأب الأغنياء الجمع لا التفريق وحوله فقراء وضعفاء قد أنقطعوا للعبادة وجعلوا نفوسهم وقفاً على الطاعة .

وإن أفعاله ﷺ كأقواله متينة على الحكمة والموعظة الحسنة، شد حجر المجاعة على بطنه ليقتردي به الفقراء في الصبر على ألم الجوع ومضض الطوى فإنهم متى رأوا رسول الله ﷺ يتكبد هذه المصاعب يجرون على منهاجه فيصبرون على ما أصابهم في جنب الله رغبة في الثواب وطمعاً بمزيد الأجر فيشتغلون بالطاعة بدل أن يتشاغلوا بطلب الدنيا ولا يلهمهم عن العبادة الكد والكدح في تحصيل المعاش.

والأغنياء إذا رأوا ربطه لحجر المجاعة مع قدرته على الشبع يرغبون في الآخرة وتهون عليهم الدنيا تأسياً برسول الله ﷺ وأقتفاء له فيؤثرون الفقراء ويواسونهم ويعطون الفضل من أموالهم برغبة منهم وميل قلب لا بضغط وغلظة وزجر وعنف بل ببشر ورضا وطيبة نفس فينتظم بذلك أمر المعاد والمعاش ويكون توجه الخلق جميعاً إلى رب الأرباب ويقصدون غاية واحدة هي القيامة وتكون الأمة نفساً واحدة وإن تعددت الأجسام، هو الذي جمعكم على الهدى وأيدكم بنصره.

هذا ما ظهر لي وقد مدح العباس «عليه السلام» مدحه الأئمة «عليهم السلام» بالإيثار كما في حديث الإمام زين العابدين «عليه السلام» لما نظر إلى عبيد الله بن العباس وقال في جملة ما قال: إنه أثر وأبلى وفدى أخاه الحسين «عليه السلام»، كما سيجيء إن شاء الله.

ومن صفات العباس «عليه السلام» الزهد والنسك

كلمة المؤلف في الزهد:

وليس الزهد في الدنيا والرغبة عن نعيم الفاني من الغرائز الجبلية ولا من الطبائع النفسية وإنما هو من الملكات المكتسبة بالمواظبة على أعمال البر وأفعال الخير والتعرف بأن هذا النعيم زائل وهذه اللذة فانية وأن عند الله نعيماً باقياً ولذة دائمية لا تبيد ولا تفنى.

والزهد حقيقة هي الإعراض عن الدنيا وزينتها وإطراح الملاذ الشهوانية التي يستطيعها سائر الناس والرضا بما قسم الله من الرزق، وأن ينزل نفسه في هذه الدار منزلة المرحل سرياً إلى مقصده والقاصد حثيثاً إلى غايته فإنه إذا نزل منزل في أثناء سفره بقصد الراحة فإنه لا يهتم فيه بأكثر من أنه يقيم قليلاً ليريح بدنه وراحلته ويأخذ ما يقوي نفسه من الطعام الميسور ثم يرتحل عنه إلى غيره ومن علم أن مكثه

في هذا المنزل يسيراً لا وجه لإكثاره من رخرفته وتنميقة فإنه ليس بمنزل قرار وتنقيح موطن النزول المؤقت بما يوجب كلفة وعناء ويستتبع مشقة وعنتاً جهل محض وغرور صرف، فالدنيا عند الصلحاء وأهل الدين بمنزلة المحل الذي ينزله المسافر ريثما يستريح فيه ثم ينتقل عنه فهم لذلك ينزلون أنفسهم منزلة السفار وعباري السبيل ولهذا ما شيدوا البنيان ولا زخرفوا الجدران ولا نمقوا الغرف ولا نظفوا القاعات الجلسية ونصبوا فيها الكراسي والقنفات، ولا مهدوا صالونات المنام بمهاد الأرائك المخملة، ولا تأنقوا بنقوش غرفة الأستراحة ولا غرسوا الحدائق الغناء حول المساكن والقصور بل كانت نفوسهم منصرفة عن نعومتها ونعيمها بل طلقها العظماء من أهل البيت «عليهم السلام».

فقد قال مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» للدنيا وقد تمثلت له بصورة امرأة جميلة: أبي تعرضت أمّ إلي تشوقت؟ غري غري قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك، الخ.

وقال سيد الشهداء أبو عبد الله الحسين بن علي «عليه السلام» وقد تمثلت له يوم الطف بصورة امرأة جميلة وقالت: تزوجني أرد عنك هذا الجمع: إعزبي ويحك أما علمت أن مطلقات الآباء لا تحل للأبناء.

وفي الشعر المروي عن زين العابدين «عليهما السلام» كما في كشكول الشيخ البهائي:

عتبت على الدنيا فقلت إلى متى أكابد بؤساً همه ليس ينجلي
أكل كريم من علي نجاره يروح عليه الماء غير محلل
فقلت نعم يا بن الحسين رميتكم بسهمي عناداً منذ طلقني علي

معنى الزهد لغة:

قال في المصباح المنير: زهد في الشيء وزهد عنه أيضاً زهداً وزهادة بمعنى تركه وأعرض عنه فهو زاهد والجمع زهاد.

وقال ابن الأثير في النهاية: قال الزهري وقد سئل عن الزهد في الدنيا: هو أن لا يغلب الحلال فكره ولا الحرام صبره أراد أن لا يعجز ويقصر شكره على ما رزقه الله من الحلال ولا صبره عن ترك الحرام، إنتهى، وذكره الجاحظ في البيان والتبيين.

معنى الزهد العرفاني:

قال الشريف الجرجاني في التعريفات^(١): الزهد في اللغة ترك الميل إلى الشيء وفي الاصطلاح عند أهل الحقيقة هو بغض الدنيا والإعراض عنها، وقيل: ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة، وقيل: هو أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك، إنتهى.

والوجه الأخير باطل لأن الذي لم يجد الشيء ليس بزاهد فيه وإنما هو متزهد ولا يسمى زاهد في شيء لم يكن تحت قدرته فهو كالثعلب الذي يقول العنقود حامض لأنه لا يناله؛ فالزهد رغبة عن الشيء الحاصل له لا رغبة عما لم يحصل.

وألفت نظر المطالع لهذا الكتاب ليتفطن أن معنى الزهد الاصطلاحي أخص من معناه اللغوي لأنه مخصوص بالرغبة عن كل محقر في نظر الشرع المقدس أو تركه أولى، واللغوي هو الرغبة في ترك كل شيء في ترك الواجبات فيسمى في عرف أهل اللغة زاهداً فيه فيقال: زهد في الصلاة أي رغب عنها ومثل هذا لا يسمى زهداً في الشرع بل فسقاً.

الزهد في الأحاديث:

جاء تفسير الزهد في أحاديث أهل البيت «عليهم السلام» وفسره كثير من الزهاد كل بحسب مدركه التصوري ومعقوله الفكري إذ ليست له حقيقة مضبوطة ولأنه من المؤسسات الإسلامية التي هي مدار الأنصراف عن التهالك في الأمور العاجلة والإقبال على الأمور الباقية في دار الآخرة.

فمن الأحاديث عن سيد الزهاد بعد رسول الله ﷺ وعنه أخذ الزهاد والنسك الطريقة في الزهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» رواه الصدوق القمي (رحمه الله) في معاني الأخبار^(٢) عن الإمام الصادق «عليه السلام» قال: قيل لأمر المؤمنين «عليه السلام»: ما الزهد في الدنيا؟ قال: تنكب حرامها.

وعن أبي الطفيل («رضي الله عنه») قال: سمعت أمير المؤمنين «عليه السلام» يقول: الزهد في الدنيا قصر الأمل وشكر كل نعمة والورع عما حرم الله عليك.

وعن إسماعيل بن مسلم قال: قال أبو عبد الله - يعني الإمام الصادق «عليه السلام» -: ليس الزهد في الدنيا بإضاعة المال ولا بتحريم الحلال بل الزهد في

(١) التعريفات: ص ٧٨.

(٢) معاني الأخبار: ص ٧٤ ب ٩٤.

الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله تعالى .
وعن علي بن هاشم البريدي عن أبيه عن أبي جعفر - يعني الإمام الباقر عليه السلام -: إن رجلاً سأله عن الزهد فقال: الزهد عشرة أشياء فأعلى درجات الزهد أدنى درجات الورع، وأعلى درجات الورع أدنى درجات اليقين، وأعلى درجات اليقين أدنى درجات الرضا، ألا إن الزهد في آية من كتاب الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾^(١)، إنتهى .
والأحاديث كثيرة وكلمات الزهاد كذلك، جمع الجاحظ في البيان والتبيين منها فصلاً راجعه^(٢) فيه قول بعض النساك: دياركم إمامكم، وحياتكم بعد موتكم الخ، ولا نطيل بالإكثار من النقل .

مدح الزهد ورجحانه

كلما دل على مذمة الدنيا والأنخداع بظلمها الزائل والركون إلى نعيمها الفاني المضمحل من الآيات والروايات فهو مدح للزهد كقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ الآية، وكقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٣) إلى غيرهما من آيات القرآن الكريمة، وأما الأحاديث فلا تحصى كثرة .

حقيقة الزهد وأسبابه

هو التنزه عن نعومة العيش الدنيوي والتأنق في المطاعم الشهية والمشارب اللذيذة والملابس اللطيفة والفرش الفاخرة ثم الرضا بما يسد الفورة ويستر العورة والاقتصار من أقتناء المؤثثات على ما به الكفاية مما لا بد منه من الحاجات الضرورية وأن يروض نفسه على القناعة باليسير المحقر، وأن لا تقهرها الشهوات ولا تقتادها المطاعم الخلابة .

وأدعى الغزالي الصوفي الشافعي في الإحياء أن حقيقة الزهد مركبة من أمور ثلاثة: علم وحال وعمل لقول السلف أن أبواب الإيمان كلها ترجع إلى عقد وقول وعمل، ثم قال^(٤): أما الحال فنعني به ما يسمى زهداً وهو عبارة عن أنصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، وذكر قبل هذا أن العلم هو السبب في الحال ويجري مجرى المثمر، والعمل يجري من الحال مجرى الثمرة وأطال في

(١) الحديد: ٢٣ .

(٢) البيان والتبيين ٣/ ٨٦ .

(٣) طه: ١٣١ .

(٤) إحياء العلوم ٣/ ١٨٧ .

ذلك وهذا لبابه ومحضه وقد يتخيل المتخيل أن هذا حقيقة الزهد الأصلية وليس كذلك بل هذه مراتب طويلة مرتبة في سلسلة الطول يترتب بعضها على بعض .
وأما حقيقة الزهد بما هي في نفس الأمر والواقع فذاك أمر بسيط كسائر المفاهيم البسيطة ولم يتعرض له الغزالي هنا ثم إنه في مرتبة الصدق الخارجي على مصاديقه الحسية وترتب الأثر عليه حتى يصح أن نسميه زهداً والمتصف به زاهداً لا بد فيه من هذه الأمور الثلاثة نظير العبادة التي هي حقيقة الإخلاص والإطاعة وكونها عبادة خارجية وفاعلها متعبد حساً تحتاج إلى أمور زائدة على تلك الحقيقة كالعلم بالكيفية والكمية وغيرهما هو معروف في بابيه عند الفقهاء في الكتب الفقهية .

أسباب الزهد والبواعث عليه:

له أسباب كثيرة أظهرها وأقواها القناعة باليسير والرضا بالقوت فيما يسد الفورة ويمسك الرمق ومن الملبس بما يستر العورة والعفة عن الأبتذال في جمع الحطام وصيانته النفس وتنزيهها عن الشره والحرص الذميمين؛ فمن كانت نفسه راضية بيسير العيش قانعة بما قسم الله له من الرزق زهد في كل شيء وعاش عيشة طيبة لا تبعة معها ولا إثم ولا مذلة في اكتساب ولا هوان في طلب .

ثمرات الزهد وفوائده

ثمراته كثيرة وفوائده جمة ومنافعه شتى دنيوية وأخروية:

فالدنيوية أظهرها وأعظمها الراحة ولهذه الراحة منافع عديدة تعود على البدن بمصالح عظيمة فإن النفس إذا لم تسلط عليها الهموم ولا الكدح في كسب المعيشة وطلب الزائد على القوت أكسبها ذلك راحة كبرى فسلمت من الهموم المؤدية إلى انحلال البنية وإضعاف القوى بالأتعاب الشاقة وتكاملت لها المحافظة على صحتها ولم تحتاج في حفظ صحتها إلى ما يحتاجه المهتمون الكادحون في الكد شديداً الذين تعتر بهم الأمراض الناشئة من الهم المفرط وشدة الكدح في سبيل تحصيل الفضول من المال الزائد على قدر القوت الضروري فأحتاج إلى العلاج الطبي، والزاهد مستغن بصحته التي حفظها له عدم الاهتمام عن الإسعافات الطبية .

ومن فوائد الزهد الدنيوية وثمراته العاجلة حياته الشريفة عن ذل الأبتذال في الكسب والخضوع لمن في يديه المال ويظن أن لديه أسباب التعيش كأرباب الولايات وأهل الصنائع والحرف فإن المجد منهم في طلب الزائد على سد الخلّة

والمجتهد في اكتساب الفضول ربما حصل على مهنة ساقطة أو وظيفة محقرة مع الخضوع لمن بيده ذلك والزاهد بعيد عن هذه الوصمة التي تلحق الشرف وتشوه سمعة الكريم وهي ندالة في انحطاط المرتبة وذل الخضوع في الخلطة بسبب التدخل مع أرباب الثروة فإن ذلك موجب للهوان لأن المثيري متكبر والامر جبار لا يرى واحد منهما لأحد احتاج إليه قدراً واحتراماً.

ومن فوائد الزهر وثمراته الدنيوية الاستغناء عما في أيدي الناس ولو على سبيل القرض والاستدانة فإن ذلك أستاذة لأن المقرض يرى له الفضل على المقرض والدائن يجد له المنة على المستدين وربما فاجئه عسر أو ألحت به ضرورة وعاقته أزمة شديدة عن الوفاء أو آخر القسط المنجم عليه عن قوته فهناك يلاقي ما يلاقي من المذلة والهوان بسوء الاقتضاء وقبح المطالبة وربما يكون الموت معه خير للحر من الحياة، والزاهد مستريح من هذا العنت والعناء لأنه متجمل في الطلب يكتفي بأقل شيء يكون به سد الخلّة ويكفي للحاجة الضرورية فهو مستغن عن الاستدانة والأقراض لقناعته وصبره وإنما يقع في مذلتها ويقارف هوانها من أراد الزائد وطمع في الفضول لا من راض نفسه على الصبر وكبح جماحها بالقناعة.

مر أحد الزهاد بقصاب فدعاه إلى شراء لحم، فقال الزاهد: ليس معي ثمن، فقال القصاب: أصبر عليك بالثمن، فقال الزاهد: أنا على نفسي أصبر، وقد رويت هذه القصة عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام».

أما ثمرات الزهد:

وفوائده الأخروية فكثيرة أيضاً أهمها الأستراحة من هول الحساب والمقابلة بالعقاب أو العتاب يوم الحشر الأكبر لما ورد في الحديث عن مولانا أمير المؤمنين وابنه الحسن «عليهما السلام» في التحذير من الدين أن في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، وفي الشبهات عتاب، فأى ثمرة أعظم وفائدة أجل من النجاة من العقوبة والخلاص من المحاسبة والمعاتبة.

ومن فوائده العظيمة أن لصاحبه الكرامة والمنزلة عند الله لأمر إن فعلها أستحق بها الأجر المضاعف والجزاء العظيم من حيث الصبر على الضراء والعنت الذي كابده في فطام النفس عن شهواتها وقد قيل:

وإن فطام النفس أثقل محملاً من الصخرة الصماء حين ترومها

والشكر على نعم الله المتجددة عليه من سلامة الدين والعافية من البلاء

والفتن والقناعة بما قدر له من رزقه فالزهاد يتصفون بصفات كلها توجب القرب من الله منها الصبر والشكر والرضا والتوكل وغير ذلك مما هو مذكور في صفات الزاهدين.

أقسام الزهد وأنواعه

قد عرفت أن الزهد من المفاهيم البسيطة والمعاني المفردة التي لا تقبل القمسة لذاتها وإنما تنقسم باعتبار ما تضاف إليه وهو المجهود فيه ونحن نلخص في هذا كلام الغزالي الشافعي في الإحياء فإنه مطول، قال: أعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاثة:

الدرجة الأولى: وهي السفلى منها أن يزهد في الدنيا وهو لها مشتهي وقلبه إليها مائل ونفسه إليها متلفتة ولكنه يجاهدها فهذا يسمى المتزهد.
ثم قال: **الدرجة الثانية:** الذي يترك الدنيا طوعاً لاحتقاره لها بالإضافة إلى ما طمع فيه.

الدرجة الثالثة: هي العليا أن يزهد طوعاً ويزهد في زهده إذ لا يرى أنه ترك شيئاً إذا عرف أن الدنيا لا شيء فيكون ولكن ترك خزفة وأخذ جوهرة.
ثم قال: وأما انقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب عنه فهو أيضاً على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار وسائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وما بين يدي العبد من الأهوال.

الدرجة الثانية: إن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعود بها في جنته من الحور والقصور وغيرها وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له.

الدرجة الثالثة: وهي العليا أن لا يكون له إلا في الله وفي لقائه فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيتها والظفر بها.

وأما انقسامه بالنسبة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نشتغل بنقلها ونشير إلى كلام محيط بالتفاصيل فنقول: إن المرغوب فيه إما إجمالاً أو تفصيلاً ولتفصيله مراتب بعضها أشرح للآحاد وبعضها أجمل للجمل، أما الإجمال:

في الدرجة الأولى: فهو كل ما سوى الله ينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في

نفسه أيضاً.

والإجمال في الدرجة الثانية: أن يزهد في كل صفة للنفس فيه منقصة وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها.

وفي الدرجة الثالثة: أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس.

وفي الدرجة الرابعة: أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم، إلى آخر كلامه.

وفيه خلط ظاهر وخبط متضخ وحيث كنا نريد أن نتنكب مسالك الصوفية فلا نزيد على ما حررناه لأن التصوف مسلك وعر وطريق صعب وهو وإن كان بصفة الزهد لكنه ماحق للزهد لأن الطريقة التي أبتكروها بأفكارهم وسموها طريقة وحقيقة لا تناسب مسلك الملة السمحاء السهلة وبالأخص إنهم جعلوها فناً من الفنون دونوه كما تدون سائر العلوم أدخلوا فيه من الحلول والإلحاد ما شوه سمعة هذا المسلك الجليل الذي هو مسلك الأنبياء والأوصياء وعباد الله الصالحين فأضافوا إليه من البدع والمقالات الشطحية ذات الأضاليل والكفر الصريح مما نزه الله عنه أوليائه المتقين وعباده الصالحين وقد كتبنا في المسودة عن زهد عيسى ويحيى ونبينا محمد ﷺ وزهد أهل بيته فضلاً نافعاً حذفناه اختصاراً.

زهد العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام»

إن العباس بن أمير المؤمنين قد شب ونشأ في صحبة أزهد الخلق أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأخويه الحسن والحسين «عليهم السلام» فأكتسب فضيلة الزهد ببركة صحبتهم فإن الطباع تتأثر بالمصاحبة وقيل: المرء يأخذ من دين صديقه وقد قيل: ولد الفقيه نصف فقيه، وفي الحديث ما معناه، إذا خفي عليك مال فأنظر فيما ينفق، وإذا خفي عليك حال شخص فأنظر من يصحب، قال الشاعر:

صاحب أخا ثقة تحضى بصحبته فالطبع مكتسب من كل مصحوب

وقال أعشى بني عوف:

فأعتبر الأرض بأسمائها واعتبر الصاحب بالصاحب

وقال الآخر:

إن القرين إلى المقارن ينسب

وقال آخر في المجاورة:

من جاور المسك لم يكتسب منه سوى الرائحة الطيبة

وقال آخر في الفروسية:

وعلمنا الضرب آباؤنا وسوف نعلمه أيضاً بنينا

وقيل للأحنف: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم في قصة أوردناها في كتابنا (الميزان الراجح) والعقل يشهد بصحة هذا ويحكم به جزماً ودلت عليه التجارب وقضى الوجدان بتغير الطبائع عن مجراها الطبيعي وتكتسب خلقاً آخر يقهر ذلك الخلق الغريزي كما أكتسب الحديد الذي من طبعه الرسوب في الماء أن يطفوا على وجه الماء، وكالماء الذي من طبعه البرودة يكتسب الإسخان بالمجاورة ويصل في الهجير الشديد الحرارة بمجاورة الثلج الصناعي إلى درجة البرودة الشتوية ويزيد عليها وتأثير الثقافة حتى في السباع والطيور أمر مفروغ منه.

فأبو الفضل العباس «عليه السلام» أولاً: كان من بيت خلقهم الله للآخرة لا للدنيا فهو بطبعه وجبلته يطلب ما خلق له وبجانب ما لم يخلق له فلا يجد لنعيم الدنيا لذلة ولا لزخرفها فائدة.

ثانياً: إنه تربية أهل الزهد وتهذيب أهل النسك ومربيه ومهذه من طلق الدنيا طلاقاً لا رجعة فيه ومع ذلك يدل على زهده أمور:

منها ما سيجيء في عبادته من بيان أثر السجود بين عينيه.

ومنها ما سيجيء في بصيرته في دينه وفي فصل إيمانه ويقينه.

ومنها ما ورد في زيارته عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» حيث يقول: «نعم الصابر المجاهد المحامي الناصر والأخ الدافع عن أخيه، المجيب إلى طاعة ربه، الراغب فيما زهد فيه غيره من الثواب الجزيل والثناء الجميل» الخ، وليست هذه الرغبة في الثواب المضاعف والثناء الدائم إلا الزهد في الدنيا الفانية والإعراض عن زهرتها وزهوتها اللذين شغلا طلاب الدنيا وعشاق الشهوات عن اختيار الأعمال الصالحة المنوط بها الثواب والكرامة.

ومنها إعراضه عن زهرة دنياه وهو في ريعان الشباب وغضارة الصبا العمر مقتبل والعيش غض وأغصان الشبيبة يانعة لم يبلغ حد الأكتحال ولا درجة الأكمال التي تشرف به على نقيصة العمر الطبيعي وهي الأربعون فأعرض عن ذلك

المحبوب الطبيعي والمرغوب الفطري فرد الأمان وأستقبل الأسنة والحداد، وقد قال من عرف الدرجة الراقية في الزهد هي أن يزهد في نفسه، وقال بعضهم: الزهد قصر الأمل وقد صرح كثير من العلماء بأن الجهاد بإقبال وجد هو حقيقة الزهد ولهذا قال الغزالي في إحياء العلوم^(١) بعد كلام تقدم بعضه:

فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء بها فقصر أمله لا محالة لأنه إنما يريد البقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء فإن من أراد شيئاً أراد دوامه ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود وممكن في هذه الحياة فإذا رغب عنها لم يردّها ولذلك لما كتب عليهم القتال قالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، فقال تعالى: ﴿مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلًا﴾^(٢) أي لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا فظهر عند ذلك الزاهدون وأنكشف حال المنافقين، أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وأنتظروا إحدى الحسينين وكانوا إذا دُعوا للقتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون إليها مبادرة الظمآن إلى الماء البارد حرصاً على نصرة دين الله أو نيل مرتبة الشهادة الخ.

وهذا صحيح فقد صدر عن كثير من أهل الزهد فإن عمار بن ياسر «رضي الله عنه» لما عزم على حرب أهل الشام بصفين في اليوم الذي أُسْتُشْهِد فيه، قال: الرواح إلى الجنة، وقال: الجنة تحت ظلال الأسنة، وفي لفظ: تحت ظلال السيوف، وقال: اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه، وقال غيره قريباً من قوله كما في حديث عبد الله بن رواحة شهيد مؤتة وحارثة الأنصاري شهيد بدر وغيرهما؛ فرفض الحياة والابتشار بالمنية من أعظم درجات الزهد واليقين وقد علم كل أحد أن العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» رفض الحياة وأقبل على الموت بأبتهاج وقد رد الأمان على أهل الكوفة كما علمت ذلك في إيائه وأمتنع من قبول الرخصة التي أتتهم من سيد الشهداء الإمام الحسين «عليه السلام» بالإنصراف عنه وطلب النجاة لأنفسهم على أنهم في حل ولا حرج عليهم ولا إثم.

فقد روى الشيخ المفيد والسيد ابن طاوس وابن الأثير والطبري وغيرهم ولفظ الطبري^(٣): عن علي بن الحسين «عليهما السلام» قال: جمع الحسين «عليه السلام» أصحابه عند قرب المساء، قال علي بن الحسين «عليهما السلام»: فدنوت

(٢) النساء: ٧٧.

(١) إحياء العلوم ٣/١٩٦.

(٣) تاريخ الطبري ٦/٢٣٨.

منه لأسمع ما يقول وأنا مريض، فسمعت أبي يقول لأصحابه: أثني على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء وأحمده في السراء والضراء، اللهم إني أحمدك على أن كرمتنا بالنبوة وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ولم تجعلنا من المشركين.

أما بعد فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي فجزاكم الله عني جميعاً خيراً، ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، ألا وإني قد رأيت لكم فأنطلقوا جميعاً في حل ليس عليكم مني ذمام وهذا الليل قد غشيكم فأتخذوه جملاً.

ثم قال في حديث الضحاك المشرقي، فقال: وهذا الليل قد غشيكم فأتخذوه جملاً وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله فإن القوم إنما يطلبونني ولو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري.

فقال له إخوته وأبناءؤه وبنوا أخيه وأبناء عبد الله بن جعفر: لِمَ نفعل؟ لنبقي بعدك؟ لا أرنا الله ذلك أبداً، بدأهم بهذا القول العباس بن علي «عليهما السلام» ثم إنهم تكلموا بهذا ونحوه، الخ.

وفي أسرار الشهادة^(١) عن الخرايج عن علي بن الحسين «عليهما السلام» قال: كنت مع أبي «عليه السلام» في الليلة التي قُتل في صبيحتها، فقال لأصحابه: هذا الليل قد غشيكم فأتخذوه جملاً فإن القوم إنما يريدونني ولو قتلوني لم يلتفتوا إليكم وأنتم في حل وسعة. قالوا: لا والله لا يكون هذا أبداً.

فقال «عليه السلام»: إنكم تُقتلون غداً كلكم ولا يفلت منكم رجل.

قالوا: الحمد لله الذي شرفنا بالقتل معك.

ثم دعا وقال: إرفعوا رؤوسكم وأنظروا، فجعلوا ينظرون إلى مواضعهم ومنازلهم من الجنة وهو يقول لهم: هذا منزلك يا فلان وهذا قصرك يا فلان وهذه زوجتك يا فلان، فكان الرجل يستقبل الرماح والسيوف ب صدره ووجهه ليصل إلى منزله في الجنة، إنتهى، ورواه الصدوق في علل الشرائع مختصراً.

للمؤلف:

يا ابن الوصي الذي سارت فضائله في الخافقين رواها العرب والعجم

(١) أسرار الشهادة: ص ٣٤٧.

هذا لعمر أبيك الزهد والكرم
والعيش فإن ومنه العمر منصرم
والعمر غرض كثفر الخود مبتسم
ومفخر عجزت عن مثله الأمم
تنمى إليه المعالي الغر والشيم
خير الأنام على رغم الأولى رغموا
إلا النبوة فضل ليس ينكتم
أبوك للمصطفى في كفه العلم
حيث المصاليات منها زلت القدم
شمس النهار وجادت للثرى الديم

زهدت في العيش والأيام مقبلة
فإن من يزهد الدنيا ويرفضها
فليس يشبه زهد الزاهدين بها
يهنيك يا بن علي كل مكرمة
أبوك بعد رسول الله خير فتى
جم المناقب لا تحصى فضائله
كانت منازل هارون له جمعت
فكنت للسلطان يا تاج الفخار كما
فخضتما غمرات الموت دونهما
فالله يجزيكما الخيرات ما طلعت

عبادة العباس الأكبر عليه السلام

العبادة ذات تفاصيل مطولة لا يتسع لنا استقصاؤها ولا استيفاء فروعها ونحن نلخص منها ما يستفيد المطلاع ولا يتضجر به القارئ ويرجع في التفاصيل إلى الكتب الموضوعية لها والذي يلزمنا بيانه معنى العبادة لغة وشروعاً وحقيقتها وثمراتها.

معناها اللغوي فهو بنفس الأنقياد والإطاعة، ومعناها الشرعي فهو الإخلاص في الإطاعة والأنقياد السالم من شائبة الإشراك، ومعناها عند الفقهاء هي كل فعل مشروط بقصد القرية، فبين المعنيين الأخيرين توافق حيث أن القرية لا تقع إلا مع الإخلاص ولا يكون الفعل مقرباً إلا إذا خلا من شائبة إشراك كما بيناه في معنى النية من كتابنا «السياسة العلوية»، والمعنى اللغوي أعم من المعنى الشرعي لأنه يصدق على العبادة الفاسدة والعبادة المحرمة كعبادة الأوثان فإنها تسمى عبادة لغة ولا تسمى عبادة شرعاً، قال الشاعر:

أحبكم وهلاكى في محبتكم كعابد النار يهواها وتحرقه

وقال سديف المكي يمدح بني الحسن السبط ويذم بني العباس:

ما تنقضي دولة أحكام قاداتها فينا كأحكام قوم عابدي وثن

وقد حكى الله تعالى في القرآن المجيد قول عبدة الأوثان: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(١) في آيات كثيرة فسميت عبادتهم هذه مع فسادها عبادة وقد جمع المعنيين الصحيح والفساد سورة «يا أيها الكافرون».

فالنبي ﷺ لا يعبد عبادتهم الفاسدة وهم لا يعبدون عبادته الصحيحة.

قال الفيومي في المصباح: عبدت الله أعبدته عبادة وهي الأنقياد والخضوع، والفاعل عابد، والجمع عبادة وعبدة ثم استعمل فيمن اتخذ إلهاً غير الله وتقرب إليه فقيل: عابد الوثن والشمس وغير ذلك، الخ.

وعلى ما يظهر أن اللفظة مولدة وليس كذلك بل قديمة تعرفها العرب في

الجاهلية وكلمات أهل اللغة متقاربة يفهم منها أنها مولدة ولكنه خطأ بل هي قديمة ولكنها تستعمل في اللغة بالمعنى الأعم وفي الشرع بالمعنى الأخص وهو الصحيح من عبادة الله .

حقيقة العبادة

هي الخضوع للمعبود والخشوع في المشروط بالقربة والإخلاص فيه وفي غير المشروط بالقربة الخضوع فقط للأوامر الربانية فحقيقة العبادة هي الخضوع للمعبود مع الإخلاص والتشوق لعبادته .

قال الشريف الجرجاني في التعريفات^(١) : العبادة هو فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيماً لربه .

وقال ابن مكسويه الخازن في تهذيب الأخلاق^(٢) : وأما العبادة فهي تعظيم الله وتمجيده وطاعته وإكرام أوليائه الملائكة والأنبياء والأئمة «عليهم السلام» والعمل بما توجبه الشريعة وتقوى الله تتم هذه الأشياء وتكملها ، الخ .

ثمرات العبادة وفوائدها

للعبادة فوائد وثمرات كثيرة منها دنيوية ومنها أخروية ، وسبيل الأخروية معلوم وهو النجاة من النار والفوز بالجنة وكلما كانت العبادة أعظم كان الأجر أعظم ، والآيات والروايات في تبشير العابدين كثيرة .

وثمراتها الدنيوية مهمة لأنها رياضة بدنية حسبما تقتضيه قواعد الطب ويستعمله أهل الرياضة الحديثة في تنشيط الجسم من أفانين الألعاب المقوية للحركة والمنشط للجسم كالملاكمة اليدوية والمسابقة في الميدان وأمثالهما مع الأبتذال والتهتك ، والعبادة تعطي هذه الفوائد بأعيانها كالهرولة في السعي ورمي الجمار والوقوف بالمشرعين والقيام والقعود وتنوع الحركة في الصلاة والمشي إلى المساجد والضرائح المقدسة فإنه يحدث نشاطاً .

ومن فوائدها وثمراتها أنها مؤسسات اجتماعية عميمة الفائدة في ربط مصالح الأمة بعضها ببعض وفرق بين هذه الجامعات الدينية والجامعات الدنيوية كالمقاهي والمسارح التي تجتمع بها أرباب السفه والبطالة وتذهب فيها الأموال على غير طائل وإن كنت المقاهي سبباً لاجتماع في شؤون التجارة ومصالح البيع والشراء لكن الجامعات الدينية لا خسران فيها لا في الدين ولا في الدنيا لأنها مؤسسات

(١) التعريفات : ص ٩٨ .

(٢) تهذيب الأخلاق : ص ٣٨٣ .

مجانية وخالية من أرباب السفه والبطالة ومكدرى صفو العيش بهذيانهم وسخفهم وكافلة بمصالح التجارات والبيوع فيقضي بها مصلحته الدنيوية من بيع وشراء ومصلحته الدينية من بث عقائد الإسلام وتقوية عزائم المسلمين أو استفادة علمية أو استفادة حديث عن مصلحة لها ربط بمعاملته أو عمل خير يحمده به في دينه ودنياه، أو يكون صلح بين خصمين وما شاكل ذلك وإن خلى من جميع هذه لم يخلو من ربح الدعاء والأستغفار، ومجتمعات العبادة على الغالب تلقي دروساً علمية ومباحثاً فنية وتحدث بأخبار عالمية تغنيه عن سماع الإذاعة ويستفيد منها مع الفائدة الدينية والسلامة من الخسران والخلاص من مساهمة السخفاء.

قال أحمد حلمي أحد كتاب الأتراك العثمانيين تعريب حسين كامل ولفظه في كتابه تشكيلات الإسلام^(١): ولأجل أن يكون لأهل الإسلام مجتمعاً وبكل محلة متحداً اتخذ أهل الإسلام صوامع المحلة ومساجدها وهو المسمى بلسان الشريعة مسجد الحي أساساً لذلك فإن الدوام على الجماعة والمواظبة عليها في أزمته تقرر الأمانة والأستراحة وعدم الخوف سنة مؤكدة يعني إذا لم يكن مواضع طبيعية وسياسية للإنسان فأدائه الصلوات الخمسة المفروضة مع الجماعة واجتماعهم بإخوانهم في الدين في الأزمنة المعينة بدرجة الوجوب فبناء على هذا إن الأخبار التي تأتي جماعات المسلمين يتذكرون فيها ويتشاورون في مسجد المحلة ويعطون عليها قراراً وذلك عقب أداء الصلاة مع آدابها وسننها ولأجل الاجتماع الكبير الذي هو من الأسبوع إلى الأسبوع يلزم وجوباً دوام جماعات المحلات وسعيهم جميعاً إلى جوامع الجمعة وأدائهم صلاة الجمعة بعد قراءة الخطبة المبينة لما يلزم لهم ديناً ودنياً، وهناك يتشكل مجلس كبير يقوم فيه الخطيب والرئيس قبل أداء الصلاة على منبر الخطابة يبين موضعاً أخبار الأسبوع وحوادثها العائدة للعالم الإسلامي.

ثم أخذ هذا الكاتب في بيان الاجتماعات الكبيرة في العيدين ومواسم الحج وما لهذه الاجتماعات من الأهمية في عالم الإسلام وما فيها من الفوائد الموجبة لترقية الإسلام تركنا ذكرها للاختصار.

أنواع العبادة

تنوع العبادة أنواعاً كثيرة فهي بالنظر إلى حقيقتها وماهيتها هي نوعان: فاسدة وصحيحة؛ فالفاسدة ما فقدت شرطاً أو أشتملت على مانع، والصحيحة ما

(١) تشكيلات الإسلام: ص ٤.

جمعت الشرائط وفقدت الموانع على التفاصيل المذكورة في كتب الفقه .
وبالنظر إلى نفس التكليف بها هي أيضاً نوعان: واجبة ومندوبة؛ فإن التكليف بها على جهة الحتم والإلزام فهي الواجبة، أو على جهة الترغيب بلا تحميم فهي المندوبة، وكل منهما نوعان: فالواجبة إما واجبة بالذات وهي الواجبات الأصلية كالفرائض الخمس وحجة الإسلام وصوم شهر رمضان وأمثالهما، أو بالعارض كالمنذورة والمحلوف على فعلها، والواجبة تبعاً كصلاة الطواف، والمندوبة نوعان أيضاً: أصلية ويقال لها راتبة كالنوافل اليومية وحج التطوع، وغير راتبة كصلاة الأسباب مثل الزيارة والطواف لغير الحج وأمثالهما .

وبالنظر إلى ما يقصده المتعبد في العبادة هي ثلاثة أنواع: إما أن يكون المقصود بها الأمن من الخوف أو الرجاء للكرامة أو لا هذا ولا ذاك وإنما المقصود بها أهلية المعبود للعبادة وهو أعلاها وعليه عبادة النبي ﷺ وعبادة أمير المؤمنين علي «عليه السلام» وعبادة الأئمة المعصومين «عليهم السلام» ويدل عليه قول أمير المؤمنين «عليه السلام»: ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعا في جنتك ولكني رأيتك أهلاً للعبادة فعبدتك، وقد ورد في الحديث تسمية النوع الأول وهو العبادة للخوف بعبادة العبيد وذلك لأن العبد إنما يطيع سيده للخوف من عقوبته ولولا خوف العقوبة ما أمثل أوامر السيد، وتسمية النوع الثاني بعبادة التجار لأن التاجر إنما يعمل لأجل الربح ولو ظن الخسارة ما تاجر ولا تكبد مصاعب الأسفار، وتسمية النوع الثالث بعبادة الأحرار لأن الحر يعمل لا لرغبة وإنما تصدر أفعاله عن شهامة نفس وكرم أخلاق ويرى أن ما يقوم به من عمل إما لأنه أهل أن يفعل هذا أو أن المعمول له أهلاً لأن يعمل له ويخدم .

قال ابن أبي الحديد الحنفي المعتزلي في شرح نهج البلاغة^(١): الحرية هو أن لا يكون الإنسان في قلبه رق شيء من العلوقات لا من أغراض الدنيا ولا من أغراض الآخرة فيكون فرد الفرد لا يسترقد عاجل الدنيا ولا أجل شيء ولا حاصل هوى ولا سؤال ولا قصد ولا رب، وقال ﷺ لبعض أصحاب الصفة: قد عزفت نفسي عن الدنيا فأستوى عندي ذهبها وحجرها، قال: صرت حراً، وقال الشاعر:
أتمنى على الزمان محالاً أن ترى مقلتي طلعة حر

إلخ، وفي كلامه شذوذ بين إذ معنى كون الشيء النفيس في نفسه قد ساوى الساقط لا يسمى زاهداً لأن معنى الزهد هو الرغبة عن النفيس والمراد من العبادة

(١) شرح نهج البلاغة ٣/ ٧١ طبع مصر .

كالمراد من الكسب والعمل إما لجلب محبوب أو لدفع محذور أقصى ما يتصور أن الحر الكريم صاحب الشهامة لا يعمل الأعمال بداعي الرهبة والرغبة حيث أن همته أعظم وقدره أكبر فيعمل الأعمال إما لمناسبة شخصيته كما يقال فلان يعطي على قدره لا على قدر السائل، أو يعمل لأجل من عمله يقل في جنب عظمته وإن كبر في نفسه فهو إذن أهل أن يعمل له ومستحق للعمل لذاته بدون ملاحظة سطوته أو كرامته فالمتعبد الحر العظيم الهمة يرى أن معبوده الذي هو رب الأرباب ومفيض الخيرات على الوجود جدير بالعبادة وحقيق بها لا لأنه يثيب ويعاقب بل لأنه منعم متفضل عم البرية بإنعام لا تعد، وشملهم بالطفاف لا تحصى بأن خلقه إنساناً عاقلاً لا حيواناً، وذكرأ لا أنثى، تام الخلقة لا ناقصها، كامل الإرادة لا ضعيفها، مؤمناً به لا جاحداً إلى غير ذلك من النعم التي يجب أن تقابل بالشكر الفعلي وهو العبادة بقصد أنه أهل لها وإن حصل الثواب عفواً وتفضلاً لأن هذا الكريم الجواد مفيض الخير على الوجود ومسبل النعم العظيمة وإن لم يطلب منه المتعبد جزاء على عمله ولا أجراً على عبادته لكنه عظيم المنة عميم الفضل يعطي تكمراً ويجود تفضلاً، أبتدأ بالنعم من دون مقابلة عمل فكيف لا يقابل العمل الصالح الخالص لوجهه بأضعاف ما يكافئه وقد دلت على هذا روايات كثيرة في نقلها تطويل.

وتتنوع العبادة بالنظر إلى المكلف به أنواعاً كثيرة لأنه إما أن يراد الفعل من شخص بعينه أولاً:

فالأول: أما أن يتعلق التكليف بذات المكلف فلا يقبل من غيره لو قام به ويسمى بالواجب النفسي أو الواجب العيني ويتفرع من هذا واجب آخر لم يجب لنفسه بل وجب تبعاً لغيره ويسمى بالواجب الغيري والواجب المقدمي وكلاهما يراد من نفس المكلف، وإما أن يتعلق التكليف بذات المكلف به أولاً وبالمكلف ثانياً كالحق المالي فإنه وجب على نفس المال إخراج الخمس أو العشر منه أولاً وبالمالك ثانياً حتى لو عصى أخذه الحاكم قهراً وبرئت ذمته ويسمى بالواجب المالي.

وأما أن يتعلق بأمر خارج عن ذات المكلف ونفسه أولاً وإن وجب فيهما ثانياً كدفع الشرك والمنكر فإن دفعهما واجب بكل ما أمكن الوصول إليه ولو باللسان أو قطع المواد المعاشية فهو واجب بعامة الوسائل حتى ينتهي إلى الدفع بالمال والبدن وهذه الأنواع عند الفقهاء تسمى بالواجب العبادي لأنه مشروط بالنية

في قبال الواجب التوصللي الذي لا يحتاج إلى نية كإزالة النجاسة عن البدن وإزالة الجيفة المؤذية ورفع الحجر عن الطريق وكنس المساجد وما شابه ذلك .

وتتنوع العبادة بالنظر إلى التوظيف إلى نوعين لأنه إما أن يكون تكليفاً للفرد أو للنوع والأول إما أن يكون من تكليف الظاهر كالعبادة اللفظية مثل القراءة أو الباطن كالعبادة القلبية مثل الاعتقاد الصحيح فهذان نوعان تحت نوع واحد وهو تكليف الفرد، وإما أن يكون تكليفاً للنوع من دون ملاحظة الفردية كتجهيز الأموات وغسلهم ومواراتهم ومباشرة الوظائف العامة التي تتوقف عليها مصلحة أهل الإسلام فهذا يجب على النوع القيام به وإن سقط على الكل بقيام من به الكفاية ويأثمون كلهم بترك من به الكفاية له ويسمى هذا النوع بالواجب الكفائي، وهناك أنواع أخر داخله في هذه الأنواع ذكرها أهل علم أصول الفقه فأطلبها .

وتتنوع العبادة بالنظر إلى نفس التأدية إلى نوعين: ظاهرية وباطنية؛ فالباطنية هي العقائد والنيات لقوله ﷺ: إنما الأعمال بالنيات، وقوله ﷺ: نية المرء خير من عمله، وقوله: لكل أمرئ ما نوى، والظاهرية ذات نوعين: قولية كالقراءات والأذكار، وفعلية كالأعمال.

قال فخر الدين الطريحي (رحمه الله) في مجمع البحرين^(١): قال المحقق الطوسي: قال الحكماء: عبادة الله ثلاثة أنواع:

الأول: ما يجب على الأبدان كالصلاة والصيام والسعي في المواقف الشريفة لمناجاته جلّ ذكره.

والثاني: ما يجب على النفوس كالاقتادات الصحيحة من العلم بتوحيد الله وما يستحقه من الثناء والتمجيد والذكر فيما أفاضه سبحانه على العالم من وجوده وحكمته ثم الإنسان في هذه المعارف.

الثالث: ما يجب عند مشاركات الناس في المدن وهي المعاملات والمزارعات والمناكح وتأدية الأمانات ونصح البعض للبعض بضروب المعاونات وجهاد الأعداء والذب عن الحريم وحماية الحوزة، إنتهى.

دلائل العبادة وعلاماتها

للعبادة دلائل وأمارات وعلامات منها ما تكون على نفس الأعضاء كالأثر في الجبهة وجميع أعضاء السجود وهذا أثر عظيم غاية المدح إذا لم يكن تصنعاً

وربما فقد كان حجة الله على الخلق الإمام زين العابدين علي بن الحسين «عليهما السلام» يسمى السجادة لكثرة سجوده وذا الثغفات وهذه الألقاب أشتقت له من صفته لأن أعضاء سجوده أشبهت ثغفات البعير لكثرة عبادته وقد كان «عليه السلام» يأخذ اللحم من أنفه وجبهته بالمقراض فلا يحس له ألماً لأنه قد صلب على كثرة السجود، وقد كان يصلي في اليوم واللييلة ألف ركعة كأبيه الحسين وجده أمير المؤمنين «صلوات الله عليهم أجمعين».

وقد لقبت العامة العليين من بني هاشم كل واحد منهم بالسجادة وذو الثغفات قياساً على زين العابدين «عليه السلام» لكثرة عبادتهم ولكن:
أنى يقاس الذر بالأطواد
وأين الثريا من يد المتناول

وهم علي بن عبد الله بن جعفر الطيار وأمه زينب الحوراء بنت أمير المؤمنين «عليهما السلام» وعلي بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ويسمى الأغر، وعلي الخير وعلي العابد ويسمى هو وزوجته زينب بنت عبد الله المحض الزوج الصالح قتله المنصور في حبسه بالهاشمية، وعلي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب وسماه أمير المؤمنين «عليه السلام» علياً لأنه ولد في أيامه ولقبوا أيضاً رأس الخوارج عبد الله بن وهب الراسبي بذلك وهلك كافراً قتله أمير المؤمنين «عليه السلام» بالنهروان وفيه وفي أصحابه المارقة جاء قول النبي ﷺ: تحقر صلاتكم في جنب صلاتهم وصومكم في جنب صومهم لا يتجاوز إيمانهم تراقبهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية إلى آخر الحديث الشريف، وقد مدح الله تعالى أهل هذه العلامة الصحيحة بقوله: ﴿سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾^(١).

ومنها ما يظهر بالتوسم في الملامح كالخشوع والانكسار من غير ذل ولا أستكانة وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِئَنَّا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٢)، وتلطف السيد حيدر الحلبي (رحمه الله) ما شاء في رثاء الحسين «عليه السلام» والشهداء معه بقوله:
سمة العبيد من الخضوع عليهم لله إن ضمتهم الأسحار
فإذا ترجلت الضحى شهدت لهم بيض الصوارم إنهم أحرار
ومنها النشاط في العبادة وإن ضعفت القوى والأعضاء ونحلت البنية فإن

العابد الذي أشرب قلبه حب العبادة ينشط لها ويقوى، قال الشاعر:
وإذا حلت الهداية قلباً نشطت للعبادة الأعضاء
ولا يختلف هذا النشاط في الوحدة أو أمام الناظرين وبهذا يفترق عن
المتصنع فإن المتصنع ينشط عند رؤية الناس ويتكاسل إذا خلى بنفسه وفي هذا
حديث معروف في صفة المرائي.

ومنها بالأفعال وهي أقواها فإنها لا يدخلها التصنع ولا الرياء وهي العفاف
عن المحرمات وترك المنهيات أجمع وترك الخضوع للناس والخشوع عند حلول
النوائب والنكبات وهذا معنى قول سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين «عليه
السلام»: لا أعطيكم بيدي أعطاء الذليل، وفي الشعر المنسوب لأمير المؤمنين
«عليه السلام»:

سأصبر حتى يعلم الصبر أنني صبرت على شيء أمر من الصبر
وأتبعه الشاعر فقال:

صبرت على البلوى حياء وعفة وهل يشتكي سم الأراقم أرقم
ومنها ما ليس بيد العباد صنعه وإنما هي إفاضات إلهية يفيضها على عباده
الصالحين كالوقار والسكينة والهيبة العظيمة التي ترتعد منها الفرائص فقد كان
رسول الله ﷺ عظيم الهيبة، رآته امرأة فأصابته رعدة شديدة فقال لها: هوني
عليك فإنما أنا ابن امرأة مثلك تأكل القديد وتلبس الهدم.
ورأى هشام بن الحكم الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» فأسكت هيبة له
وكان جهماً ولأجل هذا جزم بالقول بإمامته.

وحج هشام بن عبد الملك في خلافة أبيه فما أستطاع أستلام الحجر لكثرة
الازدحام عليه فجلس ينتظر الخفة وأقبل زين العابدين «عليه السلام» فأفرج له
الناس عن الحجر حتى أستلمه في القصة التاريخية المشهورة وفي هذه الواقعة
أنشد الفرزدق قصيدته الميمية المشهورة.

ومنها علامات الألوان كالأصفرار وذبول الشفاه وخماصة البطون وقد جمع
مولانا أمير المؤمنين «عليه السلام» جميع صفات المتقين في خطبته البليغة التي
سببها طلب صاحبه همام النخعي لذلك فأطلبها من نهج البلاغة وأقتبس معانيها
الدمستاني في مرثية الحسين «عليه السلام» وأصحابه يقول فيها:

ألا ترى أولياء الله كيف قلت طيب الكرى في الدياجي منهم المقل

يدعون ربهموا في فك عنقهموا من رق ذنبهموا والدمع ينهمل
 نحف الجسوم فلا يدرى إذا ركعوا قسي نبل هموا أم رُكع نبل
 خمص البطون طوى ذبل الشفاه ظمى عمش العيون بكما ما عبها كحل
 يقال مرضى وما بالقوم من رض أو خولطوا خبلاً حاشاهموا الخبل
 تعادل الخوف فيهم والرجاء فلم يفرط بهم طمع يوماً ولا وجل
 إن ينطقوا ذكروا أو يسكتوا شكروا أو يغضبوا غفروا أو يقطعوا وصلوا

تكاليف الأعضاء

بسط العبادة على الأعضاء؛

إن الباري تعالى بحكمته وتقديره على المطيع من عباده أن ينعم كل عضو منه وعلى العاصي أن يعذب كل عضو منه؛ فالنعم كل جراحة والعقوبة لكل جانحة، وبميزان العدل لا يجوز تعذيب من لم يصدر منه الذنب وإن جاز التنعيم بموجب الفضل فأقتضت الحكمة بسط التكاليف العبادية على الأعضاء والجوارح البدنية كلها الظاهرة والباطنة ليلقي كل عضو ما أستحق من جزاء العمل عقوبة ومثوبة في حالتي الفعل والترك فذكر عدة من الأعضاء في القرآن كالوجه والجنب والظهر واليد والرجل والعين وأمثالها في الآيات المباركة.

فكلّف كل عضو بتكليف خاص به لعلمه تعالى أن التلذذ بالنعيم والتألم بالجحيم إنما هو واقع على جميع البدن وهو هيكل الروح المحسوس وقاله المرئي وهو المركب من الأعضاء والقوى والمركب لا بد وأن يكون الواقع على الماهية المركبة واقعاً على أجزائها شأن سائر المركبات الحسية فأقتضت الحكمة توزيعها على الأعضاء وبسطها على الجوارح ليحصل لها الجزاء مكافأة على النعيم المنبسط على جميعها في مقابلة قيامها بما وظف عليها من الوظائف الشرعية والمجازات بالعقوبة المسلطة على عامتها في مقابلة إخلالها بما وظف عليها فلهذا السبب كانت التكاليف بأقسامها الأربعة من الوجوب والحرمة والندب والكراهة موزعة على أعضاء البدن توزيعاً حكماً لتقوم كل جراحة من الجوارح بما وظف عليها ويؤدي كل عضو ما رسم عليه.

فالقلب تكليفه الخاص به اعتقاد الأصول الإسلامية الخمسة التي هي: التوحيد والعدل والنبوة والمعاد الجسماني والإمامة وسائر الصفات الإلهية صفات

الجلال وصفات الكمال سلبية وإيجابية التي لا يجوز أن يشارك المخلوق فيها الخالق ومن تكاليف القلب الخاصة به إخلاص العمل لله وإضمار الأنقياد له واعتقاد النصح للأمة الإسلامية وإضمار كل خير فعلاً وكل شر تركاً، ومن تكاليفه الخاصة التفكير في باهر القدرة والاستدلال بالآثار على وجوده وعجيب صنعه وباهر قدرته والتدبر للعلوم الدينية النافعة واعتقاد المذاهب الحققة ونية الخير لأهل الإيمان والرضا والتسليم لما قضى وقدر وما جرى هذا المجرى.

تكليف الجبهة والجبين بالتمريغ والتغفير في السجود ووضعها على ما يصح عليه السجود من تربة طاهرة وموضع طاهر محلل غير مغصوب ولا مانع فيه من الموانع المذكورة في علم الفقه من المأكول والملبوس بالعادة وأن لا يضعها على محرم أو يضع عليها محرم كالذهب أو عتبة الصنم والجائر تذلاً له وخضوعاً وأن لا يغسلها بمحرم كالخمر والنجاسات وأن لا يتوضأ بمنهي عنه ولو كان مباحاً كالمضاف السائغ استعمالاً محظوراً في العبادة كماء الورد وأمثاله.

تكليف اللسان يكف الأذى عن الخلق وترك الفحش والبذاءة والنطق بما يرضى الله ورسوله من الصدق الصالح والصواب وقول الحق وذكر الله تعالى في التحميد والتمجيد وسائر الأذكار المروية والشكر له والثناء عليه وعلى كتبه ورسله وملائكته عند ذكرهم والصلاة على محمد وآل محمد ومدحهم وورثاتهم ونصرتهم في مجادلة الخصوم ونشر فضائلهم وفي جميع ذلك روايات وخصوصاً المراثي الحسينية كرواية أبي هارون المكفوف وأبي عمارة المنشد رواهما الصدوق في ثواب الأعمال وغيره، ومن تكاليف اللسان القراءة والدعاء في الفرائض كالتلبية في الحج والنوافل كالدعاء في الزيارة وذكر أهل الخير والصالح والثناء عليهم ولعن المردة المتجبرين وذم الفساق والمنافقين فإن ذلك إرشاد وتحذير، قال الشاعر:

قال النبي الفاسق أذكروه يعرفه الناس فيحذروه

ومن تكاليفه بث المواعظ والخطب النافعة الجذابة إلى الطاعة والتكلم بالمصالح العامة كإصلاح ذات البين ومقاومة الفتن وقمع الضلالات والبدع وإغاثة الملهوف وتلبية الداعي إلى الخير ونشر العلوم المنجية من الأضاليل العاصمة من الزندقة والإلحاد إلى غير ذلك.

تكليف العين من نوع العبادة أن تنظر إلى محلل وأن لا تنظر إلى محرم في الشرع كالنظر إلى أجنبية، والنظر إلى عورة شخص أي شخص كان إلا الزوج

والزوجة، وأن لا تنظر إلى ما تستاء منه النفس كالمصلوب فقد ورد النهي عن ذلك، وأن لا تنظر إلى ما يجر إلى قساوة القلب كضرب المسلم جوراً ما لم ينتصر له، وأن لا تنظر إلى شاغل عن أمور الآخرة كالمزخرفات والتزاويق لأهل الترف والبطالة فقد نهى الله عنه في القرآن المجيد، وأن لا تنظر إلى فاحشة.

وهنا حكاية ظريفة: نظر بعض العباد إلى رجل على فاحشة فغمض عينيه فلما قام صاحب الفاحشة قال للعابد: متى ذهبت عينك؟ فقال العابد: منذ هتك الله سترك.

ومن تكاليف العين أن لا يملأها من النوم الشاغل لها عن الأعمال الصالحة وأن تسهر على ما فيه صلاحها وأن يمكنها من النوم بمقدار الأسترحة فإن النوم خيره الغرار وأفضله الإغفاء، قال ماذح النبي ﷺ:

سيد ضحكه تبسم وال مشي الهوينا ونومه الإغفاء

فالنعاس داء يدواي بقليل النوم، ومن تكاليفها النظر إلى ملكوت السماوات والأرض وإلى جميع ما في الكون للأعتبار والاستدلال على وجود الخالق العظيم وقد ورد الحث عليه في الآيات والروايات، ومن تكاليفها البكاء في أمور ثلاثة: للخشية من الله، وللشوق إلى لقاءه، ولمصاب آل محمد ﷺ وبالأخص مصاب الحسين «عليه السلام» وجميع ذلك مروي.

تكليف الأذن من نوع العبادة التصامم عن سماع المحرمات كالأغاني وأصوات الأجنبية مع الألتذاذ بذلك وأن لا تصغى إلى سماع ما تستاء فيه النفس ويتألم له القلب من الأخبار المحزنة نحو الإشاعات والأراجيف التي تذاق ويقصد بها إيذاء أهل الإسلام، وأن لا يستمع بها الغيبة والفحش وقذف الأعراض وأنواع الألفاظ الشريرة، وأن يستمع بها الدعاء والزيارة وقراءة القرآن، وأن ينصت لقرائته لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾^(١) وإن خصها الفقهاء بوجوب السكوت عند قراءة الإمام فهي دالة بإطلاقها على استحباب الإنصات مطلقاً لتدبر معاني القرآن.

ومن تكاليف الأذن الاستماع للحق وعظاً وتذكيراً والصلاة على النبي ﷺ وآله «عليه السلام» وأستماع كلمة النصيح في الإصلاح والنداء لدعوة أحتفال لمهم ديني كمولد النبي والأئمة «عليهم السلام» ومواسم الأعياد الإسلامية وأستماع

الأذان لأجابه داعي الصلاة وأستماع إغاثة الملهوف وما شاكل ذلك .

تكليف الأنف من نوع العبادة أن يشم الروائح الطيبة لقوله ﷺ : لي من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة ، وأن لا يشم الروائح المحرمة اختياراً كرائحة الخمر ، وأن لا يشم الروائح الخبيثة كرائحة البصل والكراث والثوم وبالإخص الأخير وفيه أحاديث ناهية سمي فيها الأخير شجرة ملعونة .

ومن تكليف الأنف أن لا يعفره بغير عبادة الله ولا يغمره في محرم كالخمر وإناء الذهب والفضة والمغصوب ، وأن لا يدخل فيه ناقضاً للصوم من المانع الذي يصل إلى الجوف .

تكليف اليد من نوع العبادة بسطها في المعروف كبذل النوال وإعطاء السائل وتحرير مسائل العلم النافع وكتابة الحديث والأدعية والزيارات وفصائل أهل البيت النبوي ومدائحهم ومراثيهم وكتابة القرآن الشريف والدفاع عن الملة وحماية العرض والوطن والمال المحترم ونصرة المظلوم وضرب التأديب للمعتدي لكل فاعل حرام يقتدر على ضربه وتارك كل فرض واجب تهاوناً به يضرب على تركه وقبضها عن المنكرات كالغضب والسرقة وفتح الأبواب المغلقة للتطلع على عورات أهلها والقبض على هارب من جور وفار من ظالم والقبض على المرأة لعمل الفاحشة وحمل الخمر لشاربها .

ومن تكليف اليد إعطاء الحق ورفعها في التكبير والقنوت وبسطها في السجود وغرز الركبتين بها في الركوع .

ومن تكاليفها إزالة القاذورات عن الثوب والبدن والأمكنة المقدسة كالمساجد والحضرات ورفع ما يضر بالمارة من المسلمين ورفع ما حرم وطؤه كأوراق المصحف وأسماء الله والأنبياء والأئمة وقطع الخبز وحب الأرز المطبوخ والأخذ بيد المسلم إذ وقع أو تردى في بئر أو حفيرة واستنقاذ الغريق المسلم وتخليص الحرة المسلمة من قاهرها على نفسه وأخذ مال المسلم من يد السارق والغاصب ورده إلى صاحبه .

ومن تكليفها قبض الحقوق وتوزيعها على المستحق وإستلام الحجر الأسعد في الطواف وأستلام المراقدة المقدسة للأنبياء والأئمة «عليهم السلام» إلى غير ذلك مما في تعداده التطويل .

تكليف الرجل من نوع العبادة السعي إلى المساجد والحضرات المقدسة والمجتمعات الدينية والسعي في الحج والهرولة والمشي في الإصلاح وقضاء

الحوائج وأن لا يطأ بها محترماً كالمصحف والطعام، وأن لا يمشي بها إلى محرم، وأن يستعملها في المشي إلى الطاعات كزيارة وتشيع جنازة أو تحصيل علم نافع في الدين واستماع المواعظ وتذكار الحسين «عليه السلام» وأن لا يطأ بها نجساً لا متنجساً يبطل العبادة ولا يضعها على بدن امرأة غير محللة له وأن يعتمد عليها في القيام للصلاة وأن يمكن إبهامه وركبته في الأرض عند سجوده وغير ذلك.

وتكليف الرأس من نوع العبادة أن يكشفه في الإحرام بالحج وأن يحلق شعره عند رمي الجمار وإن لا يغمره في الماء عند الصوم وأن يغمره أو يغسله في الأغتسال بمحلل غير محرم لذاته أو النجاسة كالخمر والنجاسات ولا مضاف كماء الورد ولا مغصوب وأن لا يحمل عليه محرماً كالسكر وأن لا يغطي بمحرم لنوعه كالحرير أو لعارض كالمغصوب وأمثالها.

تكليف الفم من نوع العبادة أن لا يذوق محرماً لذاته كالخمر أو لعارض كالمغصوب، وأن لا يلثم محرماً كالمرأة الأجنبية ولا وثناً ولا يد طاغوت ومتجبر ولا يد خارج عن دين الإسلام، وفي الخبر المسموع: يد لا تشفع تقطع، نظمه ابن الوردي في لاميته:

أنا لا أختار تقبيل يد قطعها أفضل من تلك القبل

ومن تكليف الفم تقبيل الحجر الأسعد ولثم الأعتاب المقدسة وضرائح آل محمد ﷺ والأيدي المكرمة وأن لا يدخل فيه ضاراً كالسموم أو مستقبحاً كالروائح الكريهة وأمثالها.

تكليف الظهر من نوع العبادة أن ينحني في الركوع وينتصب في القيام ويستوي وأن لا يحمل عليه ما حرمه الشرع أصالة كالسكر وعرضاً كالمغصوب والمسروق وأن لا يضعه على محرم وأن لا يتكئ على مغصوب أو محرم لذاته، وأن لا يكون الظهر للقبلة وقت الفريضة، ولا يجعله إلى الكعبة وضريح النبي والإمام المعصوم، وأن لا يغسله في الأغسال بمحرم أصلياً كان كالخمر أو عرضياً كالمغصوب أو محلاً مضافاً كماء الورد وماء الحناء مثلاً وشبه ذلك.

تكليف البطن من نوع العبادة أن لا يجعلها وعاء المحرمات، ولا يملأها من الخبائث، وأن لا يدخل فيها إلا المحلل، وأن لا يمتلئ من المحلل فقد ورد النهي عن البطنة والأمتلاء، وأن لا يلصقها على محرم، ولا يغسلها بما ذكرنا سابقاً.

تكليف الفرج من نوع العبادة أن لا يفعل محرماً كالزنا واللواط والاستمناء، وأن لا يسلطه إلا على محلل وقد أكدت الشريعة الغراء ذلك وورد به نص القرآن ولعلك بهذا تكتفي ويصح لك قياس ما بقي بما ذكرنا.

عبادة العباس ابن أمير المؤمنين «عليهما السلام»

عبادة أبي الفضل العباس «عليه السلام» قد كانت بجميع أعضائه :
 فلسانه عبد الله بالذكر والشكر والدعاء والأستغفار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعاية إلى إمامة إمامه وأخيه الحسين «عليه السلام» .
 أم جبهته فقد أثر بها السجود .
 وأما عينه فقد نبت بها السهم في الجهاد دون إمامه .
 وأما يده فقطعتها من الزند بعد أن عبد بها الله تعالى أنواعاً من العبادة جاهد بها الأشرار ورفعها في الأذكار وبسطها في العطاء والسجود والركوع وغير ذلك .

وأما رأسه فقد فضخت هامته بعامود الحديد .
 وأما رجلاه فقد قام بها في كل عبادة وسعى بها إلى كل خير ومشى بها إلى الجهاد وحمل الماء لعطاشى آل محمد وآخر عبادة عبد بها أنه جعل يفحص بهما حين سقط على شاطئ العلقمي مفضوخ إلهامة مقطوع اليدين .
 وأما وجهه الكريم فقد سالت عليه الدماء في سبيل الله وسال عليه مخ اليافوخ المفضوخ .

وأما صدره الشريف فقد وزعته الأسنة والسيوف والنبال المحددة وهكذا سبيل سائر أعضائه حتى جاء في وصفه إنه إذا حمل منه جانب سقط الآخر لكثرة ضرب السيوف وطعن الرماح .

وأما عبادته بالمعنى المصطلح وهو كثرة الصلاة حتى يحصل من الإكثار منها أثر في أعضاء السجود فذاك أمر معروف نص عليه العلماء .

قال أبو الفرج الأصبهاني في مقاتل الطالبين^(١) : قال المدائني : حدثني أبو غسان، عن هارون بن سعد، عن القاسم بن الأصبغ بن نباتة قال : رأيت رجلاً من بني أبان بن دارم أسود الوجه وكنت أعرفه جميلاً شديداً البياض، فقلت له : ما

كدت أعرفك، قال: إني قتلت شاباً أمرداً مع الحسين بين عينيه أثر السجود فما نمت ليلة منذ قتلته إلا أتاني فيأخذ بتلابي حتى يأتي جهنم فيدفعني فيها فأصبح فما يبقى أحد في الحي إلا سمع صياحي، قال: والمقتول العباس بن علي «عليهما السلام»، إنتهى.

وهذا حديث مشهور رواه عامة أهل المقاتل وهنا أستراب السيد المعاصر السيد جعفر بحر العلوم في كتابه (تحفة العالم) بأن هذا الحديث لا يصح في العباس الأكبر لقوله (غلام أمرد) ويصح في العباس الأصغر وهذا وجه وجيه لو كانت الرواية عند جميع من رواها كذلك، ففي كلام سبط ابن الجوزي في التذكرة^(١) موافقة لما في المقاتل قال: عن القاسم بن الأصبغ المجاشعي قال: لما أتني بالرووس إلى الكوفة إذا بفارس أحسن الناس وجهاً قد علق في لبب فرسه رأس غلام أمرد كأنه القمر ليلة تمه والفرس يمرح فإذا طأطأ راسه لحق الرأس بالأرض، فقلت له: رأس من هذا؟ فقال: رأس العباس بن علي، فقلت: ومن أنت؟ قال: حرملة بن الكاهن الأسدي.

قال: فلبثت أياماً وإذا بحرملة ووجهه أشد سواداً من القار فقلت له: رأيتك يوم حملت الرأس وما في العرب انظر وجهاً منك وما أرى اليوم لا أقبح ولا أسود وجهاً منك! فبكى وقال: والله منذ حملت الرأس إلى اليوم ما تمر بي ليلة إلا واثنان يأخذان بضبعي ثم ينتهيان بي إلى نار تأجج فيدفعاني فيها وأنا أنكص فتسفعني كما ترى، ثم مات على أقبح حال، إنتهى.

وأما من رواها ولم يعبر بأمرد بل قال: رجل فمنهم الصدوق القمي (رحمه الله) ونقلها عنه الفاضل المجلسي (رحمه الله) في البحار^(٢) ونصها للصدوق في ثواب الأعمال^(٣): عن القاسم بن الأصبغ قال: قدم علينا رجل من بني دارم ممن شهد قتل الحسين «عليه السلام» مسود الوجه وكان رجلاً جميلاً شديد البياض، فقلت له: ما كدت أعرفك لتغير لونك، فقال: قتلت رجلاً من أصحاب الحسين أبيض بين عينيه أثر السجود وجئت برأسه، قال القاسم: لقد رأيته على فرس له وقد علق الرأس بلبانها وهو يصيب ركبته، قال: فقلت لأبي: لو أنه رفع الرأس قليلاً أما ترى ما تصنع به الفرس بيديها؟ فقال: يا بني! ما يصنع به أشد لقد حدثني فقال: ما نمت ليلة منذ قتلته إلا أتاني في منامي حتى يأخذ بضبعي فيقودني فيقول:

(١) تذكرة الخواص: ص ١٥٩.

(٢) بحار الأنوار ١٠/ ٢٧٠.

(٣) ثواب الأعمال: ص ١١.

انطلق فينطلق بي إلى جهنم فيقذف بي فيها حتى أصبح، قال: فسمعت بذلك جارة له فقالت: ما يدعنا ننام شيئاً من الليل من صياحه، قال: فقممت في شباب من الحي فأتينا أمراًته فسألناها فقالت: قد أبدى على نفسه وقد صدقكم، إنتهى.

والصدوق معتمد وإذا كانت القاعدة الأصولية هي حمل المطلق على المقيد فإنها تعارضها قاعدة الأصل عدم الزيادة على أن رواية الصدوق مقيدة أيضاً برجل والأمرد في الحديث الأصبهاني وسبط لعله وهم من الراوي فإن أبا الفرج وسبط لا يثبتان عباساً أصغر وعمر الأكبر عندهما سنه ٣٤ سنة فوافق حديث الصدوق وبقي الوهم من المحدث عن القاسم بن الأصبغ ومن المحتمل القوي أن القاسم قال عن نفسه: رأيته وأنا أمرد فظن الراوي أن المقتول كان أمرد، على أنه من الغريب حمل الغلام على عادة العرب من إطلاقه على الكهل كما قال النابغة الذبياني للحارث بن أبي شمر ملك غسان:

هذا غلام حسن وجهه مقبل العمر سريع التمام

وقالت ليلي الأخيلية في مريثة توبة بن الحمير الخفاجي عشيقها:

غلامان كانا استوردا كل سورة من المجد ثم استوسقا في المصادر

وهذا كثير في كلام أهل اللسان، وأما توصيفه بالأمرد فليس بعزيز في كلامهم لضرب من التجوز فقد يطلقون الأمر على الملتحي إذا لم يبلغ سن الكهولة كما في قصة عين أباغ وأرسل المنذر الأكبر ملك الحيرة إلى الحارث الأكبر ملك غسان أعددت لك الكهول على الفحول، فأجابه الحارث: أعددت لك المرء على الجرد، وليس المراد من المرء الذين لا شعر في وجوههم بل هم الذين لم يتجاوزوا سن الكهولة وهم في الدرجة القصوى من النشاط والقوة فإذا أريد بالأمرد الخالي من الشعر أحتاج إلى قيد فيقال أمرد أجدر كما في حديث: أهل الجنة مرد جرد، أو يقال: أمرد لا نبات بعارضه، فالأمرد يستعمل فيمن أنبت من الرجال مجازاً وكلام العرب مبني على التوسعة.

أما الدلالة على عبادة العباس «عليه السلام» على جهة العموم فقد روى الشيخ المفيد في الإرشاد في أخبار الليلة العاشرة من المحرم أن الحسين «عليه السلام» قام ليله كله يصلي ويستغفر ويدعو ويتضرع، وقام أصحابه كذلك يصلون ويدعون ويستغفرون.

وقال الطبري عن الضحاك المشرقي: فلما أمسى الحسين «عليه السلام» وأصحابه قاموا الليل كله يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون.

وقال السيد ابن طاوس (رحمه الله) في الملهوف: ويات الحسين «عليه السلام» وأصحابه تلك الليلة ولهم دوي كدوي النحل بين رакع وساجد وقائم وقاعد الخ، وكل هذه تدل بعمومها على عبادة أبي الفضل.
للمؤلف:

سيما أبيه الخير والأسلاف	سيما عباس الشهيد بوجهه
عنوان تقواه بغير خلاف	أثر السجود بجبهة ابن المرتضى
غر محجلة من الأشراف	من معشر سيماهم بوجوههم
يتوسمون دلائل الأوصاف	ولهم على الأعراف أكرم موقف
للمنكرين من العذاب الضافي	طوبى لمن عرفوا وويل دائم
ولدى الحساب ومشهد الأعراف	فعلى الصراط لنا النجاة بحبهم

بصيرة الحباس الأكبر «عليه السلام»

البصيرة في الدين تلازم قوة الإيمان ملازمة حقيقة لا تنفك عنها لأن الإيمان له مراتب فأدناها مرتبة التصديق بما جاء به النبي ﷺ مع عدم رسوخه في النفس ويطلق عليه الإيمان الضعيف ولذلك إذا حصل له أقل شيء يززع عقيدته وهذا لا يوصف بالبصيرة في الدين لأنه إلى الارتياب أقرب من الاعتقاد الصحيح وقد حكى الله تعالى عنهم ذلك عند الامتحان بالأحزاب في قوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(١) فالذين في قلوبهم مرض أهل الإيمان الضعيف ولهذا قابلهم بالمنافقين الذين لا إيمان لهم فلما ضربوا بالبلاء تزلزل اعتقادهم وقالوا بمقالة أهل النفاق.

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾^(٢) الآية، وهذا الحرف من الإيمان وهو الطرف والجهة الواحدة وهي جهة الرخاء فقط وأما سائر الجهات وهي جهات الأبتلاء والتمحيص فلا يشك معها ويزول إيمانه ويصبح كما قال الله تعالى: ﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ والمتبصر في دينه تام الإيمان من جميع جهاته فكلما زاد البلاء واشتدت المحنة يزداد ثباتاً كما قال تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾^(٣).

فأعلى مرتبة التصديق هو التسليم لكل ما جاء من قبل الله وذلك عند رسوخ العقيدة في النفس فلذلك لا يتزعزع من كل شيء يضطرب منه ضعيف الإيمان ولا يرتاب ولا يشك ولا يتزلزل ولو تظافرت المحن كما قال المقداد بن عمرو لرسول الله ﷺ: لو ضربونا - يعني قريشاً - حتى يبلغوا بنا برك الغماد لعلمنا أنا على حق وهم على باطل.

وكما قال أبو اليقظان عمار بن ياسر يوم صفين: لو ضربونا - يعني أهل الشام - حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا إنا على حق وهم على باطل.

ويسمى صاحب هذا الاعتقاد قوي الإيمان وصلب الإيمان ونافذ البصيرة ومتبصراً في دينه وما شاكل هذا، وهذه المرتبة العليا من الإيمان لأن مراتب

(٢) الحج: ١١.

(١) الأحزاب: ١٢.

(٣) الأحزاب: ٢٢.

الإيمان الراسخ تتفاوت شدة وضعفاً وإن كان أضعفها قوياً متمكناً فتكون في بعض الأشخاص أقوى منها في البعض الآخر مع اشتراكهم جميعاً في قوة الإيمان ورسوخ العقيدة ونفوذ البصيرة نظير اشتراك أفراد الأبيض مع البياض مع تفاوتها في الشدة والضعف وقد جاء في الحديث عن أهل البيت «عليهم السلام»: الإيمان عشر درجات، والمراد بهذا التفاوت إنما هو بالشدة والضعف في المرتبة العالية من الإيمان والتي ليس فوقها إلا درجة اليقين وهي التي لا يصل إليها إلا من كشف له الحجاب وهي مرتبة النبي ﷺ وسائر الأنبياء ومرتبة أهل العصمة من الأئمة الطاهرين «عليهم السلام» وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً، وهذه المرتبة لا يرومها أحد من أهل التوحيد وإن رامها لم يصل إليها فالواصل إليها إما نبي أو وصي نبي.

وحيث أن الإيمان يحتاج كشف حقيقته وبيان ما هو إلى مصنف ضخم لطول الكلام فيه واختلاف الأقوال والآراء تركنا ذلك وأوردنا أبحاثاً لا بد منها توضيح للقارئ حقيقة الإيمان ومعناه لغة وأصطلاحاً، ومعرفته على الدقة الحكيمة تركناه للمطولات.

معنى الإيمان لغة

هو التصديق المجرد، حكى الله عن أولاد يعقوب بقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾^(١) يعني بمصدق، ومن أسماء الله تعالى المؤمن لأنه يصدق أنبيائه بإظهار المعجز على أيديهم في دعوى النبوة.

قال في القاموس: آمن إيماناً صدق والإيمان الثقة وإظهار الخشوع وقبول الشريعة، إنتهى.

هذا قد ذكر المعنى اللغوي والشرعي، قال السيوطي في المزهر^(٢): عن ابن فارس: فكان مما جاء في الإسلام المؤمن والمسلم والكافر والمنافق وإن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان وهو التصديق ثم زادت الشريعة شرائطاً وأوصافاً بها سمي المؤمن بالإطلاق مؤمناً الخ.

قال الشريف الجرجاني في التعريفات^(٣): الإيمان في اللغة التصديق بالقلب.

(٢) المزهر ١/ ١٧٣.

(١) يوسف: ١٧.

(٣) التعريفات: ص ٣٧.

معنى الإيمان شرعاً

في تحقيق معناه الشرعي غموض لكثرة الاختلاف فيه لكن القدر الجامع لجميع الأقوال التي نورد بعضها أن الإيمان هو التصديق الخاص يعني تصديق الأنبياء بجميع ما جاؤوا به من عند الله تعالى وتصديق العقل بأن للخلق خالقاً وهو الله تعالى وإنه واحد عادل حكيم قادر الخ، فهذا هو الإيمان الجامع لبعض التفاصيل التي سنورد بعضها.

فقال الشريف الجرجاني في التعريفات عقيب ما تقدم: الإيمان في الشرع هو الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان، قيل: من شهد وعمل ولم يعتقد فهو منافق، ومن شهد ولم يعمل وأعتقد فهو فاسق، ومن أخل بالشهادة فهو كافر، انتهى.

قال الفاضل النراقي (رحمه الله) في مشكلات العلوم^(١): اختلفوا في حقيقة الإيمان في أنه من العقائد العقلية لا مدخلية للعمل الصالح في مفهومه ومنشأ ظواهر الكتاب وأخبار الحجج الأطياب فنقول: الإيمان لغة مطلق التصديق وشرعاً التصديق بالله سبحانه وتعالى والرسول فيما جاء به من الله الذي هو مفاد كلمتي الشاهدين ولازم تصديق النبوة والأعتراف بجميع ما جاء به النبي ﷺ من أحوال المبدأ والمعاد والأحكام وغيرها فإن إنكارها يرجع إلى إنكار النبي ﷺ وإنكار ما ثبت عنه بالضرورة ينبئ عن إنكار النبي واختلفوا في أن الأعمال الصالحة جزاء له كما عن المعتزلة وجماعة من الإمامية بل ربما قيل إنه مجرد الطاعات ولعل مراده ما يشمل الطاعة القلبية من المعرفة أم لا كما عليه أكثر الأصحاب واختلف في ذلك ظواهر الآيات والأخبار، فمن الآيات ما يدل على المغايرة كقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(٢) الخ، وذكر آيات كثيرة وأحاديثاً كذلك وهو مطول.

والذي يتحصل من ملاحظة المجموع هو الاعتقاد الصحيح بعامة الأقوال الأصلية والفرعية اعتقاداً مطابقاً للعمل فلوا أخل بالعمل مع اعتقاده بصحته وأفتراضه فهو مؤمن عاصي ولهذا قال العلماء في تارك الفرائض: إن تركها لا عن جحود وإنكار يعني يعتقد بوجوبها ولكن تركها تكاسلاً أو تشاغلاً فهو مؤمن ويلزم بأدائها ويعزر على الترك وإن تركها جحوداً وإنكاراً لوجوبها فهو كافر مهدور الدم يستتاب فإن تاب وإلا قتل وهذا الكفر هو كفر الجحود ويفارق الكفر الأصلي بالتلفظ بالشهادتين.

وأما الإقرار القلبي إذا لم يكن مطابقاً للعمل فلا أثر له إذ تعرف صحة الاعتقاد بالمطابقة للظواهر فإن الظاهر كواشف عن الأسرار القلبية فنفس الاعتقاد من الأمور اللبية التي ترسم على لوح القلب ولا يحكم عليها بنفي ولا إثبات حتى تتلبس بقوالبها الحسبية ولهذا قال النبي ﷺ لأسماء يوبخه على قتل مظهر الشهادتين وقد اعتذر أسماء إنه قالها تعوذاً من السيف «هلا شققت عن قلبه» ومعناه أن الظاهر هو الكاشف عن الاعتقاد وعليه يترتب أثر الحكم وما في نفس الأمر لا يعلمه إلا الله فلا يناط به حكم لأنه لا سبيل إليه .

وأما قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا أَيْمَةً الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾^(١) ليس معناه سلب حقيقة الاعتقاد القلبي والأقرار اللساني فإن هؤلاء لهم تشبث ضعيف بالإيمان لكن هذا الإيمان ليس من الإيمان الحقيقي الذي هو العمل بأحكام الله تعالى وإقامة مراسم شرعه فقاتلوهم على تركهم الأحكام ومخالفتهم الشرع فقاتلوهم حتى يدينوا بها ويرجعوا إلى الاعتقاد الصحيح في تنفيذ ما أمر به ونهى عنه وبذلك تحقن الدماء وتحفظ الأموال وتقام مراسم الملة وشعائر الإسلام .

حقيقة الإيمان:

حقيقة الإيمان من الحقائق البسيطة والمفاهيم المفردة وهو الاعتقاد الصحيح لا غير وما عدى ذلك من الأمور فهي من قبيل المصاديق الخارجية .

قال الفاضل النراقي (رحمه الله) في مشكلات العلوم^(٢): لا يبعد أن يفسر حقيقة الإيمان بالهئية النفسانية النورانية والبصيرة القلبية الباعثة على التقوى والطاعة المورثة لحب الله وأوليائه وولاية الأئمة وتلك البصيرة تختلف بالشدة والضعف وسبب حصولها ورسوخها غالباً المواضبة على التفكير في الآيات الآفاقية والأنفسية ومذاكرة آثارة النبوة والإمامة للقلوب الخالية عن الأرجاس الجاهلية والأدناس الدنيوية والوساوس الشيطانية والعلوق في الشهوات الحيوانية المانعة عن ظهور النور الإلهي والرحمة السبحانية فربما يحصل هذا النور والبصيرة للعوالم المنحطين عن درجة العلم والاستدلال العلمي ما يحصل للحكيم الفلسفي والمتكلم الأوحدي مع تدبرهم وتماديهم في العلوم الرسمية والاستدلالات الدقيقة لرعايتهم آداب الشريعة ومواظبتهم لخلوص النية كما هو المعهود من طريقة النبي ﷺ في هداية المؤلفين لقلوبهم وتلك البصيرة حيث حصلت تزداد بالأعمال

(١) التوبة: ١٢.

(٢) مشكلات العلوم: ص ٣٧٢.

الصاحلة كما ورد في الأخبار المستفيضة كقوله «عليه السلام»: العلم والعمل متوارثان.

وكيف كان فأدنى مراتب الإيمان وأقربها إلى الكفر عدم المبالاة بالمعاصي وترك الفرائض وارتكاب الكبائر الموجبة للفسق جداً إن لم يبلغ مبلغ المخالفة الكلية في أصول الإسلام التي بني عليها ولا ناشئاً عن الاستخفاف المنافي للعقيدة القلبية بل لغلبة الهوى والركون إلى الدنيا وأتباع الشهوات ومثله مؤمن فاسق إذا لم يفسد عقائده الإيمانية وولايته أهل بيت النبوة ولا يخلد في النار وعاقبته إلى الجنة بعد استيفاء ما يستحق من العقوبة، وفي بعض الأخبار البشارة لموالي أهل البيت «عليهم السلام» بالجنة وإن كان عاقاً لوالديه وشارباً للخمر ومرتكباً لكبائر الذنوب ومنع تسميته فاسقاً بل سمي فعله فسقاً ونفسه طيبة بشرط رسوخ الولاية في قلبه بحيث لا يزول وإن قطعت أعضاؤه ويشير إليه قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾^(١) حيث جعل الفاسق مقابل المؤمن الخ.

الفرق بين الإسلام والإيمان

وما بينهما من الرابطة وأيهما المقدم رتبة، رأى جماعة من أرباب المعرفة اتحاد مفهوم الإيمان والإسلام واختلاف بينهما بحسب إطلاق اللفظ فليس التغاير بينهما حقيقياً نظراً إلى ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٢) وفسروا الدين بالإيمان، والتحقيق كما هو رأي أكثر المحققين أن الإيمان غير الإسلام والتغاير بينهما حقيقي لا اعتباري كما زعم من ادعاه والإيمان أخص من الإسلام، والإسلام أعم مطلقاً من الإيمان، والأخص غير الأعم، فكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيمان، والأخص وإن كان بعض أفراد الأعم إلا أنه غيره وإلا لساراه مثال ذلك الحيوان الجامع للإنسان وغيره يباين الإنسان في أكثر الصور كصدقه على الفرس وبها يباين الإنسان فيقال: هذا الحيوان ليس بإنسان.

فالإسلام حقيقة لمن تلفظ بالشهادتين وأظهر كلمتي التوحيد وهما «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ» وعلى الإسلام تترتب أحكام كثيرة منها حرمة دمه وحرمة ماله وجواز دفنه في مقابر أهل الإسلام وسقوط الجرائم التي عملها في الكفر وطهارة سوره وليس ذلك تنجيس سوره لأن الإسلام قد طهره فيكون حكمه حكم منافقي زمن رسول الله ﷺ فقد كان يساورهم ويساورونه

ويشهدون معه المغازي ولم يقيم على قبر واحد منهم ولا أستغفر له بعد أن نزل عليه النهي عن ذلك وهذه أمور معروفة نطق بها القرآن وشرحتها الأحاديث الصحيحة.

أما الإيمان؛

فهو الاعتقاد بكل ما جاء به النبي ﷺ من عند الله فمن جحد بعضها فهو غير مؤمن، وعلى صحة الاعتقاد يتضاعف الأجر وتعلو درجاته وتحصل له التكرمة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ﴾^(١) وقد قسم رسول الله ﷺ في بعض غزواته الغنائم في من أسلم خاصة وترك جماعة المؤمنين إلا رجلين منهم سهل بن حنيف لشدة حاجته، وقال فيمن ترك من المؤمنين أوكلت هؤلاء إلى إيمانهم، فدل أن الإيمان إذا رسخ في القلب لم يرى صاحبه فعل الشارع إلا حكمة ومصلحة فلا يرتاب أرتياب من لم يرسخ الإيمان في عقيدته وهو صاحب الإسلام المجرد كما قال العباس بن مرداس السلمي وقد كان مسلماً غير مؤمن يرد على رسول الله ﷺ قسمته الإبل بين عينية بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري والأقرع بن حابس التميمي وكانا مثله ضعيفي الإيمان فزادهما عليه في العطية فسخط ذلك وقال:

أتجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع
فما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع
وما كنت دون أمرئ منهما ومن تضع اليوم لم يرفع

القصة المشهورة فالمؤمن يرضى له وعليه وقد ذكر الله تعالى ذلك في كتابه المجيد فبين أن المسلم سريع الانقلاب إلى الكفر والمؤمن ثابت على دينه فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(٢) دلت هذه الآية الشريفة أن أهل الإسلام بمعرض الارتداد بعد موت النبي ﷺ وإنهم ينقلبون إلى الكفر بخلاف أهل الإيمان فإنهم لا يرتدون عن دينهم فهم ثابتون صابرون عليه مع كل فتنة فاستحقوا عند الله الجزاء لصبرهم على دينهم وأعتبر ذلك فيما جاء في الآثار:

ففي غزوة أحد لما أنكسر أصحاب النبي ﷺ وصاح إبليس: قد قتل محمد،

(٢) آل عمران: ١٤٤

(١) الحجرات: ١٣.

قال جماعة: ليت لنا من أبي سفيان أماناً، وقال سعد بن الربيع الأنصاري: إن كان محمد ﷺ قد مات فإن رب محمد لم يمت ثم جرد سيفه فقاتل حتى قتل، وقال الله تعالى في أمير المؤمنين علي وحمزة وعبيدة: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا﴾^(١) فأثبت لهم عدم التبديل.

وقد فرق الله تعالى بين الإسلام والإيمان بقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(٢) الآية، وقد ورد الحديث به من طريق أصحابنا عن أئمتنا «عليهم السلام» وهو كثير ومنه ما حدث به ثقة الإسلام الكليني في أصول الكافي^(٣) عن سماعة قال: قلت لأبي عبد الله جعفر الصادق «عليه السلام»: أخبرني عن الإسلام والإيمان أهم مختلفان؟ فقال: إن الإيمان يشارك الإسلام والإسلام لا يشارك الإيمان. فقلت: فصفهما.

فقال «عليه السلام»: الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والتصديق برسول الله ﷺ به حققت الدماء وعليه جرت المناكح والمواarith، وعلى ظاهره جماعة الناس، والإيمان الهدى وما ثبت في القلوب من صفة الإسلام وما ظهر من العمل، والإيمان أرفع من الإسلام بدرجة لأن الإيمان يشارك الإسلام في الظاهر والإسلام لا يشارك الإيمان في الباطن وإن اجتمعا في القول والصفة، انتهى. وفي معناه غيره وهو دليل على ما قلناه من أن الإيمان أخص من الإسلام. وعن أبي بصير عن أبي جعفر الباقر «عليه السلام» قال: سمعته يقول: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾^(٤) فمن زعم أنهم آمنوا فقد كذب ومن زعم أنهم لم يسلموا فقد كذب، انتهى.

وبهذا المضمون كثير من الروايات من طريق أهل البيت وفي معناه أقوال المحققين من أهل السنة، ورووا في تفسير الإيمان روايات كثيرة معناها أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان.

قال أبو حنيفة النعمان أحد أئمة المذاهب في رسالة الفقه الأكبر: الإيمان هو الإقرار والتصديق وإيمان أهل السماء والأرض لا يزيد ولا ينقص من جهة المؤمن به ويزيد وينقص من جهة اليقين والتصديق، والمؤمنون مسئولون في

(٢) الحجرات: ١٤.

(٤) الحجرات: ١٤.

(١) الأحزاب: ٢٣.

(٣) أصول الكافي: ص ٢٤١.

الإيمان والتوحيد، متفاضلون في الأعمال، والإسلام هو التسليم والانقياد لأوامر الله تعالى، فمن طريق اللغة فرق بين الإيمان والإسلام لكن لا يكون إيمان بلا إسلام ولا يوجد إسلام بلا إيمان وهما كالظهر مع البطن، والدين اسم واقع على الإيمان والإسلام والشرائع كلها، إنتهى.

وفي قوله «لا يوجد إسلام بلا إيمان» ردّ على الله حيث قال في صفة الأعراب ما سمعت، وعلى رسوله حيث قال «من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله قبلناه وحسابه على الله» فوجود الإسلام بدون الإيمان بديهي.

ولأحمد بن حنبل كلام مطول مضمونه التفرقة بين الإيمان والإسلام ويحتج بالآية السابقة في الأعراب راجعه في كتاب الصلاة لابن القيم^(١)، ويقول فيه: قال أحمد: من أتى هذه الأربعة أو مثلهن أو فوقهن يريد الزنا والسرقة وشرب الخمر والانتهاج فهو مسلم ولا أسميه مؤمناً، ومن أتى ذلك يريد دون الكبائر سميته مؤمناً ناقص الإيمان.

وقال الشريف الجرجاني في التعريفات^(٢): الإسلام هو الخضوع والانقياد لما أخبر به الرسول، وفي الكشف: إن كلما يكون الإقرار باللسان من غير مواطاة القلب فهو إسلام، وما واطئ فيه القلب اللسان فهو إيمان، أقول: هذا مذهب الشافعي، وأما مذهب أبي حنيفة فلا فرق بينهما، إنتهى.

وأما الشيعة فقد قال الفاضل النراقي (رحمه الله) في مشكلات العلوم^(٣): وأما الإسلام فلا خلاف في أنه أعم من الإيمان ويصدق على مجرد الإقرار باللسان بالشهادتين والعمل بالأركان وإن لم يصدق العمل ثم أورد الآية الشريفة وقال: وصدق المقال في مطاوي الظواهر والنصوص والتتبع في كلمات الفقهاء ولا يبق معه الريب في أن حقيقة الإيمان هي مجرد المعرفة القلبية ويعضده التبادر وعدم صحة السلب والموافقة لمعناه اللغوي ولو بالعموم والخصوص وتفسيره في جملة من النصوص بما يقترن بالعمل بنفس العمل فهو من باب التعريف باللازم فإن الإيمان الواقعي لا ينفك غالباً مطرداً عن العمل بالأركان للإسلام وعد أتباعه مع الإفراط في الكبائر من غير مبالاة وعدم التهيؤ للتوبة وما هو إلا كالعالم بالسم يحذر من أكل السم الخ.

فقد استبان أن الإسلام والإيمان بينهما العموم والخصوص المطلق فكل إيمان إسلام ولا عكس.

(١) الصلاة لابن القيم على مذهب أحمد: ص ٨٤ طبع مصر سنة ١٣٢٣.

(٢) التعريفات: ص ١٤. (٣) مشكلات العلوم: ص ٣٠١.

دعائم الإيمان وأركانه

والدعامة ما يدعم به الشيء ويكون مستنداً عليه وقائماً فيه كما قال الشيخ محسن أبو الحب الكربلائي في مدح أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب «عليه السلام»:

ولكل بيت في الوجود دعامة ودعامة الإسلام حيدر فأعقلوا
وكأنه يشير إلى قول ابن أبي الحديد المعتزلي:

فلولا أبو طالب وابنه لما مثل الدين شخصاً فقاما

ودعائم الإسلام نوعان: نوع يسمى بالأصول ونوع يسمى بالفروع؛ فدعائم الإسلام هي الاعتراف بالوحدانية والنبوة والبعث وهو المعاد الجسماني فمن أنكر واحداً منها فليس بمسلم، وأما العدل والإمامة فهما من أصول الإيمان فمن جحدها فليس بمؤمن، وما عدى هذه الخمسة من ضروريات الإسلام فهي فروع كلها كالفرائض الصلواتية والحج والزكاة والخمس والصوم والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي بعض الروايات عد الإمامة في الضروريات الفرعية التي هي أركان الإسلام كما في حديث أبي حمزة عن الإمام الباقر «عليه السلام» المروي في الكافي لثقة الإسلام الكليني^(١) نص الحديث:

قال «عليه السلام»: بني الإسلام على خمس: على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية ولم ينادي بشيء كما نودي بالولاية، إنتهى.

ومثله حديث الفضيل عن الباقر «عليه السلام» وزاد فيه: فأخذ الناس بأربع وتركوا واحدة - يعني الإمامة - إنتهى.

أما حديث عجلان بن أبي صالح عن الإمام الصادق «عليه السلام» فعد الأصول هكذا بنص الحديث: قلت لأبي عبد الله «عليه السلام»: أوقفني على حدود الإيمان، فقال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله والإقرار بما جاء به من عند الله، والصلوات الخمس، وأداء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت، وولاية ولينا، وعداوة عدونا، والدخول مع الصادقين، إنتهى.

ورتبها الإمام الصادق «عليه السلام» في رواية زرارة: الولاية أولاً ثم الصلاة ثانياً لأنها عمود الدين، ثم الزكاة ثالثاً لأن الله تعالى قرنهما بصلاة، وبدأ بها، ثم

(١) أصول الكافي: ص ٢٣٨.

الحج رابعاً، ثم الصوم خامساً لأنه جنة من النار، ومن أراد الزيادة فليراجع الكافي وغيره من كتب علمائنا.

أنواع الإيمان

وجوه تنوع الإيمان بالنسبة إلى ما يضاف إليه وإلا فهو نفسه بسيط نعم يقبل الشدة والضعف.

قال الشريف الجرجاني في التعريفات^(١): الإيمان على خمسة أوجه: إيمان مردود؛ فالإيمان المطبوع هو إيمان الملائكة، والإيمان المعصوم إيمان الأنبياء، والإيمان المقبول هو إيمان المؤمنين، والإيمان الموقوف هو إيمان المبتدعين، والإيمان المردود هو إيمان المنافقين، إنتهى.

ويمكن أن يرد هذا التنوع إلى نوعين فيقال: إيمان مقبول وإيمان مردود؛ فالمقبول هو الثلاثة الأولى، والمردود الأخيران، ولا معنى للفرقة بين الأنبياء والملائكة فإن أراد إن الله تعالى خلقهم مؤمنين وجبلهم على الإيمان فالأنبياء والملائكة سواء، وإن أراد إنه مأمون من التغيير والتبديل بالملائكة والأنبياء سواء وهو في الأنبياء أقوى لأن الله لا يرسل نبياً غير مطبوع على الإيمان معصوم من الارتباب فإن ذلك ينافي النبوة، وأيضاً لم نسمع أن نبياً زال عن الإيمان كما سمعنا أن ملكاً زال فیتلوا كتاب الله قصة هاروت وماروت وتعليمهما السحر والسحر كفر، ويسميهما ملكين ويحكي عنهما إنهما يقولان: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾^(٢) فكانا باباً للكفر فليدلنا الجرجاني على نبي بهذه الصفة ولكن الجرجاني وأهل مذهبه الذين يثبتون صدور الذنوب من الأنبياء ولا يثبتونها للملائكة يقولون بهذا القول الساقط.

ثمرات الإيمان وقوائده

وهي كثيرة متنوعة يجمعها العلم والعمل وهو الذي نطقت به أحاديث أئمتنا «عليهم السلام» منها ما رواه ثقة الإسلام الكليني في الكافي^(٣) عن محمد بن مسلم، وفي جملة الحديث عن الإمام الصادق «عليه السلام» قال: قلت له: العمل من الإيمان؟ قال: نعم، الإيمان لا يكون إلا بعمل، والعمل منه، ولا يثبت الإيمان إلا بعمل، إنتهى.

(٢) البقرة: ١٠٢.

(١) التعريفات: ص ٢٧.

(٣) أصول الكافي: ص ٢٤٨.

وكنا ذكرنا عن الحافظ العزيزي الحنفي فصلاً في أعمال الإيمان تركناه، والثمرات نوعان: دنيوية وأخرية: أما الدنيوية فكثيرة وترجع إلى أمرين تهذيب النفس عن الشرور بما يوجب صفاتها الباطني بحيث تكون مصقولة لتكون صادقة الحدث، قال عليه السلام: أتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله، وتكون صادقة الرؤيا، قال عليه السلام رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزءاً من النبوة.

وبما يوجب طهارة الظاهر من دنس الأخلاق المذمومة فإذا تمت التصفية ببوتقة الإيمان أكتسب أبريزها الصافي كمال الحمد والفخر وهذه أعظم ثمرة يسعى الحر الكريم لتحصيلها.

وأما ثمرات الآخرة فكثيرة أيضاً منها إنها تهون سكرات الموت، وقد ورد ذلك في حديث سلمان الفارسي ورواه أبو عمرو الكشي وإن ملك الموت قال لسلمان: إني بكل مؤمن رفيق، وفي الباب أحاديث كثيرة كلها تدل على سهولة الموت على المؤمن حتى ورد في بعض المؤمنين أن وجوههم تشرق عند الموت ويعلوها الإبتهاج والسرور وبعضهم يضحك عند الموت.

ومن ثمرات الإيمان المهمة كرامة المؤمن على الله حتى أنه لو أقسم على الله لأبر قسمه، ففي الحديث النبوي: رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه أحد لو أقسم على الله لأبر قسمه، وقد بلغ من كرامة المؤمن على الله أنه يكره مسأته بالموت كما في الحديث القدسي: ما ترددت في شيء كترددتي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مسأته، وليس التردد هنا حقيقة كما هو فينا لا ندري نفعل أم نترك يخفي علينا الرجحان بل مجاز ومعناه أن الله تعالى لا يعاجل عبده المؤمن بالموت البغيض بالطبع حتى يكون هو الذي يشاق إليه لأجل الخلاص من سجن الدنيا والوصول إلى دار البقاء فعبر عن هذا التأخير لظهور أمارات الرضا بالموت للعبد المؤمن بالتردد، ولا نطيل عليك بتفاصيل ثمرات الآخرة فقد ورد الحديث أن الدنيا تعطى بأسرها لأقل المؤمنين ثواباً فيسخطها، فإذا كان أقل المؤمنين ثواباً لا يرضى بالدنيا ثواباً له فأَي ثمرة أعظم من هذا.

دلائل الإيمان وعلاماته

للإيمان علامات ودلائل كثيرة:

منها راجعة إلى الصفات النفسية نحو الرضا بما قسم الله والتسليم لما قضى الله والشكر على ما أنعم.

ومنها راجعة إلى الصفات البدنية فبأن تظهر عليه سمات شحوب الاجتهاد في العبادة كذبول الشفة وصفرة اللون وعمش العين من السهر واحد يداب الظهر من طول القيام ونحول الجسم من التعب وقلة التغذية زهداً وقد ذكر علامات هذين النوعين مولانا أمير المؤمنين «عليه السلام» عن رسول الله ﷺ .

قال أبو الفتح الكراجكي (رحمه الله) في كنز الفوائد^(١) في كتاب محاسن البرقي قال: مر أمير المؤمنين «عليه السلام» بمجلس من مجالس قريش فإذا هو يقوم بيض ثيابهم صافية ألوانهم كثير ضحكهم يشيرون بأصابعهم إلى من مر بهم ثم مر بمجلس للأوس والخزرج فإذا هو يقوم بليت منهم الأبدان ورقت منهم الرقاب وأصفرت الألوان وطبعوا بالكلام، فتعجب أمير المؤمنين «عليه السلام» من ذلك ودخل على رسول الله ﷺ فقال له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! مررت بمجلس لآل فلان ثم وصفهم وقال: جميعهم مؤمنون، فأخبرني يا رسول الله بصفة المؤمن.

فنكس رسول الله ﷺ رأسه ثم رفعه فقال: يا علي! عشرون خصلة في المؤمن من لم تكمل فيه لم يكمل إيمانه: إن من أخلاق المؤمنين الحاضرون الصلاة، والمسارعون إلى الزكاة، والمطعمون للمساكين، والماسحون على رأس اليتيم، والمطهرون أظفارهم، والمسررون على أوساطهم، الذين إذا أحدثوا لم يكذبوا، وإن وعدوا لم يخلفوا، وإن أئتمنوا لم يخونوا، وإن تكلموا صدقوا، رهبان بالليل، أسد بالنهار، صائمون النهار، قائمون الليل، لا يؤذون جاراً، ولا يتأذى بهم جار، الذين مشيهم على الأرض هوناً، وخطاهم إلى المساجد وإلى بيوت الأراامل وعلى أثر المقابر، جعلنا الله وإياكم من المتقين، إنتهى.

وذكر لأمر المؤمنين «عليه السلام» كلاماً في صفة المؤمنين قاله لنوف البكالي شبيهاً بهذا ذكرناه في المسودة وتركناه هنا للاختصار ورواه الشريف الرضي في نهج البلاغة وحسبك خطبته التي قالها لصاحبه همام النخعي فراجعها.

درجات الإيمان

وهذه الدرجات غير ما ذكرنا أولاً فإن تلك مراتب بحسب القوة والضعف وهذه درجات ومراقي يصعد منها درجة درجة حتى ينتهي إلى أعلا درجة في الإيمان كما في الحديث الإيمان عشر درجات منزلة السلم وهذا إنما يكون من طريق المعرفة لأن الإيمان يكون فطرياً مرة كإيمان الملائكة ومكتسباً أخرى كإيمان

(١) كنز الفوائد: ص ٢٩.

المكلفين من الإنس والجن وجامعاً للوصفين كإيمان الأنبياء والأوصياء وهو أعلاها وأرفعها درجة ثم للمعرفة من طريق الاكتساب والتحصيل طرق عديدة منها التقليد المحض كإيمان العامي ومنها الأجتهد المحض كإيمان العالم ومنها المركب من الأجتهد والتقليد، وأعلاها درجة الأجتهد، ومن هنا نتصور درجات كثيرة وقد حصرها الفاضل النراقي (رحمه الله) في أربع درجات نصه في مشكلات العلوم^(١): وتفصيل الكلام في كليات مراتب المعرفة الإيمانية لها أربعة درجات كما للتوحيد:

الأولى: المعرفة التقليدية وهي الجزم الحاصل من التقليد للغير كإيمان الأكثر من العوام المؤمنين والمنحطين عن درجة الاستدلال، ويشير إليه قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾^(٢) فإن الارتياب يحصل غالباً في الاقتحام في الأدلة الجدلية وشبهات أهل النظر والمتكلم بها قد ينجر إلى زوال الأطمئنان واختلاج الشكوك، ثم قال: وبالجمله هذا الجزم كاف في صدق الإيمان وصحة العمل.

الثانية: المعرفة العقلية وهي الحاصلة من البراهين القياسية والأدلة القطعية الحكمية وإن كانت خالية عن آثاره القلبية وعن الإيمان بالغيب حيث أنه تصديق من وراء حجاب مجرداً عن ضياء وصفاء.

الثالثة: المعرفة القلبية المقترنة ببصيرة نورية ومحبة روحانية وحالة شوقية وهي أمانة الكمال المتأثر به القلب وينشرح به الصدر وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٣) فالهداية السابقة بدلالة العقل وهنا بنور القلب.

الرابعة: المعرفة الشهودية وهي التصديق الحاصل من شهود التجليات الإلهية والإشراقات الصمدانية والاستغراق في بحار الأنوار الجبروتية حيث ينسلخ من إدراك الكيفية ونفسه ويسير إلى هذا المقام الخ.

وإذا عرفت هذه الدرجات فأعرف أن درجة العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» هي الرابعة وهي العليا لأن الإمام «عليه السلام» أثبت له أمرين قوة الإيمان والبصيرة التي هي الدرجة الثالثة، وأثبت هو لنفسه كما عرفت في علمه

(١) مشكلات العلوم: ص ٣٠٤.

(٢) الأنفال: ٢ - ٤.

(٣) الحجرات: ١٥.

درجة صدق اليقين ومعلوم أن من تجاوز الثالثة وأتجه بسيره إلى الرابعة وصلها بسيره الحثيث ولا خفاء على العارف أن المؤمن إذا سرى الإيمان في جميع جوارحه وأنبت في عامة أعضائه وخالط لحمه ودمه أستغرق في حب الله تعالى وفنى إحساسه في حب الذات الصمدية فليس يرى في الوجود إلا الله ولا يشعر بغير كمالاته تعالى فإن الحب الصحيح يوجب الاستغراق ويستولي على كيان الشعور ويستلب المشاعر والحواس.

فقد ذكر المؤرخون إن قيساً المجنون كان يحز يده بالسكين ولا يشعر حتى أدمها وإنه يقلب الجمر بكفه ولا يحس حتى احترقت وإنه صب ظرفين من سمن وعسل على قدميهما ولا يشعران راجع تزيين الأسواق والدر المنثور وغيرهما. والمروي في محبة زليخا ليوسف الصديق أنها إذا قطرت من دمها قطرة تشكلت يوسف كأنها خطت بقلم.

فالمؤمن إذا أستغرق غاب عنه الحس وإذا قام المؤمن بواجبات التكاليف التي كلفت بها أعضاؤه الباطنية والظاهرية فقد وصل الدرجة العليا وهي الرابعة فيما رواه النراقي والعاشرة في الحديث المشهور الإيمان عشر درجات، وفي بسط الإيمان على الجوارح حديثان رواهما الكليني في الكافي أحدهما عن أبي عمرو الزبيري عن الإمام الصادق «عليه السلام» ذكرناه في المسودة وتركناه لأجل الاختصار، أنظره فيه^(١).

البصيرة في الدين وهي ثمرة الإيمان

وهي كناية عن المعرفة الصادقة بحقيقة الإيمان والإحاطة التامة بجميع ما يقوم به الدين ويشاد به الإسلام والأطلاع والخبرة بضلالة المضل وباطل المبطل من أي طريق كان سواء كان من طريق الكشف كمعرفة النبي ﷺ والأئمة «عليهم السلام» أو الاستناد إلى الوحي كما هو حال الأنبياء والأوصياء وهنا يختلف الحكم بين النبي والإمام فإن النبي يأخذ العلم بواسطة واحدة وهي عن جبرئيل «عليه السلام» والإمام يأخذه بواسطة النبي ﷺ عن جبرئيل «عليه السلام» ثم المصدر له العلم الإلهي وهذا معنى قول مولانا أمير المؤمنين «عليه السلام»: علمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب، وقوله «عليه السلام» مشيراً إلى صدره الشريف: هذا سبط العلم، هذا لعاب رسول

(١) أصول الكافي: ص ٢٣٨.

الله ﷺ، وقوله «عليه السلام» ما من فئة تهدي مائة أو تضل مائة إلا وأنا عالم بسائقها وقائدها وناعقها، وعلى هذا وقعت جميع إخباراته الصادقة كإخباره بإمرة مروان الحكم كقوله: دعوه عليه لعنة الله إن له إمرة كلعة الكلب أنفه، وكإخباره بدولة عبد الملك وولده وقوله أبو الأكبش الأربعة، الويل لأمة محمد منه ومن بنيه، وقوله فيه: يفحص ضليل براياته في كوفان وقوله في معاوية: يجتمع أمر الأمة على مندحق البطن واسع البلعوم، وقوله في الحجاج بن يوسف أبو وذحة وأمثال ذلك مما هو مشهور، ومن كانت له هذه الأوصاف فله في رسوخ الإيمان وقوة البصيرة في الدين ما لا يقاس به أحد من الناس مهما كان ونحن لسنا بصدد هذا المعنى فإن هذا المضمار لا تجري فيه إلا تلك السوابق وهذه الغاية لا تحرزها إلا تلك المذاكي وهذا الأمد لا تصله إلا تلك الجياد.

بل جلّ أهتمامنا بإثبات البصيرة الكسبية التي تحصل من الاختبار والخلطة أو من ظواهر الأدلة السمعية ولو من جهة ظهور المعجز فإن هذه الأسباب لها الأثر التام في رسوخ العقيدة ونفوذ البصيرة، ويشهد للتبصر المسبب عن الخلطة والمعاشرة التي بسببها يقوي الاعتقاد بصلاح الصالح وضلالة المضل ما قاله مولانا أمير المؤمنين «عليه السلام» لأصحابه الذين صاروا خوارج فيما بعد وقد أسترابوا بحمل أهل الشام المصاحف ورفعها على رؤوس الرماح يدعون حيلة ومكرًا إلى حكم القرآن وخديعة لضعفاء الإيمان والعقول من أهل العراق فأنخدع بها أهل الإيمان الصوري والديانة القشرية فقالوا: يا علي! أجبهم إلى حكم القرآن وإلا فارقناك، فقال: ويحكم يا أهل الجباه السود! قد كنا نظن أن صلاتكم عبادة، ويلكم إن معاوية وعمرو بن العاص والوليد وابن أبي سرح ومروان ليسوا بأصحاب دين ولا أهل قرآن قد صحبتهم رجالاً وأطفالاً فكانوا شر أطفال وشر رجال: أنا أعرف بهم منكم فلم يقنعوا.

ومن البصيرة التي سببها الاختبار هرب جماعة من أصحاب معاوية إلى أمير المؤمنين «عليه السلام» وإنما قادتهم إليه البصيرة في الدين إذ هو لم يكن مثل معاوية يعطي الأموال يستميل بها قلوب الناس إليه حتى يقصد للطمع والرغبة في الدنيا فيقال: قصدوه للأطماع لأنه مشهور بحرمان الأشراف من أموال المسلمين وليس لهم عنده سوى أعطياتهم وحقوقهم ولو أعطى أحداً زائداً على حقه لأعطى عقيلاً أخاه فليس لحق من لحق به إلا للبصيرة في الدين فإن الحق معه والنجاة في جانبه.

وقد تكون البصيرة بسبب إخبار الصادق كما هو شأن أهل الإيمان الذين تلقوا ذلك بعين صافية عن صادق كعمار بن ياسر ومقداد بن عمرو، وهذا النمط من أهل البصائر وقد يكون سبب البصيرة التواتر كالتبصر في حال يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد وأضرابهم.

وقد يكون سبب البصيرة أشتهار الشخص بالأستهانة بالدين وعدم المبالاة به كما هو المشهور من حال معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان؛ فالأول ينهى عن استعمال أواني الذهب ويقال له^(١): نهى عنها النبي ﷺ فيقول: أما أنا فلا أرى بذلك بأساً، فيقول له القائل: يا عجباً منك يا معاوية أخبرك بقول رسول الله ﷺ وتخبرني برأيك! لا أساكنك في بلد، والثاني منهما يقول لسعيد بن المسيب: صرت أعمل الخير فلا أسر به وأعمل الشر فلا أساء به، فيقول له سعيد: الآن تكامل فيك موت القلب.

وقد يكون سبب البصيرة نقل من له الوثاقة فينقل الزندقة عن شخص كما نقل الثقة عن هشام بن عبد الملك وسروره بقول الشامي الزنديق: أنت خليفة الله ومحمد رسوله وخليفة الشخص أفضل من رسوله.

وهذه الطرق كلها تفيد العلم؛ أما التواتر فأمره ظاهر، وأما الشهرة فإلى التواتر ترجع حيث لا معارض لها، وأما خبر الثقة فلا حتفاه بالقرائن الحالية أو المقالية يفيد مفاد التواتر وإن تعرى عن القرائن أفاد الظن القوي بالصدق بل يفيد العلم إذا خلى عن المعارض، وأما خبر الصادق فهو أعلا الكل لأنه مستند إلى أمر سماوي يكشف عن الأسرار لأن المنافق ربما تستر والفاسق ربما أستعان على فسقه بالكتمان وقد فضح القرآن المجيد منافقي أهل المدينة ونشر أعمالهم التي تستروا بها.

ومن هذا القبيل صح لعمر بن الخطاب وكان ولي حابس بن سعد الطائي بعض الولايات فجاءه يوماً فقال: رأيت كأن القمر جاء من المغرب في جميع عظيم وجاءت الشمس من المشرق في جمع عظيم فأقتلا، فقال له: مع من كنت أنت؟ قال: مع القمر، قال: مع الآية المحمودة والله لا تلي لي عملاً فعزله فقتل مع معاوية بصفين؛ رواه الحلبي الشافعي وغيره.

ومن هذا الباب صح لعثمان أن يقول لابن الزبير وقد أشار عليه أن يلحق

(١) القائل له عبادة بن الصامت الأنصاري.

بمكة فقال عثمان: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يلحد بمكة كبش من قريش اسمه عبد الله عليه نصف عذاب أهل النار، ظهر مصداق ذلك أخيراً لما ألحد ابن الزبير بمكة وأستغوى طغماً وأدعى الخلافة بزعم الوصية من عثمان، ولما أنشب بالخلافة أظفاره وعض عليها بنواجذ الحرص والجشع تكشفت سريرته وعرفت نيته فإنه قطع الصلاة على رسول الله ﷺ أربعين جمعة لم يذكره في خطبه ولم يصلي عليه وجمع ذرية رسول الله ﷺ وأراد إحراقهم بالنار، وتفصيل ذلك في ترجمته من كتابنا «الميزان الراجح».

ومن التجارب والخلطة نفذت بصائر أصحاب أمير المؤمنين «عليه السلام» وصحت عقائدهم في عدله وفضله وإن فارقه بعضهم لأمر دنيوية فقاموا في مجلس معاوية خصمه الكاشح وعدوه الألد فلم يرهبوا سطوته ولا خافوا بطشه وهم في عاصمته بين أعوانه وجنوده مثل خالد بن المعمر السدوسي وضرار بن ضمرة الضبائي والأحنف بن قيس وجارية بن قدامة التميميان والوليد بن جابر الطائي وطارق بن عبد الله النهدي وغيرهم من الرجال، ومن النساء الزرقاء وأم عمارة وأمثالهما ممن ذكرنا أخبارهم وأخبارهن في «الميزان الراجح».

معنى البصيرة لغة:

هي المعرفة عند أهل اللغة، قال ابن الأثير في النهاية: على بصيرة أي على معرفة من أمرهم ويقين.
وقال الفيروز آبادي في القاموس: وبصيرة عقيدة القلب والفطنة الخ.

معناها العامي:

العوام يتكلمون بها ولا يعرفون تفسيرها ولكننا نفسرها لهم فإننا نسمعهم يقولون: آل فلان عدهم بصيرة بكسر الصاد يعني رأي ومشورة، ويقول بعضهم لمن يرتاب به: أوجب أبصرك يعني أوضح لك وأبينك لك ما تشك به، ويقولون: فلان عنده بصيرة أيضاً بكسر الصاد يعني رأي دقيق مصيب.

معناها العقلي والشرعي:

تفسير القاموس يوافق معناها العقلي، والمعنى الشرعي للبصيرة هو الاعتقاد الراسخ والعقيدة الثابتة وهو مفاد العلم الحاصل من أحد الأسباب التي ذكرنا، والمعنى الشرعي والعقلي لا يختلفان إلا كنسبة النور إلى أثره فإن النور ضياء محض أثره الاستضاءة فالعقيدة الصادقة تؤثر الرسوخ المعبر عنه بالنور القلبي عند أهل العرفان.

قال الشريف الجرحاني في التعريفات^(١): البصيرة قوة للقلب المنور بنور القدس يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها بمثابة البصر للنفس يرى بها صور الأشياء وظواهرها وهي التي يسميها الحكماء العاقلة النظرية والقوة القدسية الخ.

وقال فخر الدين الطريحي (رحمه الله) في مجمع البحرين^(٢) في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٣) أي حجة مبينة وأحدها بصيرة وهي الدلالة يستبصر بها الشيء على ما هو به وهو نور القلب كما أن البصر نور العين سميت بها للدلالة لأنها تجلي القلب ويبصر بها، إنتهى.

إن للقلب عيون نورانية أنفذ شعاعاً من شعاع البصر ولهذا وصفها الله تعالى بالعمى حيث قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(٤) وقال الشاعر:

قلوب العاشقين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرون

وقال عبد الله الأنصاري في منازل السائرين: قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾^(٥) البصيرة ما يخلصك من الحيرة، إنتهى.

وكلامه هذا يدل عليه كثير من الآثار منها ما ذكره نصر بن مزاحم في كتاب صفين^(٦): خرج حجر بن عدي وعمرو بن الحمق يظهران البراءة واللعن من أهل الشام، فأرسل إليهما علي «عليه السلام» أن كفا عما يبلغني عنكما، فأتياه فقالا: يا أمير المؤمنين! ألسنا محقين؟ قال: بلى، قالوا: ففيم منعت من شتمهم؟ قال: كرهت لكم أن تكونوا لعانين شتامين تشتمون وتبرؤون ولكن لو وصفتهم مساوي أعمالهم فقلت من سيرتهم كذا وكذا ومن عملهم كذا وكذا كان أصوب في القول وأبلغ في العذر وقلت مكان لعنكم إياهم وبرائتكم منهم: اللهم أحقن دماءنا ودمائهم وأصلح ذات بيننا وبينهم وأهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق منهم من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان من لج فيه كان هذا أحب إلي وخيراً لكم، فقالوا: يا أمير المؤمنين! نقبل عظمتك ونتأدب بأدبك.

وقال عمرو بن الحمق: إني والله يا أمير المؤمنين ما أجبته ولا بايعتك على قرابة بيني وبينك ولا إرادة مال تؤتينيه ولا التماس سلطان ترفع به ذكري ولكني أحببتك لخصال خمس: إنك ابن عم رسول الله ﷺ، وأول من آمن به، وزوج

(١) التعريفات: ص ٣١.

(٢) مجمع البحرين: ص ٢٥٦ طبع تبريز.

(٣) الأنعام: ١٠٤.

(٤) الحج: ٤٦.

(٥) يوسف: ١٠٨.

(٦) وقعة صفين: ص ٥٥ طبع إيران.

سيدة نساء العالمين فاطمة، وأبو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله ﷺ، وأعظم رجل من المهاجرين سهماً في الجهاد، فلو أني كُلّفت نقل الجبال الرواسي أو نزع البحور الطوامي حتى يأتي عليّ يومي في أمر أقوي به وليك وأوهن به عدوك ما رأيت أني قد أتيت كل الذي يحق عليّ من حَقِّك.

فقال أمير المؤمنين «عليه السلام»: اللهم نور قلبه بالتقى واهدِه إلى صراط مستقيم ليت في جندي مائة مثلك.

فقال حجر (رحمه الله): إذن والله يا أمير المؤمنين صح جنذك وقل فيهم من يغشك، ثم قام حجر بن عدي وقال: يا أمير المؤمنين! نحن بنو الحرب وأهلها نلقحها وننتجها قد مارستنا وما رسناها ولنا أعوان ذووا صلاح وعشيرة ذات عدد ورأي مجرب وبأس محمود وأزمتنا منقادة لك بالسمع والطاعة فإن شرقت شرقنا وإن غربت غربنا وما أمرتنا به من أمر فعلناه.

فقال له علي «عليه السلام»: أكل قومك يرى مثل رأيك؟ فقال: ما رأيت منهم إلا حسناً وهذه يدي عنهم بالسمع ولا طاعة وبحسن الإجابة.

فقال له علي «عليه السلام»: خيراً، إنتهى.

وذكر قصة الذين بعثهم أمير المؤمنين «عليه السلام» إلى معاوية ليدعونه إلى طاعته وهم عدي بن حاتم ويزيد بن قيس وشبث بن ربعي وزباد بن خصفة وساق القصة قال فيها: فلما رجعوا من عند معاوية بعث إلى زياد بن خصفة التيمي فدخل عليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد يا أخا ربيعة فإن علياً قطع أرحامنا وقتل إمامنا وآوى قتلة صاحبنا وإني أسألك النصره عليه بأسرتك وعشيرتك ولك عليّ عهد الله وميثاقه إن ظهرت أن أوليك أي المصريين أحببت.

قال أبو المجاهد: سمعت زياد بن خصفة يحدث بهذا الحديث قال: فلما قضى معاوية كلامه حمدت الله وأثنيت عليه ثم قلت له: أما بعد، فإني لعلى بينة من ربي وبما أنعم عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين.

فقال معاوية لعمر بن العاص وكان إلى جانبه جالساً: ليس يتكلم رجل منهم بكلمة ما لهم غضبهم الله ما قلوبهم إلا قلب رجل واحد، القصة^(١).

وقال نصر^(٢): خرج ابن مقيدة الحمار الأسدي وهو مع أهل الشام وكان في

(١) وقعة صفين: ص ١٠٣.

(٢) وقعة صفين: ص ١٤١.

الناس ردف بشر بن عصمة وهو الثاني في الناس فنأدى، ألا من مبارز؟ فأحجم الناس عنه فقام المقطع العامري وكان شيخاً كبيراً فقال له علي «عليه السلام»: أقعد فإنك شيخ كبير - وليس معه من رهطه أحد غيره - ما كنت لأقدمك، ثم إنه نادى ابن مقيدة الحمار ثانية: ألا من مبارز؟ فقام المقطع فأجلسه علي «عليه السلام» أيضاً، ثم نادى الثالث: ألا من مبارز؟ فقام المقطع وقال: يا أمير المؤمنين! والله لا تردني فإما أن يقتلني فأتعجل الجنة وأستريح من الحياة الدنيا في الكبر والهزم وإما أقتله فأريحك منه.

فقال له علي «عليه السلام»: ما أسمك؟ فقال: أنا المقطع قد كنت أدعى هشيماً فأصابتنني جراحة فسميت مقطعا منها، فقال له: أخرج اللهم أنصره، فحمل عليه المقطع فأجهش ابن مقيدة الحمار وكان ذكياً مجرباً فلم يجد شيئاً خيراً من الهرب فهرب حتى مر بمضارب معاوية والمقطع على أثره فجاز معاوية فنأداه معاوية: لقد شخص بك العراقي، قال: لقد فعل ثم رجع المقطع حتى وقف موقعه فلما كان عام الجماعة وبأيع الناس معاوية سأل عن المقطع العامري حتى نزل عليه فدخل عليه فإذا هو شيخ كبير فلما رآه قال: أوه لو علمت أنك في هذه الحال ما أفلتني.

فقال: نشدتك الله إلا قتلت وأرحت من بؤس الحياة وأدنيتهني إلى لقاء الله.

فقال: إني لا أقتلك ولي إليك حاجة.

قال: فما حاجتك؟ قال: جئت لأواخيك.

قال: إنا وإياكم قد افترقنا في الله، أما أنا فأكون على حالي حتى يجمع الله بيننا في الآخرة.

قال: فزوجني ابنتك.

قال: قد منعتك ما هو أيسر علي من ذلك.

قال: فأقبل مني صلة.

قال: لا حاجة لي فيما قبلك، فتركه ولم يقبل منه شيئاً، إنتهى.

وهذا الكتاب منعم بأمثال هذه القصص ومنها قصة عمار بن ياسر مع ذي الكلاع وعمرو بن العاص فراجعها^(١).

درجات البصيرة

للْبصيرة درجات ومراتب كثيرة حصرها بعضهم في ثلاث درجات .
قال عبد الله الأنصاري في منازل السائرين^(١) : وهي على ثلاث درجات :
الأولى : أن تعلم الخير القائم بتمهيد الشريعة يصدر عن عين إلا تخاف عواقبها فترى من حقه أن تلذ له يقيناً وتغضب له غيره .

قال الكاشاني في شرحه : الخير القائم : بتمهيد الشريعة هو ما أخبر به رسول الله ﷺ فإن مطلق خبره هو الممهد للدين القويم والشريعة الحققة فينبغي لك أن تتحقق بنور بصيرتك إنه إنما صدر عن عين أي ذات صادقة لا تخبر إلا عن عيان ولا تكلم إلا بما هو الحق المطابق لما في نفس الأمر فيكون عاقبة أتباعها الخير والسلامة والنجاة والسعادة فهي محمودودة ومأمونة فلا تخاف عواقبها إذ لا غائلة لها أصلاً بل الغائلة في ترك أتباعها ومخالفتها فترى من ذلك الخير عليك أن تلذه بحسن القبول .

قال الأنصاري : الدرجة الثانية : أن تشهد في هداية الحق وإضلاله إصابة العدل وفي تلوين أقسامه رعاية البر وتعاين في جذبه حبل الوصال .

وقال الكاشاني في شرحه : يعني أن تشاهد بنور البصيرة بعد علمك أن الهداية والإضلال كليهما من الله في أنه في إضلاله من أضله عادل كما في هداية من هداه، ولا جور في إضلال^(٢) من أضله، ولا محاباة في هداية من هداه وقد فعل بكل واحد منهما ما اقتضاه غيبه وما هو لائق به، ولا يطلع على ذلك إلا بالكشف والأطلاع على سر القدر وأحوال الأعيان الثابتة في العدم أزلاً .

إلى أن قال في تلوين أقسامه : رعاية البر يعني وأن تشهد في اختلاف أقسام الرزق وتوسيعه على من وسعه عليه وتضييقه على من ضيقه عليه إنه تعالى راعى مصلحتهما في ذلك وإنه بار بالمعسر في تضييق الرزق عليه كما أنه بار بالموسر في التوسيع عليه وإن الفقير لا يصلح له إلا الفقر وإن الغني لا يصلح له إلا الغنى الخ .

قال الأنصاري : الدرجة الثالثة : بصيرة تفجر المعرفة وتثبت الإشارة وتثبت الفراسة .

(١) منازل السائرين : ص ١٤٥ .

(٢) هذا على عقيدة المجبرة أعاذنا الله من ذلك .

قال الكاشاني في شرحه: إنما قال تفجر المعرفة لأن المعرفة لا تكون إلا موهبة من الله تعالى ولا تحصل بالكسب والبصيرة كاسبة له في العالم العلوي بالعيان والشهود من الحقائق والمعارف، نافذه في الغيب إلى الأفق الأعلى فتشهد ما هناك.

إلى أن قال: وتنبت الإشارة يعني إن الحقيقة ألطف من أن يعبر عنها بعبارات أو تعرف بعلم.

ثم قال: فالبصيرة إذا بلغت هذا الحد أنبتت الإشارة وأنبتت الفراسة، ولما شبه المعرفة بالماء الجاري على وجه الأرض شبه الفراسة بالنبات فإنها تظهر في أرض القلب الطاهر الصافي عن أكدار التعلق بالأكوان الباقي على الفطرة الأصلية فإن جميع قلوب بني آدم في الأصل قابلة للفراسة بحسب الفطرة لكنها قد أقبلت على الدنيا وأشتغلت بلذاتها وشهواتها وأعرضت عن عبادة الله تعالى وذكره وشرعت في معاصيه وأكبرت الحرام وأكثرت الفضول والمنام فاظلمت وصارت في أكنة وارتكم الرين عليها كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١) فمن وفقه الله لتزكية نفسه وتصفية قلبه بالزهد والعبادة وطهر قلبه عن دنس هذه التعلقات وأخلصه من هذه الظلمات فجر فيه المعارف وأنبت فيه الفراسة وأظهر فيه الحكم كما قال النبي ﷺ: من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه الخ.

وهذا مسلك روحاني وطريقة عرفانية ويتخلص من فحوى الأحكام الشرعية على مسلك أهل الشرع وطريقة المشرعة هكذا:

الدرجة الأولى: أن تحصل للمؤمن من مشاهدة المعجزة وإخبارات الصادقين قوة يطمئن معها بصحة هذا الدين.

الدرجة الثانية: أن تحصل له ملكة من مشاهدة ما ذكرنا ومطالعة ما في الكون من الدلائل على صحة ما جاءت به الأخبار الصادقة والمعجزات الباهرة من أن هذا الدين هو دين الحق وفي الاعتصام به النجاة وفي القرآن المجيد كثير من الآيات الآمرة بهذا الاعتبار والتفكير في هذا النظام البديع وكذلك الأحاديث وخصوصاً خطب مولانا أمير المؤمنين «عليه السلام» مثل قوله: لو فكروا في عظيم القدرة، الخطبة بطولها. قال الشاعر:

ورق الغصون إذا نظرت دفاتر مشحونة بأدلة التوحيد

إيمان العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» وبصيرته

هو فيهما في درجة أهل بيته لأنه «عليه السلام» قد جمع كل هذه الأسباب الموجبة لنفاذ البصيرة من الأخبار الصادقة عن الأئمة الطاهرين كآبيه وأخويه السيدين الحسن والحسين «عليهما السلام» ومشاهدة المعجزة والتفكر في صحيفة الوجود وصفاء النفس والكشف، فقد صح أن أصحاب الحسين «عليه السلام» كشف لهم وليس وراء عبادان قرية، يشهد له الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» فيما رواه السيد الداودي وغيره ولفظه في عمدة الطالب^(١): قال الصادق جعفر بن محمد «عليهما السلام»: كان عمنا العباس بن علي «عليهما السلام» نافذ البصيرة، صلب الإيمان، جاهد مع أبي عبد الله «عليه السلام» وأبلى بلاء حسناً ومضى شهيداً، ودم العباس «عليه السلام» في بني حنيفة، إنتهى.

وقوله «عليه السلام» في زيارته التي رواها ابن قولويه في كامل الزيارة: «أشهد أنك لم تهن ولم تنكل وأشهد أنك مضيت على بصيرة من دينك مقتدياً بالصالحين ومتبعاً للنبيين» الخ.

للمؤلف:

إيمان شبل علي ظاهر الأثر	للناظرين كما قد جاء في الخبر
بأنه صلب إيمان بصيرته	في الدين نافذة أكرم بخير سري
فدى الحسين بنفس لا مثيل لها	بعد الأئمة والسادات للبشر
مظهر النفس من عيب يدنسها	مقدم في سبيل الخير ذا أثر
أبوه أكرم خلق الله قاطبة	بعد النبي المعلى خيرة الخير
به افتخار بني عدنان قاطبة	على بني يعرب إذ كان من مضر
فخر العروبة لا شك يخالطه	علي لا خالد الجبار ذو البطر
هذا مع المصطفى يحمي شريعته	وذاك عن هبل حامي بلا نكر
كان الوصي يسمي في وقائعه	بكاشف الكرب بالصمصامة الذكر
سل يوم بدر وأحد أين موقفه	من خالد رأس أهل الكفر واعتبر
وشبله السيد العباس موقفه	بالغاضرية فيه خير مفتخر

فيا له موقف تبقى فضائله ما دام يمشي على الغبراء من بشر
وراحل لجنان الخلد جهز من جند ابن ميسون آلفاً إلى سقر
لولا الكمين الذي أردى بساعده لم يبقى حياً يحامي قط عن عمر
برى الكمين يديه والعدى احتوشوا ذاك الكمي احتواش السغب للجزر

آداب العباس الأكبر «عليه السلام»

أنواع الآداب ومعناها وأقسامها

لكل طائفة من طوائف الإسلام وفرقهم اصطلاح خاص في الأدب وبهذا يتنوع الأدب إلى أنواع ثلاثة:

أدب عربي ويطلق في مصطلح أهل اللسان على جميع العلوم المأخوذة عن قدماء العرب التي هي لسانهم كاللغة والنحو والصرف والأشتقاق والمعاني والبيان والبديع وأوزان الشعر وأمثالها، وقد يطلق الأدب ويراد به ديوان العرب وهو الشعر والقوافي خاصة وهذه العلوم تكون داخلة فيه لأنه بها يسمى شعراً، وإطلاق الأدب على الشعر لفظ مولد فيما قاله الخفاجي في شفاء الغليل.

وأدب شرعي وهو مصطلح المتشرعة من علماء الدين عبارة عن الأخذ بالفرائض والسنن الثابتة في الشريعة النبوية والمأثورة عن أئمة أهل البيت «عليهم السلام» وتهذيب النفس عن رذائل الأخلاق التي نهى عنها الشارع كما في وصية النبي ﷺ لأmir المؤمنين «عليه السلام» ولأبي ذر الغفاري، ووصية أمير المؤمنين «عليه السلام» لولديه الحسن الزكي ومحمد بن الحنفية وأمثال ذلك وتثقيف النفس بمحاسن الصفات التي ندب الشارع المقدس إليها ويجمع هذه الآداب أمران: فعل ما رغب فيه، وترك ما نهى عنه.

وأدب عرفاني: وأهل العرفان قسمان: قسم هم أهل الطريقة وهم أرباب التصوف والتكشف التصنعي ومسلكتهم وعرف في الآداب بحمل المريد على طريقتهم في أمور أبتدعوها أكثرها موافقة لمذاهب أهل الحلول من صوفية الفلاسفة وتناسختهم ويزعمون أنها ثبتت لديهم بطريق الكشف والشهود.

وقسم هم أهل الحقيقة وهم النساك وأهل الزهد حقيقة والمتورعون الأتقياء لم يسلكوا مسالك الصوفية ولم يتخذوا الكشف طريقة ولم يزعموا أن الغيبة والشهود أحوالاً بل مسلكهم اقتفاء طريقة الشارع المقدس وأقتباسهم التهذيب النفسي من شريعة سيد المرسلين فالآداب عندهم ما جاءت به الشريعة المحمدية

ورجحته وأستحسنه العقل السليم كترك ما لا يعنيه من الفضول قولاً وفعلاً وتحمل ما يقدر عليه تكليفاً وأجتنب ما لا يجوز شرعاً ويقبح عقلاً، فهذه الطريقة العرفانية من هذا الوجه تتفق مع الأدب الشرعي، ومن فسرهُ إنما فسرهُ على الطريقة الأولى فلذلك أفرق عن الأدب الشرعي.

معنى الأدب في اللغة

قال الفيروزآبادي في القاموس: الأدب محرّكة الطريق وحسن التناول، أدب كحسن أدباً فهو أديب وأدبته كعلمته فتأدب وأستأدب الخ، وهذا المعنى هو المتداول عند العوام تجدهم يقولون للوقح الجريء والبذيء المتفحش: تأدب واستأدب، ويوصون الصغير والعامي فيقولون: تأدب مع الكبير ومع العالم أي ألزم ناحيته في الهدوء والسكون والكلام المحمود وفي الجلوس وأمثالها.

قال الفيومي في المصباح المنير: أدبته أدباً من باب ضرب علمته رياضة النفس ومحاسن الأخلاق.

وقال أبو زيد الأنصاري: الأدب يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل.

وقال الأزهري نحوه والأدب إسم لذلك والجمع آداب.

وقال الجواليقي في شرح أدب الكاتب^(١): فالأدب الذي كانت العرب تعرفه هو ما يحسن من الأخلاق وفعل المكارم مثل ترك السفه وبذل المجهود وحسن اللقاء.

وقال الغنوي شعراً:

لم يمنع الناس مني ما أردت ولا أعطيهما ما أرادوا حسن ذا أدبا
كأنه ينكر على نفسه أن يعطيه الناس ولا يعطيهم وأصطلح الناس بعد
الإسلام بمدة طويلة أن يسموا العالم بالنحو والشعر وعلوم العرب أديباً ويسمون
هذه العلوم أدباً وذلك كلام مولو لأن هذه العلوم حدثت في الإسلام فأشتقاقه من
شيئين يجوز أن يكون من الأدب وهو العجب ومن الأدب مصدر قولك أدب فلان
القوم يؤدبهم أدباً إذا دعاهم، قال طرفه:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الأدب فينا ينتقر

(١) شرح أدب الكاتب: ص ١٣.

فإذا كان من الأدب الذي هو العجب فكأنه الشيء الذي يعجب منه لحسنه ولأن صاحبه الرجل الذي يعجب منه لفضله، وإن كان من الأدب الذي هو الدعاء فكأنه الشيء الذي يدعو الناس إلى المحامد والفضل وينهاهم عن القبائح، والفعل منه: أدبت أدب أدباً حسناً وأنا أديب، إنتهى.

وقال الخفاجي في شفاء الغليل^(١): وقال الإمام المطرزي: الذي كانت العرب تعرفه إنما هو ما يحسن من الأخلاق وفعل المكارم، وذكر مثلما قال الجواليقي.

وقال أحمد البربر في الشرح الجلي^(٢): أعلم أن الأدب قسمان: أدب نفس وأدب درس؛ فأدب الدرس عبارة عن تعلم علوم جملتها اثني عشر علماً، وهي: اللغة، والاشتقاق، والتصريف، والنحو، وعلم قرص الشعر، وعلم المعاني، وعلم البيان وفن البديع، وعلم الإنشاء، وعلم الخط والعروض والقوافي؛ فمن أحاط بها أو بعضها قيل له: أديب درس.

وأما أدب النفس فهو رياضة النفس وحسن الأخلاق، قال أبو زيد: الأدب يقع على كل رياضة محمودة خرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل، قلت: وعلى هذا التعريف يكون الأدب علماً على كل خلق محمود وإسماعاً جامعاً لمحاسن الأقوال والأفعال ومكارم الأخلاق ولذا عرفه بعضهم بقوله: هو استعمال ما يحمد قولاً وفعلًا، وأشتقاقه من الأدب كالضرب وهو مصدر قولك: أدبه يؤدبه أدباً كضربه إذا دعاه إلى طعامه وذلك لأن الأديب يدعو الناس إلى المحامد والمحاسن من الأخلاق وينهاهم عن القبائح والمساوي التي تكون سبباً للشقاق والنفاق والفراق ويدعوهم لحمده والثناء عليه فإن الأديب تحبه الناس حتى أعداؤه والخالي من الأدب تكرهه الناس حتى والده وأولاده ونساؤه، الخ.

وفي كلامه نظر حيث عد هذه العلوم من أدب الدرس وهذا خطأ محض فإن هذه العلوم من أدب النفس كتهذيب الأخلاق غاية ما يقال أن أدب النفس منه ما يكون بأكساب وتحصيل كالعلم ومنه ما يكون بريضة وتهذيب كقهر ما يكون خلقاً طبيعياً للنفس.

وأما أدب الدرس فهو عبارة عن آداب التعليم للمعلمين والمتعلمين ومعناه المنهج الدراسي والبرنامج العلمي الذي يلزم السير عليه في تحصيل المعارف وما

(١) شفاء الغليل: ص ٣٣.

(٢) الشرح الجلي: ص ١٤١.

ينبغي للتلميذ في مقابلة الأستاذ وما ينبغي للمعلم في تعليم التلميذ والسلوك معه وقد ألف فيه العلماء القدماء كتباً فبعضهم سماها آداب المعلمين والمتعلمين، وبعضهم سماها آداب المفيد والمستفيد، ومن هؤلاء الشيخ الشهيد الثاني من فقهاءنا «رضوان الله عليه»، ومن جملة تلك الآداب أن لا يرفع صوته على المعلم، ولا يرد عليه، ولا يمزح بين يديه إلى آخر ما ذكروه، وأما أهل العصر فمؤلفاتهم فيه كثيرة ولسنا بصدد ضبط ذلك.

وأخطأ أيضاً في جعله الأديب معلماً للناس محاسن الأخلاق وهذا خطأ واضح جداً من حيث أن كثيراً من الأدباء علموا الناس رذائل الأخلاق، ولما سمع حاتم الطائي قول المتلمس الضبعي:

وحفظ المال أحسن من بغاه وطوف في البلاد بغير زاد

قال: ما له قطع الله لسانه يعلم الناس البخل؟! وهذا الحطيئة العبسي وأبو النجم العجلي وأبو دلامة وغيرهم من ساقطي النفوس قد علموا الناس الشر، فهل من محاسن الأخلاق قول القائل:

أوصيت من برة قلباً براً بالكلب خيراً والحماة شراً
إلى أن يقول في هذه التوصية الشريرة:

والحي عميهم بشر طرا

أم من الدعاء إلى محاسن الأخلاق قول الآخر:

إياك والعفة إياك إياك أن تفسد معنأكا

أنت بخير يا أبا جعفر ما دمت صلب الأير نياكا

فنك ولو أمك وأصفع ولو أباك إن لامك في ذاك

هذا وأمثاله يوجد بكثرة عند أهل الأدب.

وأخطأ ثلاثة بجعله الأديب يدعو الناس لحمده والثناء عليه وهذا أفسد شيء ادعاه مدع، كيف يكون محبوباً عند الناس من تخاف غائلة لسانه سيما والشاعر لا يمنعه الإحسان عن الإساءة فقد هجى الحطيئة الزبر فأن بعد إحسانه إليه والمتلمس الضبعي وطرفة بن العبد نادما عمرو بن هند ملك الحيرة وأكرمهما فهجياه حتى قال طرفه:

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوئاً حول قبتنا تدور

فقتل طرفه وهرب المتلمس، وهذا النابغة الذبياني والمتنخل الشكري وهما

نديما النعمان بن المنذر وأكرم الناس عليه وصفا زوجته المتجردة بكل قبيح فأراد قتلها فقتل اليشكري وهرب الذبياني .

قال محمد بن خلف المرزبان في كتاب فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب^(١) : هجى أبو سماعة المعيطي خالد بن برمك وكان إليه محسناً فلما ولي يحيى الوزارة دخل إليه أبو سماعة فيمن دخل من المهنيين فقال : أنشدني الأبيات التي قلتها ، فقال : ما هي ؟ قال : قولك :

زرت يحيى وخالداً مخلصاً لله ديني فأستصغرا بعض شأني
فلو إنني ألحدت في الله يوماً أو لو أني عبت ما يعبدان
ما استخفا فيما أظن بشأني ولا صبحت منهما بمكان

قال أبو سماعة : لم أعرف هذا الشعر ولا من قاله ، قال يحيى : ما تملك صدقة إن كنت تعرف من قاله ، فحلف ، فقال له يحيى : أمراتك طالق ، فحلف ، فأقبل يحيى على الغساني ومنصور بن زياد والأشعثي ومحمد بن محمد العبدى وكانوا حضوراً في المجلس ، فقال : ما أحسبنا إلا وقد أحتجنا أن نجدد لأبي سماعة منزلاً وآلة وحرماً وأمتاعاً ، يا غلام ! إُدفع له عشرة آلاف درهم وتختاً فيه عشرة أثواب ، فدفع إليه ، فلما خرج تلقته أصحابه يهنئونه ويسألونه عن أمره ، فقال : ما عسيت أن أقول إلا أنه ابن زانية أبى إلا كرماً ، فليغ يحيى كلمته من ساعته فأمر به فحضر فقال له : يا أبا سماعة ! لم نفرق في هجائنا ولم نفرق في شتمنا ، فقال أبو سماعة : ما عرفته أيها الوزير افتراء وكذب علي ، فنظر إليه يحيى ملياً ثم أنشأ يقول :

إذا ما المرء لم يختش بظفر ولم يوجد له إن عض ناب
رمى فيه الغميمة من بغاها وذل من فراءته الصعاب
فقال أبو سماعة : كلا أيها الوزير ولكنه كما قال :

لم يبلغ المجد أقوام وإن شرفوا حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام
ويشتموا فترى الألوان مسفرة لأصفح ذل ولكن صفح أحلام
فتبسم يحيى وقال : إنا عذرناك وعلمنا أنك لن تدع مساوي شتمك ولؤم
طبعك فلا أعدمك الله ما جبلك الله عليه من مذموم أخلاقك ، ثم تمثل :

متى لم تتسع أخلاق قوم يضيق بهم الفسيح من البلاد
إذا ما المرء لم يخلق لبیباً فليس اللب من قدم البلاد
ثم قال: هو والله ما قال عمر بن الخطاب: المؤمن لا يشفي غيظه، ثم إن
أبا سماعة هجى بعد ذلك سليمان بن عفر وكان إليه محسناً، فأمر به الرشيد فحلق
رأسه ولحيته، ومثل أبي سماعة كثير، إنتهى.
فبأي وجه يجتذب هؤلاء وأمثالهم الناس إلى محبتهم والثناء عليهم؟ وهل
إظهار محبتهم إلا رهبة من قذعهم وفحشهم؟ نعم الأديب الذي يمتحده الناس
ويشنون عليه هو من أدبته الشريعة المحمدية بأخلاقها المرضية.

معنى الأدب العقلي العرفاني

قال الجرحاني في التعريفات^(١): الأدب عبارة من معرفة ما يحترز به عن
جميع أنواع الخطأ، إنتهى.

وقال عبد الرزاق الكاشاني في شرح منازل السائرين^(٢): حدود الله هي
الأحكام الشرعية والأدب كله على محافظتها بحيث لا يجري عليها شيء لا يسوغه
الشرع ولا أذن فيه لا على جوارحه ولا على لسانه ولا على قلبه ولا يخطر له ببال
إلا مع الاستغفار لعلمه أن الله على كل شيء رقيب.

قال عبد الله الأنصاري في منازل السائرين: الأدب حفظ الحد بين الغلو
والجفاء لمعرفة ضرر العدوان.

قال الكاشاني في شرحه: يعني حفظ الحدود المحدودة في الشرع مع الحق
والخلق من غير الزيادة فيقع في الغلو، ولا في النقصان فيقع في الجفاء كما فعلت
النصارى في إكرامهم المسيح فإنهم أفرطوا في إكرامه وإطرائه حتى كفروا ولهذا
قال النبي ﷺ: لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم ولكن قولوا عبد
الله ورسوله.

وكما فعلت النصيرية في إطراء أمير المؤمنين «عليه السلام» ويدخل فيه
الإسرافات المذمومة في الوضوء والغسل والنية وسائر الأمور الشرعية، قال الله
تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾^(٣).

(١) التعريفات: ص ٨.

(٢) شرح منازل السائرين: ص ١١٩.

(٣) النساء: ١٧١.

وأما الجفاء فكما يفعل بعض الخلفاء التاركين الفرائض المهملين الآداب فيما بينهم وبين الله وفيما بينهم وبين عباد الله من الجرأة على الله في أحكامه وترك حقوق الناس وتضييعها وهتك حرمتهم وأعراضهم كالتناز بالالقباب وارتكاب الفسوق والعصيان والمزاح المنهي عنه شرعاً الخ.

وهذا الشارح لما كان شيعياً سلك مسلك أهل الحقيقة وترك مسلك أهل الطريقة والمبتدعين من الصوفية حسبما أشرنا إليه فيما مضى من اختراعهم طريقة الحادية حلولية وزندقة مشبعة بالتناسخ توجب إبطال الشرائع الإلهية مما فرضوا على المريد من تكاليف شاقة وأباحوا له محرمات صرح الشرع بحرمتها كالغناء والرقص ومقارفة الكبائر من الفواحش ليتوب ويشتد وجده عند ذكرها، ويذهب به التواجد إلى الإغراق وأمثال هذه العقائد الماحقة للشرع المقدس وسموها آداباً، ولكن مسلك أهل الحقيقة وهم الزهاد الورعون هو هذا الذي ذكره الكاشاني.

فحقيقة الأدب العرفاني والروحاني حقيقة واحدة وهي حمل النفس على فعل المشروعات الدينية والتخلق بالأخلاق الشرعية ورفض ما ورد الزجر عنه في شريعة سيد الأنبياء محمد ﷺ وقد عرفت أن العوام تعرف معنى الأدب وهو لزوم السمات الحسن والطريقة المرضية من الهدوء والسكينة والتخلق بالأخلاق الحميدة ولذلك يقولون في أمثالهم بلغتهم الدارجة «يا غريب كون أديب» وذلك لأن الغربة نقص وذل والتخلق بمكارم الأخلاق يجبر ذلك النقص ويسد ذلك الخلل وكذلك يقولون في التخاطب بينهم إذا رأوا طفلاً بذيئاً جريئاً: يا فلان يدب أبناك يعني أدبه والزمه الآداب بأحترام الكبار وذوي الأقدار ولعلمهم سمعوا الحديث المشهور في تربية الصغار «أدب ولدك صغيراً ينفعك كبيراً» فإن هذا الأدب يكسر سورة حدته ويكبح جماح طيشه ولهذا لا يرى الفقهاء بضرب التأديب بأساً.

أما المتمدنون من أهل عصرنا فقد خصوا الأدب بالشعر ونعتوا الشاعر الأديب وهذا كما عرفت اصطلاح حادث وليس بقديم، قال الشاعر:

ولي أدب يطير إلى الثريا وحظ واقع بشرى الحضيض

وقال آخر:

صبغ الله أوجه البيض والصف ربحظ الذي يكون أديباً

درجات الأدب ومراتبه

للأدب درجات ومراتب كغيره من الأخلاق المكتسبة وإنها تكون بالإضافة

إلى ما حصله الشخص من الآداب الروحانية الدينية على حسب قوة الاستعداد للقبول وقوة الملكة الحاصلة من الممارسة وهي كثيرة بالنسبة إلى القوة والضعف كمراقبي السلم، وأقتصر الخواجه عبد الله الأنصاري على ثلاثة فقال في منازل السائرين^(١): وهو على ثلاثة درجات:

الدرجة الأولى: منع الخوف أن يتعدى إلى اليأس، وحبس الرجاء أن يخرج إلى الأمن، وضربط السرور أن يضاهي الجراءة.

قال الكاشاني في الشرح: الرجاء والخوف متقابلان فيجب أن يكون فيهما كما جاء في الحديث: لو وزن خوف المؤمن ورجائه لأعتدلا، فإن رجح الخوف تعدى إلى اليأس من رحمة الله نعوذ بالله فلذلك يجب منع الخوف الذي يؤدي إلى اليأس، فإن إلياس من رحمة الله سوء أدب مع الحق، قال الله تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٢)، وقال: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾^(٣) وقال: «سبقت رحمتي غضبي»، فصاحب اليأس قد تعدى حدود الله فقد ظلم نفسه وإن رجح الرجاء أدى إلى الأمن قبل الوقت وهو الأمن من مكر الله، قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٤) وهو في حال السلوك والبداية، وأما في حال الولاية والنهاية: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٥) فلذلك يجب حبس الرجاء أن يخرج إلى الأمن فإنه أيضاً سوء أدب وتعدى الحدود لكن لا كاليأس فإنه قال: «أنا عند ظن عبدي المؤمن» الخ.

قال الأنصاري: **الدرجة الثانية:** الخروج من الخوف إلى ميدان القبض والصعود من الرجاء إلى ميدان البسط والترقي من السرور إلى ميدان المشاهدة.

قال الكاشاني في الشرح: الخوف والرجاء كلاهما من صفات النفس والقبض والبسط من صفات القلب فهما أصلاهما، والخوف والرجاء فرعاهما ولذا قيل: القلب في مقام الخوف والرجاء بين لمتي الملك والشیطان وفي القبض والبسط بين إصبعين من أصابع الرحمن فالسالك إذا ارتقى إلى مقام القلب خرج عن ضيق الخوف إلى فضاء القبض وصعد من هوة الرجاء إلى ربوة البسط وترقى عن السرور بالكشف إلى سعة المشاهدة ومن نور التجلي إلى ضياء العيان.

(٢) الأعراف: ١٥٦.

(٤) الأعراف: ٩٩.

(١) منازل السائرين: ص ١٢٠.

(٣) الزمر: ٥٣.

(٥) الأنعام: ٨٢.

قال الأنصاري: الدرجة الثالثة: معرفة الأدب ثم الغنى من التأديب بتأديب الحق ثم الخلاص من شهوة أعباء الأدب.

قال الكاشاني في الشرح: معرفة الأدب في كل واحد من درجاته الثلاثة بحصوله في الدرجة الثالثة ووقوفه بالتعريف الإلهي على حقيقة الأدب في كل مقام من المقامات ثم الغنى عن الأدب نفسه بشهود^(١) المؤدب الحقيقي الذي هو الحق فيغيب عن نفسه وأدبه فلا ينسب الأدب إلا إلى الذي أقامه في مقام الأدب وتخلص عن علمه الأدب بفناء أدبه في أدب الحق ثم الخلاص عن شهود أعباء الأدب أي انتقاله لفنائه عن رسمه في شهود الحقيقة وأستغراقه في حضرة التجمع الذي غيبه عن الأدب عين الأدب فمضى عن شهود الأدب أصلاً ورأساً فضلاً عن شهود الأدب وتكاليفه فإنها تترتب على وجوده الذي تلاشى فلم يبق منه عين ولا أثر، إنتهى.

هذه الدرجات مستخرجة على ذوق أهل العرفان ولا مصداق لها في الحقيقة إلا الأنبياء والأوصياء والأئمة من آل محمد ﷺ وزعم أرباب السلوك أنهم من أهل هذه الدرجات تخرص محض وتشهي صرف، ما كل مدعي الفناء قد وصل، ولا كل من ادعى أنه قد خلع الصور لحق، ولندع هذه المسالك الوعرة والطرق الضيقة ولنسلك مع من يريد التأدب بالأدب الديني من حيث يعرف وحيث يقتدر وأما الشهيق والنهيق الصوفي والتواجد والاستغراق العرفاني المتخيل فذاك للمتصنعين الذين تمرنوا عليه كما يتمرن الشاطر على ألعاب السيمياء ونقول: درجات الأدب الديني ثلاثة:

الدرجة الأولى: فعل الواجب وترك المحرم خاصة.

الدرجة الثانية: فعل المستحب وترك المكروه مع ما تقدم وهذه أرقى من الأولى.

الدرجة الثالثة: وهي أرفع الدرجات رفض المباحات منع ذلك وهي عين التخلي لأن الدنيا وما فيها والأنقطاع إلى خدمة رب العباد وتكون هذه الدرجة أول درجات الفناء في الله لأنه إذا تجاوزها أستغرق ورأى أن لا شيء سواه فإذا تجاوزها خرج إلى الغيبة عن رسم الحس وحصلت له درجة الكشف والشهود.

(١) هذا على مسلك الصوفية المجسمة وعبد الله الأنصاري من الكرامية المجسمة كما ذكرناه في كتابنا كشف المستور عن مخازي الجمهور - مخطوط - . . .

ما قيل في الأدب

والكلام في الأدب مطول ويتنوع أنواعاً شتى وله فنون عديدة نتحرى منها الأقرب فالأيسر لينتفع به من أراد تهذيب نفسه ليصل إلى فضيلة الأدب حتى يتم لها الكمال الروحي، أما رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين والأئمة في أولاده «عليهم سلام الله جميعاً» فهم الذين علموا الناس الآداب.

ومن آداب رسول الله ﷺ وصيته التي أوصى بها أبا ذر ذكرناها في ترجمته من كتابنا «الميزان الراجح» ووصيته التي أوصى بها وصيه أمير المؤمنين «عليه السلام» وكلتاها في نهاية العظمة حافلتان بالآداب، وقد روى ذلك الشيخ الطوسي في الأمالي والصدوق في الفقيه والطبرسي في مكارم الأخلاق وغيرهم وكل واحدة من الوصيتين مشتملة على أكثر الأحكام الشرعية أفعالاً وتروكاً ومنعنا من إيرادهما طولهما، وكلمات رسول الله ﷺ القصار الحكمية المسماة بجوامع الحكم مشهورة، فأما أمير المؤمنين «عليه السلام» فأكثر خطبه في الوعظ وهي في آداب الشرع وله وصيتان لابنه محمد بن الحنفية ذكر فيهما أكثر الأدب رواهما الصدوق في الفقيه ووصية لولده الحسن «عليه السلام» رواها الشريف الرضي في نهج البلاغة، وأما كلماته القصار والمسماة بجوامع العلم وغرر الحكم فأورد الشريف الرضي كثيراً منها في نهج البلاغة وجمع منها ابن أبي الحديد ألف كلمة نافعة وألف الآمدي منها كتاباً سماه غرر الحكم وأختار منها الجاحظ مائة كلمة إعجاباً بها ذكرها في مفتاح الأفكار، وكذلك سائر الأئمة روى لهم الكليني والصدوق كثيراً وجمع في تحف العقول من كلامهم المطول وكلماتهم القصار كتاباً سمي بهذا الاسم وأصل الكل كتاب الله الذي فيه تبيان كل شيء.

نحو قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾^(١) هذه الآية عظيمة في التسلية وكسر نخوة التفاخر.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾^(٢) وأثرها عظيم في الطب وفيها من التنزيه عن المطاعم الزائدة على أصل القوت الذي يجر إلى الوقوع في الشبهات والمحرمات فإن المقتصد في المطعم يكفيه ما يقيم صلبه ويكسر سورة الجوع، والإسراف إنما هو لطلب الزائد على قدر الحاجة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾^(١)، ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾^(٢)، ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْظُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾^(٣)، ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا﴾^(٤)، ﴿وَلَا تَحْسَبُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾^(٥)، ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾^(٦)، ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾^(٧)، ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا﴾^(٨)، ﴿وَجَدِلْهُمْ بِلِتْقَى هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٩)، ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾^(١٠)، الآيات وهي كثيرة يجدها القارئ في الكتاب المجيد.

قال ابن عبد ربه في العقد الفريد^(١١): أول ما نبدأ به أدب النبي ﷺ ثم أدبه لأُمته ثم الحكماء والعلماء، وقد أدب الله تعالى نبيه ﷺ بأحسن الآداب كلها فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾^(١٢) فنهاء عن التقتير كما نهاه عن التبذير، وأمره بتوسط الحالين كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(١٣) وقد جمع الله لنبيه ﷺ جوامع الكلم ونظم له مكارم الأخلاق كلها في ثلاث كلمات فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(١٤) ففي أخذه العفو صلة من قطعه والصفح عمن ظلمه، وفي الأمر بالمعروف تقوى الله وغض الطرف عن المحارم وصون اللسان عن الكذب، وفي الإعراض عن الجاهلين تنزه النفس عن ممارسات السفیه ومنازعة اللجوج.

ثم أمره تعالى فيما أدبه من اللين في عريكته والرفق بأُمته فقال: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١٥)، وقال: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(١٦)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(١٧)، ثم قال: قال النبي ﷺ فيما أدب به أُمته وحض عليه من مكارم الأخلاق وجميل المعاشرة وإصلاح ذات البين وصلة

- | | |
|----------------------------|---------------------|
| (١) الإسراء: ٣٧. | (٢) لقمان: ١٨. |
| (٣) لقمان: ١٩. | (٤) النور: ٢٧. |
| (٥) الحجرات: ١٢. | (٦) الحجرات: ١١. |
| (٧) الحجرات: ١١. | (٨) طه: ٤٤. |
| (٩) النحل: ١٢٥. | (١٠) النور: ٦١. |
| (١١) العقد الفريدة ١/ ٣٦٠. | (١٢) الإسراء: ٢٩. |
| (١٣) الفرقان: ٦٧. | (١٤) الأعراف: ١٩٩. |
| (١٥) الشعراء: ٢١٥. | (١٦) آل عمران: ١٥٩. |
| (١٧) فصلت: ٣٤. | |

الأرحام فقال ﷺ: أوصاني ربي بتسع أوصيكم بما أوصاني: بالإخلاص في السر والعلانية: والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفوا عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً.

ثم قال ﷺ: أنهاكم عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال. وقال ﷺ: لا تقعدوا على ظهر الطريق فإن أنتم أبيتم فغضوا الأبصار، وأفسوا السلام، وأهدوا الضلال، وأعينوا الضعيف.

وقال ﷺ: أوكثوا السقاء وأكفؤوا الإناء وأغلقوا الأبواب وأطفئوا المصباح فإن الشيطان لا يفتح مغلقاً ولا كفيئاً ولا يكشف إناء.

وقال ﷺ: ألا أنبئكم بشر الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من أكل وحده ومنع رفده وجلد عبده، ثم قال ﷺ: ألا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من يبغض الناس ويبغضونه.

وقال ﷺ: حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، وأستقبلوا البلاء بالدعاء.

وقال ﷺ: ما قل وكفى خير مما كثر وألهى. وذكر كثيراً ولأجل التيمن ذكرنا هذا، أما كلام أمير المؤمنين «عليه السلام» فمن المائة التي انتخبها الجاحظ واختارها: لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً.

الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم.

ما هلك امرؤ عرف قدره.

المرء مخبوء تحت لسانه.

من عذب لسانه كثر إخوانه.

بالبر يستعبد الحر.

بشر مال البخيل بحادث أو وارث.

لا تنظر إلى من قال.

لا ظفر مع البغي.

الجزع عند البلاء تمام المحنة.

لا ثناء مع كبر، ولا بر مع شح، لا صحة مع نهم، لا شرف مع سوء أدب، لا اجتناب لمحرم مع حرص، لا محبة مع مرء، لا سؤدد مع انتقام، لا راحة لحسود، لا زيارة مع دعارة، لا صواب مع ترك المشورة، لا مروءة لكذوب، لا وفاء لملول، لا عز أعز من التقى، لا شرف أعلى من الإسلام، لا معقل أحرز من الورع، لا شفيع أنجح من التوبة، لا داء أعين من الجهل، لا مرض أضنى من قلة العقل.

لسانك يقتضيك ما عودته.

المرء عدو ما جهل.

لا ظهير كالمشاورة الخ.

وإن أردتها بتمامها فأطلبها من مفتاح الأفكار لأحمد مفتاح^(١).

بعض كلمات الحكماء في الأدب:

عن العقد^(٢): أوصى بعض الحكماء بنيه فقال: الأدب أكرم الجواهر طبيعة، وأنفسها قيمة، يرفع الأحساب الوضعية، وبعز بلا عشيرة، ويكثر الأنصار بلا رزية فألبسوه حلة وتزينوه خلة، يؤنسكم في الوحشة، ويجمع لكم القلوب المختلفة.

وقال شبيب بن شبة: أطلبوا الأدب فإنه مادة العقل ودليل على المروءة وصاحب في الغربية ومؤنس في الوحشة وصلة في المجلس.

قال بعض الحكماء: أعلم إن جاهاً بالمال إنما يصحبك ما صحبتك المال، وجاهاً بالأدب غير زائل عنك.

وقال ابن المقفع: إذا أكرمك الناس لمال أو لسلطان فلا يعجبك ذلك فإن الكرامة تزول بزوالهما، وليعجبك إذا أكرموك لدين أو أدب.

وقال الأحنف بن قيس: رأس الأدب المنطق، ولا خير في قول إلا بفعل، ولا في مال إلا بجود، ولا في صدق إلا بنية، ولا في صديق إلا بوفاء، ولا في فقه إلا بورع.

وقال النضلة الزبيدي: لا يستغني الأديب عن ثلاث وأثنين: أما الثلاث بالبلاغة والفصاحة وحسن العبارة، وأما الإثنين فالعلم وبالأثر والحفظ للخبر.

وقالوا: الحسب يحتاج إلى الأدب، والمعرفة محتاجة إلى التجربة، وهذا كثير، أما الشعر فمنه قول بعضهم:

وما السيف إلا زهرة لو تركته على الحلقة الأولى لما كان يقطع
وقال آخر:

وما وهب الله لا مرئ هبة أفضل من عقله ومن أدبه
هما حياة الفتى فإن فقداهما حياة أجمل به
وقال آخر:

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ويفسدهم رب الفساد إذا فسد
يعظم في الدنيا لفضل صلاحه ويحفظ بعد الموت في الأهل والولد
وقال ابن صرمة:

أوصيكم بالله أول وهلة وأحسابكم والبر بالله أول
وإن قومكم سادوا فلا تحسدوهم وإن كنتموا أهل السيادة فأعدلوا
وإن أنتموا أعوزتموا فتعففوا وإن كان فضل المال فيكم فأفضلوا
وإن طلبوا عرفاً فلا تحرموهم وما حملوكم في الملمات فأحملوا

آداب أبي الفضل العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام»

قد جمع «عليه السلام» هذه الأنواع من الأدب التي أشرنا إليهما جميعاً وهي الأدب العلمي الذي هو فن المنظوم والمنثور من الكلام العربي، والأدب الشرعي الذي هو عبارة عن المحافظة على ما ورد في الشرع، والأدب الروحاني العرفاني وهو عبارة عن تهذيب النفس عن ذميم الأخلاق، والأدب العقلي الذي هو عبارة عن مراعاة حقوق الاحترام لأهل الرفعة والمنصب السامي وقد استبان مما سبق تفوقه في الأدب العلمي والشرعي والعرفاني فيما ذكرناه في علومه وعبادته.

وأما أدبه العقلي وهو السلوكي ففي سلوكه الأدبي الذي ظهر في صحبته لأخيه الإمام الحسين «عليه السلام» فسلوك الأبرار وطريقته طريقة الصالحين الأخيار، قد قضى حياته معه لا يرد عليه قولاً ولا يعارضه في فعل، وإذا أمره مضى لأمره، وإذا وجهه في مهم لا يبرم أمراً ولا ينقضه حتى يطالع رأيه ويحيل ذلك إلى فكره قبولاً ورداً.

ولم يخاطبه مدة حياته إلا بقوله: سيدي أو يا ابن رسول الله، وما جرى مجراهما من المخاطبات الدالة على الاحترام، ويعرض كثيراً عن الخطاب بالإخوة وإن نطق بها أحياناً لعلمه أنها تشعر بالكفاءة، وإنها مما يخاطب بها الأكفاء

الأكفاء فيصلح مثل ذلك للحسين «عليه السلام» في خطاب الحسن «عليه السلام»، أما من عداهما من ولد علي «عليه السلام» فلا يخاطبهما بمثل هذا الخطاب المشعر بالمكافأة والمساوات وإنما يصلح لهم من باب الأدب أن يخاطبوهما بخطاب العبد للمولى والمسود للسيد، ولا كفوء للحسين «عليه السلام» في نظر العباس «عليه السلام» وإن كان هو أخوه النسبي وابن أبيه لكنه كان يجله ويحترمه ويرى أنه سيده وإمامه وابن رسول الله ﷺ فيرى أن هذا هو الأصوب والأوفق لذلك كان لا يخاطبه إلا بسيدي يا ابن رسول الله، أو يكنيه بأبي عبد الله أو ما شابه ذلك إلا في موارد الحنان والإشفاق كما قال محمد بن الحنفية في عزم الحسين «عليه السلام» على الخروج قال له: يا أخي! أنت أحب الناس إلي وأعزهم علي، القصة المشهورة، فهذا خطاب حنان وعطف أدى مثله العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» عند آخر نقطة من حياته وقرب الوقت الذي لفظ فيه نفسه الزكية وذلك عند سقوطه على شاطئ العلقمي مقطوع اليدين مفضوخ إلهامة ومخ رأسه يسيل على وجهه والسهم قد شك عينه، فنادى: السلام عليك يا أبا عبد الله أدركني يا أخي، هذه كلمة الحنان اللاذعة والتي كان الحسين «عليه السلام» يشتهي أن يسمعها من أخيه أبي الفضل ويا للأسف أنها قارنت الأحزان الموجهة لقلب الحسين «عليه السلام» وقد كان يود سماعها مقترنة بالمسرة والأبتهاج لأن مثل هذا الأخ المصافي والشقيق المهدب إذا خاطب الأخ العظيم المحترم في بعض الآناة بلفظ الأخوة فإنه يلتذ ويشتاق لسماعها ففاه أبو الفضل بهذه الكلمة عندما أذف على فراقه وإن خلى بعض المقاتل عن ذكرها لكن المعروف أنه قال: أدركني يا أخي، مع قوله: يا أبا عبد الله ويا ابن رسول الله، فروى كل ما وصل إليه.

ويدل على أدب العباس «عليه السلام» القصة التاريخية المشهورة وقد رواها جماعة منهم الشيخ المفيد والطبري في التاريخ وهي قصة زحف عسكر ابن سعد على الحسين «عليه السلام» عصر الخميس نهار التاسع من المحرم وإن الحسين «عليه السلام» أرسل العباس بن علي «عليهما السلام» إليهم ليعرف أمرهم وإنهم أخبروه أنهم يريدون نزول الحسين «عليه السلام» على حكم ابن زياد أو قتله، والعباس يعلم أن الحسين «عليه السلام» لا ينزل على حكم الدعي لكنه سلك طريق الأدب مع أخيه الحسين «عليه السلام» فلم يقل إنه لا ينزل على حكم ابن زياد بل قال لهم: لاتعجلوا حتى أرجع إليه وأخبره بما ذكرتم، هذا ما رواه المفيد

والطبري، وما رواه غيرهما من أهل المقاتل إنه قال: لسنا ندري الآن ما رأيه، وعلى كلا القولين فقد سلك طريق الأدب بأنه لم يجب عليّ حسب علمه حتى رجع إلى أخيه الحسين «عليه السلام» وأخبره، وخذ القصة بتفصيلها من التاريخ وهذه مرتبة عظيمة من مراتب الأدب السلوكي تدل على معرفة محكمة بحق الإمام. ويقول صاحب معالي السبطين^(١) إنه ما كان يجلس بين يدي الحسين «عليه السلام» إلا بإذنه، كان له كالعبد الذليل بين يدي المولى الجليل ممثلاً لأوامره ونواهيته، مطيعاً له، وكان له كما كان أبوه لرسول الله ﷺ، ومن تأدبه لم يكن يخاطب الحسين «عليه السلام» إلا ويقول له: يا سيدي، يا أبا عبد الله، يا ابن رسول الله، ما كان يخاطبه بالأخوة قيل مدة عمره إلا مرة واحدة خاطب الحسين «عليه السلام» بالأخوة وهي الساعة التي ضربوه بالعمود الخ.

وليس الأمر كما ذكر بل خاطبه قبلها بأخي كما في القصة التي أشرنا إليها من حديث زحف القوم وإنه قال: يا أخي! أتاك القوم حسبما رواه المفيد والطبري وغيرهما لكنه قليل بالنسبة إلى سائر المقامات فإن سلوكه بها بخطاب التعظيم له. للمؤلف:

آداب شبل علي أفضل الأدب	في الدين موروثه عن سادة العرب
عن الوصي علي وهو والده	وسيد الرسل طه خير منتجب
وإنما أفضل الآداب ما أخذت	تعلماً عن وصي صادق ونبي
ما قال للسبط إلا سيدي أبداً	ولم يقل يا أخي يوماً ويا ابن أبي
إلا قليلاً ومنها عند مصرعه	نادى أخي ونداء واضح السبب
أراد يوفيه حقاً للأخوة لم	يفصح به قبل ذا في سالف الحقب
فظنها حسرة تبقى بمهجته	وماله بسواها قط من إرب
ورام تجديد عهد بالحسين وقد	حم الفراق وجد الموت في الطلب
فجائه السبط بادي الحزن مكتئباً	يكفكف الدمع بالكمين ذا كرب
ألفاه مثل هلال خر من أفق	تذري الرياح عليه سافي الترب
أهوى عليه ودمع العين منحدر	مثل الجمان على خدين كالذهب
نادى أبا الفضل من يحمي حماك ومن	يحمل لواءك فقم يا فارس العرب

ولم يزل عنده حتى قضى فمضى
 فاستقبلته بنات الوحي صارخة
 أين الذي كان يحمينا ويحرسنا
 أين الذي كان مأوانا ومؤلنا
 فاستعبر السبط حزناً حين قال قضى
 فحسبي الله قالت والدموع جرت
 لكن سكينه قالت من تلهفها
 صبراً سكينه فأمر الله ليس له
 وإنني لاحق فيه ومرتحل
 ألا استعدي لذل الأسر واعتمدي
 نحو المخيم بادي الحزن والنصب
 هاذي تقول أخي قل لي وتلك أبي
 من الأعادي بحد المرهف القشب
 ومن يجود لنا بالبارد العذب
 يازينب البطل المغوار فأحتسبي
 مثل السحاب بهطال ومنسكب
 خذني إليه ليسقيني من العذب
 من دافع إنه قد خط في الكتب
 إلى الجناب لجدي المصطفى وأبي
 على السباء وهتك الستر والسلب

تمّ الجزء الثاني من كتاب بطل العلقمي حياة العباس الأكبر ابن أمير المؤمنين «عليهما السلام»، والحمد لله أولاً وأخيراً، ويليه الجزء الثالث.

أرّخ عام طبع الكتاب «الجزء الثاني» الأستاذ خطيب الشعراء وشاعر الخطباء الشيخ علي البازي بقوله:

خير سفر به أتنا المظفر
 جامع ناشر لما قام فيه
 موقف خالد كخلد علاه
 إيه ساق العطاشى فزت بما لم
 كالمواسات للحسين بيوم
 لم ترعك الخطوب مهما أدلهمت
 كلما يذكر الحسين فأرّخ
 فيه فضل العباس للناس ينشر
 بطل الطف حين ضحى وكبر
 أبد الدهر قط لم يتغير
 يحظى فيه سواك والفضل يشكر
 عز فيه النصير عن شبل حيدر
 إذ لها قد خلقت من عالم الذر
 «بطل العلقمي اسمك يذكر»

فهرس محتويات الجزء الثاني

٥	مقدمة المؤلف
٥	والصلاة والسلام على محمد وآله الغر الميامين
٩	ولادة العباس الأكبر «عليه السلام» ومقدار سنّه
١٠	نشأة العباس الأكبر وتربيته
١٠	صفات العباس النفسية وهي الأخلاق
١٢	كنى العباس بن علي «عليهما السلام»
١٢	أما الكنيتان العاميتان
١٤	ألقاب العباس الأكبر «عليه السلام»
١٤	ألقاب العباس الأكبر «عليه السلام» (سقاء عطاشى كربلاء)
١٤	ألقاب أبي الفضل العباس «عليه السلام»
١٥	السقاء، أو سقاء عطاشى كربلاء
١٥	السقاية قسمان
١٦	فالسقاية
١٦	أما الاستسقاء في الجذب
١٧	والنوع الآخر من السقاية السلمية
١٧	أما السقاية الحربية
١٧	سقاية الحاج وتشريعها
١٨	انتقال السقاية إلى عبد مناف
١٨	انتقال السقاية من عبد مناف إلى ابنه هاشم وحفيده عبد المطلب
٢١	أما السقاية القولية
٢٢	الاستسقاء بأبي طالب «عليه السلام»
٢٣	الاستسقاء برسول الله ﷺ
٢٤	الاستسقاء بعلي والحسين «عليهم السلام»
٢٤	الاستسقاء بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام»

٢٤ الاستسقاء بالحسن والحسين «عليهما السلام»
٢٥ الاستسقاء بالعباس بن عبد المطلب
	ومن أنواع السقاية السليمة تفجر الماء من الأرض الصماء على جهة المعجزة
٢٨ والكرامة
٢٨ نبوع العين لرسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز
٢٨ نبوع العين لأمر المؤمنين «عليه السلام» في مسيره إلى صفين
٣٠ نبوع العين للحسين «عليه السلام» يوم كربلاء
٣٠ كلمة المؤلف حول هذه العجرفية النكراء
٣٢ نبوع العين لعبد الله بن جعفر
٣٣ من أنواع السقاية السلمية
٣٤ السقاية الحربية
٣٦ سقاية علي «عليه السلام» للصحابه يوم الحديبيه
٣٦ سقاية الحسين «عليه السلام» لأهل العراق
٣٨ مقدرة الحسين «عليه السلام» وعظمته
٣٩ سقاية أبي الفضل العباس «عليه السلام» لعطاشى كربلاء
٣٩ السقاة يوم كربلاء ثلاثة
٤٠ أما سقاية العباس «عليه السلام»
٤٠ السقاية الأولى
٤٤ السقاية الثانية لأبي الفضل «عليه السلام»
٤٧ ألقاب العباس «عليه السلام»
٤٧ من ألقاب العباس «عليه السلام» «كبش الكتيبة»
٤٨ قتل أمير المؤمنين «عليه السلام» لكبش الكتيبة
٥٠ كشف عمرو بن العاص وبسر بن أرطاة لعورتيهما
٥١ تلقيب الأشر بكبش العراق
٥٣ وصف البطل بالكبش على جهة العموم
٥٤ لقب العباس بكبش كتيبة الحسين «عليهما السلام»
٥٤ اختصاص أبي الفضل بكبش كتيبة الحسين «عليهما السلام»
	من ألقاب العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» «حامي الظعن او حامي
٥٦ ظعينة كربلاء

٥٩ من اشتهر بلقب حامي الظعن من العرب
٥٩ أخبار ربيعة بن مكرم في حماية الظعن
٦٢ حماية العباس «عليه السلام» للظعائن
٦٣ ومن ألقاب العباس «عليه السلام» «حامل اللواء»
٦٣ حمل اللواء عند الامم
٦٤ تحقيق معنى اللواء والفرق بينه وبين الراية
٦٤ أول من عقد لواءاً في العالم
٦٦ مساهمة الشعوب في عقد الألوية
٦٦ الألوية عند قدماء البابليين
٦٧ الألوية عند الملوك الإسلاميين في القرون الوسطى
٧٠ أعلام الدولة الحديثة وراياتها
٧١ ألوية القبائل العربية وراياتها
٧٢ حامية اللواء الأعظم
٧٣ تسلسل اللواء في بني هاشم
٧٤ اللواء مكرمة القبيلة
٧٦ لواء علي «عليه السلام» يوم صفين
٧٧ ألوية النبي ﷺ
٨٢ ألوية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» في حروبه
٨٢ حرب الجمل بالبصرة
٨٤ ألوية أمير المؤمنين «عليه السلام» وراياته في صفين
٨٥ رايات أخماس أهل البصرة بصفين
٨٥ رايات أسباع أهل الكوفة بصفين
٨٥ رايات القبائل والبطون
٨٧ ألوان رايات صفين
٨٧ حرب النهروان
٨٨ رايات الحسن والحسين «عليهما السلام»
٨٨ رايات الحسن السبط سبط رسول الله ﷺ
٨٨ ألوية الحسين «عليه السلام» وراياته في حربه
٨٨ الحرب التي شهدتها الحسين «عليه السلام» بنفسه

٩٠ من ألقاب العباس «عليه السلام»
٩٠ لقب العباس «عليه السلام» «الطيّار»
٩١ ألقاب العباس العامية
٩١ منها المستعجل
٩١ ومنها المزهذب
٩١ ومنها أبو الشارة
٩٢ ومنها أبو رأس الحار
٩٢ ومنها الترهّب بيبانه
٩٢ ومنها باب الحوائج
٩٣ ومنها المصنّف بالياء المنقطة
٩٣ ومنها أبو فرجة
٩٤ صفات العباس الأكبر «عليه السلام»
٩٤ الصفات البدنية للعباس «عليه السلام»
٩٤ أثر الضخامة في الإرهاب ومدح البسطة الجسمية
٩٦ طوال القامة عند العرب
٩٧ امتداد القامة في قبيلتين من العرب
٩٨ الطوال من بني هاشم وغيرهم
١٠٢ ذم القصر والاعتذار منه
١٠٢ نقد المؤلف للمبرد في وصف النبي ﷺ
١٠٥ طول العنق في الرجال وطول السواعد
١٠٧ البطولة عند العرب واجتماع خصالها في العباس الأكبر
١٠٧ البطولة في رأي الأمم الحرة
١٠٨ قمر بني هاشم حسنه وجماله
١١١ السر في قبح الدمامة ورأي الطبيعيين
١١٢ جمال النبي ﷺ وأهل بيته «عليهم السلام»
١١٣ أنواع الجمال
١١٦ صفة النبي محمد ﷺ
١١٦ صفة مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام»
١١٧ صفة سيدتنا فاطمة الزهراء بنت رسوله ﷺ

١١٧ صفة الحسن بن علي سبط رسول الله ﷺ
١١٧ صفة الحسين بن علي «عليهما السلام» سبط رسول الله ﷺ
١١٩ مدح العرب ساداتها وأشرافها بالجمال
١٢٢ ذم الدمامة
١٢٣ جمال أبي الفضل العباس «عليه السلام»
١٢٥ صفات العباس النفسية وهي الأخلاق
١٢٥ الأخلاق والصفات النفسية
١٢٩ الألف والعادة خُلِقَ مكتسب
١٣٠ الميل والانجذاب الطبيعيان
١٣١ حقيقة الرياضة والمجاهدة
١٣٤ رأي المصنف في رياضة الصوفية
١٣٨ قبول الحيوانات للتربية والتعليم
١٤٠ الجواد المدرب وذكاء الخيل
١٤٢ أخلاق العباس «عليه السلام» وسجاياه
١٤٣ كرم العباس الأكبر وسخاؤه
١٤٣ الجود من صفات بني هاشم الراسخة
١٤٧ علم العباس الأكبر «عليه السلام» وفقهه
١٥٤ علم العباس «عليه السلام» بالعرفانيات
١٥٥ توضيح درجات اليقين
١٦٠ فصاحة العباس الأكبر «عليه السلام»
١٦٣ شجاعة العباس الأكبر «عليه السلام»
١٦٣ بيان ما هي الشجاعة وحقيقتها
١٦٣ الشجاعة عرض أم غريزة
١٦٣ معنى الشجاعة لغة
١٦٤ معنى الشجاعة وحقيقتها عقلاً
١٦٥ الصفات المندرجة تحت الشجاعة
١٦٦ الشجاعة بالتمرين والممارسة
١٦٧ الشجاعة بين نقيضين ذميمين
١٦٧ التفرقة بين التشجيع والشجاعة

١٧١ نقد كلام ابن مسكويه
١٧٣ ثمرة الشجاعة وفوائدها
١٧٤ مظاهر الشجاعة وأسبابها المهيجة لها والمثيرة لعواطف الفرسان
١٧٥ الأسباب والدواعي للشجاعة
١٧٦ نقد المؤلف للجاحظ
١٧٨ الشجاعة مفخرة للعرب
١٧٩ ما قيل في الشجاعة والشجعان
١٨١ غايات الشجعان ومقاصدهم
١٨١ من مقاصد أبي الفضل العباس بن أمير المؤمنين علي «عليهما السلام»
١٨٢ شجاعة العباس الأكبر
١٨٢ حضور العباس «عليه السلام» صفين
١٨٥ اعتذار المؤلف عن التواريخ العجمية
١٨٨ إثبات شجاعة العباس بن علي «عليهما السلام»
١٩١ ترجيح قول الطريحي (رحمه الله)
١٩٣ وفاء العباس الأكبر «عليه السلام»
١٩٣ مظاهر الوفاء
١٩٣ معنى الوفاء لغة
١٩٤ معنى الوفاء عرفاً وعقلاً
١٩٤ مدح الوفاء وتوكيد الالتزام به
١٩٤ ثمرة الوفاء وفوائده
١٩٧ الوافون من العرب
٢٠٤ وفاء العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» والنص عليه
٢٠٥ إباء العباس الأكبر «عليه السلام»
٢٠٦ معنى الإباء لغةً وعقلاً
٢٠٦ معنى الإباء لغة
٢٠٦ معنى الإباء العقلي
٢٠٧ أسباب الإباء وثمراته
٢٠٧ الإباء من خصائص العرب
٢٠٨ أشعار العرب في الإباء

٢١١ الآبون من العرب والآنفون من زعمائهم
٢١٢ القسم الأول من أباة العرب وأحرارها
٢١٦ القسم الثاني الآنفين من الهوان
٢٢٠ القسم الثالث الآنفون لاهتضام الحرم
٢٢١ ومنهم قيس بن عاصم المنقري التميمي السعدي
٢٢٢ ومنهم خالد بن جعفر العامري الكلابي
٢٢٢ ومنهم آكل المرار الكندي الملك
٢٢٦ القسم الرابع الآنفون من الاستعباد الناهضون بالإصلاح
٢٢٦ هو سيد الشهداء
٢٢٨ السبب في أمر الحسين «عليه السلام» أصحابه بالتفرق
٢٢٩ رفض أصحابه الرخصة في الانصراف عنه
٢٣٠ نقد المؤلف لابن أبي الحديد في إباء الحسين «عليه السلام»
٢٣٤ نقد المؤلف لابن أبي الحديد في عده آل الزبير وغيرهم كالحسين «عليه السلام» ..
٢٣٦ إباء أبي الفضل بن أمير المؤمنين «عليهما السلام»
٢٣٩ ومن صفات العباس بن علي «عليه السلام» النفسية المواسات
٢٣٩ الفرق بين المواسات والإيثار
٢٤٠ معنى المواسات لغة
٢٤٠ معنى المواسات العقلي
٢٤٢ المواسات عند العرب
٢٤٢ وأما أمثال العرب في المواسات
٢٤٥ فائدة المواسات وثمرتها
٢٤٦ مواسات العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام»
٢٤٧ من صفات العباس بن أمير المؤمنين المناصحة للحسين «عليهم السلام»
٢٤٨ معنى النصيحة والمناصحة لغة
٢٤٩ مظاهر النصيحة وأسبابها وثمراتها
٢٤٩ أما مظاهرها
٢٤٩ أسباب المناصحة
٢٤٩ ثمرات المناصحة
٢٥٠ الأدلة على فضيلة المناصحة

٢٥٠	الحث على قبول النصيحة
٢٥١	صعوبة قبول النصيحة
٢٥٢	رد النصيحة مقرون بالنكبة
٢٥٥	هلاك مَنْ رَدَّ النصيحة
٢٥٧	رد أهل الكوفة نصيحة الناصحين
٢٥٩	المناصحة للإمام المعصوم «عليه السلام»
٢٦١	نصيحة صادفت قبولاً
٢٦٢	مناصحة أبي الفضل ابن أمير المؤمنين لأخيه الحسين «عليهم السلام»
٢٦٣	أما المناصحة الفعلية
٢٦٥	أما الشعر في مدح العباس «عليه السلام» بالمناصحة
٢٦٥	ومن صفات العباس الأكبر ابن أمير المؤمنين «عليهما السلام» الإيثار
٢٦٥	معنى الإيثار لغة
٢٦٦	معنى الإيثار العرفاني والفرق بينه وبين المواساة
٢٦٨	المرتبة الثانية
٢٦٩	الدلالة على رجحان الإيثار
٢٧٠	القسم الأول من الإيثار
٢٧٠	كعب بن مامة الأيادي أشهر العرب في الإيثار بالنفس
٢٧١	سماك بن عمرو العاملي
٢٧٣	مبيت أمير المؤمنين «عليه السلام» على فراش النبي ﷺ
٢٧٣	المؤثرون بأنفسهم في الإسلام
٢٧٥	نادرة عجيبة في الإيثار
٢٧٦	إيثار أنصار الحسين بن علي «عليه السلام» له
٢٧٧	القسم الثاني من الإيثار
٢٧٨	حاتم بن عبد الله الطائي
٢٧٩	المؤثرون في الإسلام
٢٨٠	إيثار أهل البيت «عليهم السلام»، ونزول ﴿هل أتى﴾
٢٨٠	أما إيثار أهل بيته فكثير
٢٨٤	إيثار أبي ذر الغفاري
٢٨٤	إيثار العباس الأكبر ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليهما السلام»

٢٨٩	ومن صفات العباس «عليه السلام» الزهد والنسك
٢٨٩	كلمة المؤلف في الزهد
٢٩٠	معنى الزهد لغة
٢٩١	معنى الزهد العرفاني
٢٩١	الزهد في الأحاديث
٢٩٢	مدح الزهد ورجحانه
٢٩٢	حقيقة الزهد وأسبابه
٢٩٣	أسباب الزهد والبواعث عليه
٢٩٣	ثمرات الزهد وفوائده
٢٩٣	ثمراته كثيرة وفوائده جمّة ومنافعه شتى دنيوية وأخروية
٢٩٤	أما ثمرات الزهد
٢٩٥	أقسام الزهد وأنواعه
٢٩٦	زهد العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام»
٣٠١	عبادة العباس الأكبر «عليه السلام»
٣٠٢	حقيقة العبادة
٣٠٢	ثمرات العبادة وفوائدها
٣٠٣	أنواع العبادة
٣٠٦	دلائل العبادة وعلاماتها
٣٠٩	تكاليف الأعضاء
٣٠٩	بسط العبادة على الأعضاء
٣١٤	عبادة العباس ابن أمير المؤمنين «عليهما السلام»
٣١٨	بصيرة العباس الأكبر «عليه السلام»
٣١٩	معنى الإيمان لغة
٣٢٠	معنى الإيمان شرعاً
٣٢١	حقيقة الإيمان
٣٢٢	الفرق بين الإسلام والإيمان
٣٢٣	أما الإيمان
٣٢٦	دعائم الإيمان وأركانه
٣٢٧	أنواع الإيمان

٣٢٧ ثمرات الإيمان وفوائده
٣٢٨ دلائل الإيمان وعلاماته
٣٢٩ درجات الإيمان
٣٣١ البصيرة في الدين وهي ثمرة الإيمان
٣٣٤ معنى البصيرة لغة
٣٣٤ معناها العامي
٣٣٤ معناها العقلي والشرعي
٣٣٨ درجات البصيرة
٣٤٠ إيمان العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام» وبصيرته
٣٤٢ آداب العباس الأكبر «عليه السلام»
٣٤٢ أنواع الآداب ومعناها وأقسامها
٣٤٣ معنى الأدب في اللغة
٣٤٧ معنى الأدب العقلي العرفاني
٣٤٨ درجات الأدب ومراتبه
٣٥١ ما قيل في الأدب
٣٥٤ بعض كلمات الحكماء في الأدب
٣٥٥ آداب أبي الفضل العباس بن أمير المؤمنين «عليهما السلام»

المكتبة الألكترونية الشاملة

لرفع ونشر الكتب pdf

(الأدارة: يوسف الرميض)